فن التعامل

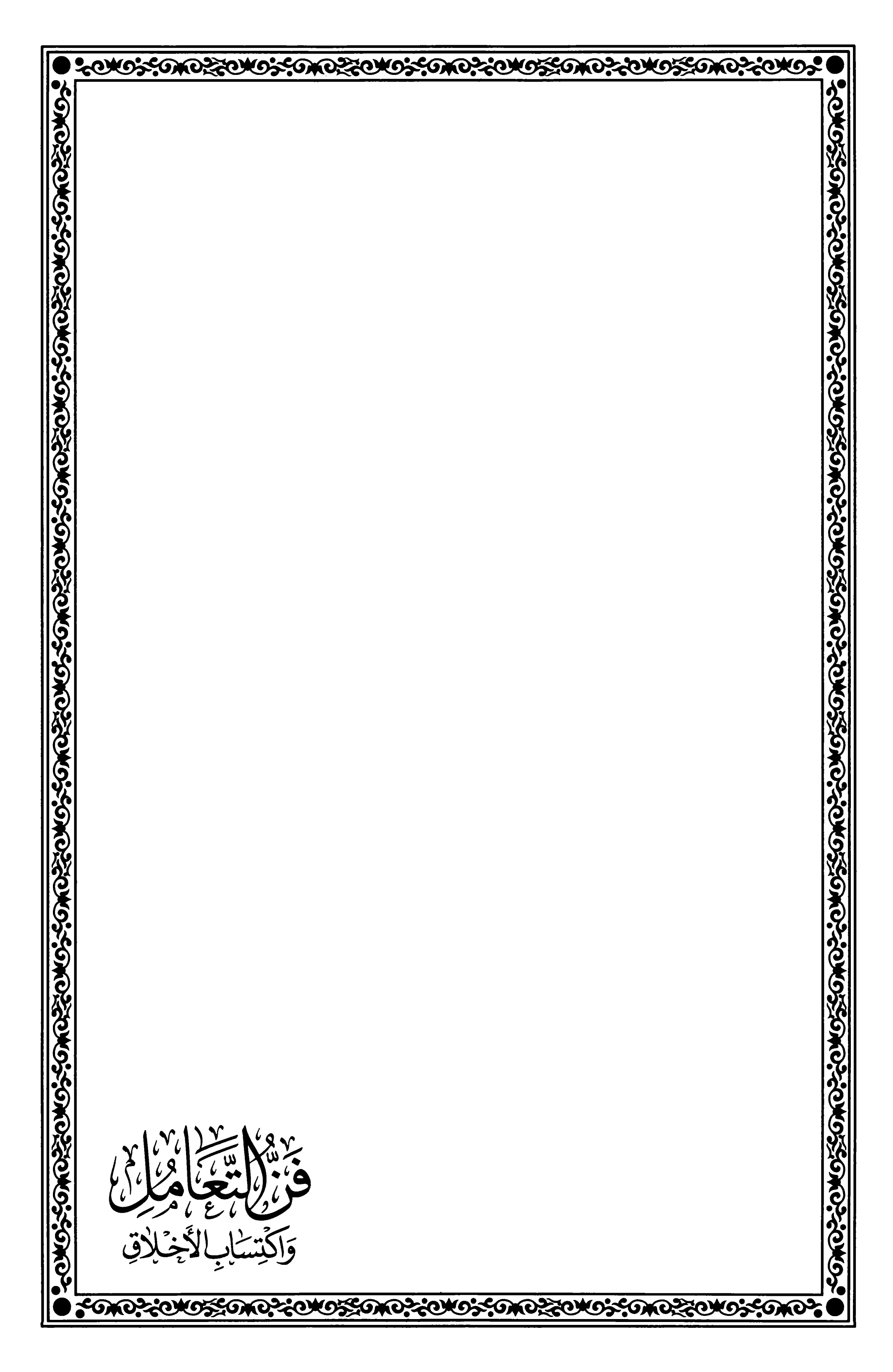
واكتساب الأخلاق

قواعد ومهارات مستنبطة
من الكتاب والسُّنّة
وآثار سَلف الأمّة
ومستفادة من تجارب الحياة

تأليف

أحمد بن ناصر الطيار




فن التعامل
واكتساب الأخلاق



عنوان المصنف: فن التعامل واكتساب الأخلاق

تأليف: أحمد بن ناصر الطيار

رقم الإيداع: ٢٩٣٣٤/ ٢٠٢١

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٠٤-٠٧٧-٧

الطبعة الأولى

(١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م)



المملكة العربية السعودية - الرياض - شارع السويدي العام - شرق النفق

الإدارة والمبيعات جوال - ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٣٤١٧ - ٠٠٩٦٦٥٦٥٦١١٥٠٥٨ - ٠٠٢٠١١١٦٨٩٩١٠٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣

الإسكندرية - ١٧٥ ش طيبة سبورتنج بجوار مسجد الصديق هاتف: ٠٣/٥٤٦١٥٨٣ - جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥١

القاهرة - ٦ ش الدريسة متفرع من ش البيطار - خلف الجامع الأزهر الشريف - هاتف: ٠٢/٢٥١٠٧٤٧٢

جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - فاكس: ٠٣٤٣٨١٥٠٩

البريد الالكتروني: d.alhijaz@gmail.com

فن التعامل واكتساب الأخلاق

قواعد ومهارات مستنبطة

من الكتاب والسُّنَّة

وآثار سَلف الأمَّة

ومستفادة من تجارب الحياة

تأليف





بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يُحبّ ربُّنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له العليّ الأعلى، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله المصطفى، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن على هديه سار واقتفى، **أما بعد**:

فإنَّ للأخلاقِ الكريمة الحسنة في دينِنا الحنيفِ مكانتَها السنيَّةَ، ودرجتَها الساميةَ العليَّةَ، فهي حجَرُ الزاويةِ في بناءِ المجتمعاتِ، والأساسُ المتينُ في النموّ وازدِهارِ الحضاراتِ، وقُطبُ الرَّحى في تزكيةِ النفوسِ الأبِيَّاتِ، وهي زِينةُ عبادِ اللهِ المؤمنينَ، وريحانةُ المتقينَ، وحليةُ الصالحينَ.

وقدْ دعا الإسلامُ إلى كُلِّ خُلُقٍ كريم، ونفر من كُلِّ خُلُقٍ ذَميم، فربَّى أتباعهُ على الأخلاقِ الحميدةِ، والآدابِ المجيدةِ، وسَما بِهم إلى الأفعالِ الرشيدةِ، والأقوالِ السديدةِ، فكانت هذه الأُمَّةُ أمَّةَ الأخلاقِ والقِيَم، ورمزَ العزَّةِ والشِيَم.

وإنمَّا الأممُ الأخلاقُ ما بقيَتْ ... فإنْ هُمُ ذهبَتْ أخلاقُهم ذهبُوا

قال بعضُ السلف: لكلِّ شيءٍ أساس، وأساسُ الإسلام: الخلق الحسن[1].

(١) صفة الصفوة ٢/ ٤٥٥.

إنّي شَممتُ من العطورِ جميعها وعَرفتُ أطيبها على الإطلاقِ
كلُّ العطورِ سينتهي مفعولُها ويدومُ عطرُ مكارمِ الأخلاقِ

وقد عرَّف العلماء حسن الخلق بتعريف جامع مانع فقالوا: هو بذل النَّدى، واحتمالُ وكفّ الأذى، وطلاقة الوجه.

فبذل الندى: هو بذل المعروف والخير والمال، كإكرام الضيف والجار، وبذل المال للمحتاج، وخدمة الآخرين.

وقد كان النبي ﷺ أكرم الناس وكان لا يرد سائلًا، وكان يكون في مهنة أهله يساعدهم ويعينهم.

وأما احتمال الأذى: فهو الصبرُ على ما يلقاه من أذى الناس وجفائهم.

قال أنس رضي الله عنه: «خدَمْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سنينَ، لا واللهِ مَا سَبَّني سَبَّةً قطُّ، ولا قال لي: أُفٍّ قطُّ، ولا قال لشيءٍ فعلْتُه: لِم فعلتهُ؟ ولا لشيءٍ لم أفعلْه: ألا فعلتَه؟»(١)

الله أكبر! عشر سنوات ما سبه أبدًا، ولم يقل له: أفّ، ولم يَلُمْه على أيِّ عمل عمله!

«وأول ما يُمْتَحن به حسن الخلق: الصبر على الأذى، واحتمال الجفاء.

ومن شكا من سوء خلق غيره دلّ ذلك على سوء خلقه؛ فإنَّ حسنَ الخلق احتمالُ الأذى»(٢)

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٣٠٣٤) بإسنادٍ صحيحٍ على شرط الشيخين، وأصله في الصحيحين.

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٧٠).

وأما كفّ الأذى: فهو أن تكف أذاك عن الناس، بالقول أو بالفعل.

وأما طلاقة الوجه: فهي البشاشةُ والابتسامةُ، قال جابر ﵁: «ما رآني رسول الله إلا تبسم في وجهي»[(١)]

فهذه حال رسول الله ﷺ، لا يرى أحدًا من الناس إلا تبسَّم في وجهه.

صاحبُ الْخلق الحسن: أكمل المؤمنين إيمانًا.

وهو من أحَبِّ الناس إلى رسول الله ﷺ، وأقربهم منه مجلسًا يوم القيامة.

قال النبيّ ﷺ: «**إنَّ من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنَكم أخلاقا**»[(٢)]

ويُدرك بأخلاقه العظيمة وحِلْمه الواسع درجة الصائم الذي لا يفطر والقائم الذي لا يفتر، قال النبيّ ﷺ: «**إنَّ المؤمن ليُدرك بحسن خلقه درجةَ الصائم القائم**»[(٣)]

والأخلاق الحسنة أثقل في الميزان من نوافلِ الصلاة والصيام والقيام، قال النبيّ ﷺ: «**ما من شيءٍ أثقلُ في الميزان مِن حسن الخلق**»[(٤)]

---

(١) رواه البخاري (٣٠٣٥)، ومسلم (٢٤٧٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٥٣٥ ـ ٦٨٥).

(٣) رواه الإمام أحمد (٧٤٠٢)، والترمذي (١١٦٢)، وصححه.

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٠)، وأبو داود (٤٧٩٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٥٧٢١).

وسوءُ الخلق بلاءٌ عظيم، وشرٌّ مُستطير، يعيشُ صاحبه في همٍّ ونكد، ويَشقى به أهلُه وجيرانُه وغيرهم.

قال أبو حازم رحمه الله تعالى: السيِّئ الخُلُق أشقى الناس به نفسُهُ التي بين جنبيه، هي منه في بلاء، ثم زوجته، ثم ولده، حتى إنه ليدخُلُ بيته، وإنهم لفي سرور، فيسمعون صوته فينفرون عنه، فرقًا منه، وحتى إن دابته تحيد مما يرميها بالحجارة، وإن كلبه لَيَراه فينزو على الجدار، حتى إن قِطَّه ليفرّ منه(١)

هذه حال سيِّئ الخلق، لا يحتمل حتى نفسه، فإذا أخطأ في قول أو فعل غضب على نفسه، وإذا نسي شيئًا تكدّر خاطره وضاق صدره، فهو في همٍّ وغَمّ، ولذلك تراه عابسَ الوجه، شحيحَ التَّبسم، كثيرَ الانتقاد، شديدَ الحقد.

والرحمةُ والرفق واللينُ في التعامل من أعظم أساسيَّاتِ الأخلاق، وهي من أهمّ أسباب الألفة والمحبة بين الناس، قال النبيّ ﷺ: «**إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه**». رواه مسلم(٢)

فالرفق في كلِّ شيءٍ يَزينُه ويُصلحه، حتَّى في حال الغضب والعتاب، واللومِ والعقاب، وهذا يدل على أنه من أفضل ما تحلَّى به العبد، واسْتعمله في أموره كلِّها.

بل أوصى به الرسولُ ﷺ عائشة رضي الله عنها فقال: «**يا عائشةُ عليك بتقْوى الله عز وجل والرِّفق**»(٣)

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦/٢٥٦). (٢) (٦٧٦٧).
(٣) رواه الإمام أحمد (٢٤٣٠٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١٣٨٨٧).

فقَرَن الرفق بتقوى الله تعالى؛ لأنه بالتقوى يُصلح ما بينه وبين الله، وبالرفق يُصلح ما بينه وبين الخلق.

ولا يدخلُ الرفقُ بيتًا إلا دخل معه الخير والتوفيق، قال النبيّ ﷺ: «**إذا أراد اللهُ ﷻ بِأهلِ بَيتٍ خيرًا، أدْخلَ عليهمُ الرِّفْق**»(١)

فحريٌّ بمن حُرم الرفقَ واللِّين أنْ يُحرَم الخير في دينه ودُنياه، قال النبيّ ﷺ «**مَنْ يُحرَم الرِّفقَ يُحرم الخيرَ**». رواه مسلم(٢)

والرِّفق: لين الجانب بالقول والفعل، والأَخذُ بالأَسهل، وهو ضد العنف والشدة والقسوة، فصاحب الرفق يدرك حاجته أَو بعضها، وصاحب العنف لا يدركها، وإِن أَدركها فبمشقة، وحريٌّ ألا تتم.

والرحمة والرأفة لا تستقيم الحياة إلا بها، ولا يهنأ عيش الناس بدونها، وهي الفطرة التي فطر الله تعالى الناسَ عليها.

وهناك أمور كثيرة يراها الناس من أعظم الفضائل، وأحسن المكاسب، كالمال، والمنصب، والجاه، وأحسنها وأكملها عند العقلاء ـ بعد الدين ـ: مكارم الأخلاق.

وصدق القائل:

لـو أنَّـني خُيِّـرت كـلَّ فـضيـلـة   ما اخترت غير مكارم الأخلاق

وقد زكَّى الله تعالى نبيه ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾، ومع ذلك لم يكتف ﷺ بهذه التزكية الشريفة، بل كان يدعو في قيام الليل كل ليلة ويقول: «**اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا إنه لا يغفر الذنوب**

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٤٤٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٠٣).
(٢) (٦٧٦٣).

إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت»[(١)]

فتأمل كيف قرن في دعائه بين طلب مغفرة الذنوب، وهو أعظم مطلوب للعبد، وبين طلب هدايته لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ وصرفِه عَنْ سَيِّئِهَا، وهذا من أظهر الأدلة على تأكد حسن الخلق، ووجوب السعي الحثيث إلى اكتسابه، واجتناب واجتثاث سيِّئه.

وإنما كان يسأله المزيد من حسن الخلق لِمَا يعلم من فضله وشرفه، فهو القَائل ﷺ: «**إِنَّ خيارَكُمْ أحاسِنُكم أخْلاقًا**»[(٢)]

والقائل: (أكْملُ الْمُؤمنينَ إيمانًا أحْسنهمْ خُلُقًا)[(٣)]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: فجعَل كمالَ الإيمانِ في كمالِ حُسنِ الخُلُق. اهـ[(٤)]

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: درجة الحلم، والصبرِ على الأذى، والعفوِ عن الظلم، أفضلُ أخلاق أهل الدنيا والآخرة، يبلغ الرجل بها ما لا يبلغه بالصيام والقيام، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾، وقال الله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾. اهـ[(٥)]

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: وحُسن الخُلُق يبلغ به العبد درجات المجتهدين في العبادة. اهـ[(٦)]

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) رواه البخاري (٦٠٣٥)، ومسلم (٢٣٢١).

(٣) رواه الإمام أحمد (٧٤٠٢)، والترمذي (٤٦٨٢)، وأبو داود (٤٦٨٢)، وصححه الترمذي ومحققو المسند والألباني وغيرهم.

(٤) تقريب فتاوى ورسائل شيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٩).

(٥) الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص: ٢٣٤).

(٦) مجموع رسائل ابن رجب (٤/ ٤٤).

والخلق الحسن العظيم: صفةُ سيد المرسلين، حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

وهو شطر الدين، قال النبي ﷺ: «**أكثر ما يدخل الجنة: تقوى الله وحسن الخلق**»[١].

وأوصى عليه الصلاة والسلام أبا ذر رضي الله عنه بوصيّة جامعة مانعة نافعة في دينه ودنياه فقال: اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن[٢].

فحقُّ الله تعالى أن نتقيّه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وحقُّ الخلق بأن نتعامل معهم بحسن الخُلُق.

وهو ثمرة مجاهدة المتقين، ورياضة المتعبدين، حيث يسعون سعيًا حثيثا في تحسين تعاملهم مع الله تعالى وتحسين أخلاقهم مع الناس.

والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة، والمهلكات الدامغة، والخبائث الْمُبْعدة عن جوار ربِّ العالمين، وهي أمراض القلوب وأسقام النفوس، إلا أنه مرض يفوِّت حياة الأبد.

وإنما يعتني بالأخلاق من علت همته، وكرمت عليه نفسُه، وطلب ما عند الله بصدق ويقين، وتمعن في الكتاب والسنة طلبًا للعلم والفهم والاقتداء التام بمن زكى الله خلقه ﷺ.

ويستفيد الناسُ من أصحاب الأخلاق الكريمة، والأدب، والتعامل الحسن، والنصح برفق ولين ورحمة، أكثر مما يستفيدون من بعض أهل العلم الذين لم يتحلَّوا بهذه القيم النبيلة الشريفة، وما الدين إلا إيمان وخلق وقيم وتعامل حسن.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٩٦٩٦)، والترمذي (٢٠٠٤) وصححه.

(٢) رواه الإمام أحمد (٢١٣٥٤)، والترمذي (١٩٨٧) وصححه.

وحاجةُ الناس إلى كرماء الأخلاق أكثر من حاجتهم إلى كرماء المال، والله المستعان.

والأخلاق والآداب والمروءَةُ وحسن التعامل تُكْتَسَب كما يُكْتَسَب العلم.

وكلّ مَن سَعَى في اكْتِساب مكارم الأخلاق وهجر سيّئها من مصادرها الصحيحة، وصبر على ذلك، فإنه سيتحقق له ما أراد بمشيئة الله وعونه.

وأعرف من كان من أسوأ الناس خلقا وطبعًا، سعى جاهدا - مستعينا بالله تعالى - في اكتساب محاسن الأخلاق والتخلّص من رديئها، فتغير تغيرًا كبيرًا جدًّا، فالصبر بالتصبر، والحلم بالتحلُّم.

فلم أجدِ الأخلاقَ إلا تخلقًا ... ولم أجدِ الأفضالَ إلا تَفَضُّلا

فجاهد نفسك كثيرًا، وامنعها كثيرًا من رغباتها وأهوائها في الانتقام والتشفي والغضب والبخل والشح، فستجدها تنقاد لك ولو بعد حين.

قال الشاعر:

والنفسُ كالطفلِ إن تهملهُ شَبَّ على ... حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِم

وقال الآخر:

ومَنْ يطعمُ النفسَ ما تشتهي ... كمن يُطْعِمُ النارَ جزلَ الحطبْ

ومتى فعلت ذلك وصبرت وصابرت: ستجد لذلك لذة، وستشعر بالعزة، قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: وفي قوة قهر الهوى لذةٌ تزيد على كل لذة، ألا ترى إلى كل مغلوب بالهوى كيف يكون ذليلًا؛ لأنه قُهِر، بخلاف غالب الهوى؛ فإنه يكون قوي القلب عزيزًا؛ لأنه قَهَر؟! اهـ[١]

---

(١) صيد الخاطر: ٩٣.

فكرة تأليف الكتاب

كانت فكرة تأليف كتاب عن فنِّ التعامل واكتسابِ الأخلاق تراودني منذ أكثر من خمسة عشر عامًا، حيث كتبت بعض الورقات ثم توقّفْت؛ للصعوبة التي واجهتني؛ لأنّي لم أرغب في تأليف كتاب أجمع وأنقل فيه ما حوته الكتب الأخرى، والذي دوّنته حينها مما خضت تجربته، وتأكّدت صحته، وقطفتُ ثمرتَه: كان قليلًا، فحقُّه أن يكون مقالا لا كتابًا.

وقد خضت معترك الحياة التي فيها صراع بين العاطفة والعقل، والنفس والناس.

وهناك مدرستان للأخلاق:

المدرسة الأولى: مدرسةٌ نظريّة في الكتب والدروس.

المدرسة الثانية: مدرسةٌ عمليّة في ميدان التعامل مع الناس.

ومدرسةُ الأخلاق والتعامل لا تكون إلا في الميدان، لا في الكتب فحسب، وبالعمل لا بالعلم فقط.

فجعلت من يومها أدوّن في مذكراتي الخاصة كثيرًا من التدبُّرات القرآنية، والتأملات في السيرة النبويّة، والتجارب العمليّة، والنقولات النفيسة.

وقد كنت كالمحارب الذي يتعلّم رسم الخطط، وأساليب الهجوم والدفاع، يقرؤها في الكتب ويسمعها من المدرّسين، لم يخُض المعارك،

ولم يواجه العدوّ، بل يقاتل بالمنظار من فوق الجبل، فلما نزلتُ إلى ميدان المعركة وواجهت أخلاق الناس وتعاملت مع طِباعهم علمتُ مدى صعوبة ومشقة التخلق بالأخلاق الحسنة، من كظم الغيظ، والحلم، والعفو، وسلامة القلب من الحقد والغل والعُجب، وعدم الانتقام للنفس، وأيقنت أنّ محاسن الأخلاق أفضل وأنفع ما وهَبه الله للإنسان بعد الإيمان والتوحيد، وجعلتُ أتأمَّل في الحكمة من كونها أثقل ما يُوضع في الميزان، فإذا هي لأجل ثقلها على النفس في الدنيا، والجزاء من جنس العمل، ولِعِظَم أثرها عليه وعلى غيره، فبالأخلاق تصفو النفوس، وتجتمع الكلمة، وتقوى الأمة، وترتقي في قيمها، وتسمو في مبادئها.

وتأملت في سرّ كون صاحب الخلق الحسن يَبلُغُ بِخلقِه درجةَ الصَّائم القائم، فرأيت أنّ السبب في ذلك ـ والعلم عند الله ـ كونه في مجاهدة دائمة مع النفس ومع الشيطان ومع الناس، فهو يُجاهد نفسه في دفع العُجب والغرور ورؤية النفس والانتقام لها؛ لأن المواقف لا تكاد تغيب عن الخاطر، فكلما تذكر السيئ منها جاهد نفسه في مسامحة مَن أساء إليه، وعدم الانتقام لنفسه، وكلما تذكر المواقف الحسنة جاهد نفسه في عدم العُجب والغرور.

ويُجاهد نفسه في السراء ببذل ماله وجاهه، وفي الضراء بالصبر واحتمال الأذى والعفو والصفح.

ويُجاهد نفسه دائمًا في طلاقة وجهه، وسلامِه على القريب والبعيد، والصديق والعدو.

ومن كان كذلك فهو في عبادة لا يفتر عنها ليلا أو نهارًا، فهو في درجة الصَّائم الذي لا يفطر، والقائم الذي لا يفتر.

ولذلك أدركت حينها صعوبة الكتابة قبل أنْ أمضي سنوات في مدرسة الحياة العمليّة والعلميّة، التي تجاهد فيها النفسُ أعداءً كثيرين، وهم:

١ ـ الشيطان الذي لا يكلّ ولا يملّ في الإقناع بالرضى بأخلاق اكتُسبت منذ النشأة، لم تكوِّنها شريعة محكمة، ولم تصنعها تجارب الحياة، ولم تُؤَسِّسْها عبارات العلماء الربانيين، وأقوال الحكماء النابهين، وأحوال وقصص المجرّبين الناجحين.

٢ ـ النفس العنيدة التي كان زُهوقُها وفواتُها أهونَ عليها في كثير من المواقف من عدم تحقيق رغباتها في حبّ الانتقام وتسعيرِ الغضب وشحّها في حظوظها وميلها مع أهوائها.

وكان سجنُها بين قضبان الحديد أخفّ عليها من أطْرها على تعاليم الشرع المطهر، وتحكيمها إلى عقل يبحث عن المصلحة لا عن الشهوة، وعن الهدى لا عن الهوى.

٣ ـ طباع كثير من الناس، التي تجعل الحليم حيران، حيث يصدر عنهم تصرفات متناقضة، وتستجدّ منهم مواقف وأخلاقٌ عجيبة غريبة، لا يكاد العقل يثبت معها، ولا الحلم يُجدي في التعامل مع أصحابها، فتُنتج الضرورة أخلاقا وفنونا في التعامل تُناسبها وتقضي على الطيش والخَطَل، والضرر والزَّلَل، الذي قد يحصل بسببها، وينتج عن مواجهة أصحابها، حتى وإنْ كنتَ مصيبًا وهم مخطئون حتمًا، وهذا ما يجعل التعامل مع الناس من أصعب وأشق الأمور.

وقد كان ولا زال الحديث عن الأخلاق من أصعب الأمور على النفس، ومن سيكتب عن هذا الموضوع يجب أن يضع بين عينيه عِظَمَ الأمرِ وقيام الحجة عليه.

فإن كان كاتبه ـ أسأل الله أن أكون منهم ـ حَرِص على العمل به واجتهد كان ما كتب حجة له، ورفعة في درجاته، وإن لم يكن كذلك كان حجةً عليه.

وقد تنشّطَت همّتي بعونٍ من الله وعقدت العزم على تصنيف كتاب يجمع صنوف مكارم الأخلاق، ويحثّ عليها، ويُحذر من مساوئها، فجمعت شتات ما كتبت فيه من خواطر ومواقف وتأملات كثيرة في الكتاب والسنة، كتبتها على مدى خمسة عشر عامًا، نشرت شيئًا منها في بعض كتبي المطبوعة حسب مناسبتها.

ثم عملتُ على ترتيبه وإعادة صياغة كثير من جُمله لتكون أكثر ملاءمةً وأدقّ تعبيرًا، وعَمِلْت قرابة شهر على المراجعة والإضافة، والتنقيح والتدقيق، وخلالها تواردت عليّ الكثير من الخواطر والمواضيع والمواقف المتعلّقة بموضوع الأخلاق، وربما جاءتني وأنا أسير في الطريق، أو في المسجد، أو في السيارة، أو حتى عندما أرقد على فراشي، فأُسارع إلى تدوين الفائدة أو الخاطرة؛ خشيةَ ذهابها ونسيانها، وربما يتكرر ذلك في الليلة الواحدة أكثر من مرّة.

وكانت بعض هذه الخواطر واللطائف والأمثلة عالقة في ذهني منذ زمنٍ بصورةٍ تراكميّة، ولكنْ حينما بدأت في تأليف هذا الكتاب انهالت عليّ بحمد الله تعالى، وربما لا أُبالغ إنّ قلت إنّ ثلث الكتاب منها.

وخلال هذا الشهر كان موضوع الكتاب هو شغلي الشاغل، وحديثي في مجالسي ومع أولادي، وأصحابي ورفاقي، وملازمًا لي في ليلي ونهاري، حتى إني إذا كنت في عمل غيره ثم تذكرته انشرح صدري، ولا أشبه شعوري هذا إلا بكنز ثمين ضاع من صاحبه وهو أحوجُ ما يكونُ إليه، ثم فتح عينيه يومًا ليجده أمامه، ولا تظنّ أنّ هذا

ضربًا من المبالغة، ولو أقسمت أنّ فرحي أكبر وأشد من فرحه لَمَا حنثت.

فحقَّق الله الكريم لي أمنيةً لا زالت تتطاول في وجداني منذ ذلك الحين، وجمع لي شتات كنوز تفرّقت، وشعرت براحة كبيرة ـ ولله الحمد والمنّة ـ عند فراغي منه، فموضوع الأخلاق والتعامل من أهمّ الموضوعات في حياة الناس، وهو من صُلْب الدين الحنيف، وحاجتهم إليه شديدة جدًّا.

فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما يُحب ربنا ويرضى.

وأوّل ما كتبت في هذا الموضوع كان في (١٠/٧/١٤٢٦)

ومن ذلك التاريخ وإلى يومي هذا وأنا أكتب وأدوّن على فترات متقطّعة، حتى اجتمعت عندي مادةٌ رأيت من الخير وزكاة العلم أنْ يطّلع عليها إخواني؛ لعلي أَحصل على دعوة صادقة منهم، أو توجيهٍ أنتفع به، وإن أكرمني ربي فانتفعوا به وكان سببًا في تغيير أخلاقهم إلى الأحسن فهذا مما يسرّني ويُسعدني كثيرًا، وأسأل الله أن يكرمني بتحقيق الهدف السامي بجميل صنعه، ولطف تدبيره سبحانه وتعالى.



ما الجديد في الكتاب؟

حُقّ لك أن تتساءل أيها القارئ العزيز: ما الجديد في الكتاب، وقد أُلف في فنّ التعامل والأخلاق عشرات المؤلفات؟

والجواب: أني أَلَّفْتُه لثلاثة أسباب:

السبب الأول: أن أغلب الكتب والمحاضرات والدورات التي تتحدث عن فنّ التعامل والأخلاق إنما تتحدث عن جوانب معيّنة، وهي كيف تتعامل مع الآخرين، وكيف تكسب الأصدقاء، وكيف يحبّك الناس، وكيف تكون مؤدبًا، وكيف لا تغضب.

هذه جلّ ما يُكتب عنه، أو يُتحدّث عنه.

ولكن حاولت أنْ تكون كتابتي أشمل من ذلك، فالكتاب يتحدث عن التعامل مع الله تعالى أولًا، ثم مع النفس، ثم مع الناس، ولم أقتصر على موضوع التعامل مع الناس كما هو حال أكثر من تحدث عن هذا الموضوع المهم.

السبب الثاني: أني قرأت ـ قبل سنوات ـ كثيرًا من الكتب الحديثة التي تتحدَّث عن الأدب، والأخلاق، والتعامل، فوجدتها تتحدث عن الأمور الشكلية، كلطف الكلام، وحسن التعامل، والاحترام، والاجتهاد في تحسين السلوك، ولم تتحدث عن الأمور الجوهرية، وهي أصول الأخلاق القلبيَّة، التي هي منْشأ وأساس الأخلاق الظاهرة: القولية والعملية.

ولكلّ إنسان أخلاقٌ ظاهرة في تعامله وبشاشته ولطفه وإكرامه، وأخلاق باطنة في معتقداته وقناعاته وإيمانه، كالإخلاص لله في تعامله، وخلق الحياء والتواضع ومحبته لأخيه ما يحبه لنفسه، وسلامة قلبه من الحقد والغل والرياء وحبّ الشهرة والرئاسة والمدح.

وأخلاقك الباطنة هي الأصل وهي الأساس للأخلاق الظاهرة، كما أنّ الشجرة لا تحيا إلا بجذورها الممتدة في جوف الأرض المختفية في بطن الثرى، فإذا أهملتَ أخلاقك الباطنة لن تنفعك أخلاقك الظاهرة، ولن تكون في ميزان حسناتك يوم القيامة، وسرعان ما تفسد وتضطرب عند المصائب والمواقف الصعبة، كما أنَّ الشجرة لا تنفعها أغصانها وفروعها إذا هي بُتَّت من أرضها، وقُطعت من أصلها، وفُصلت عن جذرها، وسرعان ما تسقط وتذبل.

فإهمالها خلل كبير في الأخلاق، ولذلك أسهبت في الكلام عن ذلك الموضوع الهامّ.

ولا شك أنّ عموم من كتبوا عن ذلك ينطلقون من قواعد وآداب اجتهدوا فيها، وكثير منها صواب وحقّ، ثم يُلزمون من أراد تحسين أخلاقه تطبيقَها، وتغييرَ أخلاقه السيئة، أو قطعها وإزالتها، وليس المطلوب ذلك، بل المطلوب تهذيبها وتوجيهها كما سيأتي بمشيئة الله.

السبب الثالث: أنّ أعظم مصدر يُكسب الأخلاق الحميدة، ويجتثّ الأخلاق السيئة: هو كتاب ربنا ﷻ وهدي نبِّينا وإمامنا ﷺ الذي كمَّل وزكَّى الله خُلُقه وحسّن تعامله، وهذا المصدر أعظم تأثيرًا بلا ريب من غيره، كيف لا، وهو من نور الله، الذي خلقنا وهو أعلم بما يُصلحنا، وكلّ صانع أخبر بما يُصلح صنعته.

والله تعالى قد ذكر في كتابه عشرات بل مئات القواعد في الأخلاق

والتعامل، وفي أقوال نبينا ﷺ ومواقفه وقصصه مئاتٌ من القواعد والآداب التي تُغني عن جميع قواعد وآداب الشرق والغرب لو تعلّمناها وطبّقناها، وأقول هذا عن قناعة تامة، واطّلاع وقراءة في كثير من الكتب الحديثة في التربية والسلوك: العربية والغربية، والاستماعِ لكثير من المحاضرات والدورات.

إنّ في سيرة معلّم البشرية مكارم الأخلاق ﷺ قصصًا كاملة فيها جميع أركان وفروع فنون التعامل ومحاسن الأخلاق والآداب، وفيها فوق ذلك الصدق التامّ، والإخلاص الذي لا رياء ولا سمعة فيه، وفيها الدروس والعبر لمن تأمل وتدبّر.

وإذا لم نأخذ مكارم الأخلاق وحسن التعامل ممن لا مثيل ولا نظير له ﷺ في حسن أخلاقه، ولطف تعامله، وصدق لهجته، وجمال منطقه، وقوة صبره، وعظيم حلمه، وشدة تواضعه، فمن أين نأخذ ذلك؟

إنّ رسول ﷺ لم يكسب بحسن أخلاقه قلوب محبِّيه فحسب، بل كسب قلوب أعدائه، فأصبحوا من أشد المدافعين والمناضلين عنه وعن دينه وعقيدته، وذهبت أرواح كثير منهم في سبيل ذلك.

وليس هذا فحسب، بل جعل من العرب الذين لم تكن لهم أيّ مكانة بين الأمم قادةً عظماء، ورجالا حكماء؛ حيث تمّم وهذّب مكارم الأخلاق التي كانوا يتحلّون فيها، فخرجوا من صحرائهم القاحلة، وبيئتهم الغارقة بالجهل والظلام والفرقة، يحملون مشعل هذا النور: نور الدين والعلم والأخلاق والقِيَم والأدب والرحمة والكرم، والذي أضاءه لهم نبيُّنا محمد عليه الصلاة والسلام، ينشرونه في الأرض، حتى وصلوا بهممهم وعزائمهم خلال أقل من ثلاثين سنة فقط إلى أقصى مشارق

الأرض ومغاربها، فمن جهة الغرب: فُتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك؛ الأندلسُ، وقبرص، وبلادُ القيروان، مما يلي البحر المحيط، ومن جهة المشرق: وصل الفتحُ إلى أقصى بلاد الصين، وقُتِل كسرى وبادَ مُلْكُه بالكلية، وفُتِحَتْ مدائنُ العراق وخراسانَ والأهواز، ففتحوا القلوبَ بالأخلاق أكثر من فتح الديار بحدّ السنان.

فقد دخل كثير من الناس في الإسلام بسبب أخلاق وتعامل التجار المسلمين، مثل: تركستان الشرقية في الصين، ووسط آسيا، وبلدان جنوب شرق آسيا كأندونيسيا وماليزيا والفلبين وغيرها، وجزر المالديف التي تقع في المحيط الهندي جنوب غرب سريلانكا.

لم يحمل الإسلامَ إليها جيشٌ مقاتل، ولا قائد فاتح مناضل، بل حمله تجّار من عامّة المسلمين، ما دعوا إليه بخطبهم ومحاضراتهم، بل بأخلاقهم وحسن معاملاتهم، ولبث الإسلامُ يمشي خطوة خطوة، ونورُه يتسرب شعاعًا بعد شعاع كما يتنفس الصبح عن نهارٍ يمحو سواد الليل، فما أهلّ القرن الخامس عشر الميلادي حتى صارت له قوّةٌ وصار لأهله مَنَعَةٌ وسلطان.

وإنما حصل لهم هذا التأثير والتمكين وفتح قلوب العباد للدخول في دين الإسلام أفواجًا بسبب نواياهم الصالحة، وتحلّيهم بروح الأخلاق الإسلامية، لا بسبب تخلّقهم بأخلاقهم العربية، وإلا فلم يُذكر أنّ للعرب تأثيرًا على غيرهم من أُمَم الأرض في جذبِهم لعبادةِ أصنامهم، مع أنهم كانوا يجوبون الأرض شرقًا وغربًا.

فهل عرف العرب والعجم وكل الأمم معنى التواضع إلى درجة أن يقول سيّدهم لعبد حبشي: سيدنا؟

فهذا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه يقول: «أبو بكر سيّدنا،

وأعتق سيدنا ـ يعني بلالا»[١]

وهل عرف العرب والعالم أجمع معنى الوفاء والالْتِزام بالعهود إلى درجة أن يأتي رجال لنصرة قومهم، والعدوّ أمامهم، وهم أكثر عددا وعُدّة، وقد بطشوا بهم وظلموهم أشدّ الظلم، وأخرجوا كثيرًا منهم من بلادهم، فيأبى القائد؛ لأنّ هؤلاء الرجال قد عاهدوا عدوهم كُرْهًا على عدم قتالهم؟

عرف هذا رجلٌ واحدٌ اسمه: محمد بن عبد الله رسولُ الله ﷺ، فقبل معركة بدر ـ التي يُواجه فيها أشدّ أعدائه وأعداء أصحابه، الذين قتلوا بعضهم، وبطشوا وعذّبوا كثيرًا منهم أشدّ العذاب، وسحبوهم على الجمر، ووضعوهم تحت نيران الشمس الملتهبة لساعات طويلة، وأخرجوهم من ديارهم وأهليهم ـ يأتي حذيفة بن اليمان هو وأبوه رضي الله عنهما، والمسلمون في أشدّ الحاجة لهما، فقد كانوا أقلّ منهم عددًا وعدّة، فلمّا عرض القتال معهم رفض النبي ﷺ ذلك!

لماذا؟

لأنّ حذيفة رضي الله عنه أخبره أول ما قابله أنه خرج هو وأبوه إلى مكة قبل معركة بدر، فأخذهم كفار قريش وقالوا لهما: إنكم تريدون محمدًا، فقالا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منهما عهد الله وميثاقه لينصرفنّ إلى المدينة ولا يُقاتلان معه، فلذلك رفض الغدر ونقض الميثاق وقال لهما: «انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم»[٢]

مع أنها أُخذا كرهًا، وعاهدا الظالمين المجرمين تحت الإكراه والإجبار، وما خرج هؤلاء الظلمة المجرمون القتلةُ إلا لطمس التوحيد،

---

(١) رواه البخاري (٣٧٥٤).
(٢) رواه مسلم (١٧٨٧).

واجْتِثاث الإسلام، ونحرِ نبيِّ الأمةِ صلوات الله وسلامُه عليه، وتدمير دولته!

وهل سمعت بحاكم يتعرّض لأكثر من سبع محاولات اغتيال، ويعفو ويُسامح في كلّها؟

حصل هذا لمحمد بن عبد الله رسولِ الله ﷺ، وفي إحداها باشر المجرم الجريمة بتسميم طعامه، وذلك أن امرأةً يهوديَّةً أتته بشاةٍ مسمومة، فأكل منها، فعلم بذلك، فجيء بها إليه فسألها عن ذلك؟ قالت: أردتُ لأقتلك، فقال: ما كان الله ليسلّطكِ عليّ، قالوا: ألا نقتلها؟ قال: «لا»[١]، ولم يزل يُعاني من آثار السمّ حتى مات متأثرًا به، ومع ذلك لم يقتلها ولم يُعاقبها.

ونزل ﷺ يومًا مع أصحابه في مكان، وتفرقوا ليستظلّوا بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة وعلّق بها سيفه، ونام أصحابه، فإذا رسول الله ﷺ يدعوهم، وإذا عنده أعرابي، فقال: «**إنّ هذا اخترط عليّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله، ـ ثلاثًا ـ ولم يعاقبه وجلس**»[٢]

وهل عرفت الأمم كلّها معنى الإيثار الحقّ، الذي غرسه الإسلام في قلوب أتباعه، حتى يقول أحدهم لصاحبه الفقير الذي أُخْرج من بلده: سأقسم مالي بيني وبينك شطْرين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلقها، حتى إذا حلّت تزوجتَها[٣]

وهل عرفت معنى الشفقة والرحمة والعطف وسلامة الصدر من الحقد إلى درجة أنْ يكفّن أحد أعدى أعدائه المتظاهرين بالإسلام نفاقًا،

---

(١) رواه مسلم (٢١٩٠).
(٢) رواه البخاري (٢٩١٠).
(٣) رواه البخاري (٣٧٨١).

الذي أشاع بأن زوجته الطاهرة قد زنت، وقال: ليخرجن من المدينة الأعز ـ يعني نفسه ـ الأذلَّ ـ يعني النبيّ ﷺ، ويصلي عليه!

فقال عمر رضي الله عنه: أما قال الله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾؟

فقال: لو أعلم أني إن زدْتُ على السبعين غُفِر له: لزدت عليها.

فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[١]

وهل عرفت أكرم وأنْزه وأزهد ممن فُتحت له الدينا، وغنم آلاف الدنانير والدراهم والشاه والإبل، بعد معركة خيبر وحنين، فوزّعها على الناس، وأعطى أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وعباس بن مرداس، كلّ واحد منهم مائةً من الإبل[٢]، وأقبل الأعراب يسألونه حتى ألْجَؤُوه إلى شجرة، فعلق رداؤه بشوكها، فوقف رسول الله ﷺ فقال: «**أعطوني ردائي، فلو كان عدد هذه العِضَاهِ[٣] نَعَمًا[٤] لقَسَمْته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلًا، ولا كذُوبًا، ولا جبانًا**»[٥]

ومع ذلك لم يستبق لنفسه شيئًا، بل رجع إلى بيوت زوجاته الصغيرة المتواضعة خاوي اليدين، فلم يغيّرها ولم يزيد عليها، ومات وفي ذمّته دَيْن على يهوديّ على طعام اقترضه منه ليُطْعِم أهله! قالت عائشة رضي الله عنها: «توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير»[٦]

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٦).
(٢) رواه مسلم (١٠٦٠).
(٣) شجر عظيم الشوك.
(٤) أي: إبلًا.
(٥) رواه البخاري (٢٨٢١).
(٦) رواه البخاري (٢٩١٦).

فأين نجد مثل هذه القيم والمبادئ؟

لا نجدها والله إلا في دين الإسلام الحنيف، وأخلاقِ النبيّ الخاتم الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، وأخلاقِ أصحابه وأتباعه، جعلنا الله منهم.

وقد كان للعرب أخلاق حسنة ورديئة، ولو كانت أخلاقهم كلّها حسنة لَمَا استطاعوا أن يؤثِّروا في الناس هذا التأثير؛ وذلك لأنّ الإسلام صبغ على أخلاقهم صبغة فيها نور وروح تأسر القلوب، وتأخذ بالألباب.

ولو جُمعت محاسن أخلاق الأمم والشعوب كلّها لَكان ما جاء به الإسلام أشمل وأحسن وأكمل وأبلغ وأكثر وأقوى تأثيرًا منها.

وإلا فمثل هذا النبيّ الكريم ﷺ الذي استطاع ـ بعد توفيق الله ـ بأخلاقه وحكمته ولطفه أن يصنع مثل هؤلاء الرجال العظماء، هل يسوغ لنا أن نجهل سيرته، ولا نهتمّ بتعلّم وتعليم محاسن ومكارم أخلاقه وتعامله؟

وقد وجدت في القرآن الكريم والسنة المطهّرة حول موضوع الأخلاق والتعامل ما لم أجده في غيرهما، وتأثرت بهما ما لم أتأثر بغيرهما.

وقل لي بربك: في أيّ كتاب يدلّك على أحسن من تعامل نبي الله يوسف عليه السلام مع إخوته الذين رموه في البئر ليموت جوعًا وعطشًا وكمدًا، ثم بعد ذلك يتهمونه بأنه كان سارقًا، فيُخفيها في نفسه، ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسرّ الأمر في نفسه، مع فظاعة هذه التهمة.

وبعد كلّ هذا يقول لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾، ثم زاد في العفو

فدعا لهم (يغفر الله لكم)، ثم فتح لهم باب الأمل والرجاء والفأل (وهو أرحم الراحمين).

وفي أي كتاب تجد تعاملا أحسن وأكمل وأرقى من تعامل النبي ﷺ مع رجل غليظ الطبع، جبذه بردائه جبذة شديدة، وهو يمشي مسرعًا، حتى رجع من شدّتها في نحر الأعرابي، أي: اسْتدار صلوات الله وسلامه عليه من قوة الجذْبة حتى استقبل صدر الأعرابي استقبالا تامًا!، وقد أثرت حاشية الرداء في عنقه من شدة جبذته، وبعد أن مدّ يده عليه يسألُه مالا فيقول: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك!، أي: ليس مالَك ولا لك فيه منّةٌ.

فابتسم وضحك في وجهه، ولم يكتف بهذا فحسب، بل أمر له بعطاء ﷺ.

وأين تجد من يدعوه إلى طعام فيرفض حتى تحضر معه زوجته التي كانت جائعة، فلم تطب نفسه أنْ يشبع ويأكل أحسن الأكل دونها!

أخبرني أين تجد من يعلّم مثل هذه المبادئ والقيم والأخلاق؟

وأين تجد من يزرع هذه المشاعر والأحاسيس المرهفة الراقية؟

والله لن تجدها إلا في شريعة الله المطهرة، وسنة نبيّه ﷺ الذي كمُل في حسن تعامله وأخلاقه.

وأين تجد من يتكلّم عن خلق الحياء، والإيثار، وهضم النفس، التي هي منْبَع وأساس وأصل جلّ الأخلاق الفاضلة، والتعاملات الحسنة؟

لن تجدها إلا في الكتاب والسنة وآثار سلف الأمة، التي لا تكاد تُذكر في هذه الكتب، ولا يكاد يتعلّم منها ويستفيد ويُفيد من يتحدث عن الأخلاق والتعامل.

فالغفلةُ عن الاستفادةِ من ينابيع الكتاب والسنة يعني خسارةَ وفوات أعظم مصدر للأخلاق الفاضلة، والمعاملات الحسنة، والقِيَم النبيلة.

وأضفت لهذين المصدرين:

١ ـ آثار سلفِ الْأُمَّة، من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، وقد امتلأت الكتب بذكر حِكمهم وقصصهم في الأخلاق والتعامل، ولكن قلّ من اعتنى بها، وجعلها نبراسًا يُقتدَى بها.

٢ ـ تَجارب الحياة، المليئة بالمواقف والعبر، والحِكَم والدرر، التي لا تُكتسب إلا من خلال هذه التجارب، وخوض غمار هذه المواقف.

أسأل الله تعالى أن يُحسّن أخلاقنا، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنّ ربي سميع قريب مجيب.



شكر ودعاء لمن دعمني في طباعة هذا الكتاب

إن كانت عبارات الثناء وكلمات الشكر تُسعف القائلين، فإنّ عباراتي وكلماتي تعجز عن توفية حقّ مَنْ كانوا ولا زالوا عونًا وعضدًا لي في حياتي وفي مؤلّفاتي، وخاصة في طباعة هذا الكتاب، وهم:

١ ـ المشايخ الفضلاء، والأصدقاء الأوفياء، الذين راجعوا الكتاب فأفادوني بحسن آرائهم، وصواب تعقيباتهم، فقد بذلوا كثيرًا من أوقاتهم، ومزيدًا من جهودهم؛ لأجل أن يخرج الكتاب بأحسن صورة، وأبهى حلّة، فجزاهم الله عني خير الجزاء.

٢ ـ والدايَ وإخواني وأخواتي وزوجتي، الذين كانوا السبب بعد الله تعالى في تفرّغي للعلم والتأليف.

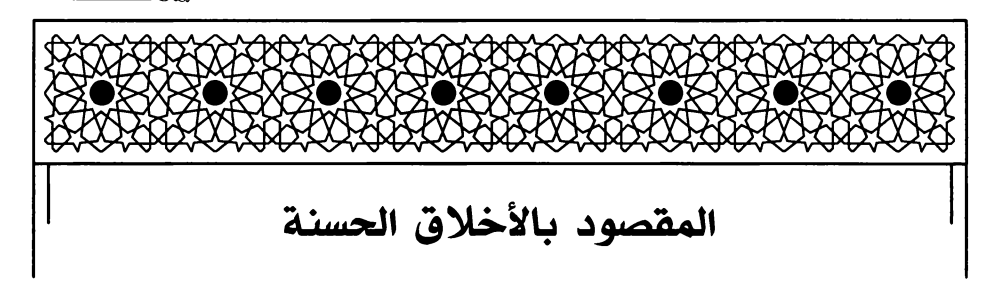
وقد توفيت الوالدة ـ رحمها الله تعالى ـ أثناء تأليفي لهذا الكتاب، فجعل الإخوة والأخوات تكلفة طباعته من مالها وما جادت به أنفسهم، فجزاهم الله خيرًا من إخوة أوفياء بررة، وجعل هذا الكتاب في ميزان حسنات والدتي وأولادها.

٣ ـ دار الحجاز، التي أخذت على عاتقها خدمة الكتاب والسنة، وتراث سلف الأمة ومن سار على منهجهم واقتفى أثرهم.

وقد أمضيت عشر سنوات منذ تعاملت معهم، وطبعت لي عشرين كتابًا، وما رأيت منهم إلا الصدق، والأمانة، والوضوح، والتعامل

اللبق، والأدب الرفيع، والعناية التامة في إخراج الكتب أحسن إخراج، والحرص على توزيعها في أنحاء العالم.

وكتبه
أحمد بن ناصر الطيار
خطيب جامع
عبد الله بن نوفل بالزلفي
والداعي إلى الله في وزارة الشؤون الإسلامية
البريد الإلكتروني:
ahmed0411@gmail.com
رقم الجوال: ٠٥٠٣٤٢١٨٦٦
يوم الأحد ١٤٤١/١١/٢١



المقصود بالأخلاق الحسنة

الأخلاق الحسنة: هي الطباع والسجايا الحسنة، الباطنة والظاهرة، الراسخة في النفس.

ومعنى الراسخة في النفس: الثابتة في النفس، بلا تصنع ولا تكلّف، فمن يصدر منه بذل المال على غير عادته لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء، ومن يبتسم في بعض الأحايين لا يُقال خلقه البشاشة، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوتَ رسوخ.

ومن بذل المال، أو ابتسم، أو سكت عند الغضب، أو رفق، أو تواضع، بجهد وتكلّف لا يقال خلقه السخاء والحلم والبشاشة والرفق والتواضع.

ومن لم ترسخ فيه هذه الأخلاق الحسنة حتى تكون خُلُقًا وطبعًا: يُوشك أنْ يرجع إلى طبعه وخلقه الأول عند المواقف الصعبة، وكما قال الشاعر:

كلُّ أمرئ راجع يومًا لشيمته وإنْ تخلَّق أخلاقًا إلى حين

ولا شكّ أنّ تكلّف الأخلاق يقود إلى الرسوخ فيها، فالحلم بالتحلّم، والعلم بالتعلّم، «ومن شأن الأخلاق إذا تمكَّنت: أنْ تتزايد بتزايد الأيام حتى تصير مَلَكات»[1].

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ٢٧٩).

فهي أتعاب ومجاهدات في البدايات، وأخلاق وطبائع راسخة في النهايات، ومن لم يجاهد نفسه في البداية لن ترسخ الأخلاق في نفسه في النهاية.

واعلم أنّ الرسوخ(١) العلمي سهلٌ وكثيرٌ أهلُه، فهناك الكثير من طلاب العلم رسخوا في فنّ من الفنون، كالعربية والفقه والعقيدة والتفسير والحديث، وكثير منهم جمع بين هذه الفنون العلمية.

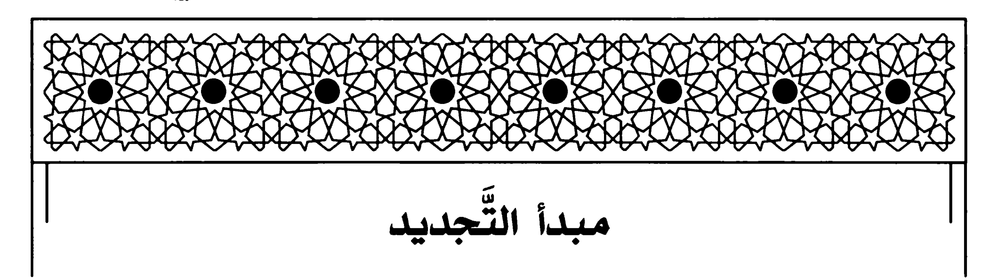
حتى إنه حصل الرسوخ العلمي في بعض التخصصات الشرعيّة لدى بعض المستشرقين وهم غير مسلمين، وألفوا الكتب والمصنّفات التي قد يعجز عنها كثير من علماء المسلمين.

وأما الرسوخ الخُلُقيّ فهو أصعب وأشق وأقلّ، ولو قارنا بين كثرة الراسخين علميًّا والراسخين خلقيًّا، لوجدنا الفرق واضحًا جدًّا، ونسبة الرسوخ الأول أكثر بكثير، فهناك الكثير من العلماء وطلاب العلم، ولكن كم نسبةُ أصحاب الأخلاق العالية منهم، المتحلّين بالصبر، والاحتمال، والكرم، والشجاعة، والبشاشة، والرفق، والسعي في قضاءِ الحوائج؟

وإنما كان الرسوخ الخُلُقي أصعب وأشق من الرسوخ العلميّ: لأنهُ ليس هناك ما يدعو إلى العناية بالأخلاق الباطنة والظاهرة، ولا ما يحفز عليها، فلا وجود لمدارس تعلم الأخلاق وتمنح الشهادات والأموال والمناصب عليها، وليس هناك كذلك ما يحفز الإنسان في نفسه على ذلك؛ لأنه مشغول بالأمور الظاهرة؛ كالعلم، أو الكسب، أو المنصب، أو اللهو.

---

(١) رَسَخ الشيء رُسوخًا، إذا ثبت في موضعه، والعلم يَرْسَخ في القلب، وهو راسِخ في العلم: داخل فيه مدخلا ثابتا. [العين (٤/ ١٩٦)].
فمادة (رَسَخَ) أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الثَّبَاتِ، وَيُقَالُ رَسَخَ: ثَبَتَ، وَكُلُّ رَاسِخٍ ثَابِتٌ. [مقاييس اللغة (٢/ ٣٩٥)].



مبدأ التَّجديد

لقد خلق الله تعالى الإنسان مُحبًّا للتَّجديد والتغيير نحو الأفضل، فتجد الناس لا يستقرّون على حالةٍ واحدة، وكلّما استجدّ شيءٌ في الحياة سارعوا إلى الحصول عليه عند مقدرتهم.

فالإنسان اليوم في كثير من بقاع الأرض ليس هو الإنسان الذي قبل عشر سنوات مثلًا، بل تجده اليوم قد جدَّد وغيّر مظاهِرَ حياته ومعيشته ومركبه وبيته وحذاءه إلى الأفضل.

وبعض الناس جدَّد كلَّ شيء إلا أخلاقه، وغَيَّر كلَّ شيء إلا تعامله، وتعلّم وقرأ في كثير من الموضوعات واهتمّ في تحسين كثيرٍ من أموره إلا في هذا الجانب المهم!

فيا ليتهم اتّخذوا الأسباب لتحسين أخلاقهم، وهم الذي سعوا جاهدين في تحسين أمورهم المعيشيَّة والدنيويَّة.

والعناية بالأخلاق أهمّ وأعظم وأنفع في الدين والدنيا من العناية بالبيت واللباس والسيارة!

ومما لا شكّ فيه أنّ الواحد منا قد ذهبَ مرارًا إلى السوق ليشتري حذاءً جديدًا له، مع أنّ الحذاء الذي يلبسُه لم يتلف.

ولن يشتري إلا حذاءً جميلًا، وعلى مقاس قدميه، ولو اتّسخ فإنه يُبادر إلى إزالة الوسخ عنه.

ولا يُظَنُّ بالعاقل أنْ يكون قدْرُ الحذاء أعظمَ وأهمَّ عنده من قدر

أخلاقه، والبرهان بالفعل لا بالقول، وما أسهل الدعوى، وما أعزّ المعنى.

وكيف لا يسعى المؤمن العاقل إلى تحسين أخلاقه ومكانتُها في الشريعة مكانةٌ عظيمة عالية كما تقدّم بيانُه.





كسْرُ الجمود، وتغييرُ نمط الحياة والتعامل

المراد بالجمود في الحياة والتعامل: أُسْلوبٌ أو نمطٌ في الحياة يتكرر ولا يتغيّر ولا يتجدّد.

فهو تكرار الأشياء الْمُعتادة بنفسِ الطريقة والعادة.

وربّنا تبارك وتعالى نوّع في العبادات والطاعات، ولم يقْتصر على عبادةٍ واحدة؛ وذلك لِحِكَمٍ كثيرةٍ منها: طرد الملل والسآمة عن عباده.

بل إنّ العبادة الواحدة كالصلاة مثلًا، فيها أوجه كثيرة مُنوّعة، كدعاء الاستفتاح وما بعد التشهد الأخير، وتسبيح الركوع والسجود، وكذلك التنويع في قراءة الآيات في كلّ صلاة.

وكذلك نجدُ أنّ الله تعالى «مَزَج مقاصد كتابِه بعضِها ببعض، من عقائد وحِكَم، ومواعظ وأحكام تعبدية وقصصيّة وغيرها، وما ذاك إلا لنفي السآمة عن القارئ والسَّامع من طول النوع الواحد منها، وتجديدِ نشاطهما وفهمهما»(١)

ومثل الذي يعيش حياته على نمط واحد، ولا يجدد في إيمانه وأخلاقه وهمّته، مثل الطالب المخفق الذي لا يُغيّر مقعده الدراسي، ولا ينتقل إلى الصف الذي يليه كبقية زملائه، فتجد همّته وأخلاقه وحياته لا تتغير، وبما كانت في انحدار.

(١) تفسير المنار بتصرّف: ٢/ ٣٩٤.

فاكسر ـ يا أخي ـ الركود والجمود الذي يعتري حياتك وتعاملك وأخلاقك، وحاول أنْ تغيّرها نحو الأفضل، وسترى انشراحا في صدرك، وهمّة ونشاطًا عظيمًا في حياتك.





هل المطلوب تهذيب الطباع والأخلاق السيئة أم إزالتها؟

حينما قدم النبي ﷺ المدينة وجد الناس مختلفين في حِرَفهم وأعمالهم، ومختلفين في أخلاقهم وطِباعهم، فترك أعمالهم وطباعهم فلم يغيِّرها، إلا ما كان منها مُخالفًا لدين الله.

فكان منهم النجار، والحدّاد، والمزارع، والتاجر، فلم يطلب منهم أن يتركوا حِرَفهم وينشغلوا بالعلم أو جهاد الأعداء أو العبادة، بل تركهم على ما هم عليه، لكن حثَّهم على أن يبتغوا بأعمالهم وجه الله، وألا تكون الدنيا أكبر همِّهم.

وكذلك الحال في أخلاقهم، فقد كانت لهم طباعٌ مختلفة، وأخلاقٌ متباينة، فلم يطلب منهم تركها وتغييرها، بل سعى إلى تهذيبها وتوجيهها الوِجْهة الصحيحة، فالشديد منهم طلب أن تكون شدته في الله لا لنفسه، والحريص طلب أن يكون حرصه فيما ينفعه، وهكذا.

فليس المطلوب إزالةَ جميع الأخلاق والطباع السيئة عن نفسك، فهذا صعب وعسير، ويؤول إلى فساد كبير، ولكن المطلوب تهذيبها وتوجيهها الوجهة الصحيحة.

وهذه الصفات والطباع ما خُلقت سُدىً ولا عبثًا، بل هي كالماء يُسقى به الورد والشوك والثمار والحطب.

ولنأخذ بعض الأمثلة لبعض الأخلاق التي لا تُذمّ على الإطلاق:

المثال الأول: خلق الكبر، وهو نهرٌ يُسقى به العلو والفخر، والبَطَر والظلم والعدوان، ويُسقى به عُلوَّ الهمة، والأَنَفة والحمية والْمُراغمة لأعداء الله، وقهرهم والعلو عليهم، فاصْرف مجرى الكبر إلى هذا الغراس، واتْرك هذا النهر على حاله في نفسك ولا تُزلْه، فتكون ضعيف الهمّة والعزيمة والطموح، وقد رأى النبي عليه الصلاة والسلام أبا دجانة يتبختر بين الصفين فقال: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموضع»[1]، فانظر كيف خلَّى مجرى هذه الصفة وهذا الخلق يجري في أحسن مواضعه، وكيف صارت الصفة المذمومة عبودية.

المثال الثاني: خلق الحسد، فهو الذي يُشعل في النفس التنافس النافع، كما قال النبي ﷺ «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل أعطاه الله مالًا فسلَّطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار**»[2]، فالحسد يوصل إلى المنافسة التي يحبها الله ويأمر بها في قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾، فلا تهدم هذا الخلق من نفسك، بل اصرفه إلى الحسد المحمود الحامل على المنافسة في الرتب العالية، ولا تتمن زوال نعمة الله عن عبد فتزول عنك ويُبقيها عليه، وتبوء أنت بالإثم والخسارة.

المثال الثالث: خلق الحرص، وهو ذميمٌ إذا كان على الدنيا وشهوات النفس وحظوظها، ولكنه من جهة أخرى من أنفع الأخلاق وأوصَلِها إلى كلِّ خير، وخاصة الحرص على الوقت واستثمارِه، وشدَّةُ الطلب بحسب قوة الحرص، فلا تسْعَ إلى قطع هذه القوة، ولكن اصرفها

---

(١) رواه الطبراني (٦٥٠٨).

(٢) رواه البخاري (٧١٤١)، ومسلم (٨١٦).

مما يُذمّ إلى ما ينفعك في دينك، وطهارة نفسك، كما قال النبيّ ﷺ: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**»(١)

المثال الرابع: خلق الغضب، وهو الذي يُشعل في النفس الغيرةَ على دين الله، ونصرتَه وجهادَ الكفار، والدفاعَ عن المظلومين، فالمطلوب صرف القوة الغضبية إلى معانٍ سامية، ومن أهمّها الذبّ عن دين الله تعالى، والانتصار له، ومجاهدة الأعداء، ونحو هذه المعاني السامية.

المثال الخامس: ميلُ النفس إلى الاستماع إلى الأصوات الشجيّة الحسنة، وهذا يُذمّ إذا وُجّه نحو ما يُفسد قلب المسلم من الأصوات الفاتنة، والكلمات البذيئة، ونحو ذلك، ولكنه يُحمَد إذا وُجّه نحو سماع ما يُصلحه، كسماع القرآن الكريم، وقد وقف النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري رضي الله عنه واستمع قراءته وقال: «**لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود**»(٢)

وكان عمر رضي الله عنه يأمره إذا حضر عنده مع الصحابة أن يُسْمعهم قراءته فيقرأ وهم يسمعون.

فتزكية النفوس مُسَلَّم إلى الرُّسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية، وجعلها على أيديهم دعوةً وتعليمًا وبيانًا وإرشادا؛ فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾.

وتزكية النفوس أصعب من علاج أمراض الأبدان وأشد، فلا طريق

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) رواه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).

إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريق الرُّسل عليهم الصلاة والسلام، الذين هم أطباء القلوب، وما أتوا به من الهدى والنور.

وتحتاج الأخلاق لتحسينها وإصلاحها وتهذيبها إلى رياضة، كحاجة البدن إلى رياضة، لكن رياضة الأخلاق عقلية معنوية، ورياضة البدن جسدية حسيّة.

وأغلب الذين يتكلمون عن فنّ التعامل والأخلاق لهم طريقة مختلفة عن طريقة الرُّسل عليهم الصلاة والسلام، حيث يسعون إلى قطع وإزالة الطباع والأخلاق السيّئة، فلا يزالون يجاهدون أنفسهم ويروّضونها على ترك الغضب، وعلى المسامحة، واللين، ونحو ذلك، وأما الرُّسل عليهم الصلاة والسلام فقد جاؤوا بصرف الطباع السيئة عن مجاريها المذمومة إلى مجارٍ محمودة كما تقدّم.

والطباع والأخلاق غرائزُ متجذّرة ومُتمكّنة في النفوس الإنسانيّة، لا يُمكن إزالتها بالكليّة، ولو زالت لكان في ذلك فسادها.

وهي كالنهر شديد الجريان، الذي ينتهي إلى مدينة، فلو استمر في جريانه لأغرقهم، فالنفوس الجاهلة الظالمة تركته ومجراه، فخرَّب ديار الإيمان، وقلع آثاره، وهدم عمرانه، وأنبت موضعها كلَّ شجرة خبيثة، من حنظل وشوك وزقُّوم، وهو الذي يأكله أهل النار يوم القيامة يوم المعاد.

وأما النفوس الزكيَّة الفاضلة: فإنها رأت ما يصير إليه أمر هذا النهر، فبعضهم سعى إلى قطعه عن جريانه، وهذا لا يُمكن، ولو حرص أحدٌ على ذلك لعجز، ولو فعل ذلك وانسدّ النهر مدة من الزمن فسينفجر بعد ذلك ولابدّ، وسيهلك المدينة ويغرق أهلها.

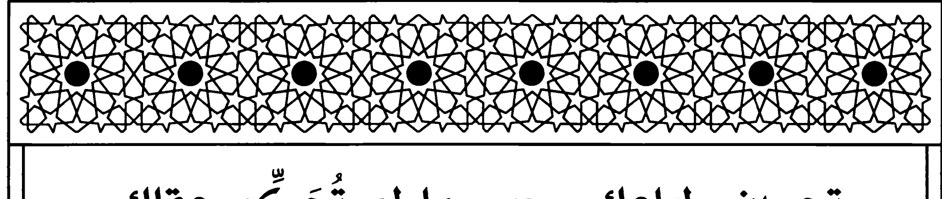
والحكماء صَرَفوا ذلك النهر عن مجراه المنتهي إلى المدينة إلى

مكان ينتفعون بوصوله إليه، ولا يتضررون به، فصرفوه إلى أرض قابلة للنبات، وسقوها به، فأنبتت أنواع العشب والثمار المختلفة الأصناف[١].



(١) مدارج السالكين لابن القيم بتصرف (٢/٢٩٩)، وقال: فصل نافع جدا عظيم النفع للسالك، يوصله عن قريب، ويُسَيِّره بأخلاقه التي لا يمكنه إزالتها، فإنَّ أصعب ما على الطبيعة الإنسانية تغيير الأخلاق التي طبعت النفوس عليها.

وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الأخلاق، ولا يحتاج إلى علاجها وإزالتها، ويكون سيره أقوى وأجل وأسرع من سير العامل على إزالتها.



تحسين طباعك صعب، ما لم تُحَكِّم عقلك، وتجعل رضى الله غايتك

لا شكّ أنّ تحسين طباعك التي اعتدت عليها منذ نشأتك صعب جدًّا، وكثير من الناس حاولوا ولكنهم فشلوا.

وإذا أردت أن تغيرها إلى الأفضل بأسهل طريقة وأقل جهد: فحَكّم عقْلك، واجعل رضى الله غايتَك، واستعن بالله لا بحولك ولا قدرتك ولا علمك.

وقناعاتك لابدّ أنْ تستمدّها من العقل والشرع، فتعطيل عقلك سيقتل إبداعك، وقوتك، ويجعلك رهن عاداتك، ويحبسك بين قضبان أعرافك وأعراف من حولك.

وتعطيلك نبراسَ الشرع سيجعل عزمك ضعيفًا خائرًا، وإن تحاملت على نفسك وعزمت فسرعان ما تضعف عند بعض المواقف التي فيها شدة أذى عليك، واجتراء عليك.

والهوى المدفوع بحظوظ النفس أعظم مانع لك من إعْمال عقلك، فالهوى يميل بك إلى الراحة واللذة ولو كان في ذلك هلاكك، ويصرفك عن الجدّ والتعب ولو كان في ذلك نجاتك وعزّك.

فإذا لم تُخالف هواك في غالب أحوالك، ولم تجرّه إلى ما يكره في سائر أوقاتك: كنت مغرورًا خاسرًا، ومتى نظرت إلى نفسِك باستحسان ورضى فقد أهلَكْتَها.

فنفسُك الأمارة بالسوء ـ التي هي الهوى ـ تتصف بهذه الصفات:

١ ـ أنها تدعوك دومًا إلى المهالك.

٢ ـ أنها أعظم عون للأعداء عليك.

٣ ـ أنها ترغب في كلّ قبيح، ومُتَّبعة لكلّ سوء.

فهي تجري بطبعها في ميدان المخالفة للعقل والشرع.

فالنعمة التي لا تُقدّر بثمن: أنْ تكون في صفّ الشرع والعقل، ولا تكون في صفّها، مائلا إلى رغباتها، وأنْ تتخلَّص من رقّها؛ فإنها أعظم حجابٍ بينك وبين عقلك وربّك(١)

ولذلك أخبر الله تعالى أنّ نبيّ الله داود ﷺ لو اتّبع هواه ضلّ وغوى، فقال: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾.

فهل هواك أصلح حالًا من هوى نبيّ الله داود ﷺ؟ لا

فأبْعِد الهوى عنك، واجعل رضى الله غايتك، واعزم على العمل بما في هذا الكتاب ـ من الحق والصواب ـ لتستطيع ـ بمشيئة الله وتوفيقه ـ اكتساب أحسن الأخلاق والقِيم والآداب، وتغيير طباعٍ فيك سيئة، وأخلاق غير مرضيّة.

ومخالفة هواك لله تعالى أصعب الأمور وأحبّه إلى الله، وأفضلُ مِن الجهاد في سبيل الله تعالى، قال النبي ﷺ للصّحابة يومًا: «**ما تعدون الصُّرَعة فيكم؟**» قالوا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: «**ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب**».

---

(١) يُنظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٨٦).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذي يقوى على مِلْك نفسه عند الغضب هو القويُّ الشديد؛ لغلبته هواه.

فدلّ هذا أن مجاهدة النفس أشدّ من مجاهدة العدو؛ لأن النبي ﷺ جعل للذي يملك نفسه عند الغضب من القوة والشدة ما ليس للذي يغلب الناس ويصرعهم». اهـ[١]

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه دليل على أنَّ مجاهدة النفس في صرفها عن هواها أشدّ محاولةً وأصعبَ مرامًا وأفضلَ مِن مجاهدة العدوّ». اهـ[٢]

فما بالك بعملٍ أفضلُ وأصعب من الجهاد في سبيل الله، مع ما فيه من إزهاق النفس، والتعب والألم؟

وعند المواقف التي تستفزك وتغضبك، أو تُحرّك وجدانك وشهوتك: تتردّد عادةً ثوانيَ معدودة بين أمرين قبل أن تقرّر ماذا تفعل:

الأمر الأول: أن تستجيب لداعي الغضب أو الشهوة، والداعي لهذا الهوى والشيطان.

الأمر الثاني: أن تمتنع وتُحجم إلى حين التأكد من أن المصلحة في الاستجابة، والداعي لهذا العقل والإيمان.

وانظر فيما مضى من المواقف: هل كنت تفعل الأمر الأول أم الثاني؟

فإن كان الأول: فراجع نفسك وإيمانك، وتفكّر في الأضرار والآثام التي جنيتها واقترفتها.

فكم خسرت من صديق حميم، وقريب حبيب.

---

(١) شرح صحيح البخاري (٩/ ٢٩٦).
(٢) الاستذكار (٨/ ٢٨٧).

وكم سيقت لك الهموم سوقًا.

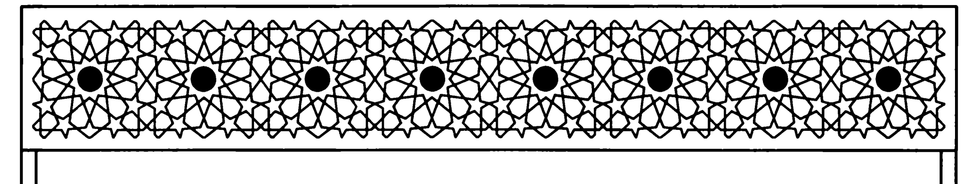
وكم أحاط بك الأعداء من كلّ جهة وصوب.

وها هي المواقف واللذائذ المحرمة قد ذهبت وولّت، ولكن بقي عقابها وآثارها، وآلام الطاعات ومرارة الصبر قد ذهبت وولّت وبقي ثوابها وآثارها.

فاعزم على التغلب على هواك ونفسك وشيطانك، وإن لم تفعل خسرت المتعة في حياتك، وحصدت السيئات في معادك، ولو لم يكن إلا فوات أجور عظيمة ودرجات عالية في الجنة لكفى.

وإن كان الثاني: فاحمد الله، واسأل الله الثبات والمزيد من التوفيق والهداية والإعانة، فلقد ملكت كنوز الخير والفضل والمجد والسؤدد التي طالما حُرمها أكثر الناس.





كما أن الإنسان استطاع ترويض الوحوش فأنت قادر على ترويض نفسك وغيرك

استطاع الإنسان أن يُروّض الأسد الشرس، والنمر المفترس، والفيلَ الضخم، ويعقد بينه وبينها صداقةً قويّة، واستطاع أن يجعل من الصقر والنسر والكلب صيَّادًا له، أفلا تستطيع أنت أنْ تروِّض نفسك التي بين جنبيك؟

ألا تقدر على تذليلها لتكون تحت طوعك، مُؤْتمرةً بأمرك، تجرُّها وتأخذها حيث شئت؟

وإذا لم تجتهد في ترويضها وتذليلها ستكون عسيرة صعبة، ولن تنقادَ معك، ولن تنقادَ لحكم العقل والشرع كذلك.

وإذا استطاع الإنسان أن يُروّض هذه الوحوش أفلا تستطيع أنت أن تكسب ابنك أو زوجك أو زميلك العنيد وتجعله حبيبًا قريبًا؟

بلى تستطيع، إذا اسْتعنت بالله، ثم عزمت عزمًا أكيدًا، ثم استخدمت معه الأساليب المناسبة، التي يستعملُ مثلها من يُروّض تلك الحيوانات الوحشيّة والطيور الجارحة.

ولا ريب بأن لكلّ حيوان وطير أسلوبًا يخصّه ويُناسبه، ولو استعمله مع غيره لعسر عليه ترويضُه، فكذلك لكلّ واحدٍ من الناس أسلوبٌ يُناسبه، فلا تلتزم أسلوبًا واحدًا تتعامل به مع الناس، فالمرح لا

يُناسبه الجدّ وكذلك العكس، والعنيد لا يُناسبه الجدال والنقاش، والحسود لا يُناسب أن تُظهر له سرورًا دخل عليك من مال أو منصب.

ومبدأ كل خير، وأصل كلّ عمل: مخالفة الهوى، إيثارًا لمرضاة الرب جلّ وعلا.

وإذا عوّدت ـ أخي المسلم ـ نفسك مخالفةَ هواها: فسوف تتلذّذ بمخالفة هواك إذا كانت المصلحة تقتضي ذلك.

وصدق الشاعر:

ففي قمع أهواء النفوس اعتزازها وفي نيلها ما تشتهي ذلُّ سرمدِ
فلا تشتغل إلا بما يكسب العلا ولا ترضَ للنفس النفيسة بالرَّدِي

والهوى فيه شَبَهٌ بالأغلال على العنق، فمن كان لله تقيًّا وحازمًا مع نفسه: كانت أغلاله رقيقة مرنة، يتحكم بها ولا تتحكم به، ولا تكون بيد غيره يجره لما يريد.

ومن كان عكس ذلك: كانت أغلاله غليظة قويّة، لا يستطيع الانفكاك منها، وهي بيد غيره من الشياطين، أو من جلساء السوء، أو العادات والطباع التي قلّ من يسلم منها.

واعلم أنّ الشيطان الذي أقسم أن يُغويك يشمّ قلبك، ويتفقَّد همّتك، فإنْ رأى منك الاستهانةَ، والضعفَ، وغلبةَ الهوى: شنّ عليك الحرب الضروس في الوسوسة، والإغواء، والتسلّط، والتمنّي.

وإنْ وجدك حازمًا، ورعًا، قويّ النفس، متغلّبًا على هواك، ضعُفَتْ وسوسته، وطَفِئَت نار سطوته، وقنع منك بأدنى حظّ يُصيبه منك، ولو بالتخفيف من إقبالك على العلم، والعبادة، ونفع الناس، وخدمة الدين.

وقد أخبر الله تعالى أنّ الشيطان أقسم بأنْ يُضلنا ويمنّينا

فقال الله تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أيْ لأَصْرِفنَّهُم عن طَريقِ الْهُدى، ولأُمَنّينَّهم الْمُحال الذي لا حاصل له.

«وهذا لا ينحصر إلى واحد من الأمنية؛ لأنَّ كلَّ واحد في نفسه إنما يمنِّيه بقدر رغبته وقرائن حاله»[١]

فالشيطان يُمَنِّي ويُضلّ كلّ واحد حسب رَغْبَتِهِ في الشر، وميوله للهوى، وَحسب قَرَائِنِ الأمور التي تدل على حقيقة إيمانه، وصلاح قلبه.



(١) تفسير القرطبي (٧/ ١٣٦).



المراحل التي سيمرّ بها من عزم على اكتساب الأخلاق

إذا عزمت على تغيير أخلاقك وطباعك إلى الأحسن، والتخلّص من سيّئها ورديئها: فإنك ستمر بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: ستكون هذه القواعد في الأخلاق والتعامل نظريّة لم تتشرَّبها تمام التشرب، ولم ترسخ في ذهنك، ويستوعبها عقلك، ولم تتمرن على العمل بها، وهذا في كلِّ علم وفنّ.

ولن ترى تغيرًا واضحا في أخلاقك وتعاملك، إلا في حالات قليلة.

المرحلة الثانية: وهي المرحلة المتوسطة، حيث ستكرر النظر في هذه القواعد، وستحاول العمل بها، وتعتاد عليها.

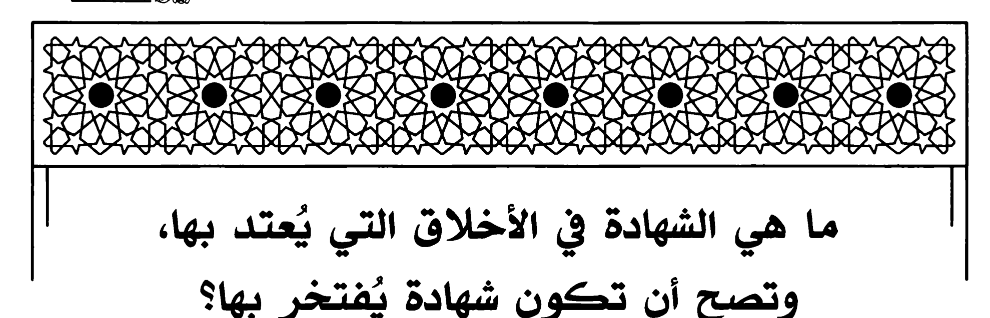
وسترى التغير الواضح في أخلاقك وتعاملك، وسيرى ويلحظ الناس منك هذا التغير.

ولكنك ستستحضر في كلِّ موقف ما يُناسبه من هذه القواعد، وتحاول تطبيقها بتكلُّف وصعوبةٍ ومُجاهدة، وربما لم تنفع هذه القواعد في بعض المواقف فترجع إلى طبعك القديم.

المرحلة الثالثة: وهي المرحلة الأخيرة، وهي التي تكون قد تشبّعت من النظر في قواعد الأخلاق مدة طويلة، وعملت عليها، وطبقتها مرارًا وتكرارًا.

وسترى المواقف التي كنت تراها صعبةَ التحمُّل، وتُثير غضبك حتى تخرجك عن طورك: سهلة عاديّةً لا تستحق منك الغضب ولا الاهتمام بها، وحينما تمرّ بك مواقف كانت تُثير غضبك سابقًا وتأخذ منك كلّ مأخذ: ستراها مواقف عاديّةً جدًّا، ولا تستحقّ أن تغضب لها، وأنْ تُشغل بالَك لأجلها.





ما هي الشهادة في الأخلاق التي يُعتد بها، وتصح أن تكون شهادة يُفتخر بها؟

إنَّ كلَّ شهادةٍ تصدر من أهل الاختصاص فهي الشهادة المقبولة التي يحق لصاحبها أن يفرح بها.

فالشهادة في العلم التي تصدر من عالم شرعيّ: مقبولة مُعْتدٌّ بها، وهي وسام شرف لصاحبها.

والشهادة في الأدب التي تصدر من عالم أديب: مقبولة مُعْتدٌّ بها، وهي وسام شرف لصاحبها.

ولكن ما هي الشهادة في الأخلاق التي يُعتد بها، وتصح أن تكون شهادة يُفتخر بها؟

إننا نجتهد في حسن التعامل مع الأكابر والأقران ومن تربطنا بهم مصالح، وقد يُبالغ بعض الناس في حسن تعامله معهم، وكرمهِ لهم، ومن الْبَدَهيّ أن يشهدوا له بحسن الأخلاق، وكرم الطباع، ولكن قد يكون المشهود له إنما أحسن تعامله لمصلحة له معهم، أو رغبةٍ في تجنب أذاهم وما يكدّر خواطرهم فيخسرهم.

ولكن الشهادة الصحيحة التي لا تعتريها أدنى شبهة في صحتها وقوتها وسلامتها من أي غرض:

١ ـ شهادة العدو المبغض.

وهذه هي المقدَّمَة، وقلّ من يحوز عليها.

وقد حاز عليها العظماء، كشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي قال عنه أحدُ ألدّ أعدائه من معاصريه: «ما رأينا مثل ابنِ تَيْميَّةَ، حرَّضْنا عليه فلم نَقْدر عليه، وقَدَرَ علينا فصفح عنَّا وحاجَجَ عنَّا»(١)

٢ ـ شهادة الفقراء والمساكين من الناس، الذين لا تربطه بهم أي مصلحة من عمل أو غيره.

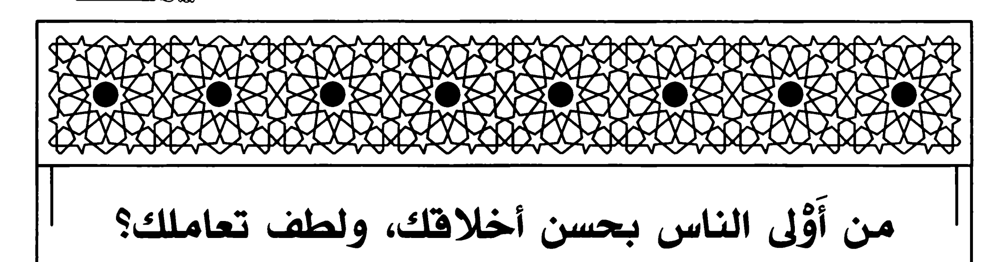
فمن شهد له هؤلاء على اختلاف أعمالهم وجنسياتهم بالأخلاق الفاضلة، فهي الشهادة التي يحق له أن يفرح بها، ويجعلها ذُخرًا له يوم القيامة؛ لأنها خالصةٌ من حظوظ النفس والمصالح الدنيويّة والشخصيّة.

٣ ـ شهادةُ أحد الزوجين للآخر، وكذلك أهل البيت الواحد، حيث إنّ كثرةَ الخلطةِ تُجلّي أخلاقَ الإنسان.

وحسن التعامل مع هؤلاء يدل على تجذر ورسوخِ الأخلاق في القلب، وعدم التصنّع والتكلّف.



(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٥٤.



من أَوْلى الناس بحسن أخلاقك، ولطف تعاملك؟

هناك أناس يتحتم على المسلم أن يزيد في حسن تعامله معهم، ويحرص على ملاطفتهم والعناية بهم، وهم:

١ ـ الوالدان، وهما أحق الناس ببرك ولطفك وحسن أخلاقك، والأدلة من الكتاب والسنة مُسْتفيضةٌ وصريحةٌ في وجوب برهما، والقيام بحقهما:

قال الله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ أي وصَّى بتوحيده وإفراده بالعبادة، وأمر ببرهما والشفقة والعطفِ عَلَيْهِمَا.

ثم أكَّدَ على الابن والابنة ذلك حال كبر والديهما فقال سبحانه: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي لا تُسمعهما قولًا سيئًا، حتى ولا التأفيف، الذي هو أدنى مراتب القول السَّيِّئ.

قال الحسين بن علي رضي الله عنهما: (لو علم الله شيئًا من العقوق أدنى من الأفّ لحرّمه).

فإذا كان قول أفٍّ لا يجوز، فكيف بمن يرفع صوته عليهما، أو يرد عليهما، كيف بمن يعصي أوامرهما، ولا يلبي طلباتهما في غير معصية الله، بل وكيف بمن يسبهما ويرفع يده عليهما والعياذ بالله.

ثم تأمّل قوله سبحانه: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾، فكلمة: ﴿عِندَكَ﴾ تدلّ على معنى التجائهما واحتمائهما وحاجتهما، فلقد أنْهَيَا

مُهمتهما، وانقضى دورهما، وابتدأ دورك، وهاهي مهمتك: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

فيجب عليك أَنْ تتولى خدمتهما وهما في هذا السنّ الكبير، فطالما قامَا بخدمتك وتنظيفك، «وَكَيف يَقع التَّسَاوِي وَقد كَانَا يحْملَانِ أذاك راجين حياتك وَأَنت إِن حملت أذاهما رَجَوْت مَوْتهمَا»![1]

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي ولا يصدر منك إليهما فعلٌ قبيح، قال عطاء بن رباح رحمه الله تعالى: أي لا تنفض يدك عليهما.

ثم بالغ في الأمر ببرهما فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ أي لينًا طيبًا حسنًا بتأدب وتوقير وتعظيم.

ثم زاد على ذلك فقال: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي تواضع لهما بفعلك، مُتذلّلًا مُسْتكينًا، خافضًا صوتك عند حديثك معهما، وَقُل دائمًا وأبدًا: ﴿رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ أي: الطف بهما في كبرهما وعند وفاتهما[2].

وثبت في الصَّحِيحَيْنِ[3] أنَّ رجلًا جَاءَ يسْتَأْذن النَّبِي ﷺ في الْجِهاد معَه فقال النَّبي ﷺ: أَحَيٌّ والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فَجاهد.

فانْظُر كيف فضَّل بِرَّ الْوَالدين وخدمتهما على الْجِهاد في سبيل الله تعالى، مع ما فيه مِن بذل الروح والنفس في سبيل الله.

وفِي الصَّحيحيْن[4] أن رسُول الله ﷺ قال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» ثلاثًا، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**».

فانْظُر كيف قَرن الْإساءَة إليهما وعدم الْإحسان والْبر بهما بالإشراك بالله تعالى.

---

(١) الكبائر للذهبي: ١/ ٣٩.
(٢) يُنظر: تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٦.
(٣) البخاري (٣٠٠٤)، ومسلم (٢٥٤٩).
(٤) البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

أحد الفضلاء الصالحين ـ ولا أزكي على الله أحدًا ـ كان له أب فيه مرضٌ نفسيّ، وكان يؤذيه كثيرًا بسبّه له فيرأف به، ويصبر على أذاه، وكلما جاء إليه طرده دون سبب، واستمرّ على ذلك سنوات، والعجيب أنّ والده إذا أراد سفرًا اتصل عليه ليذهب به، فيبادر إلى ذلك، مع ما ناله من أذى وسبّ وطرد.

إنه البرّ الذي لا يُوَفَّق له إلا تقيّ صالح، جعلنا الله من البارين بوالديهم.

٢ ـ الزوجة، قال الصادق المصدوق ﷺ ـ: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**»[١]

قال الشوكانيّ رَحِمَهُ اللهُ: في ذلك تنبيه على أعلى الناس رتبة في الخير، وأحقهم بالاتصاف به هو من كان خير الناس لأهله، فإن الأهل هم الأحقاء بالبِشْر وحسن الخلق والإحسان وجلب النفع ودفع الضر، فإذا كان الرجل كذلك فهو خير الناس وإن كان على العكس من ذلك فهو في الجانب الآخر من الشر، وكثيرًا ما يقع الناس في هذه الورطة، فترى الرجل إذا لقي أهله كان أسوأ الناس أخلاقا وأشجعهم نفسا وأقلهم خيرًا، وإذا لقي غير الأهل من الأجانب لانت عريكته وانبسطت أخلاقه وجادت نفسه وكثر خيره، ولا شك أن من كان كذلك فهو محروم التوفيق زائغ عن سواء الطريق، نسأل الله السلامة. اهـ[٢]

٣ ـ أولادك وفَلَذاتُ أكبادك، فهم أغلى ما تملكه في حياتك بعد دينك ووالديك، وهم من أعظم أسباب سعادتك أو تعاستك، فبصلاحهم واسْتقامتهم: يرتاح بالُك، وتَصفو حياتُك، وبفسادهم وتمرُّدِهم: تتكَدَّر حياتُك، وتتجرَّعُ الأسى والألم.

---

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٨٩٥) وَصَحَّحَهُ.

(٢) نيل الأوطار: ٦/٢٤٥ ـ ٢٤٦.

فالأولاد ثروتك في حياتك، ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

وإنَّ الْمُربيَ العاقل مَن يسعى للحفاظ عليها وتنميتها ومراقبتها، ويطلُب الطُرُقَ والوسائل التي من خلالها يتمكن من تربيتهم التربية الصحيحة، وذلك يتطلّب بذل الوقت والجهد والمال، وهذا والله هو العمل المخلوف بالدنيا والآخرة.

وإذا كانت لك على أولادِك حقوقٌ مشروعة، فعليك واجباتٌ ومسؤولية، قال ابن القيم رحمه الله ـ مُؤكِّدًا هذه المسؤولية ـ: قال بعض أهل العلم: إن الله سبحانه يسأل الوالد عن ولده يوم القيامة، قبل أن يسأل الولد عن والده، فإنه كما أن للأب على ابنه حقًا، فلِلْابْنِ على أبيه حقٌّ.

فكما قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ قال أيضًا: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، فوصية الله للآباء بأولادهم سابقةٌ على وصية الأولاد بآبائهم، فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه، وتركه سدى، فقد أساء غاية الإساءة، وأكثرُ الأولاد إنما جاء فسادهم مِن قِبَل الآباء، وإهمالِهِم لهم، وتركِ تعليمِهِم فرائضَ الدين وسنَنَه، فأضاعوهم صغارًا، فلم يَنْتَفِعوا بأنفسهم، ولم يَنْفَعوا آباءَهم كبارًا. اهـ[١]

فاحرص على الرفق بهم، وإكرامهم بمالك ومشاعرك وحنانك، والمسارعة إلى تزويجهم عندما يحين وقته، وجنّبهم ما يضرّهم في دينهم ودنياهم.

ومما أفادتني التجارب بعد توفيق الله: أنْ يكون لأهلي وأولادي

(١) تحفة المولود ١/ ٢٢٩.

النصيب الأكبر من الدعوة والنصح، والبر والإحسان، والجلسات والنزهات والانبساط.

فقد رأيت من جعل دعوةَ الأباعد جلّ اهتمامه وشُغْل وقته، فغلب على أولاده وأهله الجهل والغفلة.

ورأيت من جعل جلّ نزهاته وجلساته وأُنسِه مع أصدقائه، فقويت علاقته بهم، وضعفت أو تلاشت مع أهله وأولاده، حتى أصبح لا يأنس بهم، ولا يأنسون به.

٤ ـ الصديق الوفيّ، الذي هو من أنفس وأندر المكاسب في هذه الحياة، ولو حزت الدنيا كلها بدونه كانت ناقصة.

وأعني بالصديق الوفيّ: الذي يبحث عن رضاك، ويسارع إلى لقاك، ويُقربك إلى مولاك، ويستر عيبك، ويلتمس عذرك، ويتحاشى سخطك، ويحتمل غضبك، ويكون رهن إشارتك.

والصداقة مراتب، وهذه أعلاها.

ما في زمانك من يَعُزّ وجودُه   إنْ رُمْتَه إلا صديقٌ مخلص

وكثير من الأصدقاء يأتي بهذه الخصال عدا احتمال الغضب؛ فلا يكاد يأتي بهذه الخصلة إلا النادر من الأصدقاء، الذين فهموا معنى الوفاء، وحفظوا حقّ الصحبة، وعرفوا أنها كما تكون في الرخاء تكون في الشدة، وأقوى الشدائد: احتمال غضب أصدقائهم، وغالب الأصدقاء يقفون مع أصدقائهم عند إعسارهم، وضيقهم المالي، وربما استدانوا لأجلهم، ولكن لا يكاد أحدهم يحتمل صديقه عند غضبه عليه، وشدة عتابه له، والصالح منهم من يكظم غيظه ولكنه يُفارقه فراقًا لا رجعة بعدها.

كنت يومًا مع مجموعة من الأصدقاء، فأراد أحدهم أن يُحسن إلى

صديقه فتكلم معه بكلام فغضب، وما علم صديقه أنه يُغضبه، وربما كان صديقه حينها في توتر من أمر ما، فغضب عليه أشد الغضب، وعاتبه أشد العتاب، ولامه لومًا لم أسمع بمثله، فحاولت تهدئته والْتماس العذر لصاحبه، وصاحبه يحتمله ويُخاطبه بلين ورفق، واستمرت علاقتهما بعد ذلك ولم تتأثر أبدًا، فسألته بعد ذلك عن احتماله لغضبه، وعتابه القاسي أمام أصحابه، وثباته على صحبته له مع شدّة ما جرى له، فقال: لصاحبي فضل وإحسان سابق، لن يمحوه تلك الزلة، وحرصت على نسيان ما فعل حتى يبقى صدري سليمًا عليه.

وللصداقة أركان أربعة:

١ ـ التضحية لأجل الصّديق فيما لا ضرر فيه ولا محذور فيه شرعا وعرفًا.

٢ ـ تلمّس حاجاته وما يحبّ.

٣ ـ تقديم رغبته في صحبتك له في السفر والنزهة على رغبتك في الدّعة أو القيام بالأشغال اليسيرة غير الضرورية التي يمكن تأجيلها.

٤ ـ احتمال زلاته؛ لأنك توقن أنه لم يقصد الإساءة إليك، ولو لم تبلغ هذا اليقين ما كان صديقًا، وليس من المروءة والأدب أنْ تغضب على صديق يُحبك ويحرص على برّك والإحسان إليك.

أحد الأصدقاء اجتهد في أمر تجاه صديقه، وهو أمر يُضايق صديقه ويكرهه، فاتصل عليه وقال بعد السلام والتحية: هل فعلت كذا وكذا؟ قال: نعم، فقال: أعلم أنك تقصد الإحسان والخير، ولكن هذا الأمر يُضايقني، وأنا أعلم أنك لم تقصد مضايقتي، وأخبره بسبب ضيقه منه.

فانظر إلى هذا التصرف الحكيم.

ومن لم يحقق هذه الأركان كلّها فلا يتبجح بأنه صديق.

وما أجمل أن يُعامل الصديق صديقه كما كان يُعامل الشيخ العابد عماد الدين إبراهيم بن عبد الواحد أصدقاءه، قال أبو إِبْرَاهِيم التنوخي: كَانَ الشيخ العماد جوهرةَ العصر، وَذَلِكَ أَن واحدا يصاحب شخصا مدة ربما تغير عَلَيْهِ، وَكَانَ الشيخ العماد مَن صاحَبه لا يرى منه شَيْئًا يكرهه قط، كلما طالت صحبته ازداد بِشْره، ورأى منه مَا يسره، وَهَذَا شَيْء عظيم، وليس يَكُون كرامة أَعْظَم من هَذَا. اهـ[(١)]

فكن بشوشا مع صديقك.

خادما له.

باحثًا عمَّا يرضيه ويؤنسه.

ويربطك بالصديق الذي أحببته في الله رابطان:

١ ـ الحب في الله، وهو محبتك له لأجل صلاحه مع ربه.

٢ ـ الصداقة، وهي محبتك له لأجل صلاحه معك.

ومتى انحلّ رابط الصداقة فلا يجوز أن ينحلّ رابط المحبة؛ لأنها في الله، وهي أوثق عرى الإيمان، والصداقة يعتريها الفتور، بخلاف الحب في الله.

وفتورك في لقائك معه لا يعني انقطاع الحب في الله.

٥ ـ الجار، وقد كان جبريل عليه السلام يُوصي النبي ﷺ بالجار كثيرًا، حتى ظنّ أنه سيجْعلُ له ميراثًا، قال النبيّ عليه الصلاة والسلام: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه**»[(٢)]

أي: توقعت أنْ يأتيني بأمر من الله تعالى يجعل الجار يرث من

---

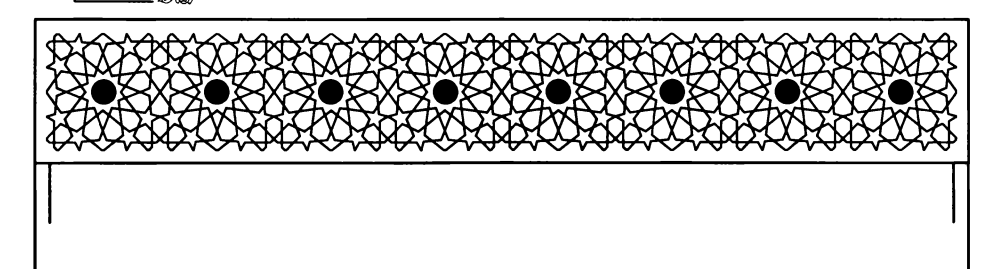
(١) ذيل طبقات الحنابلة (٣/ ٢٠٣).

(٢) رواه البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥).

جاره إذا مات، كأحد أقربائه؛ وذلك من كثرة ما شدد في حفظ حقوقه والإحسان إليه.

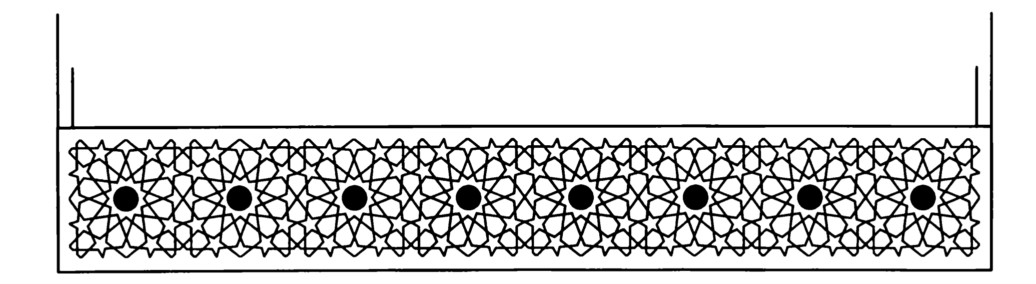
أعرف رجلًا بنى جدارًا ملاصقًا لجدار جاره وأرفع منه، وهو مخالفٌ للنظام المعمول فيه في بلده، ولم يكن عنده علم بأنَّ هذا مخالف للنظام، وقد تأذى جاره بسبب هذا الجدار، وسقط على بيته بعض قطع الإسمنت جراء بنائه، فمرّ موظف البلدية فرأى عمّال البناء وهم يبنون الجدار، فوقف عنده ليكتب مخالفة عليه، فرآه جاره وعلم أنه يكتب خالفة على جاره، فقال له: أنا جاره وقد رضيت بالذي فعل جاري، وليس لك حقّ ما دمتُ قد رضيت، فقال له: هذا يضرك، فقال: لا عليك، والمهم ألا يصل إلى جاري أذى مني، وأما أنا فأحتمل أذاه.

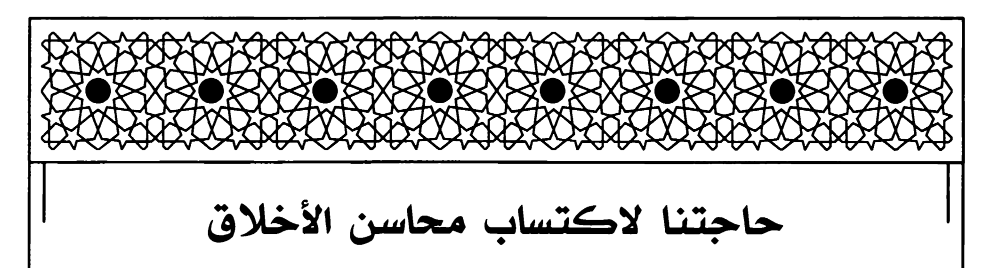




أهميّة الأخلاق ومكانتها

تقدم الكلام عن أهميّة الأخلاق، وسأبسط الحديث بتفصيل أكثر بمشيئة الله تعالى:





حاجتنا لاكتساب محاسن الأخلاق

حسن الخلق عبادة نُؤجر عليها إذا احتسبناها عند الله تعالى، فنحن محتاجون أشد الحاجة للتحلي بالأخلاق الحسنة، وحسن الخلق من صفات عباد الله المتقين، فلا يكون العبد متقيًّا لله تمام التقوى ما لم يكن حسن الأخلاق.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ كثيرًا من النَّاس يظنُّ أنَّ التقوى هي القيامُ بحقِّ اللهِ دونَ حقوق عباده.

وقد عدَّ الله تعالى في كتابه مخالقة الناس بخلق حسن من خصال التقوى، بل بدأ بذلك في قوله سبحانه: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

وقد جعل النَّبيُّ - ﷺ - حسن الخلق من أحسن خصال الإيمانِ، كما خرَّج الإمام أحمد وأبو داود من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ - ﷺ - قال: «**أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**».

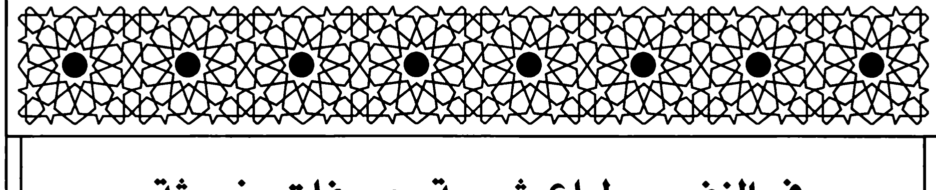
وأخبر النَّبيُّ - ﷺ - أنَّ صاحبَ الخلق الحسن يَبلُغُ بِخلقِه درجةَ الصَّائم القائم؛ لئلا يشتغِلَ المريدُ للتقوى عن حسن الخلق بالصَّوم والصلاة، ويَظُنُّ أنَّ ذلك يقطعه عن فضلهما. اهـ(١)

وحاجتنا لا تقتصر على الثواب المترتب عليه، بل العاقل يسعى

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٥٥).

لتحسين أخلاقه ليعيش حياة سعيدة مع نفسه ومع الآخرين؛ فإنّ سيئ الخلق يفتح أبواب المنغصات والمكدرات على مصراعيها، تتوارد عليه من كلّ جهة، وقد تكون إحداها قاصمة الظهر التي تُرْدِيه قتيلًا، أو تلقيه على فراشه مريضًا، أو تأخذ به إلى غياهب السجون، ويصنع له ـ بسوء أخلاقه ـ أعداءً يكونون عليه كالغصّة التي تكدّر عليه صَفْو الحياة، وتنمحي عنه محاسن ما فيها وهي مليئة وكثيرة، لكنها أصبحت في نظره قبيحة؛ لأنّ نظرته إلى الحياة وإلى الناس كانت كذلك، أو تعامله مع الحياة ومع الناس كان كذلك.





في النفس طباع شرسة، وصفات خبيثة، ومن لم يُجاهد نفسه في زوالها اسْتولت عليه فأهْلكته

خلق الله تعالى عباده حنفاءَ مستقيمين على الدين الصحيح، والأخلاق السليمة، فأتتهم الشياطين فأزالوهم عما كانوا عليه(١)، فانحرف دينهم، وساءت أخلاقهم، وقبحت طِباعهم، إلا من شاء وهدى الله.

وقد وصف الله تعالى الإنسان بأنه ظلوم، جهول، هلوع، خاسر، كنود، كفار.

فالنَّفس فِيها «كِبر إِبْلِيس، وحسد قابيل، وعتو عَاد، وطغيان ثَمُود، وجرأة نمْرُود، واستطالة فِرْعَوْن، وبغي قَارون، وَجَهل أبي جهل، وفيهَا من أَخْلَاق الْبَهَائِم حرص الْغُرَاب، وشره الْكَلْب، ودناءة الْجعل، وعقوق الضَّب، وحقد الْجمل، وصولة الْأسد، وَفسق الْفَأْرَة، وخبث الْحَيَّة، وعبث القرد، وَجمع النملة، ومكر الثَّعْلَب»(٢)

غير أنّ الاستعانة بالله تعالى، وكثرة المجاهدة في إزالة هذه الأمراض والخبائث، والتخلص من هذه الأوصاف: تُذهب تلك الأمراض، وتزيل عنه تلك الأوصاف، فَمن استرسل مَعَ طبعه، ولم يعتن بصلاح نفسِه وقلبه: أصبح خبيث النفس، جامعًا لكلّ شرّ.

وكلُّ من فرَّط في إصلاح قلبه وأخلاقه، ولم يبذل وسعه في

---

(١) ثبت ذلك في صحيح مسلم (٢٨٦٥). (٢) الفوائد لابن القيم (ص: ٧٥).

التخلص من هذه الأمراض: فإنه سينشأ ويكبر وهو متصفٌ بهذه الأمراض الخطيرة أو بعضها، والتي ستظهر على سلوكه وتعامله.

ولا يعني علو كعب الرجل في العلم وكونه معدودًا في العلماء أنه سالم من أمراض القلب، حسنُ الأخلاق، حليمٌ كريمٌ متواضعٌ رفيقٌ، فقد يكون القدوةُ في المجتمع كطالب العلم أو العالم أو المعلّم أو الداعي إلى الله ـ ولو كان مشهورًا ـ فيه مرض محبة الشهرة، أو العجب، أو اتباع الهوى، أو احتقار من هو دونه، أو سوء الخلق؛ كشدة الغضب، أو القسوة على الطلاب أو عموم الناس، أو عدم البشاشة، أو عدم تقبل النقد البنّاء، وتتنامى فيه بعض هذه الخصال الذميمة ولا يُجاهد نفسه في إزالتها فترديه.

فاحرص ـ رعاك الله ـ على صلاح أخلاقك، وطهارةِ قلبك، وتخليصِه من الأمراض الكثيرة الخطيرة.

«وهذه الصفات مهلكات في أنفسها يجب إماطتها وقهرها، ولا يكفي تسكينها بالتباعد عما يحركها.

ولهذا كان السالكون لطريق الآخرة الطالبون لتزكية القلوب يفتشون عن قلوبهم، ويُحاسبون أنفسهم.

ومثل القلب المشحون بهذه الخبائث: مثال دُمَّلٍ ممتلئ بالصديد، وقد لا يحسّ صاحبه بألمه ما لم يتحرك أو يمسّه غيره، وما لم يكن مَن يحركه ربما ظن بنفسه السلامة، ولكن لو أصابه مشرط حجام لانفجر منه الصديد وفار فوران الشيء المختنق إذا حبس عن الاسترسال.

فكذلك القلب المشحون بالحقد والبخل والحسد والغضب وسائر الأخلاق الذميمة، إنما تتفجر منه خبائثه إذا حرك»[1]

فالواجب على كلّ ناصحٍ لنفسِه أن يحرص على التخلص منها.

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٤٢).



حسن خلق العالم وطالب العلم والمعلّم يحبب الناس بهم وبعلمهم

ينهل ويستفيد الناس من أدب وأخلاق العالم أكثر من علمه، كما هو مشاهد وملموس، وإذا اتّصف العالم وطالب العلم والمعلّم بحسن الخلق أحبه الناس، وأحبوا العلم الذي يحمله، وقبلوه منه، واستمعوا له ولمواعظه ونصائحه، بخلاف سيِّئ الأخلاق، فإنه قلّ من استفاد منه.

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ (٦٧٣ ـ ٧٤٨) في ترجمته لأحد العلماء: العلامة، مفتي المسلمين، بقية السلف ـ ثم ذكر اسمه وقال ـ: وكان من كبار أئمة العصر: قرأ بالروايات على السخاوي، ولو أراد لما عجز عن إقرائها، فإنه كان إماما في العربية، لكنه كان ضيق الخلق، فلم يُقْدَر على الأخذ عنه، مشتغلًا بنفسه. اهـ[(١)]

وقالَ عبيد الله بْن أَحْمَد الصيرفي رَحِمَهُ اللَّهُ عن أحد العلماء: «كَانَ صلب الدِّين، خشن الطريقة، شرس الأخلاق، فلذلك لم تنتشر الرواية عَنْهُ»[(٢)]

فكثيرًا ما يُحرَم العالم من انتفاع طلاب العلم خاصة والناس عامة به بسبب سوء خلقه، وشراسة طبعه، وعدم احتماله وصبره، فلم يقدر طلاب العلم على أن يستفيدوا منه، وينهلوا من علمه.

---

(١) معرفة القراء الكبار (٣/١٤٤٨)، غاية النهاية في طبقات القراء (١/١٦٦).

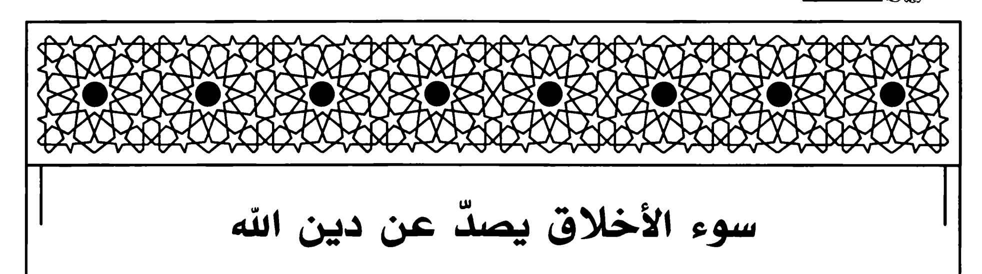
(٢) طبقات الحنابلة (٣/٧).

وقد وُئِد علم أمثال هؤلاء العلماء في حياتهم بسبب سوء أخلاقهم، ولا أثر لهم بعد مماتهم، نعوذ بالله من سوء الخلق.

وما قيمة علم العالم إذا لم يستفد الناس منه؟

فليست البركة بكثرة العلم، ولكن بانتفاع العالم وطالب العلم بعلمه، ونشره للناس وانتفاعهم به.





سوء الأخلاق يصدّ عن دين الله

سوء الأخلاق والتعامل من أعظم أسباب الصد عن سبيل الله تعالى إذا صدر من عامّة المسلمين، ويعظم ويشين إذا صدر من أهل العلم والفضل والدين، فإنهم بقسوتهم، أو كذبهم، أو مداهنتهم، أو خداعهم، أو ارتشائهم: يصدون الكفار عن الإسلام، ويصدون ضعفاء المسلمين عن الاستقامة، ويَفُتُّون من حماس ونشاط المستقيمين من أهل العلم والدين.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلًا أي خديعة ومكرًا، لئلا تزل قدم بعد ثبوتها: مَثَلٌ لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فانصدّ بسببه عن الدخول في الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾. اهـ(١)

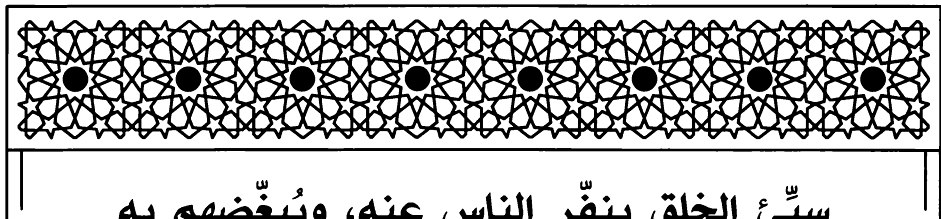
فالله تعالى ذكر أنّ سوء أخلاقهم وفساد تعاملهم هو صدّ عن سبيل الله، ولو لم يكونوا قد قصدوا ذلك.

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٠٠).

وهذه الآية تحذرنا أشد التحذير من سوء الخلق، وفساد التعامل، كالكذب والخداع والمكر.





سيِّئ الخلق ينفّر الناس عنه، ويُبغّضهم به

سيِّئ الأخلاق من أضيق الناس صدرًا، ويتحاشاه الناس وينفرون منه ومن مجالسته، ويتحفّظون بكلامهم وتصرّفاتهم عنده؛ خشية من بذاءة لسانه، أو شدّةِ انفعاله، أو ارتكابه حماقةً تعود عليهم بالهمّ والضيق والنكد.

أعرف رجلًا سيِّئ الخلق، شرس الطباع، ولا يكاد يبتسم أبدًا، ومهما قابلتُه أنا أو غيري فإنّه لا يبتسم، وكنت إذا رأيتُه أجد الضيق في نفسي؛ لأنّ قسمات وجهه العابس يُصيب القلب بالْهَمِّ، والنفس بالنّكد، وكثيرًا ما كنت أتصدد عنه مخافة رؤيةِ وجهه المخيف.

ثم أصيب بحادث شنيع، وبعد مدة طويلة من العلاج والعمليّات خرج من المستشفى، لا يكاد يمشي من شدة ما أصابه، ولا يكاد يقف من الكسور التي حلّت به.

ثم صلى بالمسجد فقمت لأسلم عليه فانبهرت من طلاقة مُحياه، وبشاشة وجهه!

ويا لله ما أجمله وأحسنه، وكم كان قبل ذلك قبيحًا مُنفّرًا مُوحشًا!

وعلمتُ أنّ الله تعالى سلبه صحّة بدنه وعوّضه صحّة وجهه، فأصبح بَشُوش الطَّلْعَة، مُتَهَلِّل الْغُرَّة، وَضَّاح الْمُحَيَّا، حَسَن الْبِشْرِ.

فقلت له بعد ذلك: يا فلان، والله لقد كنت أكره لقاءك قبل أنْ تُصاب بالحادث، وأجد نفرة منك!

فقال: وَلِمَ؟

قلت: لسوء أخلاقك، وعبوس وجهك، ومُفارقة البسمة شفتيك، وتقطيب جبينك، وأما الآن، فوالله إني أستمتع برؤياك، وأسعد بلقائك، وأفرح بقدومك.

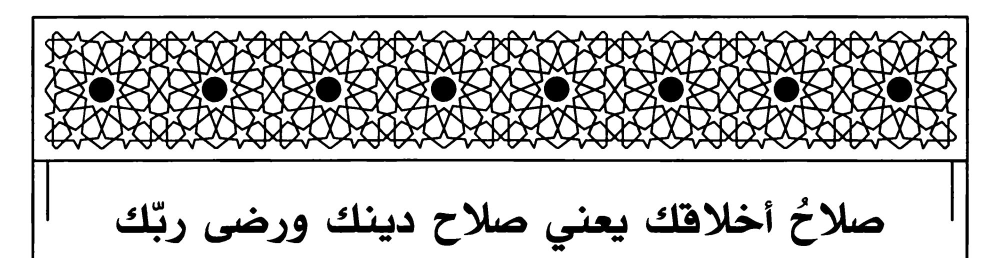
فانظر كيف أثّر سوء الخلق وحُسنه على الإنسان وعلى من حوله.

فالعَابِس الْمُقَطِّب يُدخل الهمّ والحزن والضيق في صدور الناس من حيث لا يشعر.

ومن فارق البشاشة: فارقه الناس.

ويا ليت سيئ الخلق والعابس يستحضر ما يُسببه من الضيق والهم والغم في نفوس الناس ومَن يُقابلهم؟





صلاحُ أخلاقك يعني صلاح دينك ورضى ربّك

أثنى الله تعالى في كتابه على عباده المتقين والصالحين، ولكن ما هو الصلاح والتقوى؟

هل هو إلا علاقةٌ صالحة مع ربك ومع الناس.

تصلي لله، وتنفق مالك للناس ابتغاء وجه الله.

تصوم لله، وتبتسم في وجوه الناس.

تحج لله، وتكظم غيظك عن المسيء.

تذكر الله تعالى، وتبرّ بوالديك، وتصل رحمك، وتعفو عمن ظلمك، وتكرم جارك وضيفك، وتتواضع لمن هو دونك، وتحسن إلى من أساء إليك.

وهل الصلاح أن تصلي وقلبك مشحون بالأحقاد على مسلم يصلي معك؟

هل الصلاح أن تصوم عن الطعام والشراب، ولا تصوم عن إيذاء الآخرين بالغيبة والنميمة والسب والاستهزاء؟

هل الصلاح أن تتضرع إلى الله أن يعفو عنك وأنت المسيء، وتأبى أن تعفو عمن أساء إليك؟

حينما ذكر الله سبحانه صفات عباده المتقين قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ

وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

فانظر كيف بدأ بإحسانهم على الناس بالمال وكظم الغيظ والعفو، ثم ذكر بعد ذلك إحسانهم مع الله بترك المعاصي وطلب المغفرة.

وقرن الله تعالى الأمر بعبادته بالأمر بالإحسان إلى تسعة أصناف:

١ ـ الوالدين.

٢ ـ والأقارب.

٣ ـ واليتامى.

٤ ـ والمساكين.

٥ ـ والجار القريب.

٦ ـ والجار الذي ليس له قرابة.

٧ ـ والصاحب بالجنب، وهو الصاحب في الحضر والسفر، والزوجة.

٨ ـ وابن السبيل، وهو: الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتج.

٩ ـ وما ملكت أيمانكم، أي: من الآدميين والبهائم.

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ﴾.

والمعنى: «ذِلُّوا لله بالطاعة، وآمركم بالوالدين إحسانًا ـ يعني برًّا بهما ـ واستوصوا بهؤلاء إحسانا إليهم، وتعطَّفوا عليهم، والْزموا وصيتي

في الإحسان إليهم»[١]

فانظر كيف قرن حقوق الناس بحقّ الله الخالق جل وعلا.

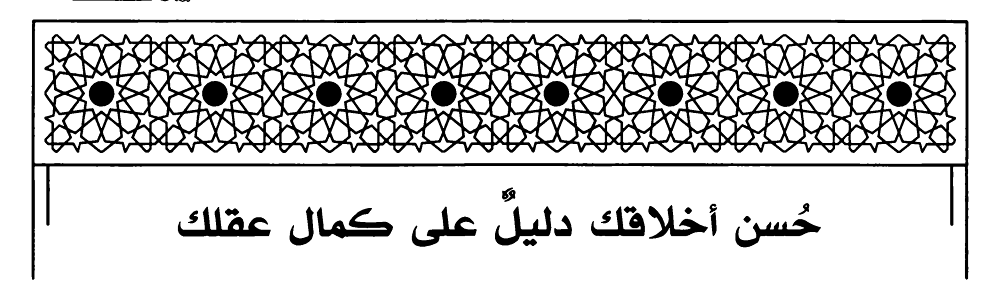
وقرن الأمر بالصلاة بالأمر بالزكاة فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وقرن طاعته وطاعة رسوله ﷺ بالنهي عن الفرقة والاختلاف فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟﴾.

فلن تكون صالحًا متقيًا لله تعالى حتى تكون صالحًا في أخلاقك وتعاملك مع الناس.



(١) تفسير الطبري (٨/ ٣٣٣).



حُسن أخلاقك دليلٌ على كمال عقلك

الناس يستدلُّون على عقل الرجل بحسن أخلاقه، وعلى حمقه وقلة عقله بسوء أخلاقه.

والعقل في اللغة: ضبط الشيء وحبسه؛ لِأَنَّه يعقل صاحبه عن الْجهل، وإذا دعاه طبعه إلى فعل قبيح كان عقلُه مانعا له من الإقدام عليه، ومنه قيل للحبل الذي يُشدّ به ذراعُ البعير عقال؛ لأنه يعقله ويحبسه عن الحركة، ومنه قيل للذي يوضع على الرأس عقال؛ لأنّه يمنع الغترة عن السّقوط والاضطراب.

فمن حبس نفسه ومَلَكها واستطاع السيطرة عليها في مواطن ثلاثة فهو العاقل حقًّا:

١ ـ عند الشهوة، فيمنعها ما تشتهي وتحبّ إذا كان في ذلك ضرر عليه في دينه أو دنياه.

٢ ـ عند الغضب، فيمنعها من الانتقام لنفسه، ويكظم غيظه، إلا إذا كان في سبيل الله والدفاع عن دينه وشرعه، فالغضب لله محمود.

٣ ـ عند المصائب، فيمنعها عن الجزع والتَّسَخُّط.

ويقلّ عقله بقدر ضعفه عن حبس نفسه عن بعضها.

أما من لم يملك نفسه عند هذه الأمور الثلاثة كلّها فليس عاقلا، ولو كان صاحب منصب أو مال.

وإذا كان كذلك: كان لزامًا عليك أن تسعى سعيًا حثيثًا في اكتساب

أحسن الأخلاق، وهجر سيّئها؛ حتى تُعدّ من العقلاء، ويحترمك الناس، ويأخذوا برأيك، ويعرفوا قدرك، ويحتكموا إلى علمك، ويعملوا بمشورتك.

والعقل ينمو كما تنمو الأعضاء، ونموّه بالتمسك بالدين الصحيح، والأخلاق الحسنة، والإخلال بأحدهما يؤدّي إلى نَقْص العقل.

والعقل نوعان:

أحدهما: عقل بالفطرة، حيث ينشأ بعض الناس منذ صغره عاقلًا فطنًا.

والثاني: عقل مُكتسب، حيث ينشأ بعضُ الناس قليلَ الحكمة، شرس الطباع، تميل كثير من أقواله وأفعاله إلى الطيش والحمق والسّفه، ثم يبدأ بعد ذلك بتنمية عقله عن طريق التجربة والخبرة، ومُجالسة العقلاء أو قراءة سيرهم، وربما فاق عقلا وذكاء وحكمة وحنكة وأدبًا من كان عاقلا بالفطرة.

ألم تر أن العقل زين لأهله وأن كمال العقل طول التجارب

وبالأخلاق نعرف العاقل من الأحمق.

وكلّما أخذ الإنسان منها حظًّا وافرًا ازداد عقلُه، وأصبح حكيمًا لبيبًا فطنًا، ولو لم يكن قبل اكتسابها كذلك.

فكم من إنسان كان يُنسب إلى قلة العقل والحكمة، بسبب سوء أخلاقه، وقبح طباعه، حيث تراه شديد الغضب، قليل الأدب، متَّبعًا لهواه، يتصرف بلا رويّة، ويتكلم بكل شيء وفي كلّ شيء ومتى شاء، غير مراعٍ للجليس ولا للوقت المناسب.

ثم يتدارك نفسه، ويُحسُّ بقبح طباعه، وسوء أخلاقه، فيبدأ باكتساب الأخلاق الحسنة، عبر التعلّم والقراءة، ومجالسة أصحاب

الأخلاق الحسنة، حتى يُصبح من أعقل العقلاء، وأحكم الحكماء.

وهذا شيء ملموس ونراه واقعًا.

وليس المقصود بالعقل الذي تُدرك به الأشياء فحسب، وإلا لكانت البهائم من أعقل الكائنات؛ لأن كثيرًا منها يرى في الليل بوضوح، وتَمْتَلِكُ حواسًّا أقوى مِن حواسّ البشر.

ولا الذي تُحصّل به المال، وإلا لكان قارون أعقل الناس!

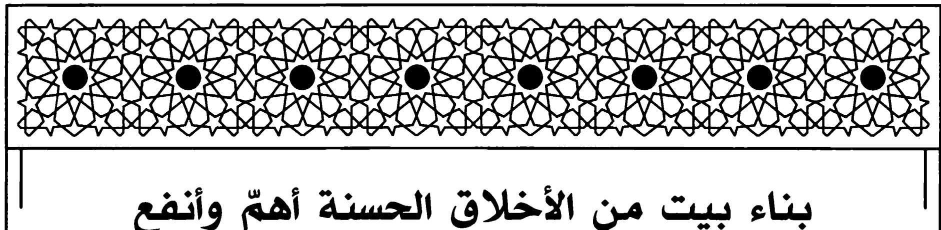
ولا الذي تتسلّط به على غيرك، فيكون تحت سلطتك، ويخافون منك، وإلا لكان فرعون أعقل العقلاء!

فما هو العقل إذن؟

هو الذي تعقل به المقصود الذي خُلقت لأجله، وهو عبادة الله تعالى، والعبادة ليست قاصرة على صلاة وصيام وزكاة، بل هي أعم، فحسن تعاملك وأخلاقك وأدبك مع غيرك من أجلّ وأعظم العبادات إذا قصدت بها وجه الله، فهي أثقل ما يُوضع في ميزان، وتُدرك بحسن خلقك درجة الصائم القائم.

فالإخلال في جانب التعامل والأخلاق ضعف في الدين، ونقص في العقل.





بناء بيت من الأخلاق الحسنة أهمّ وأنفع من بناء بيت من الحجر والإسمنت

لاشك أنك محتاجٌ إلى بناء بيتٍ من الحجر والإسمنت ليحميك ومن معك من الحر والبرد ونحوهما، ومن أذى اللصوص والأعداء وكل من يتوقع شره وأذاه، وستعمل بجدّ على تنظيفِه وإخراجِ مخلفات البناء والأوساخ ونحوها منه، ومن ثم فرشِه وتطييبه لتهنأ به ويكون منزلًا لائقًا بك وبمن نزل عليك، وهذه الحاجة لا يختلف عامة الناس على أهميتها، بل ويتنادون لوضعها في قاعدة هرم الأولويات منذ نشأة الإنسان.

والحاجة إلى بناءِ بيتٍ من الأخلاق الحسنة والطبائع الحميدة أشدّ وأعظم وأكثرُ نفعًا في الدنيا والآخرة.

وإذا كان بناؤك للبيت يقيك من الأذى الحسيّ: فإنّ بناءَ أخلاقك وتربيتها ونماءَها وتعاهدها يقيك بإذن الله من الأذى المعنوي، الذي يصلك من الناس.

وإذا كان إخراج مخلفات البناء والأوساخ ونحوها منه وفرشُه وتطييبه ضروريًا لتهنأ به ويكون منزلًا لائقًا بك وبمن نزل عليك: فإنّ إخراج رذائل الأخلاق التي قد يكون قلبك غير سالم منها أو من بعضها كالحقد والغل والحسد والكبر والغرور، وإحلال مكانها ما يُقابلها من كرائم الأخلاق ومحاسن الطباع: أشدّ وأوجب؛ لتهنأ بثمارها اليانعة وقطوفها الدانية، التي يعود أثرها الطيب على صحة قلبك، وانشراح

صدرك، وسلامة بدنك، ورغد عيشك، وحسن علاقتك مع الناس، وحبّ ربك لك.

وبناء البيت يحتاج إلى جهد كبير، وإعمال للفكر، واستشارةِ أهل الخبرة، والصبر والمصابرة.

وبناء الأخلاق يحتاج إلى أكثر من ذلك، ولَمَّا كان كذلك: كسل بعض الناس عن هذا البناء، وركن إلى الدّعة والراحة.

فصاحب الأخلاق الحسنة يعيش برضىً تام، وتصالحٍ مع نفسه، وينعم براحة نفسيّة عظيمة، ويأمن بإذن الله من أذى أعداء المتميزين والنابهين، الذين يتسلّلون إلى قلوب الناس بالسبّ، والشتم، والتحقير، والاستفزاز، والأذى الحسي والمعنوي؛ لأنه بنى عدة حصون تمنعه منهم، من بينها:

١ ـ حصن التعامل مع الله تعالى، ورجاء ما عنده من الأجر للصابر في سبيله.

٢ ـ حصن إحسان الظن بالمسلمين.

٣ ـ حصن الحلم.

٤ ـ حصن الصبر.

٥ ـ حصن الإعراض عن الجاهلين.

٦ ـ حصن التغافل.

٧ ـ حصن التماس الأعذار.

فلو تسوّر عدوّ حصنًا واحدًا بعد تعب وإرهاق فلن يستطيع تخطّي كلّ هذه الحصون الْمَنيعة القوية المحكمة.

وأما الذي لم يبنِ بيتًا مُحكمًا من الأخلاق الحسنة: فهو معرّض

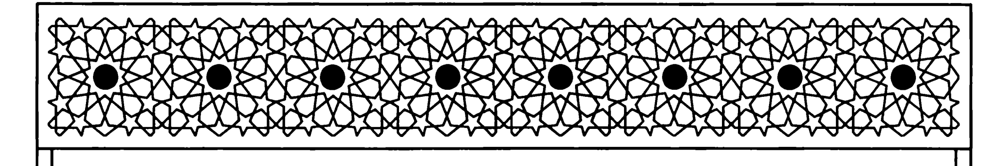
لأذى اللصوص والأعداء، فهذا يسرق من صحته، وهذا يَنْهَش دينه، وذاك يلعب بعاطفته، والآخر يفسد مزاجه.

وربما قوي العدوّ وتمكّن أكثر فأفسد علاقته مع أهله أو أصحابه.

فتراه يعيش بقلق وحيرة في كثير من أموره، وكيف لا يعيش كذلك وهو متدثّر بقاذورات وأوساخ الأخلاق السيئة؛ كسوء الظن، والحقد، والحسد، والغضب المفرط، وعدم التماس الأعذار؟

فحريٌّ بكلِّ موفّق ناصح لنفسه مشفق عليها أن يعيد النظر في مدى اهتمامه بهذا البناء المهم، وليتعاهدْه بالترميم والتقوية يومًا بعد يوم، وليبشر بالتوفيق والسعادة والذكر الطيب والسيرة الحسنة في الدنيا والفوز والعلو في الآخرة.



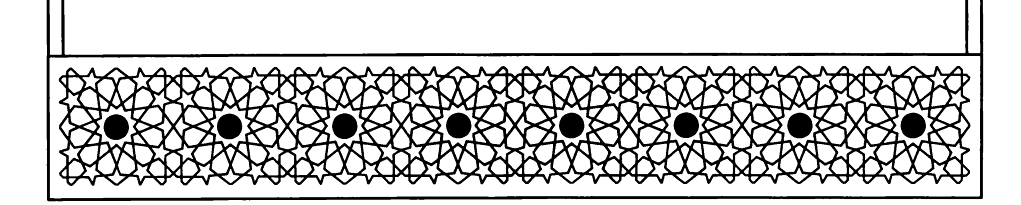


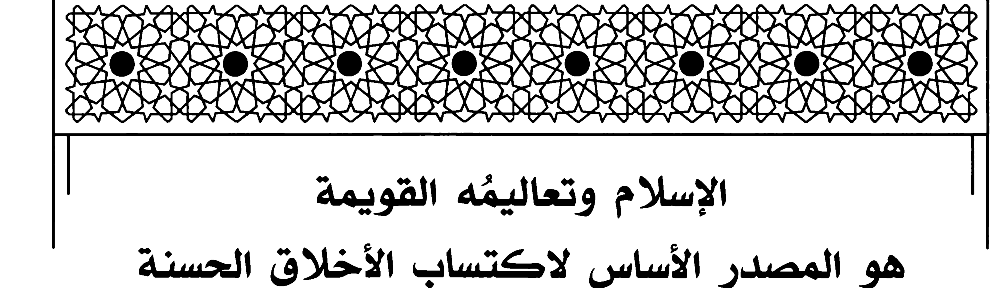
قواعد عامة تُوصل ـ بمشيئة الله ـ إلى الرسوخ في الأخلاق الحسنة

لكل أمرٍ علميّ أو عمليّ، ديني أو دنيوي: أصول، مَن بدأ بها رسخ وثبت، ومشى بوضوح ولم يتذبذب ويتقلب، وكانت نتيجة سيره العلمي أو العملي ناجحة ومثمرة ونافعة.

ومن هذا: مكارم الأخلاق، فمن بدأ بأصولها وسار على منهج واضح وخطة منضبطة رسخ وثبت، ولم يتذبذب ويضطرب ويتقلب، مهما عصفت به الظروف، وتغيرت الأحوال، فتجده في تعامله وحسن أخلاقه كالجبل العظيم لا يتغير ولا يتحول.

وإليك هذه القواعد الشرعية، والضوابط التي اتفق العقلاء على نفعها وصحتها:





الإسلام وتعاليمُه القويمة
هو المصدر الأساس لاكتساب الأخلاق الحسنة

الدين الإسلامي جاء بالتعاليم العظيمة، التي من التزمها وقام بها حقّ القيام: فلن يصدُرَ منه إلا كلُّ خُلقٍ حسن جميل، وسلوكٍ طيِّبٍ فضيل.

فالشريعةُ الإسلامية تأمرنا جميعًا ـ أفرادًا وجماعات ـ بأنْ نسعى في بذلِ الخير والبر، والإصلاحِ بين الناس، والكفِّ عن القبيح والشر.

قال الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

وتحثُّنا على أنْ نعفو ونتجاوز ونُسامح من أخطأ علينا ابْتغاء مرضاة الله، لا خورًا وضعفًا.

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وتأمرنا بأن نقنع بما جاء من الناس، وألا نُطالبهم بأنْ يُعاملونا بمثل ما نُعاملهم به.

وأن نأمر غيرنا بكلّ قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، وأن نتصف نحن بذلك أولًا، لأنه لا يُمكن أن نأمر غيرنا بشيء ثم لا نفعله.

وأن نُعرض عمن جهل وسفه وعلينا، فقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم؛ فإن العفو ما عفا من أخلاقهم، وسمحت به طبائعهم، ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم، فهذا ما منهم إليه.

وأما ما يكون منه إليهم: فأمرهم بالمعروف، وهو ما تشهد به العقول وتعرف حسنه، وهو ما أمر الله به.

وأما ما يتَّقي به أذى جاهلهم: فالإعراض عنه وترك الانتقام لنفسه والانتصار لها.

فأيّ كمال للعبد وراء هذا؟

وأي معاشرة وسياسة لهذا العالم أحسن من هذه المعاشرة والسياسة؟ اهـ[1]

وتأمرنا بإحسان الظن بالآخرين، والْتماس الأعذار لهم، وعدمِ حملِ أفعالهم على أسوأ محمل، وتنهانا عن الغيبةِ والتجسس.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ﴾.

وتأمرنا بأنْ يرحم الكبير منَّا الصغير، ويُوقِّر الصغيرُ منَّا الكبير.

قال النبيّ ﷺ: «**ليسَ منَّا من لَمْ يَرحمْ صغيرنا، ويعرفْ حقَّ كبيرنا**»[2]

وتأمرنا شريعتُنا السمحةُ بعدم نقل الكلام بين المسلمين، وألا نذكرهم إلا بالخير والإحسان، إلا إذا كانوا أشرارًا فنحذِّر الناس منهم لئلا يُجالسوهم فيُصبحوا أشرارًا مثلهم.

---

(١) الرسالة التبوكية (ص: ٧٥).
(٢) رواه الإمام أحمد (٦٧٣٣).

عنِ الْمرء لا تسلْ وسلْ عن قرينه فكلُّ قرينٍ بالمقارن يَقْتَدِي

وتأمرنا شريعتُنا العظيمة بالعدل والإنصاف، وتنهانا عن الظلم والميل بدون حقّ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

إنَّها الشريعَةُ العظيمة، المنزلةُ لإنقاذ البشرية، وإسْعاد الإنسانية، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

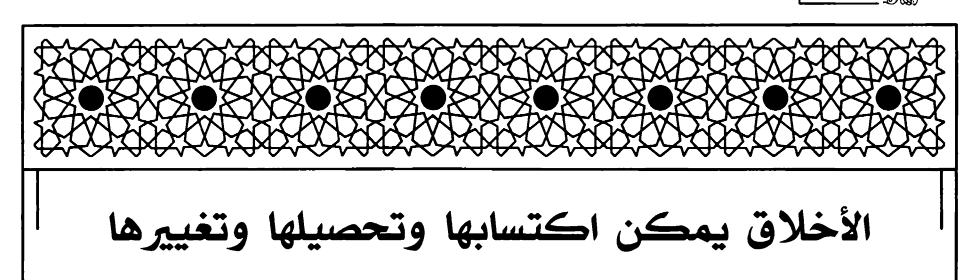
يقولُ الله تعالى مُمْتَنًّا على خلقهِ بِما أنزلَ إلَيهمْ منَ الْقُرآنِ العظِيم على رسُوله الكريمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: زاجرٌ عن الفواحشِ والظلم والرَّديء من الأخلاق والتعامل، ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: من الشُّبه والشُّكوكِ، والقلقِ والحيرةِ، والحسدِ والحقدِ والبغضاءِ للمؤمنين، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ فهو مع ذلك كلِّه جاء لنشر الهدايةِ والرَّحمةِ بين الناس.

لكنَّ هذه الْهِدايةَ والرَّحمةَ لا يُحسُّ بها إلا من عرف قدرها، وآمن وتمسك بالدين الحنيف، كما قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]، وَقال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: ٤٤].

ولو أردت حصر القيم والأخلاق التي جاءت بها شريعتنا ـ وهي كفيلة بحلّ كل مشاكل العالم الأخلاقية والسلوكية ـ: لَمَلأتُ مئات الصفحات ولم آت عليها كلّها، ولم أوفّها حقّها.

فهذا هو المصدر الأساس لاكتساب الأخلاق الحسنة، والتخلّص من الأخلاق السيئة، وما يأتي من قواعد فهي كلها بلا اسْتثناءٍ مُتفرِّعةٌ منه.





الأخلاق يمكن اكتسابها وتحصيلها وتغييرها

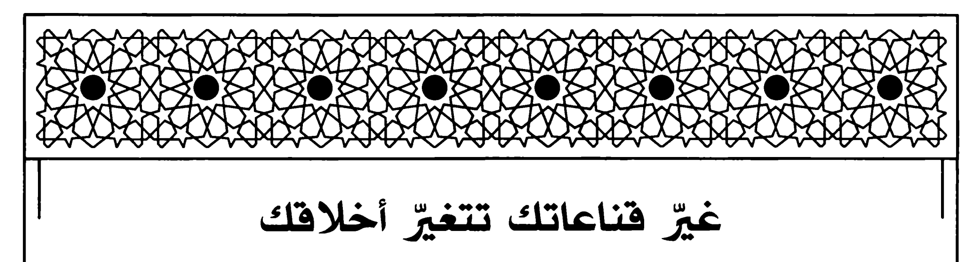
يعتقد بعض الناس أنه لا يستطيع أن يغير أخلاقه، ولا يُبدل طباعه، وهذا لا يصح شرعًا ولا عقلًا، فالكافر قد يسلم، والمسلم قد يكفر، فعقائد وأديان الناس تتغيّر، أفلا تتغير أخلاقهم؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ورياضة النفوس بالتعلم والتأدب، والفرح والسرور، والصبر والثبات، والإقدام والسماحة، وفعل الخير ونحو ذلك مما ترتاض به النفوس، ومن أعظم رياضتها: الصبر والحب والشجاعة والإحسان، فلا تزال ترتاض بذلك شيئا فشيئا حتى تصير لها هذه الصفات هيئات راسخة، وملكات ثابتة. اهـ(١)



---

(١) زاد المعاد: ٤/ ٢٢٥.



غيّر قناعاتك تتغيّر أخلاقك

الأفعال والاعتقادات ناشئةٌ عن القناعات، ومتى تغيّرت قناعاتك تغيّرتَ أنت، وما لم تتغيّر قناعاتك لن تتغيّرَ ولو كنتَ من أعلم الناس وأكثرهم خبرة وتجربة.

أخبرني قريب لي أنه شعر يومًا بتسارع نبضات قلبه، وهيجانٍ في القولون، وأصبح لا يشتهي الطعام، ولا يكاد يأكل إلا وهو كاره، واستمر على ذلك عشرة أيام، وهو مقتنع أنه مريض في معدته، فذهب للطبيب وطلب فحصًا على معدته، فكشف عليها عبْر الأشعّة وأخبره بأنها سليمة، فلم يقتنع، وقال: أنا منذ عشرة أيام لا أشتهي الطعام وتقول لي سليمة؟

فأدخل الطبيب منظارًا في معدته وجعَلَه يرى غشاء معدتِه عبْر الشاشة، فلمَّا تيقَّن أنها سليمة شعر براحة عظيمة، وانفتحت شهيّته، وصادف حينها أنّ صديقًا له دعاه لتناول القهوة والإفطار.

قال: فذهبت إليه وأنا منشرح الصدر، فشربت من القهوة، وأكلت من طعامه وأكثرتُ منه، وأجد لتلك القهوة وذلك الفطور لذَّة إلى يومي هذا، وذهب عني ما أجد.

وأخبرني بأنَّ صاحبه حدَّثه عن ابن عمّه أنه يشكو من صداع شديد في رأسه، ويأكل مسكنات كل يوم، ويقول: أجد ألَمًا في أعلى الرأس، بسبب دودة فيه، وأحسّ بها وبحركتها، فذهب به إلى الطبيب وأجرى

على رأسه فحصًا على الأشعة فلم يجدوا فيها دودة، وأروه صورة رأسه، فقال: أنا أعْرَف بنفسي، وأشعر بها، فكيف أصدِّقكم؟

قال ابن عمه: فأخبرتُ أحد الأطباء بحالته، وطلبتُ منه أن يُجْري عليه أشعة ويبيّن بها أثر الدودة، فقلت لابن عمي: لقد جاء للمستشفى طبيبٌ خبير، وهو متخصّص في أمراض الرأس، ففرح وذهبنا إليه، فأجرى له أشعة، ووضع فيها من جهة أعلى رأسه أثرًا يُشبه الدودة، فأراه الصورة وأخبره بأنه سيجري له عمليّة لاستخراجها، ففرح! ووافق على ذلك، فقام بتخديره، ثم شقّ أعلى رأسه ثم خاطه، وبعد أنْ أفاق أخبره بنجاح العملية وأراه الدودة التي كان قد أحضرها ابن عمّه، ففرح واستبشر ثم قال: ألم أقل لكم أنها كانت في رأسي، وأن وجعه كان بسببها؟

قال ابن عمه: ولم يشتك من رأسه بعد ذلك.

وأذكر أنّ فتاة كانت تشتكي من سقوطها في الطريق في كثير من الأحيان دون سبب، ومن حديث الجن معها، وتهديدِهم لها يقظةً ومنامًا، وآلامًا متنقّلة، وغضبًا يعتريها، وخوفًا وإغماءً لا تعلمُ سببَه.

فطلبتْ مني أن أقرأ عليها؛ ظنًّا منها أنَّ بها مسًّا من الجانّ.

فقرأت عليها برفق، واقتصرت على فاتحة الكتاب وبعض السور والتعاويذ المعروفة.

وبعد الانتهاء قلت لها: هل شعرت بشيء؟

قالت: لم أشعر بخوفٍ ولا ألمٍ ولا غيرِ ذلك.

فقلت: هذا دليل على أنك سليمة ولست مُصابةً بالجان أو العين.

ثم عَمِلْت على إقناعها بأنها ليست مُصابةً بمسٍّ ولا عين، وأنّ أعراضَ الوسواس وشدةَ الخوف كأعراض الصرع والمس أو أشد.

فإنّ الموسوس يتخيل أنَّ الجن تُخاطبه، ويعتقد ذلك اعتقادًا لا يقبل الشك، ويروي لك مواقف وقصصًا عن مُشاهداته لهم، وكلامهم له.

بل يصل الْمُصاب بالوسواس والخوف إلا حدّ المرض العضوي، فيسقط على الأرض دون شعور، ولا يعرف سبب ذلك، ويشعر بآلام تتنقل في بدنه، ويشعر بفرط الغضب والحنق وتقلُّب المزاج.

ونصحتها بعدّةِ أمورٍ، وقلت لها: أنا ضامن ـ بحول الله ـ أنك إنْ عملت بما قلت لك أنْ يزولَ عنك كلُّ ما تجدينه، وأنْ تري العافية والشفاء.

وبعد مُدَّةٍ مِن الزمنِ جاءتني وقالت: بعد تلك الجلسة زال عني كلُّ ما كنت أجده، فقد زال الخوفُ وذهبتِ الْآلام، ولم أسقطْ أبدًا مع كثرة المشي.

قلت: وأين الجن؟

فقالت: بعد ذهاب الخوف عني وقناعتي بأنّ ما أسمعه وأشعر به إنما هو وسواس وتخيُّلات: لم أسمع شيئًا، ولم تعد الأحلامُ تأتيني والحمد لله.

فانظر كيف مرض هؤلاء بسبب قناعتهم أنهم مرضى، وحينما غيّروا قناعاتهم بأنّ المرض قد زال عنهم شُفوا تمامًا.

وكما أنّ القناعة تؤثر على الصحة، فهي تؤثر كذلك على نظرة الإنسان للناس وللحياة.

أخبرني رجل أنه كان يجد ضيقًا وهمًّا شديدًا حينما يعزم على السفر إلى الرياض ـ عاصمة المملكة العربية السعودية ـ، وكانت مدينته تبعد عن الرياض قرابة مائتين وخمسةٍ وعشرين كِيلًا، قال: فمللت من

هذا الهمّ الذي لا يُطاق، فعزمتُ على أنْ أغيّر قناعاتي بأنَّ السفر للرياض فيه مشقة، وجالبٌ للهمّ، وجعلت أقنع نفسي أن السفر سهل وممتع، وسأعتبرها نزهة.

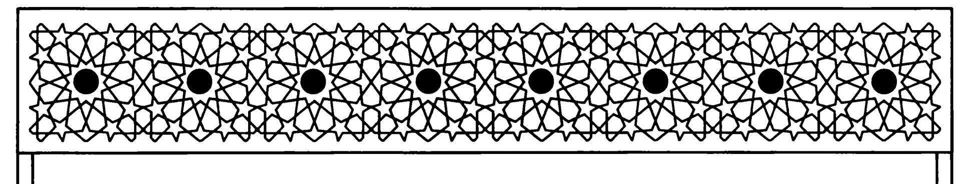
قال: فزال همّي وغميّ عند السفر تمامًا، وقد مضى على ذلك بضع سنوات.

فإذا أردت أن تحسن أخلاقك فابدأ بقناعاتك، فإذا كنت تشكو من الغضب، فأقنع نفسك أنك حليم، وتعامل مع الناس على أنك قد تغيرت وأصبحت حليمًا.

وأما إذا كنت مقتنعًا أنك سريع الغضب فلن تتغير مهما حاولت وتعلّمت.

وافعل ذلك في كلّ خلق سيئ تشكو منه.





طرق تحصيل الأخلاق الحسنة والأدب والمروءَةِ

تغيير الطبع صعب لكنه ممكن، وشاقٌّ لكنه مقدور عليه، والطبع له شَبَهٌ بالجسم، فكما يُولد الطفل قويّ البُنْية، صحيح الأعضاء، وآخر بعكس ذلك، فكذلك الطبع، قد يُولد الطفل شجاعًا، حليمًا، حكيمًا، رفيقًا أديبًا، وآخر بعكس ذلك.

وصاحب الجسم الضعيف يستطيع أن يقويّ بدنه عن طريق الرياضة البدنية، والصبر على حمل الأثقال الحسية.

وكذلك صاحب الطبع السيّء، يستطيع أن يُصلح طبعه إذا كبر عن طريق الرياضة العقليّة، والصبر على احتمال الأثقال المعنوية، كاحتمال أذى الآخرين، وإرغام النفس على الكرم والابتسامة والرفق.

وإليك هذه الخطوات العلميّة والعمليّة ـ هنا وفي بقيّة الكتاب ـ التي إذا اتخذتها ستغيّر أيّ طبع سيِّئ فيك ـ بمشيئة الله وتوفيقه ـ، فلا تتردد في المبادرة، واصبر عليها، وليست هي من الأمور النّظريّة التي أنقلها لك من تنظير فلان وفلان، بل هي أمور واقعةٌ مُجرّبة، جرّبتُها كلَّها أو أكثرها بنفسي، ووقفتُ على من جرَّب كثيرًا منها وعمل بها، فأصبحوا من أحسن الناس خُلُقًا، بعد أن كانوا من أسوئهم خُلُقًا، وأعسرهم طبعًا، وأسرعهم غضبًا، وأشدهم عنفًا.

ومن أنجح وأهم طرق تحصيل واكتساب الأخلاق الحسنة والأدب والمروءَةِ ما يلي:

أولًا: الإيمان الصادق بالله تعالى؛ لأنّ في الإيمان تزكيةً للنفس،

وتهذيبًا لسلوكها، وتَقْويمًا لاعْوِجاجها؛ والإيمان الصادق بالله تعالى يقتضي الإيمان التامّ بصحة ونفعِ جميع تعاليم الإسلام، والإسلام أصَّل قواعد الأخلاق والقيم والتعامل، بل إنّ فيه من محاسن الأخلاق ما لا يُوجد في غيرِه، وفي أخلاق النبي ﷺ وحسن تعامله مع المسلم وغير المسلم، والصغير والكبير، والرجل والمرأة ما لو تأمله الإنسان وعزم على الاقتداء به لكان من أحسن الناس خُلُقًا وأدبًا، ومن أكْملِهم تعاملًا، حتى ولو لم يأخذ من غيره.

فحسن الأخلاق، ولين الطبع، والرفق واللين والرحمة: لا تُكتَسَب بالعلم ولا بالتدرب فقط.

ولقد مرّت علي مواقف صعبة، وعَسُر عليّ تغيير طباع كانت لاصقةً بي منذ النشأة لصوق العضو من أعضائي: لم أستطع مواجهتها بحكمة ودون خسارة، ولم أستطع تغيير هذه الطباع بالقواعد والحِكَم التي سمعتها وقرأتها، وإنما استطعت بسهولة ـ بفضل الله ـ بإيماني بالله الذي سيجزيني إن صبرت لأجله، وباستحضاري لتوجيهات ربي في كتابه، وسنة نبينا ﷺ، واستحضاري مكارم أخلاقه، وصبره وحسن تعامله، فهذا هو أعظم وأيسر طريق لاكتساب الأخلاق الحسنة، والتخلص من رديئها، والتصرف بالحكمة والرفق في المواقف الصعبة.

ثانيًا: دعاء الله تعالى بكثرةٍ وإلحاح.

وقد كان نبيّنا وإمامُنا ﷺ يُلحّ على ربّه تعالى في قيام الليل كلّ ليلة أنْ يهديه لأحسن الأخلاق، وأنْ يصرف عنه سيِّئها، ويقول: «**اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني**

سيئها إلا أنت»(١)

فادع الله جل وعلا في قيام الليل، والسجود، ومواطن الإجابة، وليكن دعاؤك صادقًا من قلبك، وإذا صدقت مع الله فلن يُخيّبك ولن يردّك.

ثالثًا: أنْ تجعل النبي ﷺ نُصب عينيك، وتتَعَامَلُ مع الناس ومع المواقف كما كان يتعامل، فستجد لذةً في ذلك، وستنقاد نفسُك سريعًا.

وقل في كلّ موقف يمرّ عليك: لو كان النبيُّ ﷺ في موقفي هذا فماذا كان سيفعل؟

اجعل هذا السؤال دائمًا حاضرًا:

أ ـ عندما ترى ما يُؤذيك من تصرفاتِ بعض الناس وسوء تعاملهم.

ب ـ عندما ترى بعض مآسي المسلمين وتسلّط الأعداء عليهم.

ج ـ عندما تُبْسَط لك الدنيا وتُعْجِبك زخارفها.

د ـ عندما تفتر همّتك في العبادة والأعمال الصالحة.

وستجد لذلك أثرًا عظيمًا عليك، وتغيّرًا في تصرُّفاتك وتصوُّراتِك، وسوف تزداد تعظيمًا وحُبًّا للنبيّ ﷺ واتّباعًا له، وسيكون قدوتك حقًّا في كلّ شيء.

أعرف رجلًا دخل في وقتٍ مُتأخّرٍ من الليل على زوجتِه بعد مضيّ عدة أشهر من زواجهما، فنادته من حين دخولِه بأنْ يُساعدها في غسل الملابس!

قال: فغضبت غضبًا شديدًا وقلت في نفسي: كيف تجرّأت على أن تأمرني بذلك؟ وقد كنت أخبرتها مرارًا بألا يكون الليل وقتًا لأشغالِها وأعمالِها المنزليّة.

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).

وحينما هَمَمْتُ بأنْ أُعاتِبها قلت في نفسي: لو كان النبيُّ ﷺ في موقفي ماذا كان سيفعل؟

فتذكرتُ قول عائِشةَ رضي الله عنها عندما سُئلت: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله ـ تعني خدمة أهله ـ فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة»(١)

وفي رواية: «كانَ يَخْصفُ نعْلهُ، ويخيطُ ثوبَه»(٢)

فقلت في نفسي: وهل أنا أكرم مِن النبيّ ﷺ، الذي كان يخدم أهله ويُساعدهم؟

فذهب عني الغضب تمامًا، وقمتُ بالعمل وأنا منشرحُ الصدر مسرورٌ، حيث خالفتُ هواي، واقْتديت بالنبيّ الكريم ﷺ.

رابعًا: كثرةُ القراءة والسماع لأحوال وأخلاق النبي ﷺ وأصحابه والسلف الصالح، قال ابن المبارك رحمه الله: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم.

فخصِّص وقتًا لسماع وقراءة سيرهم وأخلاقهم.

وإنه لمن العجب أن البعض يتبحّر في القراءة في كثيرٍ من العلوم والفنون، ولا يقرأ ما يُهذّب به نفسه وما يُصلح به أخلاقه!

خامسًا: أنْ تطلب من أقرانك وأقاربك أن يُخبروك بعيوبك، ويُصارحوك ولا يُجاملوك، ثم تعمل وتُغير مُباشرةً دون تأخير.

وقل لهم كما قال أحدُ السلفِ لصديقه: قل لي في وجهي ما أكره؛ فإنَّ الرجلَ لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره(٣)

---

(١) رواه البخاري (٦٧٦).
(٢) رواه الإمام أحمد (٢٥٣٤١)، وصححه الألباني «المشكاة: ٥٩٢٢».
(٣) حلية الأولياء (٤/٨٦).

سادسًا: تغييرُ القناعة، فبدلًا من أنْ تُقنع نفسك بأنك سريع الغضب، أبعد هذه القناعة، وحاول إقناعها بأنك تستطيع كظم الغيظ والحلم بسهولة، فغيركَ اسْتطاع فلم لا تستَطيع أنت؟

فمهما تمرَّنتَ وتدرَّبتَ فستجد مشقة عظيمة إذا لم تَبْدأْ بقناعتك فتُغَيّرها، فمِرَان القناعة والعقل قبل مِرَانِ الجسم والقلب.

«ومتى رسخ الوهم في النفس يصعب انتزاعه على العقلاء الذين يتعاهدون أنفسهم بالتربية الحقيقية دائمًا، فكيف حال الغافلين عن أنفسهم، المنحدرين في تيار العادات والتقاليد الشائعة، لا يتفكرون في مصيرهم، ولا يشعرون في أي لجة يُقْذَفون؟»[١]

سابعًا: مُصاحبةُ أصحاب الهمم العالية، والنظر في سيرهم وأخبارِهم، والبعدُ عن أصحاب الهمم الدنيّة أو الْمُثبّطة.

ولذلك قال النبيّ ﷺ: «**إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّلَ عليه في المال والخَلْقِ فلينظر إلى من هو أسفل منه**»[٢]

ومفهومه: «إذا نظر أحدكم إلى من فَضُلَ عليه في الدين والخُلق فلينظر إلى من هو أعلا منه».

فقد أوصانا إمامُنا وحبيبُنا ﷺ بهذه الوصية العظيمة، التي لو عملنا بها لَحصَّلْنا خيري الدنيا والآخرة، فإذا نظرنا إلى من هو أقل منَّا في أمور الدنيا: شكرنا الله على نعمتِه وقَنِعْنَا بِمَا عندنا، وإذا نظرنا إلى من هو أعلا منَّا في الدين والأخلاق علت همَّتُنا، وسعينا جاهدين أن نكون مثلهم أو أحسن منهم.

---

(١) تفسير المنار٢/ ١٣١.

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣).

عقلُ الفتى ممن يجالسهُ الفتى   فاجعلْ جليسَكَ أفضلَ الجلساءِ

ثامنًا: التّفكرُ في شَرَفِ ما تَطْلُبُه وتَسْعى إليه، وهو الجنة، التي جعل الله من أهم شروط نيل أعلى الدرجات فيها كظم الغيظ، والعفو، والإحسان، قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

قال بعضُ السلف: من عرف ما يَطلب هان عليه ما يَبذل[١]

فمن طلب الجنة التي عرضها السماوات والأرض بصدق هان عليه بذلُ نفسه لله تعالى، وقد كان الصادقون يبذلون في سبيلها أرواحهم وأموالهم، فهلا بذلت أنت أقلّ من ذلك بكثير: دوام البشاشة، وبذل معروفك للناس بالإكرام والمساعدة، وكف أذاك عنهم، واحتمال أذاهم بالصبر والعفو وتركك الانتقام لنفسك.

تاسعًا: أنْ تضع لك سجلًا صغيرًا، تُدوِّن فيه عيوبك وسلبيَّاتك، وتعزم عزمًا أكيدًا على إصلاحها وتغييرها، فالتدوين علامة الجد والحرص على التغيير، وهو ممَّا يُعينك على ذلك، حيث يُذكرك بعيوبك دائمًا.

وقد كنت أشكو منذ صغري عُسْرًا في الأخلاق، وشراسةً في الطباع، وسرعةً في الغضب، فجعلتُ أجاهد نفسي على تغييرها وتحسينها، ولم أستطع، فهداني الله لكتابة أخطائي بورقة، فدوّنت فيها كلّ خُلُق وطبع سيِّئ، ودوّنت التاريخ واليوم الذي تصرفت فيه تصرفًا لا

(١) صفة الصفوة ٢/ ٦٣٠.

ينبغي، وجعلت أراجع الأوراق، وأحرص على عدم تكرار ما فعلت، فلاحظت تغيُّرًا وتحسُّنًا كبيرًا بحمد الله تعالى.

عاشرًا: علمُك بأنك إذا أحسنت إلى أحد فإنما أحسنت إلى نفسك.

فمن أحسن إلى الناس بحسن تعامله، وأدخل السرور على قلوبهم بجمال ابتسامتِه، وبذل المال أو العلم لهم: فإن الإحسان عائد إليه، حيث يجد ثمار إحسانه في الدنيا بالبركة في ماله ووقته وأهله، والسعادة والأنس واللذة، وفي الآخرة بالعاقبة الحسنة، والجنة العالية، والأجور الكبيرة.

فهو المستفيد من إحسانه للناس، وإذا استشعر هذا: لم يشعر بالْمِنّة له عليهم، وزال عنه العُجْب ورؤية العمل.

فلو أنّ تاجرًا صادقًا قال لك: تصدق بما معك من المال للمحتاجين، وسأُعوضك عشرة أضعاف ما تصدقت، فإنك ستبحث عن المحتاج، وإذا وجدته وقَبِل صدقتك فإنك سترى أنه مُحسن إليك؛ لأنه لولا وجود المحتاجين وقبولهم لصدقتك: لَمَا حصل لك ما وُعدت من المال الكثير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: من أحسن إلى الناس: فإلى نفسه، كما يُروى عن بعض السلف أنه قال: ما أحسنتُ إلى أحد وما أسأتُ إلى أحد، وإنما أحسنت إلى نفسي وأسأت إلى نفسي، قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، وقال الله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾، ولو لم يكن الإحسان إلى الخلق إحسانا إلى المحسن يعود نفعه عليه لكان فاعلا إثما أو ضررًا؛ فإنَّ العمل الذي لا يعود نفعه على فاعله، إما حيث لم يكن فيه فائدة،

وإما شرٌّ من العبث؛ إذا ضرَّ فاعلَه. اهـ[١]

ومن فهم ذلك حق الفهم حصل على عدة فضائل، منها:

أ ـ شعورُه بأنه ليس له معروف على غيره، ولا فضل له على أحد.

ب ـ سلامتُه من الكبر والعُجب.

ج ـ حرصُه على الاستكثار من نفع الناس؛ لأنه إنما ينفع نفسه في الحقيقة.

حادي عشر: علمُك بأنّ إحسانك إلى الناس بالتعامل الحسن، والبشاشةَ في وجوههم: أمرٌ متحتّم عليك، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في قول الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾: إسلامُ وجهه كما قاله أئمة التفسير: هو إخلاص دينه وعمله لله، والإحسان هو فعل الحسنات، فاجتمع له أن عمله خالص، وأنه صالح.

وإذا كان الله قد شرط في مَن له أجرُه عند ربه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون أن يكون محسنًا مع إسلام وجهه لله: دلَّ بذلك على أن الإحسان شرط في استحقاق هذا الجزاء، وهذا الجزاء لا يقف إلا على فعل الواجب؛ فإنَّ كل من أدى الواجب فقد استحق الثواب، ودرأَ العقاب، وذلك يدل على أن الإحسان واجب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾، والأمر يقتضي الوجوب.

وقال الله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾، ومن فَعلَ الواجبَ فما عليه من سبيل، إنما السبيل على من أساء بتركِ ما أمِرَ به، أو فِعْلِ ما نُهِيَ عنه.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢/ ١٤.

وفي الصحيح[١] عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «**إنَّ الله كتبَ الإحسانَ على كل شيء، فإذا قتلتم فاحسِنوا القِتْلةَ، وإذا ذَبحتم فاحسِنوا الذِّبحةَ**»، ففي هذا الحديث أن الإحسان واجب على كل حال، حتى في حال إزهاق النفوس، ناطقها وبهيمتها، فَعَلَّمَهُ أن يُحْسِن القتلةَ للْآدميين، والذبحة للبهائم.

والإحسان الواجب هو فعل الحسنات، وهو أن يكون عمله حسنًا، ليس المراد بذلك فعل الإحسان التطوع.

وهذا الإحسان في حق الله، وفي حقوق عباده:

ـ فأما في حق الله: ففعل ما أمره به.

ـ وأما في حق عباده: ففعل ما أوجب لهم من الإحسان، وترك ما لا يجوز من الإساءة. اهـ[٢]

فإحسانك بحسن التعامل، وكرم الأخلاق، وإلى من يطلب منك مساعدته فيما تقدر عليه ولا يضرك: أمرٌ واجبٌ عليك، وهو دليل على تغلغل صفة الرحمة في قلبك، والراحمون يرحمهم الرحمن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: على الإنسان أن يكون مقصودُه نفعَ الخلق، والإحسانَ إليهم مطلقًا، وهذا هو الرحمة التي بُعث بها محمد ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾.

والرحمةُ: يحصل بها نفع العباد، فعلى العبد أن يقصد الرحمة والإحسان والنفع. اهـ[٣]

---

(١) مسلم (١٩٥٥) عن شداد بن أوس رضي الله عنه.
(٢) جامع المسائل لابن تيمية (٦/ ٢٦ ـ ٣٤).
(٣) المصدر السابق (٦/ ٣٧).

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى على كثرة أشغاله ومؤلَّفاته، وطلابه وأحبابه، وخصومه وأعدائه، وجهاده بلسانه ويده، إلا إنه كانَ رَحِمَهُ اللهُ «لَا يسأم مِمَّن يستفتيه، أَو يسْأَله، بل يُقْبل عَلَيْهِ ببشاشةِ وَجه، ولين عَرِيكَة، وَيقف مَعَه حَتَّى يكون هُو الَّذي يُفَارقهُ، كبِيرًا كان أو صَغيرًا، رجلًا أَو امْرأة، حرًّا أو عبدًا، عالِمًا أو عاميًّا، ولا يَجْبَهُه[1]، ولا يُحْرِجُه، ولا ينفِّره بِكلَام يوحشه، بل يجِيبه، ويفهمه، ويعرفه الْخطأ من الصَّواب بلطفٍ وانبساط»[2].

وهذا تلميذُه العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ يقول عنه الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «كانَ حَسَنَ الْخُلُقِ، كثِيرَ التَّودُّدِ، لا يَحْسُدُ أحدًا، ولا يُؤْذِيهِ، ولا يَسْتَعِيبُهُ، ولا يَحْقدُ على أحدٍ»[3].

وكان يقول رَحِمَهُ اللهُ: لَيْس لِلْقلبِ أنْفعُ مِن مُعَاملةِ النَّاسِ باللُّطْف. اهـ[4]

فتواضع للناس، وتودّد لهم، واصبر على أذاهم.

ثاني عشر: النظر في أخلاق الناس وتعاملهم.

والناس صنفان:

الصنف الأول: حسن الخُلُق، طيب التعامل، وهذا الصنف يُحبّب إليك مكارم الأخلاق، وربما تأثرت به وبأفعاله واقتديت به.

فإذا تأملت في البشوش، وكيف يعيش براحة، وكيف يُحبه الناس: أحببت هذا الخلق، وسعيت في تحصيله.

وإذا رأيت الحليم، وكيف يعيش بطمأنينة، وكيف يتعامل بحكمة

---

(١) أي: لم يستقبله بكلام فيه غِلَظ وجفاء.

(٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، للبزّار (ص: ٥٠).

(٣) البداية والنهاية (١٤/ ٢٧٠).

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٤٧٨).

ورفق مع المواقف الصعبة، وأخلاق الناس السيئة: أحببت هذا الخلق، وسعيت في تحصيله.

الصنف الثاني: سيّئ الخُلُق، شرس التعامل، وهذا الصنف يُبغّض إليك مساوئ الأخلاق، وينفّرك منها.

ولا يخلو مجتمع من هذين الصنفين، فإذا لم تستفد في تحسين أخلاقك وتعاملك منهما جميعًا، أو اقتصرت على الصنف الأول: خسرت خسارة كبيرة في تحسين أخلاقك وتعاملك.

فإذا رأيت سريع الغضب بغّضك في الغضب.

وإذا رأيت البخيل نفّرك من هذا الخلق.

وإذا قسا عليك أحد كرهت العنف وأحْببت الرفق.

وإذا لامك أحد لومًا شديدًا على أمر لا يستحق اللوم كرهت هذا اللوم العقيم.

وإذا انتقدك أحد أمام الآخرين، أو بسوء أدب، أو في وقت غير مناسب: حذرت من هذا الانتقاد السيّئ.

وهكذا.

وإذا أساء الظن بك أحد تجنّبت إساءة الظن بالآخرين.

وستُعامل الناس كما تحب أنْ يُعاملوك.

ولقد استفدت من سيِّئ الأخلاق أكثر من استفادتي من حَسَن الأخلاق، وكانت تصرّفاته معي أو مع غيري أكبر منفّر لي عن أخلاقه.

ومن أكبر أسباب عنايتي بفنّ التعامل واكتساب الأخلاق هم الذين ساءت أخلاقهم، وقَبُح تعاملهم، وكانت ماثلةً أمامي، وكأنها تقول لي: إياك أن تكون مثلهم، وأن تعامل الناس كما عاملوك.

فكم للناس ـ محسنهم أو مسيئهم ـ من فضل وخيرٍ على غيرهم بصورةٍ مُباشرة أو غير مباشرة، إذا أحسنوا استثمار المواقف، ورغبوا في اكتساب الأخلاق الحسنة، وهجرِ الأخلاق السيئة.

ولقد كان سببَ تأليف هذا الكتاب ـ بعد توفيق الله تعالى ـ أسلوبًا حادًّا من أحد المحبين الناصحين المخلصين، فقذف الله تعالى في قلبي العزم على تأليفه، ولم يخطر في بالي قبل هذا الموقف، فجزاه الله عني خيرًا، وغفر لي له ولكل مسلم أحسن إليّ أو أساء.

ثالث عشر: الصبر على التخلق بالأخلاق الحسنة، وهجر الأخلاق والعادات السيّئة، ومن المعلوم أنّ سلوك الإنسان مجموع عادات، وهذه العادات هي التي تملكه وتسيّره، كما قال المتنبيّ:

لكلّ امرئٍ مِن دهرِهِ ما تعوّدًا . .

والعادة لها بداية ولها نهاية، والبداية هي الأصعب، ثم يسهل الأمر بعد ذلك بالتدريج.

وإن قدّرنا هذه الصعوبة بالرقم، وقلنا بأنها مئة مثلًا، فإنْ كظمت غيظك أو عفوت أو بذلت مالك أول مرّة كانت صعوبة المرة الثانية ثمانين بالمائة، والمرة الثالثة ستين بالمائة، وفي المرة الخامسة أو السادسة لا تشعر بأيّ ثقل وجهد بمشيئة الله تعالى وعونه.

فألزم نفسك في البداية وصبّرها على الحلم، والكرم، وتقبّل الانتقاد، والبشاشة، والتواضع، وسلامة الصدر من الحقد والحسد، واصبر على المداومة عليها مهما كانت الظروف، فستكون ـ بمشيئة الله ـ عادة وسلوكًا وخُلُقًا لك، لا تتكلّفها أبدًا.

قال الأديب علي الطنطاوي رَحِمَهُ الله: قد تعوّدت النقد وألِفت الهجاء، فلو كتَبَ الآن عني كاتب ورماني بكل موبقة، ومزّق أدِيْمِي كلّ ممزَّق،

ونسب إليّ كل رزيّة، ما حرّك ذلك من جسمي شعرة واحدة، وقرأتُ ما كتبَ كما أقرأ هجاء جرير أو بشار أو ابن الرومي، أقرؤه على أنه أدب مجرد. اهـ(١)

رابع عشر: أن تحرص أن تكون طبيعتك ليّنة غير قاسية، منقادة للحق الذي تعتقده، وتثبت عليه وتتمسك به، وما لم تكن كذلك فلن تنفع معك المواعظ والحجج، ولو فهمتها وعزمت على العمل بها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كمال العبد وصلاحه يتخلف عنه من إحدى جهتين:

١ ـ إما أَن تكون طبيعته يابسة قاسية غير لينة منقادة ولا قابلة لما به كمالها وفلاحها.

٢ ـ وإما أن تكون لينة منقادة سلسة القياد، لكنها غير ثابتة على ذلك، بل سريعة الانتقال عنه كثيرة التقلب.

فمتى رُزق العبد انقيادًا للحق وثباتًا عليه فليبشر، فقد بُشِّر بكلِّ خير، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ. اهـ(٢)

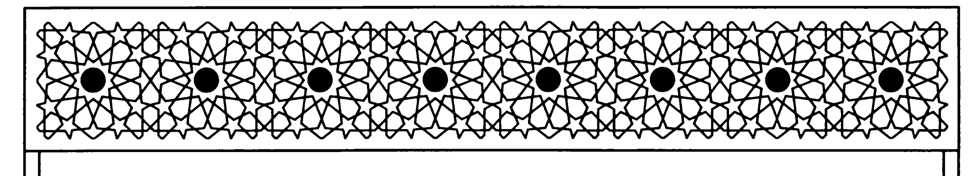
وسيمر بك ـ بمشية الله تعالى ـ الوسائل والطرق العلميّة والعمليّة التي بها تكتسب طبيعةً لينة غير قاسية، منقادة للحق، ثابتة عليه.



---

(١) ذكريات ـ علي الطنطاوي (٦/ ٢٩١).

(٢) طريق الهجرتين (ص: ٣٧٤).



متى جاهدت نفسك لله في التخلق بالأخلاق الحسنة والتخلص من الطباع السيئة: أعانك وسدّدك

وعدٌ صادق من الكريم الوهَّاب: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾.

فمن جاهد نفسه لله في التخلق بالأخلاق الحسنة والتخلص من الطباع السيئة: هداه الله لأحسن وأتم وأكمل الأخلاق، وخلّصه من رديئها.

فما بينك وبين هداية الله لك لسُبله ونيلِ كراماته إلا مجاهدة نفسك في الله.

ومتى لم تر زيادةً واضحةً مستمرّة في همّتك وعملك وعلمك وإيمانك: فاعلم أنّه من ضعفِ مجاهدتك، والإنسان إن لم يتقدم تأخر ولابدّ؛ لأنّ الله تعالى وعد بقوله: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ أي: لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾.

قال بعض السلف: إنّ الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم إنما هو من تقصيرنا فيما نعلم.

والله تعالى أطلق المجاهدة ولم يقيّدها بمفعول؛ ليتناول كلّ ما تجب أو تستحبّ مجاهدته، من النفس الأمّارة بالسوء، والشيطان، وأعداء الدين، والهوى، وجلساء السوء.

والله تعالى وعد بهداية سبيله لمن تحققت فيه صفتان:

الأولى: المجاهدة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُواْ﴾.

ولا يسمى العمل جهادًا إلا بثلاثة شروط:

١ ـ أن يصبر.

٢ ـ وأن يُصابر.

٣ ـ وأن يُرابط على الأمر الذي يطلبه.

كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

فأمر المؤمنين بالصبر، وهو حال الصابر في نفسه، بحبسها عن شهواتها.

وبالمصابرة، وهي حاله مع الأعداء، حيث تتسم الحال هنا بالشدة والضيق، التي تتطلّب مُشاركة العدوّ في الصبر، ولكنه يثبت على صبره حتى ينفد صبر عَدُوِّه فينتصر عليه.

وبالمرابطة، وهي الثبات وإعْدَادُ العُدّةِ واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة.

فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبُّد بالتقوى، فأخبر سبحانه أنّ ملاك ذلك كله التقوى، وأنَّ الفلاح موقوف عليها فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يُخاف هجوم العدو منه في الظاهر، فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته.

فلا يتم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة(١)

قال بعض السلف: فتحُ كلِّ بابٍ شريفٍ بذلُ المجهود(٢)

وإنك تجد من بلغ ما بلغ من العلم أو المنصب أو الغنى إنما كان ـ بعد توفيق الله ـ بسبب الجد والنشاط والعزم، لا بفرط ذكائه، ودقّةِ فهمه، وقوة بدنه، وهذا في الغالب الأعمّ.

«فمن صبر عَلَى مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه: غلب وحصل له النصر، ومن جزع ولم يصبر عَلَى مجاهدة ذلك: غُلب وقُهر وأُسر، وصار ذليلا أسيرًا في يدي شيطانه وهواه»(٣)

فإذا لم تغلب هواك أذللت نفسك، وإن كنت عزيزًا.

كما قيل:

إذا المرءُ لم يغلبْ هواه أقامه ... بمنزلةٍ فيها العزيز ذليلُ

وكل شيء فيه جِدّ فهو ثقيل؛ لأن النفوس تميل إلى السهل دون الصعب، والانطلاق والحرّية دون التقيد.

والثانية: الإخلاص لله تعالى، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فِينَا﴾، أي: في سبيلنا ولأجلنا، فحينما تبتسم، أو تتواضع، أو تكظم غيظك، أو تمدح أحدًا، أو تنتقده، أو تُحسن إليه، فليكن الدافع لذلك ابتغاء وجه الله، لا لأجل ثناء الناس وكسب رضاهم؛ لكي تُؤجر على ذلك، ويزيدك الله توفيقًا في التخلق بالأخلاق الحسنة.

وإذا فعلت ذلك للناس فماذا سينفعونك؟

---

(١) يُنظر: الجواب الكافي (ص: ٩٧)، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ٢١)، لابن القيم رحمه الله.

(٢) الزهد للبيهقي (٢٩٣).

(٣) مجموع رسائل ابن رجب (٣/ ١٥٨).

ولو علِمْت سرعة نسيانهم لك بعد موتك فلن تعيش حياتك لإرضاء أحد سوى الله تعالى.

فمعنى (جاهدوا فينا) أن يكون العمل كله لله خالصًا، وإلَّا فما الفَرْق بين المؤمن والكافر، فكلاهما يعمل ويسعى في الدنيا لكسب المال وتحسين الأخلاق، فهما في السعي سواء، فما مزية المؤمن إذن؟

الميزة أنَّ الكافر يعمل لأجل نفسه وراحتها، والمؤمن يعمل لأجل الله واتباعًا لشرعه.

فالذين يعملون في إطار ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ لا يغيب الله تعالى أبدًا عن بالهم.

فإذا أخلصت لله في التخلّق بالأخلاق الفاضلة، والتخلصّ من الأخلاق القبيحة، وصبرت وصابرت: أوصلك الله إلى ما تريد بإذن الله تعالى.

وأما إذا كان اعتمادك في اكتساب الأخلاق على الأسباب الحسية وكلك الله إليها ولم يبارك لك فيها.

وإذا كان اعتمادك في تحصيلها وفعلِها على الله تعالى بصدق ويقين مع فعل الأسباب: يسّرها الله لك ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾، وبارك فيها.

فقل وكرر: حسبي الله ونعم الوكيل.

إياك نعبد وإياك نستعين.

لا حول ولا قوة إلا بالله.





متى عوّدت نفسك على حسن الخلق استجابت لك

كما أنَّ حاسة الذوقِ إذا عودتها على تقبّل شرب المر أو الحلو اسْتساغتْه واعتادتْ عليه، فكذلك إذا عودت لسانَك الطَّيِّب أو الرديء من الكلام اعتاد عليه، وإذا عوّدْت قلبك الحقد أو الرحمة والمسامحة اعتاد عليه، وإذا عوّدت نفسك الرفق أو العنف اعتادت عليه، وإذا عوّدتها الحلم أو الغضب والانتقام اعتادت عليه.

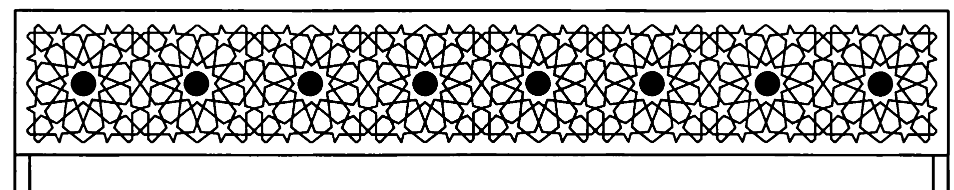
فعوِّدْ لسانك أطيب الكلام وأحسنه، وألْينه وأرفقه.

وعوّد قلبَك العفو والتسامح والتغافل.

وعوّد طَرْفَك عدم النظر إلى ما لا يعني.

وعوّد أذنك سماعَ الكلام الطيب النافع، والبعدَ عن سماع الكلام البذيء والتجسُّسِ والغيبة والنميمة.





حاسب نفسك وعاقبها على سوء خلقك

إنّ كل عاقل لا يستغني عن مُحاسبة نفسه في أمور دنياه وماله وعمله، وعن محاسبة أهله وأولاده وكل من هو مسؤول عنه، ولكن قلّ من يُحاسب نفسه عن أمور دينه وأخلاقه وتعامُلِه، وهذه المحاسبة تُسهل عليك جميع المحاسبات، وترفعك أعلى الدرجات، وتُوصلك إلى أرفع المقامات.

قال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العجب أنك تعاقب أهلك وولدك على ما يصدر منهم، من سوء خلق، وتقصير في أمر، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار، وبغوا عليك، ثم تهمل نفسك، وهي أعظم عدو لك، وأشد طغيانا عليك، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك!. اهـ(١)

اجلس لوحدك وقل: لماذا أنا سريع الغضب؟

لماذا قسوت على فلان في كلامي أو ردّي عليه؟

لماذا علاقتي مع زوجتي أو أولادي أو أخي متوترة؟

هل قصدتُ بِحُسْن تعاملي مع الناس وجه الله؟ أم هو مجرد عادة نشأت عليها، وسلوك أَلِفْتُه؟

والمهم أن تُحاسب نفسك بين الحين والآخر، وسترى نتيجةً طيبة ظاهرة كبيرة بمشيئة الله تعالى.

---

(١) إحياء علوم الدين: ٤/٤٠٨.

ويعينك على محاسبة نفسك على سوء خلقٍ فيك عدة أمور:

١ ـ معرفتك أنك كلما اجتهدت فيها اليوم استرحت منها إذا صار الحسابُ غدًا إلى غيرِك، وكُلَّما أهملتها اليوم اشتدّ عليك الحسابُ غدًا.

٢ ـ معرفتك أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها: دخول النار والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقنت هذا واستحضرته دومًا هان عليك الحساب اليوم، بل سارعت إليه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: فحقٌّ على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فكل نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة، فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه: خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلًا. وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وأضر ما عليه الإهمال وترك المحاسبة والاسترسال، وتسهيل الأمور وتَمْشِيَتُها، فإنَّ هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور: يُغَمِّض عينيه عن العواقب ويُمَشِّي الحال؟ اهـ(١)

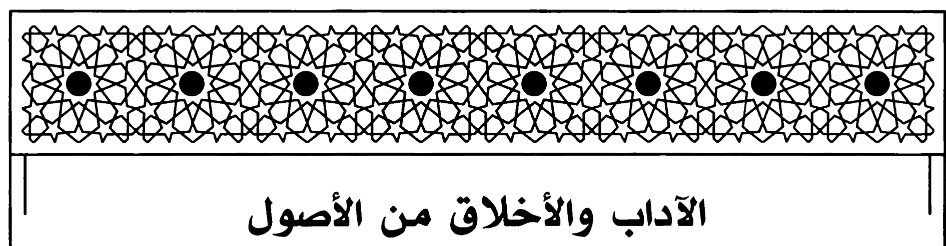
وصدق الشاعر(٢):

وَمَن ترك العواقبَ مُهْمَلاتٍ فأيسر سعيه أبدًا تَبَارُ



(١) إغاثة اللهفان: ١/١٤٧ ـ ١٥٠.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري (المتوفى: ٧٣٣هـ): ٦/٤٦.



الآداب والأخلاق من الأصول التي لا مجال للاجتهاد فيها

يتعامل الناسُ ـ علماؤهم وعامّتُهم ـ مع الآراء الفقهية والاستنباطات من الكتاب والسنة بالأخذ والردّ دون حرج ـ ما لم يكن هناك إجماع أو نصّ لا يقبل الردّ ـ ولكنهم يُجمعون على قبول ما يصدر من العلماء وغيرهم من أخلاق طيبة، وتعامل حسن، ويستشهد بها الموافق والمخالف.

وتجد للعالم أقوالا في كثير من المسائل، وربما وصلت آراؤه في مسألة إلى خمسة أقوال، كالإمام أحمد رحمه الله، وهكذا جلّ أو كلّ الأئمة وأهل العلم والفضل، ولا أحد يعيب عليهم ذلك، بل هذا يدل على ورعهم وتحرِّيهم للحق.

ولا تكاد تجد لهؤلاء اختلافًا في ثلاثة أمور:

١ ـ أصول الاستدلال والتلقي والقواعد الأصوليّة والفقهية الكلية (كالقواعد الفقهية الكبرى، والأخذ بالكتاب والسنة والإجماع والقياس).

٢ ـ أصول العقيدة.

٣ ـ أصول الآداب والأخلاق والتعامل.

فيتفقون في هذه الأصول قولا وعملا ـ في الأغلب الأعم ـ وهذا يدلّ على أنّ الآداب والأخلاق من الأصول التي لا مجال للاجتهاد فيها، فنصوص الكتاب والسنة طافحةٌ في تأصيلها وبيانها والتأكيد عليها،

كالحلم، والرفق، والكرم، والصبر، والعفو، والتواضع، والأناة، والتآلف، وجمع الكلمة، والتوادّ، وعدم الانتصار للنفس.

فلا يكاد عالم عامل بعلمه يُخلّ بهذه الأخلاق والآداب، ولا يُنقل عنه اختلاف فيها، ولا تتباين وجهات نظره فيها، ولا يُنقل عنه تضادّ في التحلي بها، ومن خالف في هذه الآداب والأخلاق فإنّ نفوس العامة قبل الخاصة مجبولة على إنكار ذلك وردّه، واعتباره خطأً نابعًا عن سوء خلق.

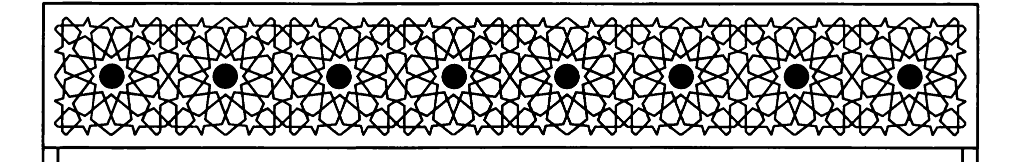
ومن الأمثلة على ذلك ما قاله الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما نقل عن عَمرو بنِ زرارة النَّيْسابوري قوله: صحبتُ ابنَ عُلَيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أربع عشرة سنة فما رأيتُهُ تبسَّم فيها: قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما في هذا مدح، ولكنه مُؤذِنٌ بخشيةٍ وحُزن. اهـ[١]

بخلاف المسائل الفقهية والاستنباطات، فإنّه يُنقل عنهم مئات المسائل التي لهم فيها قولان متضادّان أو أكثر، ولا أحد يُخطئهم في هذا الاختلاف، ولا ينتقصهم في ذلك.



---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٥٤٠.



الأخلاق المحمودة

أصل الأخلاق المحمودة كلّها من خلُقين شريفين:

الأول: الخشوع، وهو التَّواضعُ والسُّكونُ ولينُ القلب، المنافي للكبر والعجب واتِّباع الهوى والقسْوة.

الثاني: علو الهمة.

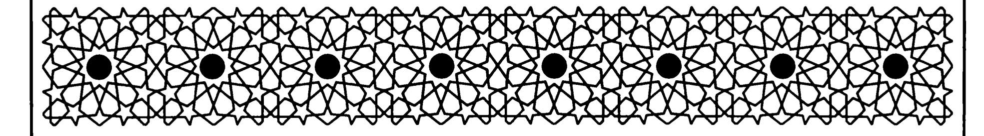
فالأخلاق الفاضلة كالصبر، والشجاعة، والكرم، والعدل، والمروءة، والعفة، والصيانة، والجود، والحلم، والعفو، والصفح، والاحتمال، والإيثار، وعزة النفس عن الدَّناءات، والتواضع، والقناعة، والصِّدق، والإخلاص، والمكافأة والإحسان بمثله أو أفضل، والتغافل عن زلات الناس، وترك الاشتغال بما لا يعنيه، وسلامة القلب من الأخلاق المذمومة ونحو ذلك: كلها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة.

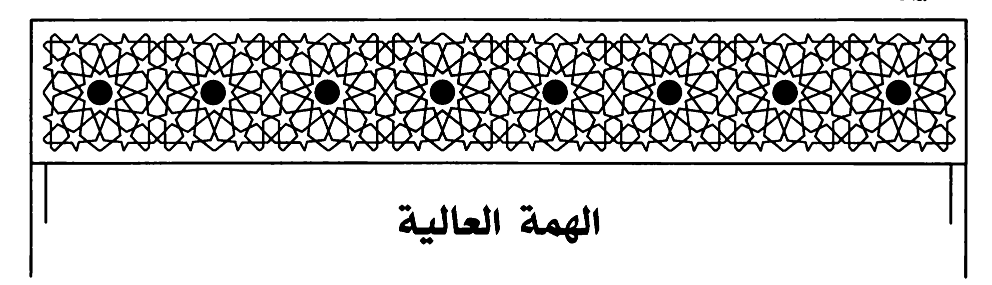
فمن علت همته وخشعت نفسه: اتصف بكل خلق جميل[١].

وسأفصل في بعض الأخلاق الفاضلة بمشيئة الله تعالى:

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١٥٤).





الهمة العالية

من أعظم ما تُوفَّقُ له أن يرزقك الله تعالى الهِمَّةَ العاليةَ الشريفة، فبِها تنال مطلوبَك، وتُحقّق أهدافك، وهي التي تُسَيِّرك، فبحسب همّتك يكون سيرك وإقدامك، سرعةً وبُطْأً، قوةً وضعفًا.

والمقصودُ مِنْ علو الهمة: استصغارُ ما دون النهاية من معالي الأمور، وطلبُ المراتب السامية.

فتجد عاليَ الهمة يجود بالنفس والنفيس في سبيل تحصيل غايتِه النبيلة، وتحقيقِ بغيته الشريفة؛ لأنه يعلم أنَّ المكارم منوطةٌ بالمكاره، وأن المصالحَ والخيرات واللذاتِ والكمالات كلَّها لا تُنَالُ إلا بحظٍّ من المشقة، ولا يُعْبَرُ إليها إلا على جسرٍ من التعب.

بَصُرتُ بالراحة الكبرى فلم أرها تُنال إلا على جسرٍ من التَّعَب

بل إنه لا يرضى بالرَّاحة ولو ضُمنت له المكارم؛ كراهة أن يعتاد العجز والكسل.

قَالَ بَعضهم: مَا أحب أَنِّي مكفيٌّ وَأَنْ لي مَا بَين شَرق إِلَى غرب، قيل: وَلم؟ قَالَ: كَرَاهَة عَادَة الْعَجز[١]

عالي الهمةِ يُرى منطلقًا بثقةٍ وقوةٍ وإقْدام، نحو غايتِه التي حدَّدَها على بصيرةٍ وعِلْم، فيقتحم الأهوال، ويستهين الصعاب على كلّ الأحوال..

---

(١) جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) الناشر: دار الفكر - بيروت: ٧٤.

إذا غـامَـرْتَ فـي شَـرَفٍ مَـرُومِ   فَـلا تَـقـنَـعْ بـمـا دونَ الـنّـجـومِ

عالي الهمة له نظامٌ يسير عليه، وهدفٌ يصبو إليه، ومنهجٌ لا يحيد عنه، ووقتٌ يُحافظ عليه، ونفسٌ لا تَسْعى إلّا إلى تهذيبِها وكبحِ جماحِها، لا تنعِيْمِها وتلبيةِ رغباتِها.

والـنَّـفُـسُ راغِـبَـةٌ إذا رَغَّـبْـتَـهـا   وإذا تُـرَدُّ إلـى قَـلِـيـلٍ تَـقْـنَـعُ

عالي الهمة تتقطّع نفسُه حسراتٍ على دقائق لم ينتفع بها، ويرى أنّ وقتَه أغلى من إهدارِه بملاذّ الدنيا ومُتَعِها، ونفسُه أشرف من قناعتها بما دون الكمال.

كبيرُ الهمـة لا يَنْقُضُ عَزْمَه، ويجعل قول الله تعالى نُصب عينيه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

ليس كحال بعض الناس، يعزم على أمرٍ ويمضي فيه، ثم تدعوه نفسُه إلى التراجع والتّوقف فيُطاوعها.

كبيرُ الهمـة يرى أنّ «كلَّ عزيزٍ دخل تحت القدرة فهو ذليل، وأنّ مَن لم يقدّمه حزمٌ أخّره عجز»[١].

عظيمُ الهمّةِ لا تمنعه عن الوصول إلى القمّة، إعاقةٌ ولا فقرٌ ولا كِبَر، فالكثير من العظماء بلغوا الغاية في الشرف والنُّبل، وهم مُبتَلَون بإِحْدَى هذه الصفات أو كُلِّها.

صاحب الهمة العالية لا يُفوِّت الفرص الثمينة، بل يبادر إلى انتهازِها.

فكم تمرُّ على كثير من الناس فرصٌ نادرة على متن قطار سريع، لا يتوقف إلا في أوقات وأماكن محدّدة قليلة.

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (المتوفى: نحو ٤٠٠هـ): ٢٢٢.

فإن لم يحزموا أمورهم ويَنْتَهِزوها فاتَهم القطار، ووَصَل بمن ركبوا وقد رَبِحُوا.

ويَظلُّ ضعيف الهمّة مكانه، فكم خَسِر من فرصٍ ثمينة!

وهذا القطار لا يركبه المتردِّدون الخائفون.

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فإنَّ فساد الرأي أنْ تتردَّدا

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: كانت لي نفسٌ تَوَّاقة، فكنت لا أنال منها شيئًا إلا تاقت إلى ما هو أعظم، فلما بَلَغَتْ نفسي الغاية، تاقت إلى الآخرة[1]

وقيل للعتّابيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: فلانٌ بعيدُ الهمة، قال: إذن لا يكون له غايةٌ دون الجنة[2]

والهمةُ إذا عَلت وارتفعت: لم تلحقها الطباع السيّئة، والأخلاق الرديئة، ولم تؤثّر في صاحبها سهام الناس، الملوّثة بسموم قاذورات أقوالهم وتصرفاتهم، كالطائر إذا علا وارتفع في الجو فات الرُّماة، ولم تُصبه بنادقهم، وإنما تدرك هذه الأشياءُ الطائرَ إذا لم يكن عاليًا، فكذلك الهمة العالية قد فاتت المثبّطين والمخذّلين والعابثين، وإنما تلحق الآفاتُ وأوساخ الطباع والأخلاق الهمة النازلة، فأَما إذا علت فلا تلحقها الآفات.

وإذا أردت نيل الهمَّة العالية فعليك بما يلي:

أولًا: اطلب التوفيق من الله تعالى وإعانته، واسأل الحصول على الهِمَّة العالية من الْمُعينِ الكريم، فلن تنال التوفيق إلا منه، ولن تبلغ الْمجد إلا بعنايتِه سبحانه.

فأكثر من دُعاء الله تعالى وسؤاله أنْ يُلهمك الهمة العالية.

---

(١) الحلية (تهذيبه) ٢/٢٣٧.

(٢) عيون الأخبار ١/٢٦٧.

ثانيًا: تفكر في شَرَفِ ما تَطْلُبُه وتَسْعى إليه.

قال بعضُ السلف: من عرف ما يَطلب، هان عليه ما يَبذل[١]

ثالثًا: صاحب أصحاب الهمم العالية، وانظر في سيرهم وأخبارِهم، وابتعد عن أصحاب الهمم الدنيّة أو الْمُثبّطة.

رابعًا: ضع خطةً تَسير عليها، وأهدافًا واضحةً تتطلّع إليها، وتُحاسب نفسك عند عدم التقيّد بها.

خامسًا: خالف هواك، ولا تركن إلى النفس الأمارة بالسوء، واحذر أنْ تُجيبها إلى الدّعة والراحة.

والنفسُ كالطفلِ إنْ تهملهُ شَبَّ على حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِم

سادسًا: انظر إلى عظماء الرجال ليكونوا قدوة لك، وإلى أحسن الأفعال وأنبل الخصال لتكون هدفًا لك.

سأل أحدُ العلماء ابنه: من هو مَثَلُك الأعلى الذي تأمل أن تكون مثله؟

فقال الولد: أنت.

فقال الأب: يا مسكين، لقد كان مثلي الأعلى أن أكون مثل أحد الصحابة أو الأئمة الكبار، فبلغتُ ما ترى.

وذلك حقّ، فمَن أعدّ عدّته وهيّأ نفسه ليصل إلى قمّة جبل شاهق فإنه سيبلغها، ومن كان أقصى همّه أنّ يصل إلى نصفه لم يكَد يصل إليه.

وتأمل في حال نبيِّ الله يوسفَ عليه الصلاة والسلام، هل يُمكن أنْ يصل إلى ما وصل إليه من المكانة والرفعة، وتخليدِ ذكره، لو وافق مرادَ امرأةِ العزيز، وهي تدعوه إلى مُواقعتها، وهي بكامل زينتها وشرف منصبِها؟

(١) صفة الصفوة ٢/ ٦٣٠.

سابعًا: عليك بالمجاهدة والصبر، فجاهدْ نفسَك وألْزِمْها بلوغَ الغايات، وأعلى المقامات، وعدمَ الرضا بالدُّوْن، وكُلَّما جاهدتَّ نفسك في بلوغ القِمَم بَلَغْتَها بحول الله تعالى، وقد وعد الله تعالى ومن أصدق من الله قِيْلَا الهداية لِمَنْ جاهد وصابر فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من تذكر حلاوة العاقبة نسي مرارة الصبر. اهـ.

ولن تنال المعالي والمجد إلا بالصبر والمصابرة.

فمن لم تُبلِّغْهُ الْمعالي نفسُهُ ... فَغيرُ جديرٍ أن ينالَ الْمعالَيَا

ومن أعظم المجاهدة: إلزامُ النفسِ بتغييرِ طبعِها إلى ما هو أفضل، ولنْ تظفر بصعودِ درجاتِ الهمّةِ والتوفيقِ والمجد وأنت مُسْتَسْلِمٌ لطبعك، أسيرُ عاداتك ونشأتِك المجانبة للأخلاق الحسنة.

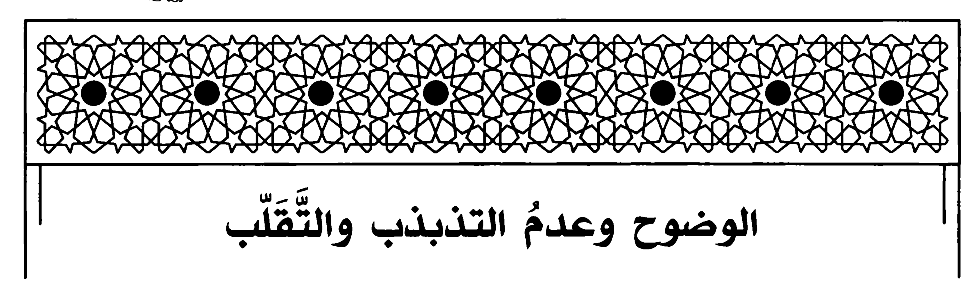
فكن رجلًا رِجْلُه في الثَّرى ... وهَامَةُ هِمَّتِه في الثُّرَيَّا

فاحرص على أنْ تُلزم نفسك وتُكرهها على تطبيق كلِّ ما ينفع ويُفيد، وقل لنفسك: سأعمل وأطبق ما أراه مفيدًا ونافعًا لي، وسأترك ما يضرُّني أو لا ينفعني، وستنقاد نفسُك لك طوعًا مع مرور الأيام بشكلٍ عجيب.

واجعل من منهجك: أنْ تُغيِّرَ وتطوِّر نفسك، فتَغْيِيْرُ الطباع صعبٌ جدًّا إلا من عوَّد نفسه التغيير والتطوير، دون تسويف أو تأخيرٍ.

ولهذا قيل: أحزم الناس من إذا وَضَحَ له الأمرُ صَدَع فيه، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾[1]

(١) «الذريعة في مكارم الشريعة» ص: ١٤٩، تحقيق: أبي اليزيد العجمي، طباعة: دار السلام.



الوضوح وعدمُ التذبذب والتَّقَلّب

إياك والتقلُّب في مزاجك، وسرعة تغيير مواقفك، وعدم وضوحك في أقوالك وأفعالك، حتى تصبح سجاياك مختلفة مضطربة، وأخلاقك متفاوتة، كما قال الشاعر(١):

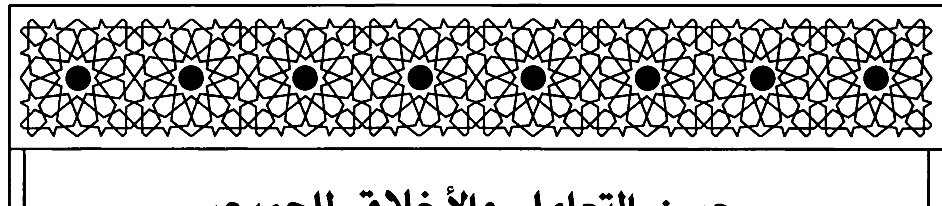
أرى فيك أخلاقًا حسانًا قبيحةً وأنتَ صديق كُالذي أنا واصفُ
قريبٌ، بعيدٌ، أبلهٌ، ذوُ فطانةٍ سخيٌّ، بخيلٌ، مستقيمٌ، مخالفُ
كذاك لساني شاتمٌ لك مادحٌ كما أنَّ قلبي جاهلٌ بك عارف
تلوَّنتَ حتى لستُ أدري من العمى أريحٌ جنوبٌ أنتَ أم أنتَ عاصفُ

وإذا كنت كذلك صعب التعامل معك، والتنبُّؤ بردَّاتِ فعلك، فيومًا تكون سعيدًا ويومًا تكون تعيسًا، ومرةً لا تتقبل المزاح، ويومًا تُسرف في المزاح إلى حدّ الملال، وحينًا تُكثر الزيارة، وحينًا تُطيل القطيعة.

طَورًا يُبادلني الصفاءَ وتارةً ألقاه يُنكرني مِن البغضاءِ



(١) الصداقة والصديق لأبي حيان: ٢٥٦.



حسن التعامل والأخلاق للجميع، لا لأحدٍ دون أحد

ما أجمل أن يتساوى الجميع عندك في حسن تعاملك وأخلاقك معهم، فتبتسم للصغير وللكبير، والغني والفقير، والقريب والبعيد، وهكذا تواضعك، وأدبك، وإكرامك، وحلمك، ورحمتك.

وترى بعض الناس يتفاوت في حسن أخلاقه وتعامله، حيث يبتسم في وجه بعض الناس ولا يبتسم في وجه آخرين، ويُعامل أناسًا برفق ويحزم مع آخرين، ويرحب ببعض الناس ولا يرحب بآخرين، دون سبب صحيح واضح في التمييز.

وأحيانًا يفعل هذا في نفس المكان، فإذا سلّم على فلان ابتسم ابتسامة عريضة، وإذا سلّم على الذي بجانبه لم تظهر عليه أدنى ابتسامة، وربما يعرفهم كلّهم، ولكن الذي ابتسم في وجهه محبّب إليه، بخلاف الآخر!

ومن غرائب بعضهم أنه إذا كان بين أصحابه يكون هيّنًا ليّنًا بسّامًا، وإذا كان في العمل أو مع أهله كان بعكس ذلك.

حدثني أحدهم قال: كان لي صديق صاحب خلق رفيع، ويمزح ويتبسط معنا، فقابلته مرة في مقر عمله، وكان مديرًا، فقابلني بوجه غير الوجه الذي أعرفه، قابلني بحزم، ولم يبتسم كالعادة، فسألته عن السبب، فقال: حتى لا تسقط هيبتي!

فسبحان الله! انظر إلى مدى تأثير القناعة على أخلاق الناس.



المبادرَةُ إلى نفع الناس وتفريج كُربهم

متى ما قدرت على إسداء المعروف فعجّل به حذرًا من فواته، وبادر به خوفًا من عجزك، واعلم أنّ المبادرة إلى إسداء المعروف من فرص زمانك، وغنائم عمرك، ولا ينبغي أن تتأخر ثقةً بالقدرة عليه، فكم من واثق بالقدرة فاتت فأعقبت ندمًا.

قال بعضهم: من أخَّر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها.

وقال بعض الشعراء:

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فإنَّ لكل خافِقَةٍ سكون

ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فما تدري السُّكون متى يكون

خرج العالِم العابد التاجر عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ إلى الحج، مع مجموعة من رفاقه، مِن بلده مرو ـ في تركمانستان ـ فمرّ ببعض البلاد، فمات طائر معهم، فأمر بإلقائه على مزبلة هناك، وسار أصحابُه أمامه، وتخلَّف هو وراءهم، فلما مرّ بالمزبلة إذا فتاةٌ قد خرجت من دار قريبة منها فأخذت ذلك الطائر الميت ثم لفَّته ثم أسرعت به إلى الدار، فتعجّب من ذلك؛ إذ كيف تستبيح أكل الميتة؟

فجاء إلى بيتها فسألها عن أمرها وأخذِها الميتة، فقالت: أنا وأخي هنا ليس لنا طعامٌ إلا ما يُلقَى على هذه المزبلة، وقد حلَّت لنا الميتة منذ أيام!

فتأثر رَحِمَهُ اللهُ، وأمر برد الأحمال وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟

قال: ألف دينار.

فقال: عُدّ منها عشرين دينارًا تكفينا إلى مَرْو وأعطها الباقي، فهذا أفضل من حجّنا في هذا العام، ثم رجع[(١)]

هكذا يعرف الصالحون العالمون فضل تفريج كرب الناس، ومساعدتهم، ويرونه أفضل من كثير من نوافل العبادات.

قال طلحة بن عبيد الله ﷺ: خرج عمر بن الخطاب ﷺ ليلة في سواد الليل فدخل بيتًا، فلما أصبحت ذهبت إلى ذلك البيت، فإذا عجوز عمياء مقعدة فقلت لها: ما بال هذا الرجل يأتيكِ؟

فقالت: إنه يتعاهدني مدة كذا وكذا، يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى.

فقلت لنفسي: ثكلتك أمك يا طلحة، أعثراتِ عمر تتَّبع؟[(٢)]

أمير المؤمنين يُخرج أذى هذه العجوز بنفسه! لماذا؟

لأنه يعرف فضل نفع الناس، ومساعدتهم، وخدمتهم، وتفريج كرباتهم.

والكريم والسخي لا ينتظر من أقاربه وأصدقائه أن يأتوا إليه ويسألوه حاجاتهم، بل يبادر إلى سؤالهم، ويتفقد أحوالهم.

فتفقد أقاربك، فقد يكون من بينهم فقير محتاج، أو مسكينة جائعة، أو أعزب محتاج إلى الزواج، يشكون الجوع والحاجة، وأنت منشغل في الترف أو السرف.

أرسل يومًا رسالة لمن تظن أنه محتاج من أقاربك أو أصدقائك أو

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٠/ ١٩١).

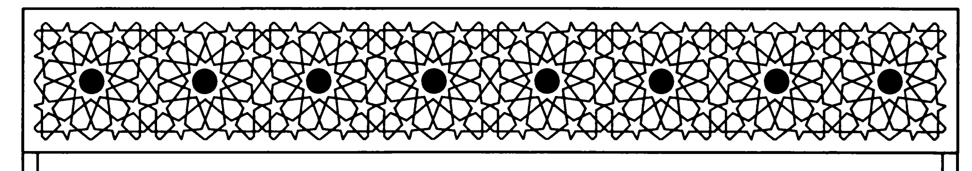
(٢) المصدر السابق (٧/ ١٥٣).

غيرهم، وقل: عندي مال زائد، فإن كنت محتاجًا أو تعرف محتاجًا فأكرمني بقبوله، وأنت مُفوَّض في التصرف فيه، فالفضل لك لا لي.

إنَّ المناصبَ لا تدومُ لواحدٍ ... إنْ كنت في شكٍ فأين الأول

فاصنعْ مِن الفعل الجميل فضائلًا ... فإذا عُزِلْتَ فإنَّها لا تُعْزَل





المسارعةُ إلى خدمة غيرك عند الحاجة

الكسلُ أساس السُّقم وضيق الصدر، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «ولهذا تجد الكسالى أكثر الناس همًّا وغمًّا وحزنًا، ليس لهم فرحٌ ولا سرورٌ، بخلاف أرباب النشاط والجدِّ في العمل أيِّ عملٍ كان، فإن كان النشاطُ في عملٍ هُمْ عالمون بحسن عواقبه وحلاوة غايته: كان الْتذاذُهم بحبِّه ونشاطُهم فيه أقوى». اهـ[1]

وبعض الناس يُحب أنْ يُخدَم دائمًا، ويميل للكسل والخمول، بل ربما كان هو وأصحابه في نزهة أو سفرٍ فيراهم يعملون ويَنْشطون في إصلاح غداءٍ أو تهيئةِ مكانٍ للجلوس، أو الاستعداد للرحيل، فلا يُحرك ساكنًا!.

ساعدْ صديقك في أمرٍ يحاولهُ فالحرُّ للحرّ مِعوانٌ على الزَّمنِ

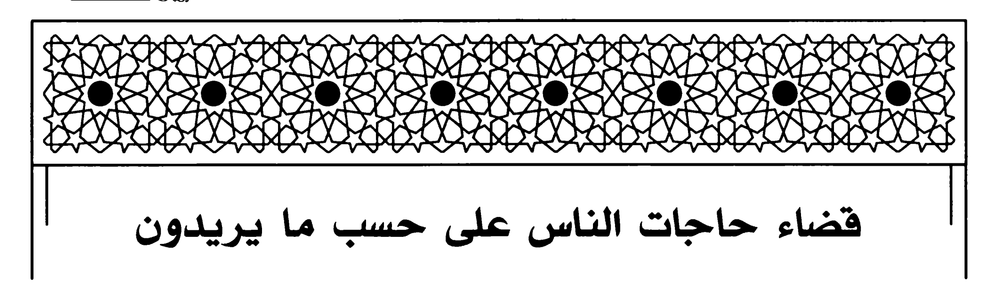
الكسل والخمول من الصفات الرديئةِ خاصةً بين الأصدقاء، وينبغي لمن يجد في نفسه هذه الصفة أنْ يُجاهد نفسه على النشاط والمساعدة.

والناس لا يحتملون أنْ يَتْعَبوا في العمل، ويجتهدوا في الشغل، وصاحبهم مُستغرقٌ في نومه، أو يتقلب في فراشه، أو يلهو في جواله.

وأخـيْ أنـتَ ولا تـنـفـعـنـي لا أخَـا لـلـمـرء إلا مـن نـفـعْ



(١) روضة المحبين: ١٦٨.



قضاء حاجات الناس على حسب ما يريدون

بعض الناس يزيد في نصحه إذا أراد قضاء حاجة أحد من الناس، فيجتهد في قضائها حسب ذوقه، لا على حسب رغبةِ صاحبه، فربما كان هذا أضرّ عليه مما لو لم يقضها.

قال الإمام ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أردْتَ قضاء حاجته بعد أن سألك إياها أو أردْتَ ابْتِداءه بقضائها، فلا تعمل له إلا ما يريد هو لا ما تريد أنت، وإلا فأمسك، فإن تعديت هذا كنت مسيئًا لا محسنًا، ومستحقًا للوم منه ومن غيره لا للشكر، ومقتضيًا للعداوة لا للصداقة»(١)



(١) رسائل ابن حزم: ٣٦٥.



المُبادرة إلى التهنئة عند الفرح، والتسلية عند الحزن

إذا جاء أمرٌ يُفْرِح أخاك فبادر بِتَهْنِئَتِه، وإذا حصل له أمرٌ مُحْزِنٌ فبادر بتعزيته، وتخفيفِ مُصابه وألَمِه؛ فإنه لن ينسى لك وقوفك معه في هذه المواقف.

حينما تاب الله تعالى على الثلاثة الذين خُلِّفوا ـ وكانوا مُقاطَعين من الصحابة جميعًا ﵃ بأمرٍ من النبي ﷺ ـ فلمَّا نزلتْ توبتُهم، أقبل كَعْبُ بن مالك ﵁ مُسرعًا للمسجد للقاء رسُولِ اللهِ ﷺ، قال كعبٌ: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة![١]

انْظر إلى فطنةِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ ﵁، وكيف اسْتغل هذه الفرصة لِتَهْنِئَتِه ومُشاركته فرحتَه، ولك أنْ تتخيَّل هذا المشهدَ الذي لم ينسه كعبٌ لطلحة حينما أقبل والناس جلوس، فقام هو من بينهم يُهَرْوِلُ مُسرعًا فصَافَحَه وَهَنَّأه!.

فحُقَّ له أنْ يقول: ولا أنساها لطلحة!.

إنَّ وقوفَك مع الناس في أحزانهم وأفراحهم لهُ وقعٌ كبيرٌ جدًّا عليهم، ولا ينسونه أبدًا، والعكس كذلك، خُذلانك لهم، أو تكاسلك

(١) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٧١٩٢).

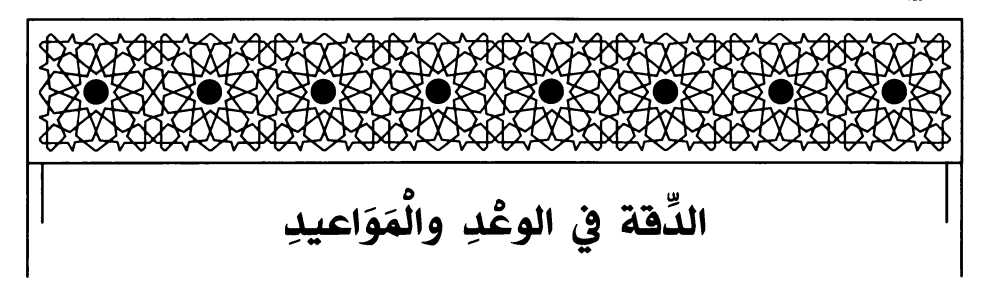
عن مُشاركتهم في همومهم وأحزانهم، أو سرورهم وأفراحهم يُؤثر عليهم تأثيرًا بالغًا، ويرون تخاذلك وتكاسلك أكبرَ علامةٍ على ضعف مودَّتك، وقلّة وفائك.

طُبِع كتابٌ لي، وكنت قلقلًا من كلام وقبول الناس له، وخاصةً أهل العلم، وبعد أسبوع من هذا القلق والتوتر اتصل صديقٌ لي على أحد المشايخ الفضلاء، الذي يتسابق إلى إدخال السرور على الآخرين، وتمامُ لذته وأنسه في خدمة الناس، وتحفيزهم وشكرهم، فطلب رأيه في الكتاب بعدما قرأ منه قرابة مائة صفحة، فتكلّم عن الكتاب وأنا أسمع ـ دون علمِه ـ وأثنى عليه، وعلى منهجي في الكتاب، ففرحت فرحًا شديدًا؛ لأنّه من أهل العلم والمعرفة، فأبدل الله تعالى بكلامه قلقي، وحوّل همّي إلى أنس وسعادة وطمأنينة، وسكن حبّه سويداء قلبي، ولم يزل كلامه منقوشًا في قلبي، ومحفوظًا في عقلي، ولا أكاد إذا رأيت كتابي أو جاء ذكره إلا تذكرت كلامه.

وإنما تأثرت بكلامه ووقع في قبلي موقعًا كبيرًا؛ لأنه بادر إلى الثناء على الكتاب وإبراز محاسنه، ولأنه فصَّل في كلامه وأسهب فيه.

فإذا أردت أن تكسب قلب أحد فبادر إلى شكره والثناء على عمل صالح قام به، ولْيكن ذلك بالتفصيل لا بالإجمال.





الدِّقة في الوعْدِ والْمَوَاعيدِ

بعض الناس يستهين في وُعُودِه ومواعيده، وهذا مخالف للشرع والأدب.

بعضُهم يتَّفِقُ مع رجل على موعدٍ في الساعة الفلانية، فيتأخر بعدها بعشر دقائق أو أكثر، والرجل على أحرّ من الجمر ينتظره، وحينما يحضر كأنَّ شيئًا لم يكن!

كان من عادةِ أحد الأصدقاء أنه إذا واعد أحدًا جاء قبل الوقت بخمس أو عشر دقائق، ويمكث في سيارته يقرأ ويستغل وقته؛ ليضمن عدم التأخر، فياله من تصرّف حكيم.

وبعضُهم يعِدك بأمرٍ أو قضاء حاجةٍ ثم يُماطل ويُؤخِّر، ويتساهلُ ويتعذَّر!





الصِّدق في الحديثِ

الصِّدْقُ هو ألا تقول ما هو خلاف الواقع، وألا تُظهر خلاف ما تُبطن، وهو ركنُ الأدب، وأصلُ المروءة، ودليل الشجاعة والثقةِ بالنفس، وعلامةٌ على الإخلاص والوضوح.

والصِّدْقُ صفة متى اتصفت بها قادتك وأوصلتك إلى كلّ الصفات الحسنة والأخلاق الحميدة، بل هو مقدّم الأخلاق الفاضلة، ورأسها وأساسها وجالِبها وقائدها.

ولذلك قال النبي ﷺ: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذَّابا**»[١]

والبر: اسم يجمع خصال الخير، كالكرم والأدب والحياء والتواضع والشجاعة وغيرها، فالصدق يقود إلى التحلّي بها كلّها.

«فلإنْ بلغ الموت في سبيل الله بصاحبه درجةَ الشهداء، فإنّ الصِّدْق يبلغ بصاحبه درجةً أعلى دون دِمَاء»،[٢] فاصدق لله في أقوالك وأفعالك وعزمك.

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

(٢) مختصر السيرة النبوية للشيخ محمد الصوياني (ص: ٣٢٦).

والصادق قد جمع خصال الخير كلها، والكاذب قد جمع خصال الفجور، والفجور: هو اسم يجمع خصال الشر كلها.

قال بعض السلف: إنَّ الكذب يسقي باب كلّ شر كما يسقي الماءُ أصول الشجر.

فإذا رأيت من اعتاد الكذب فاعلم أنّه قد جمع خصال الشر كلها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: أصل أَعمال الْقُلُوب كلّهَا الصدْق، وأضدادها من الرِّيَاء وَالْعجب، وَالْكبر وَالْفَخْر، وَالْخُيَلَاء والبطر، والأشر وَالْعجز والكسل، والجبن والمهانة وَغَيرهَا، أَصْلهَا الْكَذِب، فَكل عمل صَالح ظَاهر أَو بَاطِن فمنشؤه الصدْق، وكل عمل فَاسد ظَاهر أَو بَاطِن فمنشؤه الْكَذِب. اهـ[١]

ولو أنّ التواضع باب لأغلقه الكذاب، ولو أنّ الهمة العالية والنشاط والمروءة سلّم يرتقي به للمجد لَمَا صعده.

فلا مروءة ولا وفاء ولا أمان ولا أمانة ولا حياء لكذاب أبدًا.

وشرّ ما في الإنسان لسان كذوب، ولهذا يجعل الله تعالى شعار الكاذب عليه، وعلى النبي ﷺ يوم القيامة سوادَ الوجه قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾.

والكذب له تأثير عظيم في سواد الوجه، والكاذب يرزقه الله تعالى مهانة وبُغضًا، فمن رآه كرهه واحتقره، والصادق يرزقه الله مهابة وجلالًا، فمن رآه هابه وأحبه.

وتأمل قول النبي ﷺ وهو يهدد الكذابين: «**ويل للذي يحدّث فيكذب ليُضحك به القوم ويل له ويل له**»[٢]

---

(١) الفوائد (ص: ١٣٦).

(٢) رواه الإمام أحمد (٢٠٠٤٦)، وأبو داود (٤٩٩٠)، والترمذي (٢٣١٥)، وحسّنه.

هذا الويل لمن يكذب ليدخل السرور على الناس، فكيف بمن يكذب ليغدر بهم، أو يخونهم، أو يغشّهم، كيف سيكون حاله؟

وما أشدّ عقوبة الكاذب يوم القيامة! فقد جاء في صحيح البخاري[١] أن النبي ﷺ قال في رؤياه الطويلة التي رأى فيها حال الناس يوم القيامة: «**ورأيت رجلًا يشرشر شدقه إلى قفاه**» أي يقطع جانب فمه، حيث يأتي ملَك بحديدة، ويأخذ بطرف خده إلى الخلف، وهكذا يقطع خده إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، أي أنفه يقطعه ويكسره إلى آخر رأسه، وعينه إلى قفاه، فيُدخل الحديدة في عينه ويجرها إلى قفاه، فسأل النبي ﷺ عن جريمة هذا الرجل؟

فأخبره جبريل بأنه كذاب يحدث بالكذبة، فتُحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيُصنع به إلى يوم القيامة.

ولابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام شديد في حقّ الكذاب وخطره وسوء صنيعه، بيّن فيه أنّ النميمة فرع من فروع الكذب ونوع من أنواعه، وكل نمام كذاب.

وأخبر أنه يُسامِح في صداقة كلّ صاحب عيب وإن كان عظيمًا، ويدع أمره إلى خالقه عَزَّ وَجَلَّ، ويأخذ ما ظهر من أخلاقه، إلا مَن علم أنه يكذب، فهو عنده ماحٍ لكل محاسنه، وذلك لأنّ كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه إلا الكذب.

وذكر أنه ما رأى قط ولا أخبره من رأى كذابًا ترك الكذب ولم يعد إليه[٢].

وقال: «الكذب أصل كلّ فاحشة، وجامعُ كلّ سوء، وجالبٌ لمقت الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) (٧٠٤٧).

(٢) هذا في الغالب، وإلا فمن عزم وصدق في تركه قدر على ذلك بعون الله.

وما رأيت أخزى من كذاب، وما هلكت الدول، ولا هلكت الممالك، ولا سُفكت الدماء ظلمًا، ولا هُتكت الأستارُ، بغير النَّمائم والكذب»[١].

وقال المنفلوطي ـ الأديب الكبير ـ: «كذب اللسان من فضول كذب القلب، فلا تأمن الكاذب على وُدٍّ، ولا تثق منه بعهد، واهْرب من وجهه الهرب كلَّه، وأخوفُ ما أخاف عليك من الرجل الكاذب.

ليس الكذب شيئًا يُسْتَهان به، فهو أُسُّ الشرور، ورذيلةُ الرذائل، فكأنه أصلٌ والرذائل فروعٌ له، بل هو الرذائل نفسها، وإنما يأتي في أشكال مختلفة ويتمثل في صور متنوعة.

المنافق كاذب؛ لأن لسانه ينطق بغير ما في قلبه.

والمتكبر كاذب؛ لأنه يدّعي لنفسه منزله غير منزلته.

والفاسق كاذب؛ لأنه كذب في دعوى الإيمان ونَقَض ما عاهد الله عليه.

والنمام كاذب؛ لأنه لم يتق الله في فتنته، فيتحرى الصدق في نميمته.

والمتملق كاذب؛ لأنَّ ظاهره ينفعك وباطنه يلْذعك.»[٢]

فالكذب مِنْ أقبح الصفات، وأخسّ الطباع، وأرذل الأخلاق.

لا يكذب المرء إلا مِن مَهَانته ... أو فِعْله السُّوءِ أو مِنْ قلَّةِ الأدب

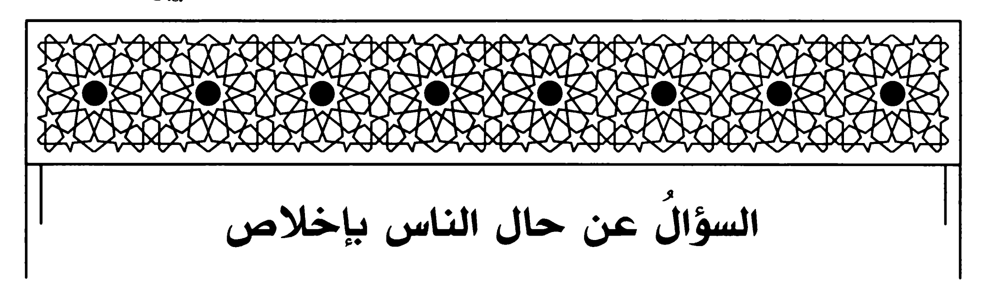
قال الله تعالى: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾.

لي حيلةٌ فيمن ينمّ ... وليس في الكذاب حيلة

من كان يَخلُقُ ما يقول ... فحيلتي فيه قليلة

---

(١) طوق الحمامة (ص: ١٧٣ ـ ١٧٦). (٢) النظرات (١/ ١٩٢ ـ ١٩٣).



السؤالُ عن حال الناس بإخلاص

إذا قابلت أحدًا تعرفه فسلّم عليه سلامًا مُفْعَمًا بالبهجة والبشاشة والاهتمام، واسأله عن أحواله وأهله وأولاده، وعن أمور دينِه ودُنْياه؛ فإنَّه حينما يسمع منك كلَّ هذا الاهتمام سيَدخلُ السرورُ قلبَه، وتعلو البهجةُ فُؤادَه، وسيشعرُ بمحبةٍ وإكبارٍ لك.

وقد كان نبيّنا ﷺ يسأل أصحابه عن أدقّ التفاصيل، ويسأل الأعزب منهم هل تزوج أم لا، ويسأل أبا بكرٍ وعمر رضي الله عنهما حينما أحضرا مالهما صدقةً لله: ماذا أبقيتَ لأهلك![1]

بل كان يسأل الأطفالَ أيضًا، فقد سأل طفلًا صغيرًا عن طيرٍ له، وذلك حينما زار أهله فسأله بكلّ أدبٍ وعناية: «**يا أبا عُمَيْر ما فعل النُّغيْرُ**»[2] وهو طيرٌ صغير.

تأملْ كيف تفقد هذا الطير، وكيف سأل عن أدق التفاصيل، والسؤال عنها في نظر بعض الناس يُعتبر تافهًا، فهذا من اهتمامه وشعوره بالآخرين صلوات الله وسلامه عليه.

والبعضُ يسأل صديقه أو قريبه بأسلوبٍ باردٍ، ودون اهتمامٍ وعناية.

وبعضُهم يُكرر السؤال مرارًا، فيسأله: كيف حالك، ثم بعد شيءٍ من الكلام يُكرر السؤال نفسه!

---

(١) أبو داود (١٦٧٨).

(٢) البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠).

وهذا يدلّ على أن سؤالَه مُجردُ عادةٍ، وليس نابعًا عن محبةٍ في الاطمئنان عليه وعلى حاله.

فشتان بين مَن إذا لقيته مِن أقاربك أو معلميك أو أصحابك بدأك بالسؤال عنك وعن تفاصيل حياتك، حتى تشعر أنه أقرب الناس إليك، وأنه لا يشتغل إلا بذكرك ومعرفة أحوالك، وبين من تستخرج الكلام منه استخراج الماء من البئر الغائرة، حتى كأنه يقول لك: لقد أثقلتني وأمللتني، ولا تعني لي شيئا من قريب ولا بعيد.

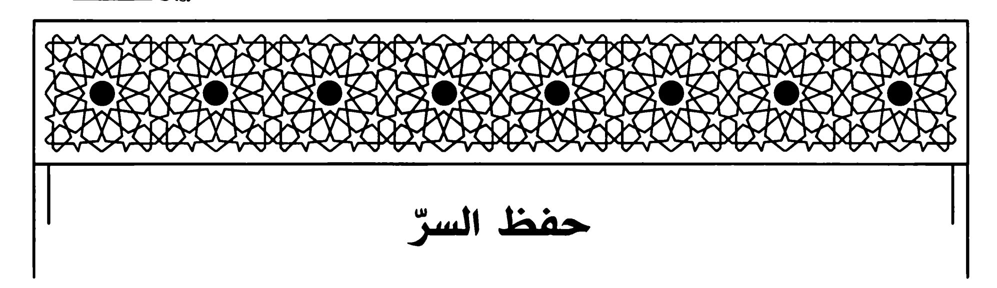
قال الأديب الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللهُ[1]: «كنت مرة خارجًا من المستشفى، بعد عملية جراحية، لا أزال أقاسي آلامها، فلقيني صديق لي فقال: كيف الصحة؟

فظننته يسأل عنها حقيقة ورحت أشرح له ما بي وأصور ما أجد وتكلمت خمس دقائق بمقدار حديثي في الإذاعة ـ على مائدة الإفطار ـ في رمضان، فلما انتهيت سكتُّ ونظرتُ إليه، أسمع منه، فقال: كيف الصحة إن شاء الله بخير.

وإذا به لم يسمع من شرحي وبياني شيئًا». اهـ.



(١) في مقالة نشرت سنة ١٩٥٦ في مجلة الإذاعة.



حفظ السرّ

حفظُ السِّرِّ من أعظم الأمانة، ونشرُه من أعظم الخيانة، وما أودع أحدٌ إليك سرَّه إلا حينما ائْتمنك ورآك محلًّا للثقة، فلا يليق بك أنْ تَخُونه وتضرَّه فتُفشي سرّه.

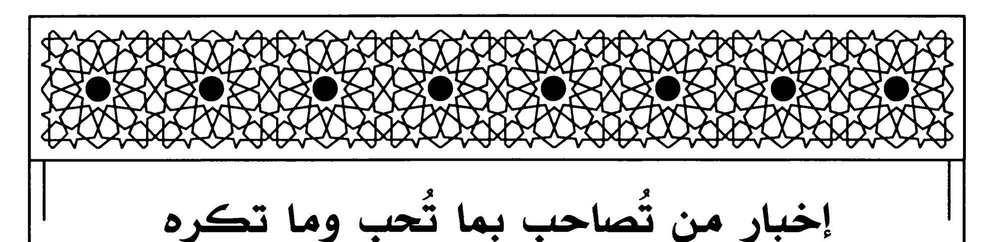
ولابد للإنسانِ أنْ يبوح أحيانًا بشيء من أسراره لقريبه أو صديقه، ويكشفَ له عن دقائق حياته كما قال الشاعر(١):

ولابُدَّ من شَكْوَى إلى ذي مُروءَة ... يُوَاسِيكَ أَوْ يُسْلِيكَ أو يَتَوَجَّع

فلا يليق بذي المروءَةِ أنْ يُذيع أسرار قريبه أو صديقه، ويُشيع خواصَّ حياته، ويستهين بكلامٍ خصَّه به دون غيره.



(١) ديوان بشار بن بُرد: ٩١٤.



إخبار من تُصاحب بما تُحب وما تكره

إذا عزمت على مصاحبة أحد فأخبره بما تُحب وما تكره، واطلب منه أن يُخبرك بما يُحب ويكره، فهو من أعظم أسباب دوام مودّتكما وصحبتكما.

ويتأكد ذلك فيمن عزم على السفر مع من لم يجرّبه ويعرف طباعه وأخلاقه وما يُحب ويكره.

أحدُ الأصدقاء يُسافر كثيرًا مع صديقه لوحدهما، ويمكثون الأيام الطويلة، في غاية المتعة والتفاهم، فسُئل عن ذلك فقال: أولُ مرَّةٍ سافرتُ معه قال لي: يا فلان، أنا لم أُجرِّبك في سفر، فأخبرني بما تُحبه وما تكرهه، وأنا سأخبرك أيضًا، يقول: فعرف كلٌّ واحدٍ ما يُحبُّه الآخر فأتى به، وما يكرهه فاجْتَنَبه، فكانت سَفْرتُنا من أمتع أيامنا، ولذا سافرنا لوحدنا بعدها مرارًا.





الاعتذار عند الخطأ والتقصير

كَمْ همُ الذين تَبدُرُ منهم زلَّةٌ أو تقصيرٌ مع أحدٍ من الناس، فلا يُسارعون في الاعتذار إليهم، وتطييبِ خواطرهم.

عوِّدْ نفسك أنْ تقول: آسف، أعتذر عن خطئي، أُقِرُّ بأني مُخطئ، وهكذا؛ فإن الاعتذار يُزيل ما في القلب من ضغينةٍ، وهو بلسمٌ لِمَا ألَمّ به من ألَمٍ.

بل هو يُؤثر حتى على أهل الظلم والطغيان، فهذا أحدُ الملوك أمر بقتل رجل غَضِبَ عليه، فقال له الرجل: أيها الملك، إنْ قتلتَني وأنا صادقٌ عَظُم جُرْمك، وإنْ تركتني وأنا كاذبٌ قلَّ وِزْرُك، وأنت مِن وراء ما تُريد، فعفا عنه[(١)]

«الاعتذارُ يُذهب الهموم، ويُجْلي الأحزان، ويَدفع الحقد، ويُذهب الصدّ، فلو لم يكن في اعتذارِ المرء إلى أخيه خصلةٌ تُحمد إلا نفي العُجْب عَن النفس في الحال لكان الواجب على العاقل ألا يفارقه الاعتذار عند كلِّ زلة»[(٢)]

وممَّا ينبغي تجنُّبُه عند الاعتذار: عدمُ التصريح والوضوح بطلب المسامحة والعذر، فبعضهم ربما يقول: يا فلان، إنْ كنتُ أخطأتُ فأنا بشرٌ أُخطئ وأُصيب!

---

(١) التذكرة الحمدونية: ١/ ٤٥٥.

(٢) روضة العقلاء: ١٦٩.

وبعضُهم يُرسل رسالةً يقول فيها: إلى كلّ من ظلمتُه أو أخطأتُ في حقِّه أرجو مسامحتي، فأنا قد سامحتُ كلَّ أحد!

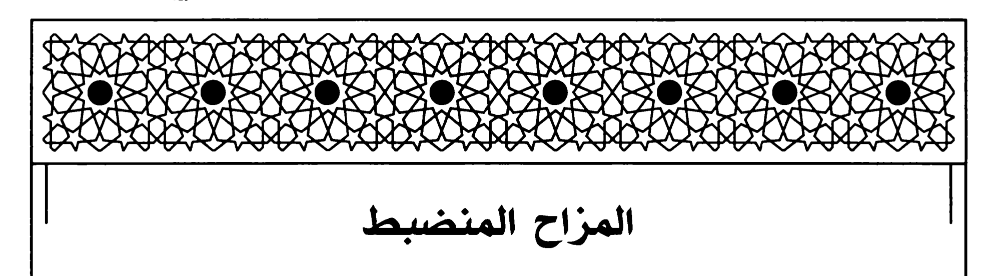
وهذا كلُّه لا يُسمى اعتذارًا ولا رجوعًا عن الخطأ، بل هو بغيضٌ ثقيلٌ.

قال بعض السلف: رُبَّ ذنبٍ أحسنُ من الاعتذار منه؛ وصدق رَحِمَهُ اللهُ[1]

إذا كان وجهُ العذرِ ليس بواضحٍ فإنَّ اطِّراحَ العُذْر خيرٌ من العذر



(١) التذكرة الحمدونية: ١/٤٥٦.



المزاح المنضبط

العاقل: لا يتسبَّبُ في جلبِ أعداءٍ له، ولا يخسر أصدقاءه أو يُحوِّلهم إلى أعداءٍ؛ بِفعلِ أمرٍ يُغضبهُم، أو بعدمِ مُداراتِهِم وتحمُّلهم والصبرِ على ما يصدُرُ منهم.

والحكيمُ اللَّبيب الموفق المسدد: من يُحوِّل أعداءه إلى أصدقاء، بأنْ يُقابل السيّئةَ بالحسنة، ﴿...ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾...﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٦].

وإنَّ أقْصَرَ طريقٍ لجلب العداوة، وتمزيقِ رباط الأُخوَّة: الإفراطُ في المزاحِ والجدال، فكم وقعتِ الفرقةُ بِسببهما بين الأقارب والأصدقاء، وشُتِّتَ شملُ المتحابين والأخلاء، وعن طريقهما حلَّ الحزنُ والوحشةُ في القلوب، ووقع الناس في الآثام والذنوب.

أمَّا الْمُزاحةُ والْمِراءُ فدَعْهُما خُلُقانِ لا أرضاهُما لِصديق
إني بلوتُهما فلم أحمدْهُما لِمُجاورٍ جارًا ولا لرفيق

فكم دار الحديث في المجالس، فتحوَّل الحديث الهادئ الأخويّ إلى جدالٍ شديدٍ وتعصُّبِ كلِّ طرفٍ لرأيه، أو مزاحٍ سخيف، فلا تنتهي الجلسةُ إلا والقلوبُ مشحونةٌ حنقًا وغيضًا، والخواطرُ مُنغَّصة.

ويا رُبَّ مزحٍ عاد وهو ضغائِنُ..

والمراد بالمزاح المحمود: الملاطفةُ والمؤانسة، وتطييبُ الخواطر،

وإدخالُ السرور، فإذا خلا المزاحُ من ذلك: فليس هو بمزاحٍ محمود، بل هو اسْتهتارٌ واسْتخفافٌ بالناس، وإنْ زعم أنه يُمازحُ ويُداعب.

وقد كان المزاح من هديِ النبي ﷺ، فقد كان يُمازح أصحابه ويُداعبَهم، حتى قالوا له: يا رَسُولَ الله إنَّكَ تُداعِبُنا! فقال: «**إنِّي لا أقُولُ إلَّا حقًّا**»(١)

ولا شك أن التبسط مطلوبٌ ليطردَ عن النفسِ السآمةَ والملل، ويُريحَ الجسم من التعب والكلل، وتَطْيِيْبُ المجالسِ بالمزاحِ الخفيفِ فيه خيرٌ كثير، ولكن بضوابطَ وآدابٍ مِنْ أهمِّها:

أولًا: ألا يشتمل على شيءٍ من الاستهزاء بالدين.

ثانيًا: أنْ يكون المزاحُ صِدْقًا وحقًّا.

ثالثًا: ألا يكون فيه استهزاءٌ وغمزٌ ولَمْزٌ.

واعلم أنَّ من أخطر المزاح وأقبحِه: أن تسخر من خِلْقةِ أحد أو هيئتِه.

فهذا المزاحُ يُدخل الأذى في نفسه، حيث إنَّ خِلْقةَ الإنسان ليست بيده، وإنما هي صنعُ الله تعالى، وما أقرب هذا المازح من أنْ يُبتلى هو أو أحدٌ من أبنائه بما عابَ به غيرَه، فالبلاء مُوكلٌ بالمنطق.

وإذا أردت أن تمازح أحدًا فلا تُزْعِجْه وتُغْضِبْه، وكثيرٌ من المزاحِ يكون فيه ضحايا جرَّاء ذلك، حيث يبدأ بعضهم بالتعليق على أحد الحاضرين، بأسلوبٍ تعافُه النفوس، وتشمئزُّ منه الطباع البشرية، وإنَّما النَّارُ من مُسْتَصْغَرِ الشَّررِ.

وبعض الناس متخصصٌ ومُتفنِّنٌ في جعلِ الآخرين أضحوكةً، يهزأ

---

(١) رواه الإمام أحمد (٨٤٨١)، والترمذي (١٩٩٠). وصححه الألباني.

ويسخرُ بهم في المجلس، ويجعلهُم فكاهةً بين الناس، وهذا حرامٌ إذا لم يتيقن أنهم يتقبَّلون منه مثل ذلك.

وإنْ كانوا يتقبَّلون ذلك، فأقلُّ أحوالها الكراهة؛ لأنه لا يخلو هذا التعليقُ من سُخريةٍ أو كلامٍ بذيء، وإنْ تقبَّلوا ذلك ليومٍ أو يومين فلن يتقبَّلوا ذلك على الدوام.

يا رُبَّ هزلٍ كان منه الجِدّ ورُبَّ مزحٍ كان منه الحقد

رابعًا: ألا يكون فيه ترويعٌ له، وما أقبح المزاح الذي فيه ترويعٌ للناس، ورُبَّما وصل الأمر إلى إلحاق الأذى والرعبِ.

خامسًا: إنزال الناس منازلهم، فبعضُ الناسِ يمزح مع كلِّ أحدٍ دون اعتبار، فالناس تختلفُ طِباعُ ومكانةُ كلِّ واحدٍ عن الآخر، ويجب أيضًا معرفة شخصية المقابِل، فيَمزحُ معه على حسب ما يُناسب طِباعه ومكانته وتقبُّله.

سادسًا: ألا يكون المزاحُ كثيرًا، فإن بعض الناس يغلب عليهم هذا الأمر، ويصبح ديدنًا لهم، وهذا عكس الجدِّ الذي هو من سمات المؤمنين، والمزاحُ إنما هو فسحةٌ ورخصةٌ، للترويح عن النفس وتنشيطها، أما أنْ يكون سمةً بارزةً للإنسان فهذا لا يليق أبدًا.

والإكثار من الكلام الطيب يكون مُمِلًّا أحيانًا، فلو أنَّ شخصًا كلَّما قابلك قال لك: إني أحبك في الله، أو أنت كريمٌ وشُجاعٌ، لَمَلَلْتَ من ذلك، ورأيت أنه قد يكون يستخفّ بك، فما الظن بالتعليق الشديد المتكرر على صاحِبك، وكثرةِ لمزِه وعيبِه أمام الناس؟

وصدق الشاعر:

أَفِدْ طبعكَ المكدودَ بالجدِّ راحةً يُجِمُّ وعلِّلْهُ بشيءٍ من المزْحِ
ولكنْ إذا أعطيتَهُ المزحَ فليكنْ بمقدارِ ما تعطي الطعامَ من الملحِ

سابعًا: اختيار الأوقات المناسبة للمزاح، كأن يكون في رحلة برية، أو عند ملاقاة صديق، فلا بأس بالتَّبسط معه بطرفةٍ لطيفة، أو مِزحةٍ خفيفة؛ لتُدخل السرور والراحةَ على قلبه، فالمزحُ في غيرِ وقته، كالمزح وقتَ الجدِّ، أو حينَ لا يكون الصديقُ أو القريب مُتهيِّأً له: يكون مُضرًّا وجالبًا للعداوة.

ثامنًا: ألا يكون فيه فحش وبذاءة، فبعض النكت عبارةٌ عن قلة حياء، وقلةِ أدب ومروءة، يأتي أحدُهم بطرفةٍ فيها تصريحٌ بالعورات المغلظة ونحو ذلك من الكلام غير الْمُحتشم، واللهُ تعالى لا يحب الجهر بالسوء من القول، ويكره كلَّ فاحشٍ بذيءٍ.

وأخيرًا، فلابد أنْ يُعلم أنَّ المزاحَ قنطرةٌ[1] قصيرةٌ إلى البغي والإثم، فمتى أكثر الإنسان من الهزْل جرَّه ذلك إلى الوقوع في أعراض الناس، والعبثِ بمشاعرهم، والاستهتارِ بكثيرٍ من الأمورِ الْمُصانة، وإنَّ كثرة المزاح تفقدُهُ أنسَه وبهجته، وتنقلُه إلى حدِّ السماجة الْمُسْتَثْقَلَة، وربما الوقاحةِ الْمُسْتَنْكَرة.

وستبقى الفضيلةُ وسطًا بين رذيلتين.

ولا تَغلُ في شيءٍ مِن الأمرِ واقتصدْ كلا طرفي قصدِ الأمورِ ذميمُ

فلا ينبغي الجهامةُ والقطوب، والتوافرُ الثقيل، التي تَجعلُ صاحبها ثقيلًا بغيضًا، لا يأنس أحدٌ بصحبته، ولا يَطمعُ أحدٌ بِمُجالسته.

ولا ينبغي كذلك السماجَةُ والمزاحُ العابث، فيكونُ صاحبُه منزوعَ الهيبة، مسلوبَ الكرامة، بل الصوابُ أنْ نتحلَّى بالسماحة والرزانة، وحسنِ الخلقِ والبشاشة.

---

(١) القَنْطَرَةُ: جسر مُتَقَوِّسٌ مبنيٌّ فوق النهر يُعبر عليه.

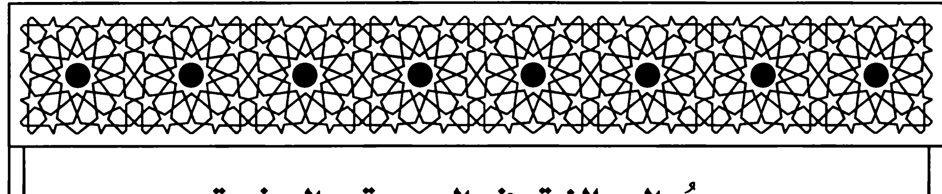
ومن عجيب بعض الناس: أنه لا يحتمل من أحد المزاح، وهو يمزح معهم، وربما زاد واعتدى في مزاحه، وكأن المزح حلالٌ عليه حرامٌ على غيره.

فهو يُسْمِعُ غيره ما لا يريدون، ولا يُريد أنْ يسمع منهم ما لا يريد؟

ومنهم من سَمعْنا ما لديه ... ويَغْضبُ حين يسمعُ ما لدينا

فإن يك فعلهمُ سمِجًا وفعلي ... قبيحًا مِثلُه فقد اسْتوينا





عدمُ المبالغة في المحبة والرغبة، والكراهة والنفرة

ما أكثر مَن إذا أحبَّ شيئًا بالغ في محبَّته، وإذا أبغضه بالغ في بُغضه، وهذا الحب أو البغض قد يكون لشخصٍ أو عملٍ أو غير ذلك.

أعرف شخصًا فيه هذا الطبع، فكنت كثيرًا ما أحذره منه، وأنصحه في التوسط والاعتدال في حبه وبغضه، لكنه يأبى أنْ يُغير طبعه، فأحبَّ صديقًا له محبَّةً كبيرة، فأصبح يأخذه كلَّ يومٍ هنا وهناك، حتى أدخله شريكًا له في تجارة له، فنصحتُه في عدم الْمُبالغة في هذه الصحبة، والإكثار عليه في الذهاب والإياب.

فما هي إلا أيامٌ حتى عافه وملَّه، وأصبحت بينهما نفرةٌ وقطيعة.

وهكذا كانت طريقته مع بعضِ أصحابه، فبعضهم قاطعه وكرهه، وبعضهم هجره وتركه.

بل وفعل كذلك في عمله، حيث دخل في مشروعٍ درَّ عليه مالًا كثيرًا، فبالغ في تفريغ وقته لأجله، فما هي إلا أشهرٌ حتى ترك عمله، وحصلت خلافاتٌ كثيرةٌ مع الأطراف الْمُتعاقدة معه.

فكم جرَّ عليه هذا الحبُّ والبغض الْمُفرط من الشقاء والأذى.

وقد صدق القائل: لا يُفْرِطِ العاقلُ في محبةِ الصديق، ولا يَتَجاوزْ في عداوة العدو، فإنه لا يَدري متى تنتقلُ صداقةُ الصديق عداوة، ولا متى تَنتقل عداوةُ العدوِّ صداقة.

ومن جيد ما قيل في هذا المعنى قول بعضهم: لا تكن مكثرًا ثم تكون مُقلًّا، فيُعرف سَرَفك في الإكثار وجفاؤك في الإقلال[(١)]

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عسى أن يكون حبيبك يوما ما[(٢)]

وقال بعضُ الحكماء[(٣)]: إذا أقبل عليك مقبلٌ بودِّه فسرك ألا يُدبر عنك، فلا تُكثر الإقبالَ عليه، فالإنسان من شأنه التَّباعدُ ممَّن قرب منه، والدُّنوّ ممَّن يَتَباعد منه.

فأمسك نفسك إذا رأيت منها رغبةً وحبًّا لأحد من الناس مهما كان؛ لأنك لا تدري لعل الذي أحببته يكون يومًا مصدر قلقٍ وإزعاجٍ عليك، فتأتيك حسرةٌ شديدةٌ على الوقت والحب الذي أعطيته إياه.

وأمسكها إذا رأيت منها كرهًا وبُغضًا لأحدهم؛ لأنك لا تدري لعل الذي أبغضته يكون يومًا زميلًا لك في عمل، أو تحتاج إليه.

قال ابن الجوزيِّ رحمه الله: مما أفادتني تجارب الزمان، أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يُظاهر بالعداوة أحدًا ما استطاع؛ فإنه ربما يحتاج إليه.

وإن الإنسان ربما لا يظن الحاجة إلى مثله يومًا ما، كما لا يَحتاج إلى عُوَيْدٍ منبوذ، لا يُلتفت إليه؛ لكنْ كم من مُحْتَقَرٍ اُحْتِيْجَ إليه! فإذا لم تقع الحاجة إلى ذلك الشخصِ في جلب نفع، وقعت الحاجةُ في دفع ضر.

---

(١) جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري: ٢/ ١٨٤.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (١٣٢١)، وحسن إسناده الألباني في تعليقه على الأدب، ورواه الترمذي مرفوعًا إلى النبي ﷺ، (١٩٩٧) وقال: الصحيح عن عليّ موقوف قولُه.

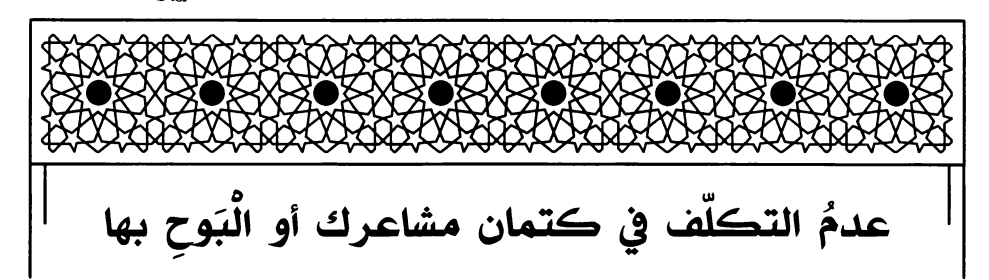
(٣) محاضرات الأدباء، للراغب الأصفهاني: ١/ ٣٣٧.

ولقد احْتجت في عمري إلى ملاطفةِ أقوام، ما خطر لي قطُّ وقوعَ الحاجة إلى التلطف بهم. اهـ[1]

ومن أعظم ما يجده من أحب أحدا حبًّا مُبالغًا فيه: الحسرة والأسى حين يرى منه جفوة، أو إعراضًا أو هُجرانًا.



(١) صيد الخاطر: ٢٣٠.



عدمُ التكلّف في كتمان مشاعرك أو الْبَوحِ بها

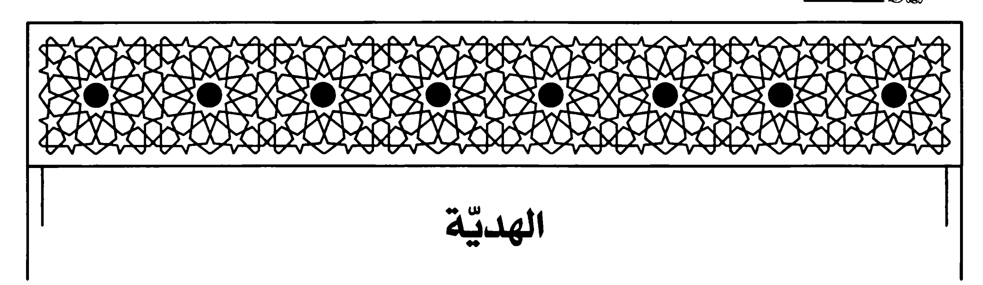
كم تجتاح أحدَنا أحاسيسُ ومشاعرُ جيَّاشةٌ، تجاه أحدٍ من الناس أسدى لنا معروفًا، أو رأينا منه ما يُعجبنا ويُبهجنا، فتثور في القلب عبارات الثناء والمدح، فنكتُمها ونبخل بها؛ حياءً أو عدمَ جُرأةٍ في إبدائها، والأدهى من ذلك إذا كان خوفًا أنْ يَغتر من هذا المدح، أو يُصاب بالإعجاب والغرور!

كم أدى هذا التأويل والتكلُّف الفاسد إلى تثبيط الهمم، والجفاء بين الناس، وعدم الاستمرارية في الإبداع والعمل؛ نتيجةً لفقد رافدٍ مُهمّ، وهو التشجيع والثناء الصَّادق.

ومن أخص من ينبغي لنا أنْ نُظهر لهم مشاعرنا الجميلة تجاههم: الوالدان، والزوجة، والأولاد، والأصدقاء، والأقارب، فهم يستحقُّونها، وهي حقٌّ من حقوقهم، مهما تقادمت وقويتِ العلاقة.

لكن التكلف في إبداء وإظهار المشاعر لا ينبغي، فخير الأمور أوسطها؛ فإنَّ ذلك يُؤدي إلى عدم التلذذ بسماعها، وعدم الحفاوة والمبالاة بها، حيث أصبحت ديدنًا وعادةً لقائلها.





الهديّة

الهدية من أعظم أسباب تقوية المحبة والمودَّة، وزيادة التقارب والألفة، ولذلك قال النبيّ ﷺ: «**تهادُوا تحابُّوا**»[(١)]

فما أجمل أنْ تُهْدي لصديقك أو قريبك أو جارك هديةً حين يقدُم من سفره، أو يُشفى مِن مرضه، أو حين زواجه.

قال بعضُهم: الهدية تردُّ بلاءَ الدنيا، والصدقةُ تردُّ بلاء الآخرة.

أقبل رجلٌ يريد قتل آخر، فلما قابَلَه أخرج الآخر من جيبه سواكًا فأهداه له، فطفئت من قلبه نار العداوة، وتراجع عمَّا عزم عليه وندم.

إنَّ الهديةَ حُلْوَةٌ كالسحرِ تَجْتَلِبُ القلوبا
تُدْني البعيد من الهوى حتى تُصَيِّرَهُ قريبًا

ولكن ما انْقَطعتْ هذه السنَّة الطيبة إلا حينما تكلَّف الناسُ وبالغوا فيها.

فبعض الناس يُحبُّ أنْ يُهدي لأحدٍ أسدى له معروفًا، أو يُكافئه على بذله وجُهده، فيحتار في الهدية التي سيُقدِّمها له، فتمضي الأيام وهو يُفكر في نوع الهدية، أو ينتظر حتى يجمع بعض المال الذي يشتري بها الهدية، فربَّما قلَّ حماسُه ونشاطه مع مرور الأيام فيتركها، ولو أنه علم أن الهدية للتعبير عن حبِّه وتقديره له، لا أنها ثمنٌ لقدره ومنزلته لَمَا تكلَّف هذا التكلف.

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٦٣/ ٥٩٤)، وحسنه الألباني.

ومن مفاسد التكلف في الهدية: أنها تشق على الْمُهدي والْمُهدَى إليه، فأما الْمُهدي فواضح.

وأما الْمُهدَى إليه فإنه إذا أراد أنْ يُهدي له بعد ذلك فلن يردّ بأقل من هدية صاحبه، وربما كان قليل المال.

ولذلك أكَّد النبيُّ ﷺ هذا المعنى ـ وهو عدمُ التكلُّفِ في الهدية ـ فكان يقول: «**لو دُعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أُهدي إليَّ ذراع أو كراع لقبلت**»[١]

بل ويأمر بإهداء اليسير غيرِ الْمُتكلَّف؛ ليعتاد الناس على الهدية ويستسْهلوها، قال النبيّ عليه الصلاة والسلام: «**يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرْسِنَ شاة**»[٢]

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (فِرْسِن) هُو عَظْم قليل اللَّحم.

أي: لا تمنع جارة من الهدية لجارتها الموجود عندها لاستقلاله، بل ينبغي أن تجود لها بما تيسر وإن كان قليلًا، فهو خير من العدم، وذَكَر الفرسن على سبيل المبالغة.

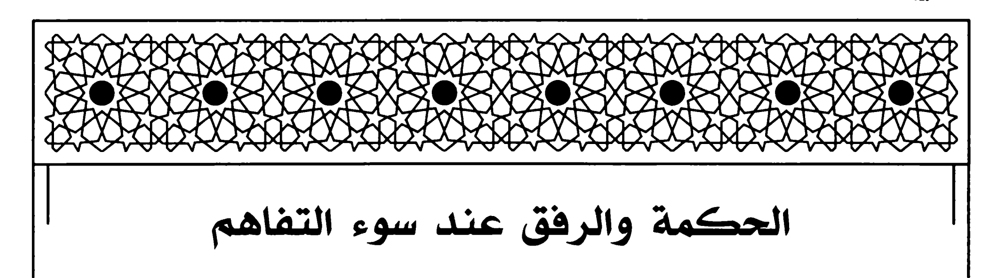
وفي الحديث: الحض على التهادي ولو باليسير؛ لأن الكثير قد لا يتيسر كل وقت، وإذا تواصل اليسير صار كثيرًا، وفيه استحباب المودة وإسقاط التكلف. اهـ[٣]



(١) رواه البخاري (٢٥٦٨).

(٢) رواه البخاري (٢٥٦٦)، ومسلم (١٠٣٠).

(٣) فتح الباري ٥/ ٢٤٥.



الحكمة والرفق عند سوء التفاهم

ليس من العيب ولا من الغريب أنْ يصدر خطأٌ من أحد مهما كان علمه أو مكانته، فالخطأ من طبيعة البشر، ولكن العيب والرزيَّةَ أنْ يكون هذا الخطأ سببًا في حدوث مُشكلة، ويفتح بابًا لتصفية الحسابات، والدخولِ في النيات.

ولا يخفى على أحدٍ منَّا مدى تأثيرِ الخلافاتِ على العلاقات بين الناس، بل بين القبائلِ وحتى على مستوى الدولِ فيما بينها، لأسبابٍ قد تصل لدرجة القطيعة والعداوة، بسبب تمسك كلِّ طرفٍ برأيه وقناعَتِه، بأنه هو المظلوم والْمُعتَدى عليه، وأنه لم يصدر منه أيُّ خطأ في حق غيره، مما يجعل الصلح وحل الخلاف أمرًا صعبًا مُعقَّدًا.

وتختلف أسباب الخلافات لكل مشكلة، فهناك خلافاتٌ أسبابها قويةٌ لا تُحتمل، وهناك خلافاتٌ يسيرةٌ بل تافهة، يجعل منها بعض الناس قضايا كبيرة، تقودُه إلى طريق المشاحنات والسباب، حتى تصلَ به في النهايةِ إلى هاوية القطيعة، والعجبُ أنَّ غالب مشاكل الناس من هذا النوع.

وينبغي لكل من حصل بينه وبين أحد مُشكلةٌ أو سوء تفاهم أو مكروهٌ أنْ يُبادر إلى زيارته، لفهم وجهة نظره، وسبب فعله، ومُحاولةِ تحجيم المشكلة لا تضخيمِها.

فأفضل طريقٍ لقطع دابر الشر والفتنة: المقابلةُ والمواجهة بين

الطرفين، لا المراسلةُ ولا الْمُكالمة، فالْمُكالمةُ قد لا تُعالجُ المشكلةَ؛ لأنَّ الإنسانَ قد يَجْتَرِئُ في الكلامِ حال عدمِ المواجهة.

وأما المراسلات بالجوال ونحوِه، فهذه ضررها قد يكون أكثرَ من نفعها، وكم تأزَّمتِ الأمور برسالةٍ قُصد بها الإصلاحُ أو العتاب، وخاصةً إذا أُرسلتْ في مجموعةِ الأصدقاء أو الأقارب، التي ما أُنشئتْ إلا لتقوية أواصر المحبة، وزيادة الألفة والترابط، فيُرسل أحد أعضاء هذه المجموعةِ نقدًا أو عتابًا لأحد الأعضاء، فينقسم الأعضاء بين مُؤيِّدٍ ومُعارض، فينتهي المطافُ بهم إلى الخروج من هذه المجموعة، والنفوسُ مُكدَّرة، والقلوبُ نَافِرة.

وهذا من قلَّةِ الحكمة والعقل، ومن المعلوم أنَّ النصيحة في العلانية فضيحة، فكيف بالعتاب واللوم والسباب؟

ولو أنه قابلَ صاحبَه وتفاهم معه لكانتِ العاقبةُ محمودة إن شاء الله.





عدمُ إثارةِ الصفات السيئة في الناس

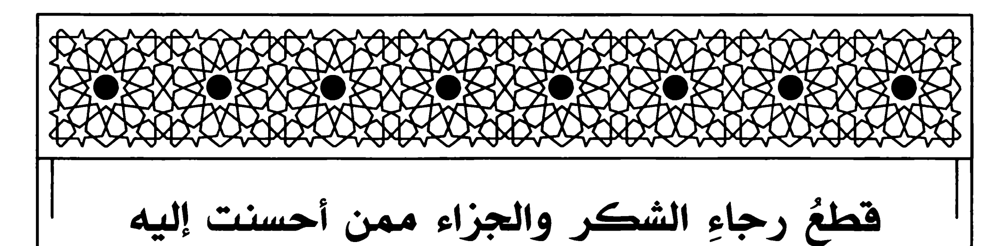
العاقل لا يُثير الصفات السيئة في الناس، ويتجنَّب ما يُهيجها أو يُحركها.

فإذا علمتَ أنَّ أحدا لا يُحب انتقاد فلانٍ أو جماعةٍ، أو يكره التعليق عليه، أو يُبغض كلماتٍ مُعيَّنةً، أو موضوعًا ما: فمن السخافةِ وقلَّة الوفاءِ والعقل أنْ تَذْكرَ ذلك عنده.

قال بعض السلف الصالح: مَن أحبَّ الناس صنع ما يُحبه الناس ـ ما لم يكن إثمًا ـ[(١)]



(١) الصداقة والصديق لأبي حيان: ٢٩٤.



قطعُ رجاءِ الشكر والجزاء ممن أحسنت إليه

من يُخلص لله تعالى في إحسانِه للناس وتعامله معهم، ولا يرجو ممن أحسن إليهم جزاء ولا شكورًا كما قال الله تعالى عن أهل الجنة: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾: فإنّ الله تعالى يجعل جزاءه عنده، كما قال الله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾.

فجزاء إحسانهم عند ربهم لا عند غيرهم، ومصيرهم يوم القيامة في الجنة عند ربهم.

وصاحب الخُلُق والإحسان لا ينتظر جزاءه من مخلوق مهما عظم منصبه وعَلَتْ مكانته، بل ينتظر جزاءَه من عظيمِ الإحسان، ذي الجلال والإكرام.

ومن طلب من الناس الشكر أو المكافأة على إحسانه وأخلاقه بلسان حاله أو مقاله: تعب وأتعب غيره، وطالتْ حسراتُه، وتنغصَّتْ حياتُه، ومُحِقَ ثواب عملِه، وأصبح أجرُه على الناس لا على الله.

وهل تعلم لِمَاذا لا يشكرك بعض الناس إذا قدّمت له معروفًا، أو فرجت عنه كربًا؟

الجواب على ذلك: لأحد الأسباب التالية:

السبب الأول: الدناءة واللؤم والحسد، وهذا الصنف من الناس يحسد حتى من أعطاه وأحسن إليه، ولو استطاع أن يقطع الخير عنه لقطعه ولو ترتب عليه انقطاع الخير عنه.

السبب الثاني: البخل بالمال أو بالمشاعر، وهذا الصنف من الناس لا يحسد صاحب الإحسان والمعروف، ولكنه يبخل عليه بماله فلا يُكافئه، أو يبخل عليه بمشاعره فلا يشكرُه.

السبب الثالث: الكبر، وهذا الصنف لا يرى معروفَ الناس معروفًا، بل واجبًا يستحقّه.

السبب الرابع: البلادة، وهذا الصنف يترك مُجازاة المحسن لبلادته وقلّةِ مُبالاتِه، لا لحسدٍ في قلبه.

السبب الخامس: الفهم المغلوط، وهذا الصنف من الناس يرى أنّ إحسان المحسن لا يقصد منه الإحسان، بل ليمنّ به عليه، أو ليتوصل بإحسانه إلى غرضٍ ما.

السبب السادس: التأويل الفاسد، وهذا الصنف يرى أنّ شكره على الله لا على الخلق، وأنّ شكره قد يُصيب المحسن بالغرور وبطلانِ ثواب إحسانِه، وهذا قد يصدر مِن جَهَلةِ المتعلّمين.

السبب السابع: الاتكالُ على العلاقة القوية بينه وبين صاحب الإحسان، وهذا الصنف من الناس يرى أنّ قوة الصداقة والصلة بينهما أزالت الحاجة إلى الشكر والثناء باللسان على كلّ معروف وإحسانٍ يصدر من صاحبِه؛ لِمَا في قلبيهما من الاطمئنان إلى الآخر، ويرى أنّ أفعالَه أكبرُ شاهد على شكره ومُجازاتِه.

فإذا عرفت ـ أخي المسلم ـ أنّ الكثير من الناس يترك مُجازاة معروفك وإحسانك لهذه الأسباب وغيرِها: وجب عليك ألا تنتظر ممن أحسنت إليه شكرًا ولا ثناءً ولا جزاءً، بل الْتَمِس الأعذار لمن أحسنت إليه ولم يُكافئك، واجعل همّك طلبَ الجزاء من الكريم الوهّاب يوم القيامة، ولا تُبطلْ ثواب إحسانك بطلب الجزاء عليه من الناس.

وبهذا أمرنا ربُّنا تبارك وتعالى فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

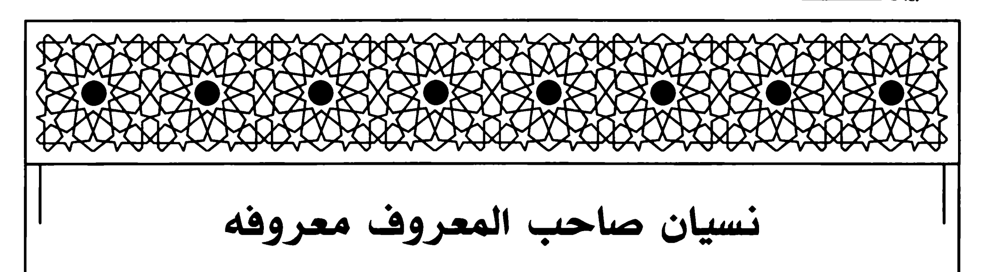
قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم بغير تحسُّس(١).

فلا تتحسّس من فلان الذي لم يشكرك على إحسانك له، ولا من فلان الذي لم يردّ على رسالتك التي أرسلتَها له، ولا من فلانٍ الذي لم تر منه البشاشة والحفاوة.

فالآية تُرشدنا إلى أنْ نقبلَ مِن كلِّ أحدٍ ما قابلنا به، من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك، ونتجاوزَ عن تقصيرهم، ونَغُضَّ طرفنا عن نقصهم.



(١) تفسير الطبري: ١٣/٣٢٦.



نسيان صاحب المعروف معروفه

إذا صنعت معروفا لأحد وأحسنت إليه كثيرًا فلا تذَكِّره بفضائلك السابقة عليه، فتقول له: هل نسيتَ ما فعلتُ معك يوم كذا وكذا! فهذا منٌّ غيرُ مقبولٍ أبدًا، ومن فعلَ ذلك فهو كما قال الشاعر:

أَفْسَدْتَ بِالْمَنِّ مَا أَسْدَيْتَ مِنْ حَسَنٍ ... لَيْسَ الْكَرِيمُ إِذَا أَعْطَى بِمَنَّانِ

وخيرُ النَّاس ـ كما قال الحكماءُ ـ: من ستر ذنبك فلم يُقَرِّعْك، ومعروفُه عندك فلم يَمْنُنْ عليك.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله وتصغيرِه وسَترِه.

يعني: أنْ تعجَّلَ العطِيَّةُ للمُعطَى، وأنْ تصْغُرَ في عينِ الْمُعْطِي، وأنْ تسترَها عن النَّاسِ فلا تُظهِرَها؛ فإنَّ في إظهارِها فتحَ بابِ الرياءِ وكسرَ قلبِ الْمُعْطى، واستحياءَه من النَّاسِ[1].

وقال الشاعر:

زادَ مَعْروفَك عندي عِظَمًا ... أنَّهُ عِنْدكَ مَحْقُورٌ صَغيرُ
تتناساهُ كأنْ لمْ تأتِهِ ... وهْو عند الناسِ مَشهورٌ كبيرُ

وقال بَعْضُ الْحُكماءِ: إذا اصْطَنعْتَ الْمعْروفَ فاسْتُرْه، وإذا اصْطُنِعَ إلَيْكَ فانْشُرْه[2].

(١) البداية والنهاية ٩/ ١٠٠.
(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٣٦٢).

أحدُ الفضلاء العقلاء يبادر أصحابه بكلّ جميل، ويصلهم بالهدايا، حتى إنه يُحضرها أحيانًا إلى بيوتهم، ويكتم معروفه ولا يرضى أنْ يطلع أحدٌ غيرهم على ما فعل، ولا يرى أنّ ما فعله معروفٌ له عليهم، بل يراه من حقوقهم عليه.

وكان أحدُ أصحابه يعطيه كتبًا كثيرة ألّفها بين الحين والآخر، فطلب منه يومًا أنْ يذكر اسمه فيمن راجع كتبه في مقدّمة أحد كتبه فرفض رفضًا قاطعًا، مع أنه يتعب في المراجعة والتدقيق، جزاه الله خيرًا.

وآخر يصنع صنائع المعروف التي تعجز عن حملها الجبال، ولا يكاد يقف على ضيق أو ظلم وقع على أحد أصدقائه أو أقاربه إلا بادر مباشرة إلى الوقوف معه، ومساعدته حتى تُقضَى حاجته، ويزول غمّه، وإذا شكره مَن صنع له المعروف يقول باستغراب: وماذا فعلت؟ أنا لم أفعل شيئًا أبدًا، وإنما المعروف لك، حيث أعنتني على نفسي، وعلى تحصيل الأجور التي لولاك ـ بعد الله ـ ما وُفّقت لها.

ولا تسل عن وقع ردّه العجيب النادر هذا على نفوس الذين صنع لهم المعروف.

فما أجمل هذا الأخلاق، التي تنمّ عن وفرةٍ في العقل، واستقامة في الدين.

وإذا صنعت معروفًا لأحد دون علمه فإن استطعت ألا تخبره بأنك فعلت ذلك كان أحسن وأقرب إلى الإخلاص.

ومن الأمثلة على ذلك:

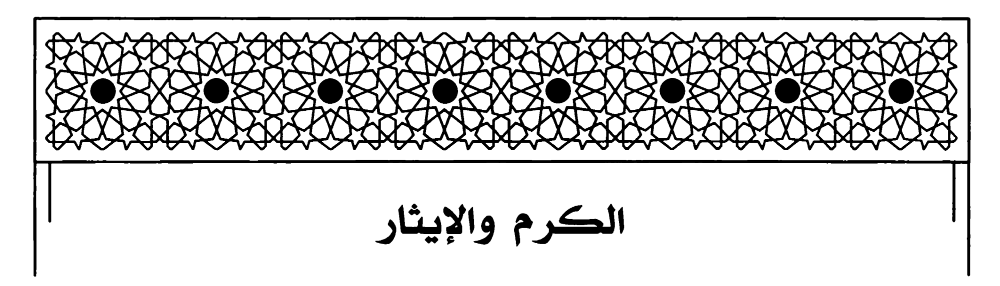
١ ـ إذا دعوت لأحد فلا تخبره بذلك إلا لمصلحة ظاهرة راجحة.

٢ ـ إذا طلبت من أحد أن يهدي لصاحبه أو قريبه فلا تخبرْه بأنك

مَن طلب ذلك منه؛ لأنه إذا علم قلّ قدرها عنده، وعلم أنّه لم يهدها له ابتداء وحبًّا وتقديرًا، بل مجاملة ومراعاةً لك.

٣ ـ إذا نشرت لأحد عملا جميلا قام به، فلا تخبره أنك من فعل ذلك، بل قل: الناس تناقلوا هذا الخبر، ودعوا لك وأثنوا على جهدك.





الكرم والإيثار

إكرامُك للناس يَجذبُ قلوبهم، ويتغاضون عن أخطائك بسببه، ويعفون عن زلَّاتك لأجله.

قال أبو حاتمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمع أهل التجارب للدهر، وأهلُ الفضل في الدين، والراغبون في الجميل، على أنَّ أفضلَ مَا اقْتَنَى الرجل لنفسه في الدنيا، وأجلَّ مَا يَدَّخِرُ لها في العقبى، هو لزوم الكرم، ومعاشرةُ الكرام؛ لأنَّ الكرم يُحَسِّن الذكر، ويشرِّف القدر.

الكريم محمودُ الأثرِ في الدنيا، مَرْضِيُ العمل في الْعُقْبَى، يُحِبُّه القريب والقاصي، ويَأْلَفُه الْمُتَسَخِّطُ والراضي». اهـ[١]

ومن أعظم الكرم: الكرم بجاهك وشفاعتك.

فيا من رزقه الله مكانةً أو جاهًا أو مَنْصِبًا اعلم أن زكاتها الشفاعة والإعانة للمحتاجين، على ألا يبخس بها حق الآخرين؛ فإن الشفاعات من أعظم العبادات إذا قُصِد بها وجه الله عَزَّ وَجَلَّ.

وهناك خُلُقٌ فوق خلق الكرم، وهو خلق الإيثار، وهو يعني أن تعطي غيرك ما تحتاجه إذا كانت حاجته فوق حاجتك، وقد أثنى الله تعالى على الأنصار باتصافهم بهذا الخُلُق الشريف فقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾.

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص: ١٧٥).

«وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحابّ النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة»[١]، كما قال الله تعالى عن الأنصار رضي الله عنهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

والإيثار ضد الشح، فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه، والشحيح حريص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شيء بخل بإخراجه.

ولا يعني هذا أنْ تتكلف ما لا تجده، وتتجشَّم ما لا تُطيقه.

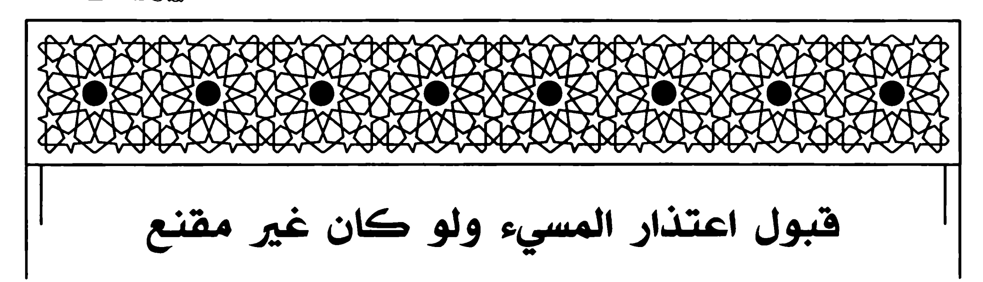
ما كَلَّفَ اللهُ نفسًا فوق طاقتِها ولا تَـجُـودُ يَـدٌ إِلَّا بِـمَـا تَـجِـدُ

فبعضُ الناس يتكلَّف ويشقُّ على نفسه لأجل غيره، وربَّما اسْتدان لأجله، وهذا لا ينبغي أبدًا، فإنه سيُحرج نفسه وغيره أيضًا.

قال الفضيل رحمه الله: إنما تقاطع الناسُ بالتكلف، يزور أحدهم أخاه فيتكلف له، فيقطعه ذلك عنه.



(١) تفسير السعدي (ص: ٨٥١).



قبول اعتذار المسيء ولو كان غير مقنع

حينما يعتذر إليك من أخطأ في حقّك، أو أساء إليك، فاقبل عذره مُباشرة، ولا تفتح باب العتاب واللوم، فاعتذاره يُغْني عن لومه.

وقد يكون اعتذار المسيء إليك غير مقنع، بل تشمّ منه رائحة الكذب، فلا تدقق في صحة عذره، ولا تحقق معه.

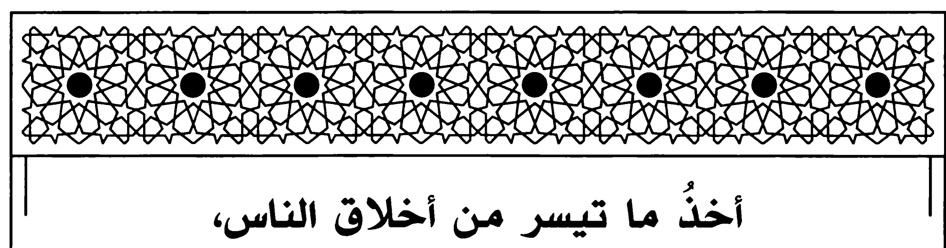
مرَّ بعض السلف على جماعة يلعبون الشطرنج، فسأل: ما يصنع هؤلاء؟ فقال له أحدهم: هؤلاء ينظرون في كتاب، فطأطأ رأسه وذهب، وهو يعلم أنهم كاذبون، لكنه أراد أن يُوصل لهم رسالة مفادها: عملُكم هذا لا ينبغي، وأنا لا أرضاه، وهذا يكفي.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من أساء إليك ثم جاء يعتذر من إساءته، فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته، حقًّا كانت أو باطلًا، وتَكِل سريرته إلى الله تعالى، كما فعل رسول الله ﷺ في المنافقين الذين تخلَّفوا عنه في الغزو، فلما قدم جاؤوا يعتذرون إليه، فقبل أعذارهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى.

وعلامة الكرم والتواضع: أنك إذا رأيت الخلل في عذره لا توقفه عليه ولا تحاجُّه، وقل: يمكن أن يكون الأمر كما تقول، ولو قُضِي شيء لكان، والمقدور لا مدفع له، ونحو ذلك. اهـ[(١)]

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٣٢١).



أخذُ ما تيسر من أخلاق الناس، ومُعاملتهم بأحسن ما يُقْدَر عليه

كنتُ كثيرَ الحرص على اكتساب الأخلاق، ومعرفةِ أحسن الأساليب وأمثلها وأكملها في التعامل مع الناس على مختلف طباعهم وتوجهاتهم، وقرأت الكتب الكثيرة التي تتكلم عن ذلك، فوجدت أنّ ربنا جلّ وعلا قد أعطانا أحسنها وأفضلها وأكملها وأنفعها، ولخصّها لنا في آية واحدة من ستّ كلمات فقط: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾، فيا للبلاغة والإعجاز، حيث جمعت كل هذه المعاني مع غاية الإيجاز.

فقد أمرنا أن نقبل من الناس ما سمحت به طباعهم، وجادت به نفوسهم، قلّ أو كثر، وألا نُطالبهم بأنْ يُعاملونا بمثل ما نُعاملهم به.

ثم أمرنا أنْ نأمر غيرنا بكلّ قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد.

وأن نتَّصف نحن بذلك أولًا؛ لأنه لا يُمكن أن نأمر غيرنا بشيء ثم لا نفعله.

ومن عاشر الناس، وخاصة مَن حرص على نصحهم وأمْرِهم بالبر والخير والمعروف: سيواجه الأذى من الجاهلين، والمضايقات من البطّالين، فأمرنا أن نُعرض عن أذاهم، وأن نتغافل عن جهلهم، وأن نَمْضي قُدُمًا في طريقنا؛ لأننا لو الْتَفَتْنا إليهم لازْدَادوا أذى، فأثَّر ذلك

على هِمَمِنا وعزائمنا، وأضاعوا أوقاتنا في الانشغال بهم، والردّ على جهالاتهم.

فيالها من آية ما أعظمها، وأبلغها، وأجمعها لخصال الخير كلّها، ولذلك قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم. اهـ[(١)]

فأحسن الناس وأطيبهم عيشًا: من جمع هذه الخصال الثلاثة:

١ ـ إكرام الناس ومُعاملتهم بأحسن ما يَقْدِر عليه، والسعي في نصحهم تارةً بلسانه، وتارةً بما يكتبه في الكتب أو مواقع التواصل وغيرها.

٢ ـ القناعة بما جاء منهم، وعدم مُطالبتهم بلسانه أو حاله أنْ يُعاملوه بمثل ما يُعاملهم به.

٣ ـ عدم مُبالاته بأذى وجهل الجاهلين وإعراضُه عنهم.

فإذا قابل أصدقاءه وأقاربه وجيرانه ومن لا يعرفهم قابلهم بالبشاشة والترحيب، فبعضهم يُقابله بالمثل أو أحسن، وبعضهم لا يكاد يبتسم أو يرد السلام، وفي كل مرة يُقابل أمثال هؤلاء يُقابلهم بمثل ما كان يُقابلهم به من البشاشة والترحيب، مع علمه أنهم سيقابلونه ببرود وعدم اهتمام.

وإذا أكرم جيرانه لم ينتظر منهم أي شيء، وإذا قبلوا ما أهداه لهم رأى أنّ هذا من كرمهم وطيبهم.

وإذا وصل أقاربه لم ينتظر منهم أن يصلوه، بل هو مستمر في صلتهم وإكرامهم ولو قطعوه.

فما أطيب عيش هذا الإنسان، وما أندره في هذا الزمان.

---

(١) الرسالة التبوكية (ص: ٧٥).

وهذا الخُلُق لا يُوفق له إلا الشرفاء والنبلاء، الذين جاوزوا بعلوّ هِمَمِهم ونُبْل مقاصدهم الجوزاء، وهم الذين مدحهم الله تعالى بأنهم يطعمون الطعام على حبّه إياه، وشهوتهم له، ويقولون للذين يطعمونهم ذلك الطعام: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾، أي: لا تكلّفوا أنفسكم مجازاتنا على صنيعنا، ولا شكرنا على عملنا.

وهؤلاء هم الذين امْتثلوا قول الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾، أي: خذ واقْبل ما أتى من أفعال الناس وأخلاقهم وتسهَّلَ من غير كلفة وتحسّس، ولا تدقق فيما صدر منه، ولا تُحاسبهم على تقصرهم، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا.

والناس في تعاملهم من الآخرين أقسام ثلاثة:

القسم الأول: يبخسهم حقوقهم، ويُطالبهم بكامل حقوقه.

القسم الثاني: يُعطيهم كامل حقوقهم، ويُطالبهم بكامل حقوقه.

القسم الثالث: يُعطيهم كامل حقوقهم، ويقنع بما تيسر منهم.

فالأول: ظالم.

والثاني: عادل.

والثالث: مُحسن كريم، وهو الذي بلغ الغاية والكمال في الأدب والمروءة والإيثار وحسن الخلق.

وإذا أردت أن تصل إلى هذه المنزلة الشريفة، والمرتبة العالية فعليك بما يلي:

أولًا: اسْتِصْغار واحتقار كلّ ما يأتي منك إليهم، واسْتِعْظام كل ما يأتي منهم إليك، فترى وقوفك مع أخيك المحتاج وبَذْلَك له من مالك

ووقتك وجاهك أمرًا لا يستحق أنْ يُذكر، وتنساه ولا تذكرّه به ولو قصّر في حقّك، وترى أن الابتسامة في وجهك، أو السلام عليك ـ ولو كان من تلميذك أو من فقير ـ أمرٌ عظيم وكبيرٌ يستحق أن تَشكر صاحبه عليه.

ثانيًا: عِلْمُك أنّ ما يأتي منهم إنما هو صدقة تصدقوا به عليك، فمهما بذلوا فهو معروف منهم.

ثالثًا: عِلْمُك أنك أنت المستفيد أولًا من بَذْلك وعطائك وتفريجِ كرب الناس وحسن أخلاقك؛ فإنك تزرع في قلوبهم حبّك، وتكتسب به جميل الذكر في الدنيا وجزيل الأجر في الآخرة، مع ما يجلبه لك الإيثار والإحسان من البركة وفيضان الخير عليك، فيعود عليك أفضل مما بذلته.

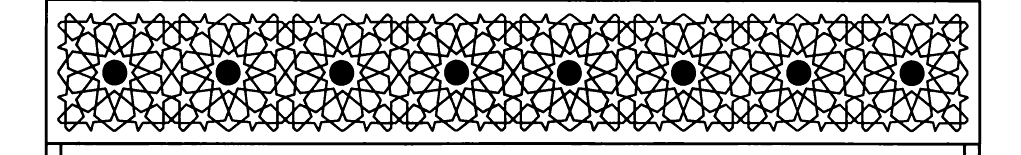
فحقك محفوظ لم يضع، بل ضُمن لك المزيد، فلا يحق لك أن تمنّ على أحد بعطاء ومساعدة وإحسان، بقلبك أو لسانك، ولا تسخط عليه إذا لم تلق منه جزاءً ولا شكورًا.

رابعًا: «عِلْمُك بعِظَم الحقوق التي جعلها الله ﷻ للمسلمين بعضهم على بعض، فكان لزامًا عليك أن ترعاها حق رعايتها، وأن تخاف من تضييعها، وإن لم تبذل فوق العدل لا يمكنك التأكد من قيامك بالعدل في حقهم، فإن ذلك عسير جدًا، فلا بدّ من مجاوزتك إلى الفضل والزيادة أو التقصير عنه إلى الظلم.

فأنت لخوفك من تضييع الحق والدخول في الظلم تختار الإيثار والزيادة بما لا ينقصك ولا يضرك»[1]



(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم (ص: ٣٠٠)، مع شيء من التصرف.



التواضع وهضم النفس

التواضع: هو لين الجانب للناس، وألا ترى في نفسك ما يُميّزها عن غيرها لتنزل إليهم.

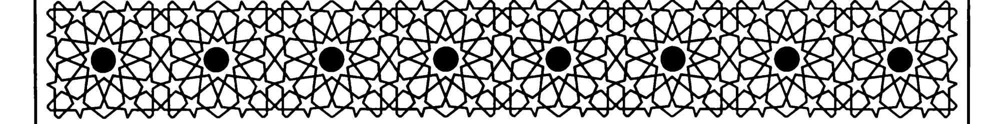
وإذا تمكنّ ورسخ التواضع في قلب الإنسان وصَلَ إلى مرحلة هضم النفس، وهو اتّهام النفس بالتقصير والتفريط صدقًا لا تكلّفًا، وأنها لا تستحق أن تُحمد، ولا أن يُنتقَم لها، لأنه يستحضر دائمًا عيوب نفسه وذنوبه.

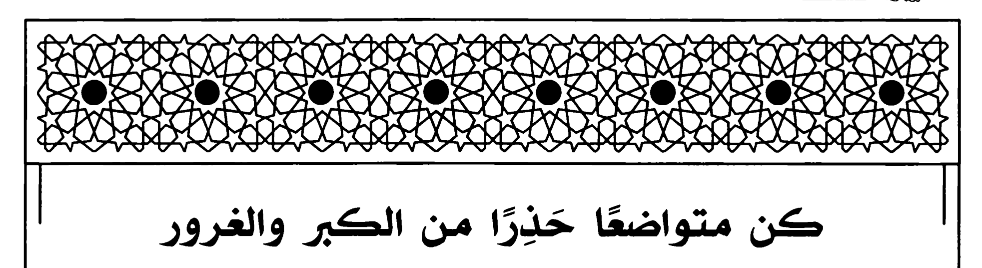
فلا يظنّ أنه خيرٌ من مسلم يؤمن بالله ورسوله، ويترتب على ذلك أنه لا يرى أنَّ له على الناس حقوقًا من الإكرام والتقدير والاحترام يُطالبهم بها، ويذمهم على ترك القيام بها؛ فإنّ نفسَه عنده أقلّ قيمةً وقدرًا من أن يكون له بها على الناس حقوق يجب عليهم مراعاتها، فيرى أنّ من سلَّم عليه أو لقيه بوجه طلِق قد أحسن إليه، وأعطاه ما لا يستحقّه[١].

وإليك أخي المسلم ما يُعينك على التحلي بهذين الخلقين الشريفين:

---

(١) يُنظر: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٢٩٨).





كن متواضعًا حَذِرًا من الكبر والغرور

الْكِبْر: هو ردُّ الحق، واحتقار الناس.

وهو ذنب إبليس الرجيم، فآلَ أمره إلى الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ يقول: «التكبر شَرٌّ من الشرك؛ فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى، والمشرك يعبد الله وغيره».

ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين، كما قال الله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

وأخبر أن أهل الكبر والتجبر هم الذين طبع الله على قلوبهم، فقال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٥]. اهـ[1]

واعلم أنّ أصل التواضع ما كان في القلب لا ما كان في الظاهر، فليس التواضع بنزولك إلى من هو أقلّ وأدنى منك، ولكن بألا ترى في نفسك ما يُميّزها عن غيرها لتنزل إليهم، فتتعاملُ مع الصغير والفقير مُعاملةَ الأخ مع أخيه والصديق مع صديقِه.

فشعورُك بأنّك متواضعٌ عند تعاملك مع من هو أقل منك ـ في الظاهر ـ دليلٌ على أنّك ترى نفسك أرفع منه، ومن أخبرك بذلك؟ فهذا نوعٌ من الترفع الخفيّ.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٣١٦).

ولكنّ الرفعة الحقيقية بالتقوى، ولا يعلم قدر التقوى في القلوب إلا ربّنا ﷻ، فتبرّأ من هذا الشعور الدقيق، واسأل ربَّك صلاح القلب ولباس التقوى فذلك خير.

واعلم أنَّ التظاهر بالتواضع نوعٌ من الكبر، والمتواضع حقًّا لا يتصنّع، والمبالغة في ذمّ الإنسان نفسه ليس محمودًا، والغالب أنّ صاحبه لا يسلم من الكبر، وعلامة ذلك: أنه لو ننتقده أحدٌ بمثل ما انتقد نفسه لَمَا رضي بذلك، وكرهه واسْتثقله وربما ردّ عليه وخاصمه!

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وها هنا نكتة دقيقة وهي: أن الإنسان قد يذم نفسه بين الناس يريد بذلك أن يري أنه متواضع عند نفسه، فيرتفع بذلك عندهم، ويمدحونه به، وهذا من دقائق أبواب الرياء، وقد نبه عليه السلف الصالح، قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: كفى بالنفس إطراء أن تذمها على الملأ، كأنك تريد بذمها زينتها، وذلك عند الله شينها. اهـ[(١)]

وما أجمل ما قاله الجاحظ: لم أر ذا كبر قطّ على مَن دونه إلا وهو يذلّ لمن فوقه بمقدارِ ذلك ووزنِه. اهـ[(٢)]

ولا سبب للعاقل يدعوه إلى الشعور باستعلائه على غيره ـ من المسلمين ـ، فإن كان لغناه أو لصحته وسلامة أعضائه، فقيمةُ الإنسان بلبّه وأخلاقه وعقله، ولا عبرة بالشكل ولا بالمال الذي قد يذهب بأي لحظة، وصدق القائل:

فلا تغترر بالعز والمال والمنى   فكم قد بُلينا بانقلاب صفاتها

وإذا كان لعلمه، فالجاهل قد يكون أسلم من المتعلم، فالله تعالى

---

(١) شرح حديث «ما ذئبان جائعان» ص٨٨ مجموع رسائله.

(٢) الحيوان: ٦/ ٣٥٣.

سيُحاسب العالم وطالب العلم بقدر علمه ماذا عمل به، وهل بلّغه وزكّاه؟

وصاحب العجب والغرور والكبر: يحرم من التوفيق، ويُضلّ سواء الطريق، ويَنزع بركة العلم، والعياذ بالله.

وإعْجابُ الإنسان بنفسِه أو علْمِه أو عمَلِه: دليلٌ على نقصِ عقلِه، وقلّة علْمِه، وضعفِ إيمانِه، والعاقل يرى من نفسِه النقص، فيزداد علمًا وعملًا واجتهادًا.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ «أن كل طاعة رضيتها منك فهي عليك، وكل معصية عَيّرْت بها أخاك فإنّ ذلك أعظم إثما من ذنبه وأشد من معصيته، لما فيه من صَولة الطاعة، وتزكية النفس وشكرها، وإنك أنْ تبيت نائمًا وتصبح نادمًا خير من أن تبيت قائمًا وتصبح معجبًا»[(١)]

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كيف يعجب عاقل بعمله؟ وإنما يعد العمل نعمة من الله، إنما ينبغي له أن يشكر ويتواضع[(٢)]

وقال أبو عثمان الحيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: احتقار الناس في نفسك مرض لا يداوى[(٣)]

وقال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلما تجد بالعلم معجبا وبما أدرك مفتخرًا، إلا من كان فيه مقلا ومقصرًا؛ لأنه قد يجهل قدره، ويحسب أنه نال بالدخول فيه أكثره.

فأما من كان فيه متوجها ومنه مستكثرًا فهو يعلم من بعد غايته، والعجز عن إدراك نهايته، ما يصده عن العجب به.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٩٥).

(٢) حلية الأولياء: ٩/ ٢٦٣.

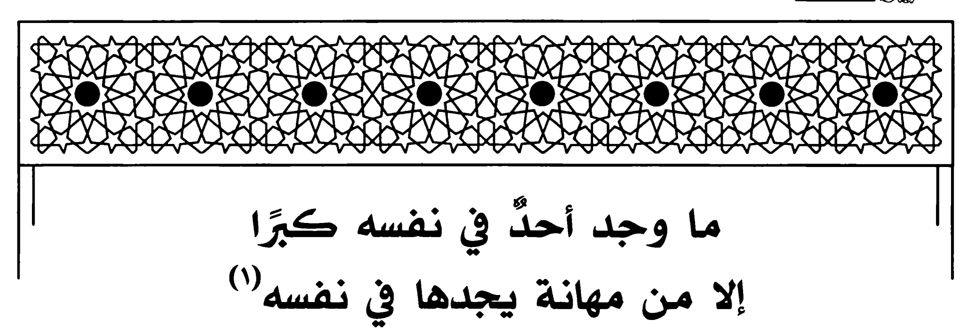
(٣) حلية الأولياء: ١٠/ ٢٤٥.

ومما أنذرك به من حالي أنني صنفت في البيوع كتابا جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس، وأجهدت فيه نفسي وكددت فيه خاطري، حتى إذا تهذب واستكمل وكدت أُعجب به وتصوَّرت أنني أشد الناس اضطلاعا بعلمه: حضرني وأنا في مجلسي أعرابيان فسألاني عن بيع عقداه في البادية على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لواحدة منهن جوابًا، فأطرقت مفكرًا، وبحالي وحالهما معتبرًا، فقالا: ما عندك فيما سألناك جواب، وأنت زعيم هذه الجماعة؟ فقلت: لا، فقالا: واها لك، وانصرفا، ثم أتيا من يتقدمه في العلم كثير من أصحابي فسألاه فأجابهما مسرعا بما أقنعهما وانصرفا عنه راضيين بجوابه حامدين لعلمه، فبقيت مرتبكًا، وبحالهما وحالي معتبرًا، وإني لعلى ما كنت عليه من المسائل إلى وقتي، فكان ذلك زاجر نصيحة، ونذير عظة، تذَلَّل بها قيادُ النفس، وانخفض لها جناح العُجْب، توفيقًا مَنَحَتْه، ورشدا أُوتيته.

وحقٌّ على من ترك العُجْب بما يحسن أن يدع التكلف لما لا يحسن، فقديما نُهي الناس عنهما، واستعاذوا بالله منهما. اهـ[1]



(١) أدب الدُّنيا والديِّن: ٧٣.



ما وجد أحدٌ في نفسه كبرًا إلا من مهانة يجدها في نفسه(١)

إنّ الذي يشعر بالنقص: يسعى إلى تكميله بشتى الطرق، حتى يذهب عنه ألم الشعور بالنقص والدُّون، ولو كلفه ذلك الغالي والنفيس، ولو أدى به ذلك إلى كره الناس له، أو بذل ماله ووقته في سبيل ذلك.

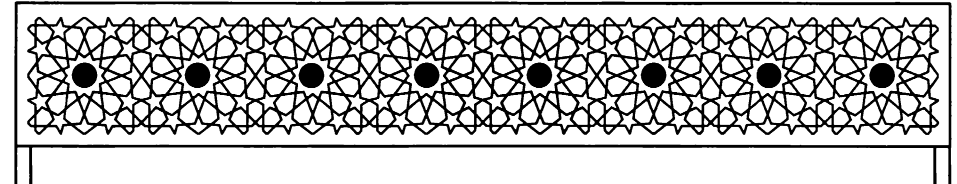
والغالب على هؤلاء المتكبرين الناقصين: أنهم يتسلطون على من يقدرون عليه، ويُطلق علماء النفس على هؤلاء: الشخصية المتسلطة، والشخصية المتملكة.

بل إنَّ الطفل إذا أحس أنَّ والديه أو أحدهما لا يعيرانه اهتمامًا فإنه يسعى إلى لفت أنظارهم بتغيير سلوكه؛ إما بالصراخ، أو الغضب والشتم واللوم، وإما بإفساد شيء في البيت لتقع التهمة على غيره.



---

(١) نُسبت هذه العبارة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ولا تصح عنه، وقد نسبها له: الجاحظ في كتابه: البيان والتبيين: ٢٩٤.
ولكنها عبارة صحيحة لا غبار عليها، والواقع والتجربة أكبر شاهد عليها.



المؤمن الصادق تتصاغر نفسُه عنده حينما يرى ثمار جهوده، وثناء الناس عليه

قد يجد الشيطان الرجيم مدخلًا على من بذل معروفًا، وعمل صالحًا، فربما أصابه الغرور من حيث لا يشعر، فلذا، عليه بملازمة التضرع إلى الله تعالى والافتقار إليه، وعدم الاغترار بثناء الناس.

«وليس ما أعطاه الله لنبينا محمد ﷺ من السؤدد والفضل يوم القيامة على جميع الأنبياء والرسل بعمله، بل بتفضيل الله إياه واختصاصه له»(١)

وهذا عمر الفاروق رضي الله عنه الذي هو من هو! يدخل عليه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وهو يتألم من تلك الطعنات التي طعنها المجوسي أبو لؤلؤة في جسده الطاهر، فقال لهُ وهو يُحاول أن يواسيه ويزيل جزعه: يا أمير المؤمنين، ولئن كان ذاك، لقد صحبت رسول الله ﷺ فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض، ثم صحبت صحبتهم فأحسنت صحبتهم، ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون.

قال عمر: «أمَّا مَا ذكرت مِن صحبة رسول الله ﷺ ورضاه، فإنما ذاك مَنٌّ مِن الله تعالى من به علي، وأمَّا مَا ذكرت مِن صحبة أبي بكر ورضاه، فإنما ذاك مَنٌّ مِن الله جل ذكره مَنَّ به علي، وأمَّا مَا ترى مِن

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٢٥٤).

جزعي فهو من أجلك وأجل أصحابك، والله لو أنَّ لي طلاع الأرض ذهبا لافتديت به من عذاب الله ﷻ، قبل أن أراه»(١)

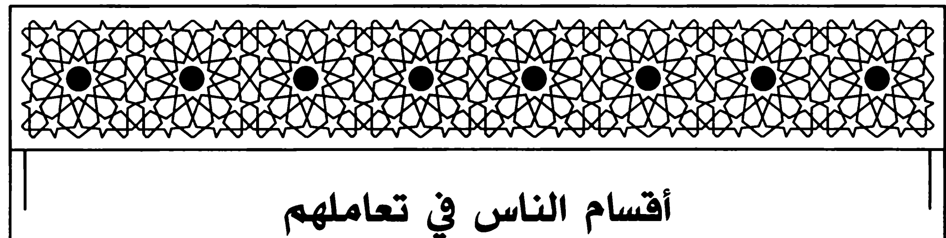
انظر كيف لم ينسب الفضل لنفسه، وهكذا الواجب على كلّ مَنْ منَّ الله عليه بالعلم أو الجهاد أو العبادة ألا ينسب لنفسه الجهد والجد والفضل، بل ينسب ذلك إلى الله وحده، ويذكر أن الله تعالى يسر له الأسباب من الجد والحرص ونحو ذلك.

والمؤمن الصادق تتصاغر نفسُه عنده حينما يرى ثمار أعماله، ونتائج جهوده، وثناء الناس عليه؛ لأنه على يقين أنّ هذا ليس من جهدِه، ولا من ذكائه، ولا من همَّتِه، بل هو محض فضل من الكريم الوهاب، ولم يهب له ربه هذا العطاء من بين كثير من الناس إلا ليبلوه أيشكر أم يكفر، وشكر الله على هذه النعم العظيمة أمرٌ ليس بالهيّن.

نسأل الله تعالى أنْ يُعِيْنَنا على شُكْر نِعَمِه التي نتقلَّب بها.



(١) رواه البخاري: ٣٤١٦، ٣٧٠٠.



أقسام الناس في تعاملهم مع ما يسمعون ويُلاقون من الأذى

الناس في تعاملهم مع ما يسمعون ويُلاقون من الأذى أقسام أربعة:

الأول: يكره ذلك ويغضب، وينفعل ويُشغل باله بما قيل عنه، ويَنْهمك في الردّ على القول وقائلِه، وربما وصل إلى السباب والقطيعة.

ومثل هذا يعيش في بلاء، وتكثر مشاكلُه وهمومه، ويتجرَّع كثيرٌ من الناس الآلام منه.

وهذا هو الخاسر في الدنيا؛ لكثرة همومِه وأمراضِه وأعدائه، وقلة أحبابه، وهو خاسرٌ في الآخرة كذلك؛ لأجل الآثام المترتبة على غضبه، ولسانه، وحقده، وعداواته، ولتفويتِه الأجور العظيمة المترتبة على الصبر والحلم.

والثاني: يكره ذلك ويغضب، ولكنه يكظم غيظه ويصبر على الأذى.

ومثل هذا يعيش في بلاء، وتكثر همومه، وقد يكون أشد من الأول؛ لأنه يكتم غيظه، وإذا لم يفرّغه فقد يُصاب بالأمراض والأسقام، ولكنه لا يُؤذي غيره، فأجره على الله.

والثالث: يكره ذلك ولا يغضب، بل يلتمس العذر للقائل، أو يُعامله معاملة الجاهل، فيترفع عن الرد عليه والانشغال بسبّه.

فهذا أحسن ممن قبله، ولكنه لا يستفيد من انتقاد الناس له غالبًا، وخاصة من أصحاب الأساليب القاسية أو المغرضة.

والرابع: لا يكره ذلك، بل يشكر للطاعن إن كان محقًّا في قوله، ولو كان قصده أو أُسلوبُه سيِّئًا، وإن لم يتبيّن له أنه محقّ تمامًا، **فإنه لا يحزن أبدًا؛ لأنه**:

أولًا: قد يكون ما وُصف به منطبقًا عليه كله أو بعضه؛ لأنه لا يستبعد ما قيل فيه حقّه، فلا يزكي نفسه.

آذى رجلٌ سالمَ بنَ عبد الله رَحِمَهُ اللهُ فقال له سالم: بعض هذا رحمك الله، فقال له الرجل: ما أراك إلا رجل سوء، فقال له سالم: ما أحسبك أبعدت!

وقال رجل للفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ: يا مرائي أو يا كاذب، فبكى وقال: لم يعرفني إلا أنت.

أيّ أن الناس اغتروا بي، وأنت وقفت على حقيقتي.

قال أحد طلاب العلم المعاصرين: قال لي رجل لا أعرفه يومًا حينما قابلته: تعرفني، فقلت: لا، فقال ممازحا: فأنت على ضلالك، ثم استحى من قوله وقال: لا أقصد ضلال الدين.

قال: ولم أجد أيّ حرج من قوله، وجعلت ألوم نفسي وأقول: لم يبعد في وصفه هذا.

قال: ووقع في نفسي كذلك أنه لو قيل لي ما قيل للفضيل لَمَا أنكرت عليه، ولوَجَّهْت أصابع الاتهام لها وقلت لها: نعم أنتَ كاذب، ولو كنتَ صادقًا لصدقتَ مع الله تعالى، ولعَمِلتَ بما علِمْت، ولَمَا فتر لسانُك عن ذكر الله، ولصَدَعْت بالحق ولم تخف أحدًا. اهـ.

وهؤلاء تتصاغر أنفسهم عندهم إذا مُدحوا، ويلومون أنفسهم إذا ذُمّوا، كما قال مطرِّف بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: ما مدَحني أحد قطّ إلا تصاغرتْ إليّ نفْسي.

ثانيًا: أنّ الله تعالى ابتلاه ليرى صبره واحتماله في ذات الله، وقد كان الأنبياء ـ عليهم السلام ـ والصالحون يبتلون بأشد من ذلك فصبروا، فكيف لا يصبر هو على أقل من ذلك؟

ثالثًا: أنه يحمد الله تعالى أنْ عافاه مما ابتلى به هذا الطاعن بغير حقّ، ويحمده أن جعله مظلوما لا ظالما.

فهذا أفضلهم وأكملهم، وما أندره في هذا الزمان، نسأل الله تعالى أن نكون منهم.

فلا تغضب ـ أخي المسلم ـ ممن يصفك بصفاتٍ لا ترى نفسَك متصفًا بها، كالكذب والرياء والكسل ونحوها.

ومن أعظم نعم الله على الإنسان: أن يعرّفه بعيوبه، فتكون نصب عينيه، ويغيّب محاسنه؛ لأنها محض جوده وعطائه، وليست من جهده وعقله وذكائه، وإذا فعل ذلك: لم يغضب إذا قلل أحد من قدره، أو تطاول عليه، أو سبّه ووصفه بصفات سيئة؛ لأنّه يعرف أن عنده عيوبا لا يعلمها إلا الله.

وللعلامة القرطبي رحمه الله كلام نفيس جدًّا في شرحه لقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك: «ولشأني كان في نفسي أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يُتلى»[1]: قال: فيه دليل على أن الذي يتعين على أهل الفضل والعلم والعبادة والمنزلة: احتقار أنفسهم، وترك الالتفات إلى أعمالهم، ولا إلى أحوالهم.

وتجريد النظر إلى لطف الله ومنته وعفوه ورحمته وكرمه ومغفرته.

وقد اغتر كثير من الجهال بالأعمال فلاحظوا أنفسهم بعين

---

(١) رواه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

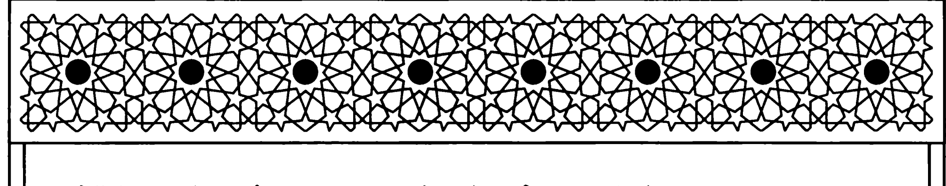
استحقاق الكرامات، وإجابة الدعوات، وزعموا أنهم ممن يُتبرك بلقائهم، ويغتنم صالح دعائهم، وأنهم يجب احترامهم وتعظيمهم، فيُتمسح بأثوابهم، وتقبل أيديهم.

ويرون أن لهم من المكانة عند الله بحيث ينتقم لهم ممن تنقصهم في الحال، وأن يُؤخذ من أساء الأدب عليهم من غير إمهال.

وهذه كلها نتائج الجهل العميم، والعقل غير المستقيم؛ فإن ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه، غافل عن جرمه وذنبه، مغتر بإمهال الله ﷻ له عن أخذه. اهـ[1]



(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥).
وكلامُه هذا نفيس جدًّا، وقد ساقه ابن القيم بلفظه ـ مع شيء يسير من التصرف ـ في كتابه جلاء الأفهام: ٢٣٩.



من هو خير التابعين؟ ولماذا صار بهذه المنزلة؟

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة، وإذا قدم عليه جماعةٌ من اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ وهكذا دأبُه كلَّ سنةٍ، لا يكلُّ ولا يملُّ، وفي سنةٍ من السنوات، وبينما هو يسألُ أهلَ اليمن عنه، إذا به يُفاجأ بأنه معهم، ففرح بذلك وسأله: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم، قال: من مراد ثم من قرن؟ قال: نعم، قال: فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم، قال: لك والدة؟ قال: نعم، قال: «إن خير التابعين رجل يقال له أويس، وله والدة وكان به بياض فمروه فليستغفر لكم»، وقال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل**» فاستغفر لي، فاستغفر له، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟

أي: ألا أُرسل إلى واليها فيهتمّ ويعتني بك؟ فرفض ذلك وقال: أكون في غبراء الناس أحب إلي، أيْ مع ضُعفائهم وعوامِّهم، وهذا من كراهته للشهرة والترفع، وحبِّه لكَتْمانِ حَاله.

فلما كان من العام الذي بعده حج رجل من أشرافهم وكان يسخر بأويس، فوافق عمر رضي الله عنه، فسأله عن أويس، فقال محتقرًا له، ومقلِّلا من شأنه: تركته رث البيت، قليل المتاع، فأخبره عمرُ رضي الله عنه بما قال النبيّ ﷺ في حقِّه، فتعجَّب من ذلك، فلما رجع من سفره أتى أُويسًا فقال: اسْتغفِرْ

لي، قال: أنت أحدث عهدا بسفر صالح، فاستغفر لي أنت، فألح عليه أن يستغفر له، فاستغفر له، ثم قال أويسٌ حينها: هل لقيت عُمرَ؟ قال: نعم، ففطن له الناس، واشْتُهر خَبرُه، فانطلق على وجهه، وأخفى نفسه وابتعد عن مُخالطة الناس؛ لئلا يشتهر مخافة الفتنة[١]

وما هو السبب الذي تميَّز به أويسٌ عن غيره من الناس، حتى ذكره النبي ﷺ من بين سائر التابعين، الذين فيهم العلماء وقادة الجيوش الذين فتحوا البلدان ودخل أهلها في الإسلام؟

السبب: هو ما تحلَّى به مِن أخلاقٍ وخِصالٍ عظيمة:

الأولى: برُّه العظيم بوالدته، وهذه أعظم صفةٍ ذكرها النبيُّ ﷺ له.

الثانية: بُعده عن الشهرة والبروز، ورغبته أن يكون مع ضعفاء الناس وأوساطهم.

وتخيل شعور أويس وهو يسمع من عمر رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال عنه: خيرُ التابعين، والله لو ذكره باسمه مجردًا لحقّ له أنْ يطير في السماء فرحًا، ويركب السحاب فخرًا، فما بالك وهو يسمع منه هذا الثناء العجيب، والأعجب من ذلك أنْ يطلب من الصحابة العظماء والأتقياء أن يستغفر لهم، ويطلب عمر رضي الله عنه منه ذلك؟

وبعض الناس لو جاءته شهادة شكر من مدير أو وزير لتفاخر بها، وأبرزها في مجلسه ليراها الناس، وأويس رحمه الله يحوز على أحسن وأفضل شهادة في العالم، من أعظم وأكرم وأجلّ رجلٍ في الدنيا، ومع ذلك لم يذكرها لأحد أنّ النبي ﷺ قال عنه هذا الكلام العظيم، بل حينما علم الناس عن ذلك خرج من بلده خوفًا من الشهرة والفتنة بها.

---

(١) ذكرها بهذه التفاصيل الإمام مسلم في صحيحه (٢٥٤٢).

الثالثة: زهده في الدنيا، وعدمُ مُبالاته بزخرفها، فكان لا يأبه بجمال بيته، وتحسين أثاثه؛ لأنَّ همَّه إصلاحُ السريرةِ والدين، لا إصلاح الحجارةِ والطين.

الرابعة: تواضُعُه وهضمُه لنفسه التي لا تساوي عنده شيئًا، بل إنَّه من شدَّة تواضعه وعدمِ اعتداده بنفسه: تجرَّأ عليه بعضُ السفهاء بالسُّخرية.

فباحتقاره لنفسه، وشدَّةِ تواضعه وهضمِه لنفسه: أصبح العظماءُ وعلى رأسهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يذكرونه ويُثنون عليه، بل ويتواصون فيما بينهم أنْ يستغفر لهم.

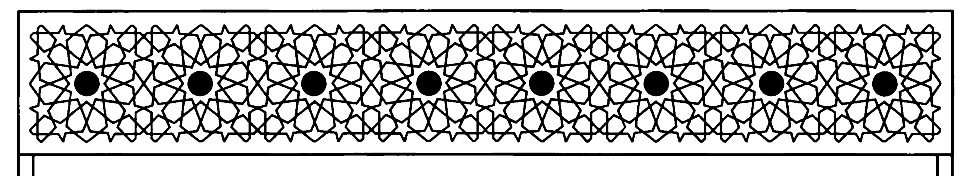
وهذه الأخلاق الطيبة، لو كانت واحدةٌ منها عند أحدنا، لارتفع وشَرُفَ بها، فكيف إذا اجتمعت كلُّها في رجلٍ واحد.

فلو تأملنا لرأينا جلّ أخلاقه كانت باطنة، فلما صلح باطنه صلح ظاهره، وارتفع رفعة كبيرة جدًّا.

فالأخلاق الظاهرة كالكذب، والتباهي، والبخل، والعنف، وسرعة الغضب هي فرعٌ عن الأخلاق الباطنة، كالعُجب، وتعظيم النفس، والحقد، وازدراء الناس، وحبّ العلو والرئاسة والشهرة، ونحو ذلك.

فمن أراد أن تصلح أخلاقه الظاهرة كلّها فليبدأ بإصلاح أخلاقه الباطنة، وإذا صلحت صلح دينُه كذلك، وانشرح صدره، وأحبّه ربّه، فالله ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا.





أربعةُ أمور لا ينبغي للعاقل أنْ يترّفّع عنها

هناك بعض الأمور قد يترَفَّع عنها بعض الناس تنزهًا وصيانةً لعرضه ونحو ذلك، كترفع بعض الأكابر من العلماء أو الأمراء عن شراء حاجياتهم بأنفسهم، أو التنزه في الأماكن العامة مثلًا.

لكنْ هناك أربعة أمور لا ينبغي لأي عاقل أنْ يترفّع عنها مهما كانت مكانته، وكبر سنّه، وعظم قدره، وعلا منصبه، وهي:

١ ـ قيامه من مجلسه لوالِدَيه؛ ذلًّا وتوقيرًا.

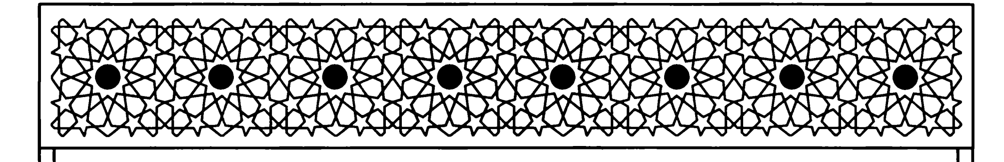
٢ ـ خدمته لضيفه؛ تواضعًا وتقديرًا.

٣ ـ خدمته لعالمٍ يتعلم منه؛ احترامًا وأدبًا.

٤ ـ السؤال عمّا لم يعلم رغبةً في العمل ورفع الجهل عنه.

والترفع عن أحدها دلالةٌ ظاهرةٌ على الكبر والعُجْب والغرور، نعوذ بالله من ذلك.





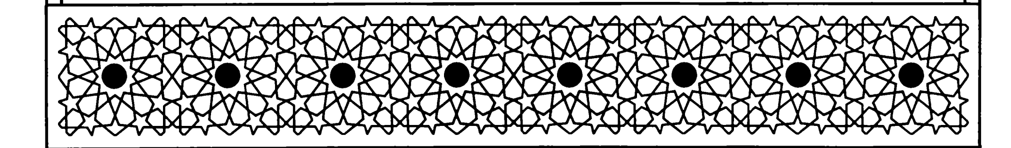
الحلم والمداراة والتغافل

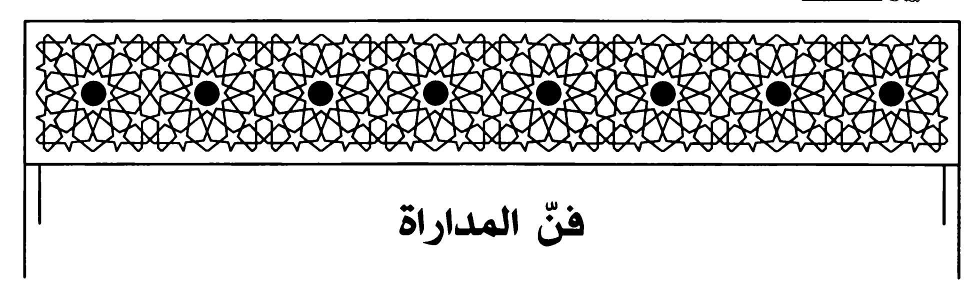
هناك أخلاق كالحلم والصبر والمداراة والتغافل لا يُمكن أن تتعلّمها وتُحسنها إذا كان كلّ شيء يسير وفق رغباتك، وإذا كانت الأجواء هادئة، والقلوب صافية.

ولن تتعلّمها وتُحسنها إلا إذا كانت الأمور تسير على عكس رغباتك، وكانت الأجواء عاصفة، والقلوب تغلي بالحقد أو العتاب.

بخلاف بعض الأخلاق فيمكن أن تتعلّمها وتُحسنها إذا كانت الأمور هادئة، وتسير وفق رغباتك، كالبشاشة، والكرم، والإيثار.

وإليك هذه التوجيهات والقواعد التي ستساعدك بمشيئة الله على اكتساب هذه الأخلاق العظيمة الفاضلة، التي لن تكتسبها إلا في ميدان الخلاف وسوء التفاهم، واللوم والعتاب، والهجوم الشرس عليك.





فنّ المداراة

العاقل يداري الناس ـ في غير معصية وخطأ بيّن ـ مداراةَ السابح في الماء الجاري، ويتغافل عن أخطائهم، ويعتذر لزلاتهم، ويُكْبِر ما يصله منهم ولو كان صغيرًا، فتجد الناس يقبلون عليه، وقلوبهم ممتلئة بمحبته، ونفوسهم متشوفة لمجالسته.

يـزدحـم الـنـاسُ عـلـى بـابـه والـمنهلُ العذبُ كثير الزِّحام

والصبرُ على بعض الناس الذين فيهم جفاءٌ أو حِدَّةٌ، وخاصةً زملاء العمل، والمعارف والعامة ومُداراتهم من أهمّ ما ينبغي على العاقل أنْ يقوم به، ومن لم يصبر عليهم طواعيةً قد يضطر إلى الصبر عليهم مُرغمًا، كما قال الشاعر(١):

وإني إذا لم أَصبر اليوم طائعًا فلابدّ منه مُكرهًا غيرَ طائعِ

استأذن رجلٌ على النبي ﷺ، فلما رآه قال: «**بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة**»، فلما جلس تطلّق النبي ﷺ في وجهه وانْبَسط إليه، فلما خرج الرجل قالت له عائشة رضي الله عنها ـ مُتعجِّبةً من صنيعه ـ: يا رسول الله، حين رأيتَ الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلّقت في وجهه وانبسطت إليه؟

فقال رسول الله ﷺ: «**يا عائشة، متى عهدتني فحّاشًا، إنَّ شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره**»(٢)

---

(١) الصداقة والصديق لأبي حيان: ٢٣١.

(٢) رواه البخاري (٦٠٣٢).

فالنبيُّ ﷺ أخبر عائشة ﵂ بأن هذا الرجل سيِّئ، حتى لا يغترَّ به أحد، فلما دخل على النبي ﷺ، لم يُظهر له ما في قلبه، ولم يُبد له التذمر والعبوس، بل تبسم وهشَّ وبش في وجهه، فما أجمل أن يستحضر هذا الحديث من يستدل على فعله بمقولةٍ خاطئة: ما في قلبي يكون على لساني، أو يقول: أنا لا أجامل أحدًا، أو يقول: المجاملة والمداراة من قبيل النفاق والخوف والجبن، ونحو هذا الكلام المجانب للصواب.

«فلقاء رسول الله ﷺ لهذا الرجلِ المعروفِ بالبذاءةِ: من قبيل المداراة؛ لأنه لم يزد على أن لاقاه بوجه طلق، ورَفَقَ به في الخطاب.

وقد سبق إلى ذهن عائشة ﵂ أن الذي بلغ أن يقال فيه: بئس أخو العشيرة، وبئسَ ابنُ العشيرة: لا يستحق هذا اللقاء، ويجب أن يكون نصيبُه قسوةَ الخطاب، وعُبُوسَ الجبين.

ولكنَّ نَظَرَ رسولِ الله ﷺ أبعدُ مَدَىً، وأناتَه أطول أمدًا؛ فهو يريد تعليم الناس كيف يملكون ما في أنفسهم؛ فلا يَظْهَر إلا في مكان أو زمان يليق إظهاره فيه»(١)

«والفرق بين المداراة والمداهنة: أن المداراة بذلُ الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين، وهي مباحة ومستحسنةٌ في بعض الأحوال، والمداهنة المذمومة المحرمة: هي بذل الدين لصلاح الدنيا»(٢)

قَالَ النووي ﵀: والنَّبيُّ ﷺ، لَمْ يَمْدحه، ولا ذَكرَ أَنَّه أثْنى عليه في وجْهه ولا في قفاهُ، إنَّما تألَّفهُ بشيءٍ من الدُّنْيا مع لين الكلام. اهـ(٣)

---

(١) أدب الموعظة للشيخ محمد بن إبراهيم الحمد: ١٣.

(٢) فتح الباري ١٠/ ٤٥٤.

(٣) شرح النووي على مسلم ١٦/ ١٤٤.

وتشتد الحاجة إلى المداراة، والكلام اللين الحسن، في حق كثيرٍ من الأقارب وأصدقاء العمل، فإن لم تفعل ذلك نفروا منك، بل وربما طالكَ الأذى منهم.

قال محمد بن الحنفية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدّا، حتى يجعل الله له منه فرجًا».

فما أجمل المداراة، وما أعظم أثرها.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حُسْنُ السؤالِ نصفُ العلمِ، ومُداراةُ الناسِ نصفُ العقلِ، والقصدُ في المعيشة نصفُ المؤونةِ».

والعاقلُ يستعمل المداراة حتى مع بعضِ أعْدَائِه، الذين يعلم أنَّه لو كاشفهم العداء، وأبَان لهم البغضاء، لألحقوا به الأَذىَ والضرر.

ولَمْ أَرَ في الخُطُوبِ أشَدَّ هَوْلًا وأصعبُ مِنْ مُعاداةِ الرِّجالِ

قال بعض الحكماء: «إظهار المودة للأعداء من مكايد العقلاء».

وهذا حق، وهو من الدهاء والحكمة، فالعدو يريد حينما يقوم باستفزازك أن تبادله العداوة ليزيد من عداوته وتسلطه.





الانسحاب في بعض المواقف دليل على الشجاعة ورجاحة العقل

كان رجلٌ مع صاحبه يومًا في نزهة، يستَمْتِعان بجمال الطبيعة، وبهاء المنظر، ففعل أحدهما فعلًا ظنّ أنه صواب ويصبّ في مصلحة صاحبه، ولكنّ صاحبه غضب غضبًا شديدًا على غير العادة، ورفع صوته ولامه لومًا شديدًا على فعله، فرأى أنّ الوقت وحالة صاحبه لا يُناسب أنْ ينشغل بتبرير فعله، فربما احتدّ النقاش، والنزهة لا تحتمل مثل هذا، فاعتذر وأظهر أنه أخطأ من غير قصد، وقال: من حقّك أن تغضب، وتصرفي غير مناسب، فهدأ صاحبه، وزال عنه ما كدّره، وأحسّ أنه أخطأ بقسوته في عتابه، لكنه لم يعتذر.

وبعد أيام اجتمع به وتحدث معه في الموقف الذي حصل، وبيّن له وجهة نظره، وأنه ما فعل ما فعل إلا رغبة في راحته، وسعيًا في المزيد من استمتاعه في نزهته، وقال: كان الأجدر بك ألا تلوم صاحبك الذي صحبته لسنوات طويلة، وعرفت نصحه لك، وحبّه لك، والصحبة يعتريها ما يكدّرها، فإذا لم يحتمل الصديق صديقه ويُحسن ظنه به ويلتمس له الأعذار تصدّعت صداقتهما، وحلّت الوحشة بينهما.

وأعرف رجلًا ألحّ أصحابه عليه في الذهاب معهم لنزهة، فأخبر أحدهم بأنه مشغول، فإذا كانت في مكان قريب وفي مدة قصيرة فلا بأس، فقال: كما تريد، فلما ركب معهم سار صاحبهم الثالث الذي يقود السيارة مسافة بعيدة جدًّا قرابة خمسين كيلًا!

فقال لهم أثناء الطريق: لعلنا نقف هنا؛ نظرًا لارتباطي، فقال السائق: أنا سأذهب للمكان الذي أريده، ولم ألزمكم أن تركبوا معي!

وكان أسلوبًا لا يليق، فسكت الرجل، وسحب مطالبته، حتى بلغ المكان الذي أراد السائق، وأظهر أنه مرتاح معهم، وأنّ ارتباطه ليس قويًّا، وآنسهم بالحديث حتى رجعوا.

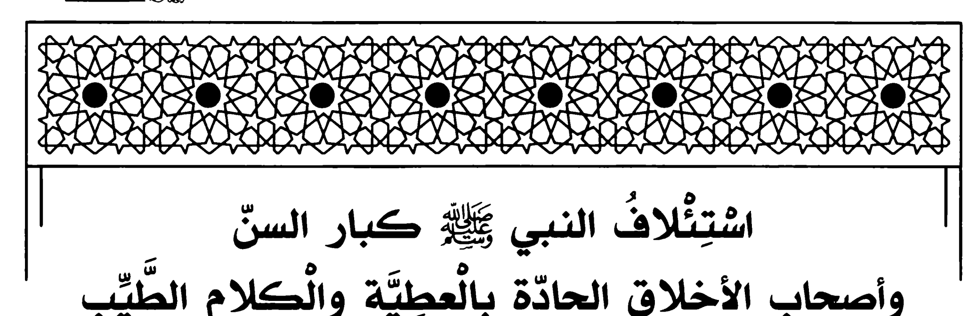
الحكيم العاقل يعرف متى يُقدم ومتى يُحجم، فهو يُقدم حينما يكون في الإقدام مصلحة ظاهرة، ويُحجم حينما تنتفي المصلحة، وهذا عين الحكمة والعقل.

إنّ إعلان جيش صغير الاستسلام أمام جيش كبير مدجج بالأسلحة الفتاكة، بشرط ألا يُؤذَى المقاتِلون: هو كمال العقل والحكمة، وليس هذا جُبْنًا ولا خورًا ولا ذلَّة.

والانسحاب أمام الأسد كمالٌ في العقل والحكمة، ومقابلتُه بدون سلاح تهوّر ورداءة في العقل، ولا أحد يحمد فعله.

فكذلك الانسحاب في المواقف التي لو اخترت المواجهة لترتَّب عليها أضرارٌ كبيرة، وهذا يتطلّب المزيد من الحلم والأناة والحكمة، وهذه تغيب عند الغضب غالبًا.





اسْتِئْلافُ النبي ﷺ كبار السنّ وأصحاب الأخلاق الحادّة بالْعطِيَّة والْكلام الطَّيِّب

قَدِمَت على النبي ﷺ أنواعٌ من الألبسة، فأعطاها للناس، فعلم رجل كبير السنّ، وفي طبعه حدّة، يُقال له: مَخْرمة، فقال لابنه الْمِسْور: انطلق بنا إليه عسى أن يعطينا منها شيئًا، فلما وصل إلى بيت النبي ﷺ قام على الباب فتكلم ورفع صوته، فعرف النبي ﷺ صوته، فخرج ومعه من هذه الألبسة، وجعل يريه محاسنها، وهو يقول: «**خبأت هذا لك، خبأت هذا لك**»، فنظر إليه مَخْرمة فقال: «**رضي مخرمة**»(١).

تأمل كيف خرج إليه ﷺ بنفسه ولاطفه، وأعطاه وأكرمه، وكلُّ هذا لأجل شيبته وسنِّه.

وكبيرُ السِّن الذي شاب شعره، ومضى دهرُه وعمْرُه، تشتدّ رغبته وحاجته إلى مَن يُشعره بالمحبة والاحترام، ومَن يُجِلُّه ويحفظُ شيبته بالبرِّ والإكرام.

فقد عاش جُلَّ حياتِه في العمل وكسبِ العيش، وقضاءِ الحوائج، والكدِّ على الأهل والأولاد، فلمَّا كَبُرَ سِنُّه، وخانته أركانُه: جلس وحيدًا فريدًا بين الجدران.

والمرأة العجوز كذلك، قضتْ حياتها في خدمةِ زوجها، وتربيةِ أولادها، ومتابعةِ شؤون بيتها، ثم بعد هذه الحياة الزاخرة، تعيش أسيرة

---

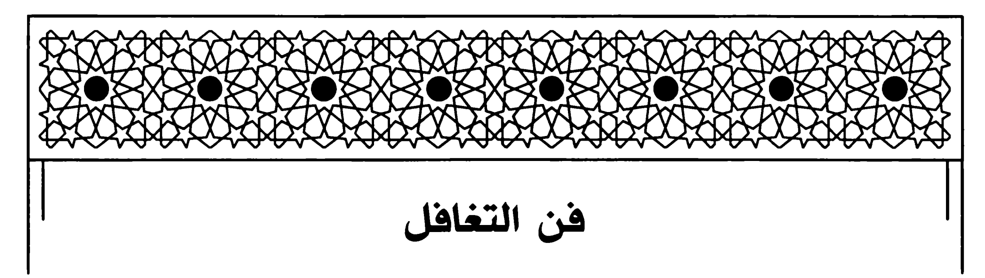
(١) رواه البخاري (٥٨٠٠)، ومسلم (١٠٥٨).

المنزل والبيت، إنْ أحسن إليها أحدٌ زارها زيارةً خاطفة، وجلسةً عابرة.

فما أشدَّ ما يُعانيه كثيرٌ منهم من المللِ، والْكآبةِ والفراغ.

ولأجل هذا حثَّ الإسلامُ على إكرامهم والعنايةِ بهم.





فن التغافل

التغافل: هو تصنع الغفلة والتظاهر بها، حيث يُوهم من صدرت منه زلةٌ أو موقف محرج أنه لم يشعر به، وهذا من كمال العقل؛ لأن من لا يتغافل عن أخطاء وعيوب الناس حتى ولو كانت موجّهة إليه فسيفتح عليه أبواب الهموم والخلافات، وهذا مناف للعقل.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: اللبيب العاقل هو الفطن المتغافل(١)

وقال الأعمش رَحِمَهُ اللَّهُ: التغافل يطفئ شرًا كثيرًا(٢)

وقال الشاعر في هذا المعنى:

ليس الغبيّ بسيد في قومه ... لكنَّ سيّد قومه المتغابي

والتغافل كذلك من أعظم أسباب راحة البال، والبعد عن المنغصات والمشاجرات.

فتغافل عن عيوب الناس وتقصيرهم في حقك، ولا تبحث عن مقاصدهم السيئة، ولا عليك من ذلك.

وإن وجدت منهم ما تكره فلسان حالك:

إذا أدْمَتْ قوارِضهمْ فُؤادِي ... صَبَرتُ على أذاهمْ وانْطَوَيْتُ

ورُحْتُ عليهمُ طَلْق الْمُحيَّا ... كأنِّي ما سَمِعْتُ ولا رَأيْتُ

ولا والله ما أضْمَرتُ غدْرًا ... كما قد أظْهرُوه ولا نويتُ

---

(١) صفة الصفوة ٢/ ٥٥٤.

(٢) شعب الإيمان ٦/ ٣٤٧.

وبعض الناس لا يكاد يسمع من أحد كلامًا لا يُعجبه إلا أوقفه وعاتبه عليه، ولا يرى ما يكره إلا تبعته نفسه وحرص على اللوم والتسخّط، حتى لو لم يكن الكلام أو الموقف فيه إساءةٌ له، فإذا رأى أحدًا مسرعًا غضب وقال: لِمَ العجلة؟ وإذا همس أحدٌ لصاحبه بكلام فيه إغضاء عليه سعى في التحقيق والتثبت: لماذا قلت كذا؟ من تعني؟

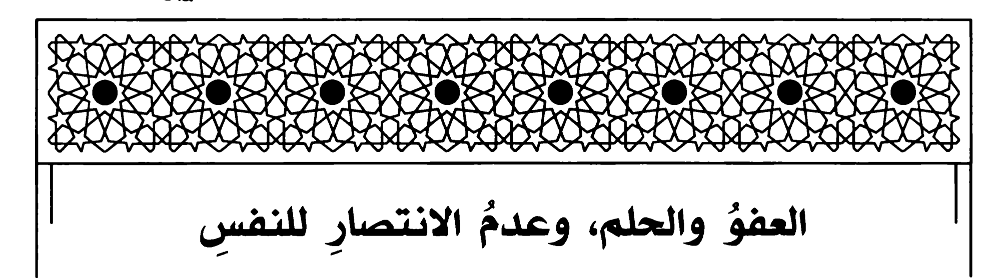
ومثل من لا يتغافل ويتصدّى لأذى الناس له أو لغيره ومن يتغافل عن ذلك: كخشبتين طويلتين عريضتين، إحداهما مخرقة في كل مكان، فإذا جاءت عاصفة شديدة دخل الهواء من كل ثقب، وسلمت من الكسر، بخلاف الأخرى، فإنها تقف أمام قوة الهواء، معلنةً أنها قوية ومستعدة لمواجهته، ولم تسمح لذرة منه أنْ يعْبُر، فلا تلبث إلا قليلا حتى تنكسر كسرًا لا يُجبَر.

فيا أخي: الكلام يطير في الهواء، فاجعله يمضي في طيرانه، ولا تمسك به فتتأذى أذى قد يُفسد صحتك، أو يقتل همّتك، أو يُثني عزمك.

وإن بُليتَ بشخصٍ لا خلاقَ له فكنْ كأنكَ لم تسمعْ ولم يَقُلِ

وانشغل بعيوبك عن عيوبهم، وقد قال بعض السَّلف: أدركتُ قومًا لم يكن لهم عيوبٌ، فذكروا عيوبَ الناس، فذكر الناسُ لهم عيوبًا، وأدركتُ أقوامًا كانت لهم عيوبٌ، فكفُّوا عن عُيوب الناس، فنُسِيَت عيوبهم.

۞ ۞ ۞



العفوُ والحلم، وعدمُ الانتصارِ للنفسِ

عوِّدْ نفسك على عدم الانتصار لها، وتلبية رغباتها في الانتقام والانتصار.

وكن حريصًا على كتم غيظك ودفعِ غضبك، وكن حليمًا رفيقًا مع أخطاء الناس، ولا تستعجل في الردّ على الخطأ والزلل، ومن رَكِبَ العجلة لم يأمن الكبوة.

وأقول لكلِّ قاسٍ على مَن خاصمه، ولكلِّ منتقمٍ لنفسِه، ولكلِّ رادٍّ بغلظة على من أساء إليه: أعد النَّظر في هذا السلوك؛ فإنّ من شؤمِه خسران الرتب العالية، والفضائل العظيمة، التي لا ينالها مَن ينتقم لنفسِه في كلّ صغيرة وكبيرة، ولم يذق طعم العفو والحلم والصبر.

واقتدْ بنبينا ﷺ، فإنه «ما انتقم لنفسه في شيء يُؤْتى إليه قط، حتى تُنْتَهَكَ حرمات الله، فينتقم لله»[1] فإذا كان هذا خير خلق الله وأكرمهم على الله لم يكن ينتقم لنفسه، فكيف تنتقم أنت لنفسك التي أنت أعلم بها وبما فيها من العيوب والشرور؟

وما أحسن ما قاله بعض السلف: «الْمُؤمنُ لا يَنْتصرُ لِنفْسه، يَمْنعُه من ذلكَ القرآنُ والسُّنَّةُ فهُو مُلْجمٌ»[2]

وبع نفسك لله تعالى، فلا تنتقم لها، فهي لا تستحق الانتقام لها،

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦٠ ـ ٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧ ـ ٢٣٢٨) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، للخَلَّال (المتوفى: ٣١١هـ)، ص٢٩.

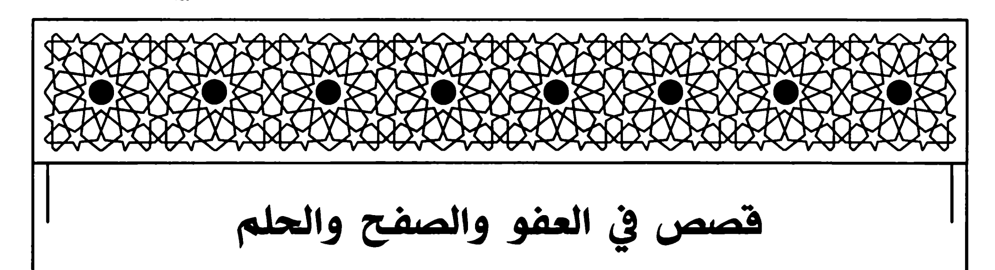
لما فيها من العيوب والنقص، وكن ممن قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾.

وكرر كل يوم عفوك عن كلّ من آذاك في نفسك أو أهلك أو مالك، وسمِّ من تعرف أنه آذاك باسمه، واطلب من العفوِّ الغفور أن يتجاوز عنه وأن لا يعذبه بسببك، وقل بصدق: اللهم لك الحمد على أن عافيتني مما ابتليته به، رب سامحه وعافه من سوء خلقه، ولا تجعل في قلبي عليه شيئًا؛ فإنك ستجد راحةً عظيمةً وبردًا على قلبك.

ولا يجوز معاداة المؤمن ولو ظلمك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليُعْلَم أنَّ المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن اليك؛ فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه، والإكرام لأوليائه والإهانة لأعدائه، والثواب لأوليائه والعقاب لأعدائه. اهـ[١]



(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٠٩.



قصص في العفو والصفح والحلم

استحضر - يا من ظُلمت - محنةَ الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي أَيَّامِ الْمأْمُونِ ثُمَّ الْمُعْتَصمِ ثُمَّ الْواثقِ بسبب القرآن العظيم، فقد ناله الكثير من الأذى، وأُودِعَ السِّجنَ نحوًا مِن ثمانِيةٍ وعِشْرِينَ شَهرًا، وضُرب عشرات السياط، لكنْ كان ضَربًا مُبَرِّحًا شَديدًا جِدًّا، وأُغْميَ عليه وغاب عقله مِرارًا خلال الضرب.

ومع ذلك جعَلَ كُلَّ من سعى فِي أمْره في حلٍّ إلَّا أهل البدعةِ، وكانَ يَتْلُو فِي ذلِك قولهُ تَعالَى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ﴾.

ويقولُ: ماذا يَنْفعُكَ أنْ يُعذَّبَ أخوكَ الْمُسْلمُ بسببك؟ وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشُّورَى: ٤٠] وَيُنادَى يوم القِيامَةِ: «لِيَقُم مَن أجْرهُ على الله»، فلا يَقومُ إلَّا من عفَا[١]

وكان شيخُ الإسلامِ ابن تيمية رحمه الله تعالى آيةً في صفحِه وحِلْمِه وعفوه عن الناس، وتجاوزه عن زلَّاتهم، وعدمِ انتقامِه وانتصاره لنفسه، وعدمِ السعيِ في الانتقام مِن أعدائه وخصومِه.

ومما قاله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنا في سعة صدر لمن يخالفني، فإنه وإن تعدى حدود الله فيَّ بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية. فأنا لا أتعدى حدود الله فيه، بل أضبط ما أقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل..

---

(١) سيرة الإمام أحمد بن حنبل، لصالح بن أحمد بن حنبل - (ت ٢٦٥): ٦٥، البداية والنهاية: ١١/ ٤٥ - ٤٧.

وذلك أنك ما جزيتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيعَ الله فيه، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾. اهـ[١]

وكان قلبُه رحمه الله تعالى سليمًا على كلِّ أحدٍ، سالِمًا مِن الأحقادِ والأضغانِ التي ابتُلي بها كثيرٌ مِن الناس والعياذ بالله، بل أباح كلَّ مَن ظلمَه وسجنَه وآذاه.

قال تلميذه ابن القيم رحمه الله عنه: كان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه.

وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم، وجئت يوما مبشرًا له بموت أكبر أعدائه وأشدهم عداوة وأذى له، فنهرني وتنكر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا من الكلام، فسروا به ودعوا له وعظموا هذه الحال منه. اهـ[٢]

وقال ابن كثير رحمه الله: قال ابن القلانسي: سمعت الشيخ تقيَّ الدين يذكر ما كان بينه وبين السلطان من الكلام لما انفردا في ذلك الشباك الذي جلسا فيه، وأن السلطانَ استفتى الشيخ في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموا فيه، وأخرج له فتاوى بعضهم بعزله من الملك ومبايعة الجاشْنَكير، وأنهم قاموا عليك وآذوْك أنت أيضًا! وأخذ يحُثُّه بذلك على أن يفتيه في قتل بعضهم ـ وإنما كان حنقُه عليهم بسبب ما كانوا سعوا فيه من عزله ومبايعة الجاشنكير ـ ففهم الشيخ مراد السلطانِ، فأخذ في تعظيم القضاةِ والعلماء، وينكرُ أنْ ينال أحدًا منهم سوءٌ، وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم. فقال له: إنهم قد آذوك؛ وأرادوا قتْلَك

---

(١) ٣/ ٢٤٦.

(٢) مدارج السالكين: ٢/ ٣٤٥.

مرارًا، فقال الشيخُ: من آذاني فهو في حِلٍّ، ومن آذى الله ورسوله فاللهُ ينتقمُ منه، وأنا لا أنتصر لنفسي، وما زال به حتى حلُم عنهم وصفح.

قال: وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول: ما رأينا مثل ابنِ تَيْميَّةَ، حرَّضْنا عليه، فلم نَقْدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجَجَ عنا. اهـ(١)

وحدثني من أثق به أنّ رجلا قال له: حللت كل الناس إلا فلانًا، فقد ظلمني.

قال: فقلت له: ولم لا تسامحه؟

قال: أريد أن آخذ حقي يوم القيامة!

قال: سوف يعطيك الله تعالى فوق حقك إذا سامحته، وسوف يتجاوز عنك زيادة على ذلك، وماذا تستفيد لو عذبه الله؟

قال: لا أستفيد شيئًا، وأشهدك أني عفوت عنه.

قال صاحبي: فرأيت في المنام ذلك الرجل الميت، وهو في غرفة واسعة، فأقبل علي وعانقني، وهو فرح مسرور.

وأعرف من يقول: «إنّ مِن أمتع أيامي: يومَ أنْ أسمع فيه أنَّ أحدًا يشتمني أو يغتابني، فأبادر إلى:

١ ـ الدعاء له.

٢ ـ كسر شهوة نفسي في الانتقام والغضب.

٣ ـ إرغام قلبي على العفو والتماس العذر له؛ راجيًا من الله أن يجعله في ميزان حسناتي، فالعفو والصفح لله من أحب الأعمال عندي.

(١) البداية والنهاية: ١٤/ ٥٤.

وأفعل ذلك طلبًا لرضى الرحمٰن، وإغاظةً للشيطان، الذي سلّط هذا عليّ.

قيل لبعض السلف: إنَّ فلانًا يقع فيك ويغتابك، فقال: والله لأغيظنَّ مَن أمره! قال: ومن أمره؟ قال: إبليس، ثم قال: اللهم إن كان صادقًا فاغفر لي، وإن كان كاذبًا فاغفر له.

قال: ثم أسعى إلى مكالمته أو مُراسلته أو المجيء إليه لأذهب ما في صدره عليَّ؛ لتصفوا النفوس، ولئلا يقع في الإثم بغيبته وسوء ظنّه.

ولو علم الناس ما يقذف الله تعالى في قلبي من الأنس والانشراح والسعادة واللّذة في فعلي هذا لَتسابقوا إلى مثل ذلك».

صدق من قال: القلوب الطاهرة من الأحقاد والكبر في سعادة وهناء، ولا تعرف الضيق والشقاء.

فيا من تحمل الأحقاد حلل كل مسلم ولو ظلمك، وماذا تستفيد إذا عذب الله من ظلمك؟ أين سلامة قلبك؟ ألا تحب أن يغفر الله لك؟





كيف تعامل النبي ﷺ مع اليهوديّ الذي أساء التعامل معه

كان النبي ﷺ محتاجًا يومًا، فاقترض ما يسدّ حاجته من رجل يهوديّ اسمُه زَيْدُ بن سُعْنَةَ، فلما حلّ الأجل جاء إلى النبي ﷺ فوجده قد حضر جنازةً لأحد أصحابه، ولم يبال بذلك، بل أقبل وأخذ بمجامع قميصه وردائه أمام أصحابه، ونظر إليه بوجه غليظ، وقال: يا محمد ألا تقضيني حقي؟ فو الله ما علمتكم بني عبد المطلب إلا مُطْل، أي: مماطلون لا تُوَفُّون!

والنبيّ ﷺ ملَكَ نفسَه، وأسَرَ غضبه، فلم يردّ عليه بكلمة، ولم ينفعل ويغضب.

فالتفت هذا اليهودي فوقعت عينُه في عين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد اشتدّ به الغضب، وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، فخاف منه ومن سطوته، ولا غرابة في خوف يهوديّ منه، وقد كانت الجنّ تخاف منه، وما لقيه الشيطان في طريق إلا سلك طريقًا غير طريقه.

يفرُّ عن دربك الشيطان مُتَّخذًا   دربًا سواه فيمضي ما له أثرُ

ثم قال له: يا عدو الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتفعل ما أرى؟ فو الذي بعثه بالحق لولا ما أُحاذر لومَه لضربت بسيفي رأسك.

ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم، ثم قال له: **«كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء»** ـ أي أداء

الدين الذي عليّ - «**وتأمره بحسن التِّباعة**» - أي بالرفق في طلب الدين -، «**اذهب به يا عمر فاقْضه حقه**»، بل زاد على ذلك وقال: «**وزد عشرين صاعا من تمر**».

أيُّ أدبٍ عظيمٍ هذا الأدب!

هل تعرف البشرية مثل عظمةِ هذا الأدب؟

فانظر وتأمل إلى هذا الحلم والرفق في حقِّ هذا اليهوديّ الذي أفْرَطَ في سبّه وأذاه، بل امْتدّت يده عليه ﷺ، واتَّهمَه مجاهرة وهو بين أصحابه وأتباعه بأنه هو وأصله مماطلون!

وأين كان هذا؟ في جنازةٍ لأحد أصحابه، فليست النفس مستعدة في العادة لتحمل مثل هذا.

ومع ذلك كلّه: هل أخلّ النبي ﷺ بشيء من الأدب مع هذا اليهودي؟

وهل رفع صوته عليه؟

وهل عامله بالمثل؟

الجواب: لا، مع أنَّ هذا اليهودي يستحق ذلك وأشد.

فوقف اليهوديّ متعجّبًا غاية العجب من هذه القِيَم والمبادئ والأخلاق التي لا تعرف مثلها البشريّة كلّها، فأعلن إسلامه، وقال: «لم يبق شيء من علامات النبوة إلا وقد عرفتها في وجه النبيّ ﷺ حين نظرتُ إليه، إلا اثنتين لم أُخبَرْهما منه: يسبق حلُمه جهلَه، ولا يزيدُه شدَّةُ الجهل عليه إلا حلمًا، قال: فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله».

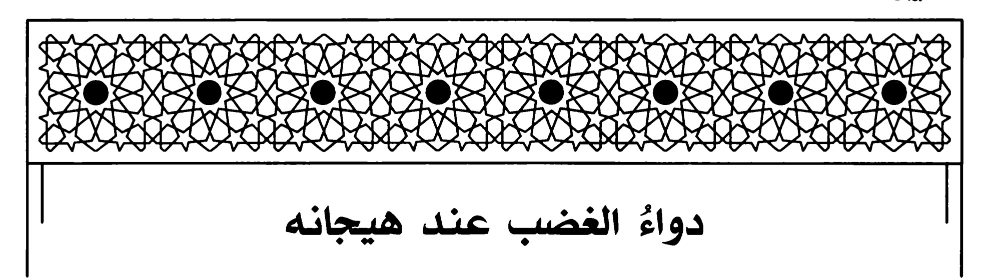
فلذلك حرص على إسلافه ﷺ لكي يجد بابًا يدخل فيه إلى اختبار حلمه.

ثم أصبح لا يترك معركة إلا حضرها مع النبيّ ﷺ، وتوفي عام تبوك رضي الله عنه(١).



(١) رواه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤/ ١١٠) رقم (٢٠٨٢)، والحاكم وصححه (٢٢٣٧)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٣/ ١١٨٦)، رقم (٣٠٠٠)، والطبراني في الكبير (٥١٤٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (١١٢٨٤)، وقال في حاشية البداية والنهاية: رواه أبو نعيم، وحسنه الحافظ ابن حجر، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٨/ ٢٣٩)، وقال الحافظ المزي: هذا حديث حسن مشهور في دلائل النبوة. تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٧/ ٣٤٧).

ومداره على حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام، وثقه ابن حبان، وقال ابن حجر: مقبول، كما في التقريب (١٨١)، وبقية رجاله عن ابن أبي عاصم ثقات، سوى محمد بن حمزة بن يوسف، فهو مترجَم في الثقات لابن حبان والتاريخ الكبير وتهذيب الكمال وغيرها.



دواءُ الغضب عند هيجانه

إذا كنت سريعَ الغضب فلابدّ أنْ تُعالج نفسك حتى لا تخسر غيرك.

وليكن لسان حالك:

وأُغْضي على أشياءَ لو شئتُ قلتُها   ولو قلتُها لم أُبْقِ للصُّلْحِ مَوْضِعًا

ومن المعلوم أنّه لابد لكل داءٍ من دواء، ودواءُ الغضب عند هيجانه في الأمور التالية:

الأول: أن تستعين بالله عند غضبك وتكدر خاطرك، وقل كما قال نبي الله يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾، أي: سأصبر صبرًا جميلا سالما من السخط والتَّشكِّي إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوتي.

ومن استعان بالله تعالى بقوله وقلبه عند المصائب: جاءه الفرج من كل حدب وصوب، وأنزل الله تعالى عليه سكينة وانشراحًا ينسى معها آلام الفاجعة، ومرارة المصيبة.

ولذلك شُرع عند الغضب أنْ تلجأ إلى الله، وتستعيذ به بقلبك بالتوكل عليه، وبلسانك بقولك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

اخْتلف رجلان عند النبي ﷺ، فجعل أحدهما يسبُّ صاحبه، وقد غَضِب غضبًا شديدًا، واحمرَّ وجهه، فنظر إليه النبي ﷺ، فقال:

«إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»(١)

«وذلك أنّ الشيطان هو الذي يُزَيِّن الغضبَ، وكلُّ مَن حرص على ما تُحْمد عاقبته فإنَّ الشيطان يغويه ويبعده من رضى الله ﷻ، فالاستعاذة بالله منه مِن أقوى السلاح على دفع كيده»(٢)

الثاني: أن تخوف نفسك بعقاب الله تعالى، وقل: قدرة الله عليَّ أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيت غضبي عليه لم آمن أن يُمضي الله غضبه عليَّ يوم القيامة، وأنا يومها أحوجُ ما أكون إلى طلب العفو.

الثالث: أن تحذر عاقبة العداوة والانتقام من عاديته، التي أقلها تشويش الخاطر، والتعب النفسي، وقد تُصاب بأمراضٍ خطيرة بسبب ذلك.

الرابع: أن تتفكر في قبح صورتك عند الغضب، بأن تتذكر صورة غيرك في حالة الغضب.

فإذا أردت أنْ تعرف بشاعةَ الغضب وقُبحه: فانظر إلى ما يصدر منك حال غضبك، تأمل فيما يصدر منك من أقوالٍ قبيحة، وشتائم بذيئة، وتهديداتٍ سخيفة، وعباراتٍ بشعة.

وتأمل في قبح منظرك ووجهك، ولو رأيت منظرك حال غضبك لاسْتقبحت ذلك، ورأيت وجهًا قد انتفخ واحمرّ، وعينانٍ قد احمرَّتا وتوسَّعت حدقتُهما، ورأيت يديك تجولُ في كلِّ اتجاه، حينها تعلم نعمةَ العقل والحلم.

---

(١) رواه البخاري (٦١١٥)، ومسلم (٢٦١٠).

(٢) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص: ٧١).

الخامس: أن تتفكر في السبب الذي يدعوك إلى الانتقام ويمنعك من كظم الغيظ، وهو الشيطان، الذي أخذ على نفسه إضلال بني آدم.

والعاقل يُعامل الشيطان بنقيض قصده، فيقابل الغضب بالعفو والحلم ليزداد غيظًا وحنقًا وغمًّا.

فعل رجل بأحد العقلاء أمرًا فيه غضاضةٌ عليه، وأذى له، فقال له: لم فعلت هذا؟ فقال: لأغمّك وأكدّر خاطرك، فقال: لأغمنّ مَن أمرك بذلك؟

فقال متعجّبًا: لم يأمرني بذلك أحد.

قال: بلى.

فقال: ومن هو؟

قال: الشيطان، فقد سامحتك وعفوت عنك لوجه الله.

السادس: أن تعلم أنك إذا عفوت وصفحت فسوف ينقلب خصمك وعدوك إلى صديق حميم، وأما إذا أمضيت غضبك فسوف تزداد العداوة.

السابع: أن تتفكر في ما وردَ في فضل كظم الغيظ، والعفو والحلم والاحتمال، فترغب في ثوابه، وينطفئ عنك غيظُك حينئذٍ بإذن الله.

وليس معنى كظمِ الغيظ أنْ يَسْكت الإنسان عن أخطاء الناس، وتطاوِلهم وقلَّة أدبهم، والسكوتُ عن التشفي في الحال قد يُصيبُ الإنسان بالضرر الخطير، حيث يحتقن الغضب في باطنه فيصير حقدًا.

ولكن معنى كظمِ الغيظ: أنْ تتحكم في نفسك، ولا يصدرَ منك ما لا ينبغي، فلا تردّ بكلامٍ فظٍّ غليظ، بل تُجيب خصمَك وتردُّ عليه بحكمةٍ ورويَّةٍ، دون عجلةٍ وكلامٍ بذيءٍ.

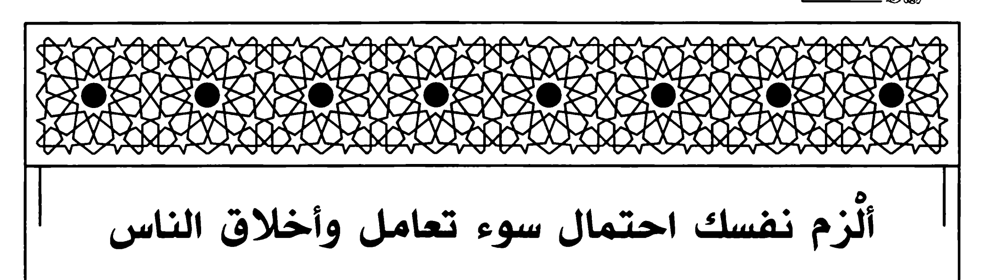
ولم أرَ في الأعداءِ حين اخْتَبَرْتُهُم   عدُوًّا لِعَقْلِ الْمَرْءِ أَعْدَى مِن الْغَضَبِ

ومَّما ينبغي أنْ يُعلم أنَّ الغضب الطارئ والعارض لا يسلم منه أحدٌ من البشر، فقد يمرُّ بك موقفٌ يُثير غضبك، فتنفعلُ وتحتدّ، لكن أنْ يكون الغضبُ طبعًا وخُلُقًا لك، تغضب في أتفه الأسباب، ولا تتحكم في تصرّفك وإرادتك عند الغضب، فهذا الذي يجب على كلِّ عاقلٍ أن يحذر منه، وهو ما جاءتِ الشريعةُ بذمه.

وينبغي للَّبيب أنْ يلتزم الصمت حال غضب صاحبه وعَتَبِه عليه، أو يردّ بكلامٍ لطيفٍ، فإنه إذا ردَّ عليه بجفاءٍ، أو جادله فإنه سيزيدُ من غضبه، ويُغلق أو يصعب باب الصلح.

إذا ما الصَّحْبُ جارَ فَقُل صوابًا   فإنَّ الجورَ يُدْمَغ بالصواب





أَلْزم نفسك احتمال سوء تعامل وأخلاق الناس

أَلْزم نفسك احتمال سوء تعامل وأخلاق الناس، وعدم هجرهم لأجل سوء أفعالهم.

فإذا كان لك جار، أو قريب، أو زميل في العمل، فيه حدّة، أو عبوس، فقابِلْه بالترحيب والبشاشة، ولو لم يقابلك إلا بالعبوس والبرود، فمن السهل أن تجتنب لقاءه، أو تعامله بمثل ما يُعاملك، ولكنك تحتاجه؛ لتتعلم عليه خلق الصبر والحلم، وتُرسِّخه في نفسك رسوخ الجبال.

ولذلك قال الأحنف بن قيس رَحِمَهُ اللَّهُ: لستُ بحليم ولكنِّي أتحالم.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: إن من السؤدد الصبر على الذل.

أوليس الجندي يحتمل غلظة وفظاظة رئيسه خلال مدة الاختبار، التي تستمر عشرات الأيام؛ رغبةً في الحصول على وظيفة تدرّ عليه مالا، فاحتمال غلظة وفظاظة الناس رغبةً في الحصول على الأجر من الله تعالى، وعلى الحصول على الأخلاق العالية: أولى وآكد عند العقلاء.

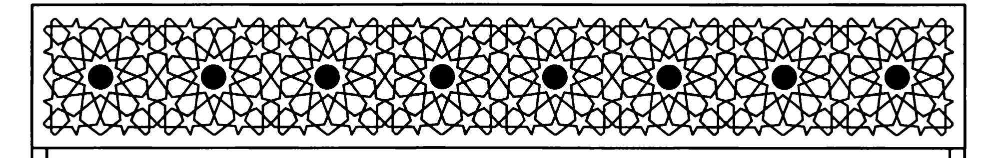
قال أحد بائعي سوق الخضار والفواكه: «كان المشتري يأتيني ويفتح كثيرًا من كراتين الفاكهة ثم يخرج ولم يشترِ شيئًا، فأغضب في داخلي؛ إذ كيف يفعل ذلك وفي النهاية لم أستفد من ماله؟ فأودُّ أن أُعاتبه، لكني أَلزمتُ نفسي الصبر وروّضتها لِأكسب المشتري فيزورني مرةً

أُخرى، وبعد سنةٍ تقريبًا استقامت لي نفسي، واعتادت على سعة الصدر والصبر والحلم، وصِرت أضبط نفسي عند الغضب».

فاستطاع ضبط نفسه وخُلقه بعد مِراسٍ ومُجاهدة رغبةً في المال، أولًا تستطيع أنت أن تفعل ذلك طلبًا لجنة عرضها السموات والأرض؟

فوطِّنْ نفسك على تقبُّل ما تراه من سوء أخلاق الناس، وقُبح طباعهم، وألا تتضايق مما يصلك منهم.





غيِّر قناعاتك السلبيّة إلى إيجابية تجاه ما تلقاه من سَيِّئي الأخلاق، وكلامهم وأفعالهم وتصرّفاتهم، والأثر الْمُترتّب عليها، ونفسك

خذ هذه القاعدة التي ستفتح لك أبواب السعادة وراحة البال من أوسع أبوابها بمشيئة الله تعالى:

غيِّر قناعاتك السلبيّة إلى إيجابية تجاه ما تلقاه من سَيِّئي الأخلاق، وكلامهم وأفعالهم وتصرّفاتهم، والأثر الْمُترتّب عليها، ونفسك، بأن تلتمس الأعذار لهم، وأنْ تعلم أنّ غالب كلامهم وتصرّفاتهم لا تستحق أن تَغضب لها وتقف عندها، وأنّ جلّها لا يترتب عليها أثر كبير، ولا ضرر مستطير، وألا ترى سوء تصّرفات الناس أمورًا جارحةً لك.

وإليك تفصيل هذه القاعدة:

فأما تغيير قناعاتك السلبيّة إلى إيجابية تجاه ما تلقاه من سَيِّئي الأخلاق: فهو أن تلتمس لهم الأعذار ما أمكنك، وأنْ تعتقد أنهم لم يقصدوا إهانتك وأذاك، ولكنْ خانهم التعبير، ولم يُحسنوا التصرّف في كلاهم وأفعالهم.

وحينما تسمع انتقادًا لاذعًا، أو كلامًا جارحًا من أحد من النَّاس، فإنَّ الشيطانَ يحملُه على أسوء محمل، والعاقلُ يحملُه على أحسن محمل، ولو كان بعيدًا.

وحينما تحملُه على أسوء محمل، وإنْ كان ظاهر فعله أو كلامه

يدل على ذلك، فماذا ستستفيد سوى الهمّ والحقد على أخيك!

فأمَّا إذا حملت تصرّفات النَّاس وكلامهم على أحسن محمل: فقد استرحت وأرحت، وتجنَّبت أعظم سبب للنكد والهمّ، والأمراض الخطيرة المنتشرة.

وأما تغيير قناعاتك تجاه ما تلقاه من كلامهم وأفعالهم وتصرّفاتهم: فهو أنْ تعلم أنّ جلّ الأمور وغالب كلام الناس وتصرّفاتهم لا تستحق أن تَغضب لها وتقف عندها، وجلّها ردود أفعال وقتية، تنتهي بانتهاء الموقف، فلا تُطل أمدها، ولا تُكبّر حجمها، ولو أعرضت عنها في وقتها لطارت كل هذه الأقوال والأفعال السيئة في الهواء، كما تطير أوراق الشجر اليابسة عند هبوب الريح القوية، فتختفي ويزول أثرها.

شكى رجل لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما آخر بأنه يُؤذيه بالكلام ويشتمه: فقال له: تَطَأْطأْ لها تمرَّ فتُجاوزَك[١]

أذكر مرة أنّ رجلًا كان يحترمني كثيرًا، حصل موقف يرى فيه أني أخطأت ـ وأنا في قرارة نفسي لم أخطئ أدنى خطأ ـ فلما قابلني قال لي بعنف وحدّة: يا شيخَ الفَلَسِ!

فقلت له مباشرة ولم أفكّر في كلمته مع فضاعتها وبشاعتها: لم أخذت بخاطرك عليّ؟

فقال: لأنك فعلت كذا وكذا.

فبررت له الموقف وشرحت له ما حصل في الواقع، فعلم أني لم أخطئ، فانتهى الموقف، وعاد بعد ذلك إلى ما كان عليه من احترام وألفة ووئام.

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٤١).

وأما تغيير قناعاتك تجاه الأثر الْمُترتّب عليها: فهو أنْ تعلم أنّ جلّها - إن لم يكن كلّها - لا يترتب عليها أثر كبير، ولا ضرر مستطير.

فلو تكلّم عليك رجل في مجلس بكلام قاس في حقّك، فماذا سيترتب عليه لو أعرضت عنه وصفحت عنه؟

لن يترتب عليه أيّ شيء، وسينتهي أثره بانتهاء المجلس إذا أحسنت إدارة الموقف، وتعاملت مع الرجل بحكمة وعقل، وأخرجت حظوظ نفسك بانتقامك لها، وقد كان نبيّنا ﷺ وهو خير منك لا ينتقم لها، ولا يلتفت لحظوظ نفسه، وهو القدوة والأسوة.

وأما تغيير قناعاتك تجاه نفسك: فهو ألا ترى سوء تصّرفات الناس أمورًا جارحةً لك، وإذا فعلت ذلك فقد أزحت عن نفسك همومًا وآلامًا عصفت بعامّة الناس قديمًا وحديثًا.

وعندما تنظر إلى الإساءة على أنها تصرّفٌ يُمثّل صاحبه، وليس تقليلا من قدرك، وقدحًا في ذاتك: فإنها ستهون عليك مهما كانت كبيرةً في حجمها.

كان كفار قريش يُبالغون في أذى النبي ﷺ، وإسماعِه أقذع الكلمات، وأقذر العبارات، فكانوا لا يسمّونه باسمه الذي يدلّ على المدح، بل كانوا يُنادونه مُذَمَّمًا؛ مُبالغةً في غيظه وتحقيرِه.

فهل أجْدت هذه المحاولات في تعْكير مزاجه، وغمّ قلبه؟

لا، بل كان يقول ساخرًا منهم: «ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم؟

يشتمون مُذَمَّمًا ويلعنون مُذَمَّمًا، وأنا محمد!»[١]

---

(١) رواه البخاري (٣٥٣٣).

وإذا أردت أن تصل إلى هذه المرحلة فأقنع نفسك بهذه القناعات التي ثبت عقلا وشرعا نفعها وصحتها:

أولًا: أنّ طباع أكثر الناس عسيرة، وأخلاقهم فيها حدّة، وأنَّه لم يسلمْ أحدٌ مِن الأذى، حتى نبيّنا ـ ﷺ ـ، الذي لم يأتِه الأذى مِن الكفار والمنافقين فحسب، بل مِن بعْضِ الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

وإعراضك عما يصدر منهم من أقوال قبيحة وأفعال سيّئة خيرٌ من التصدّي لها مع ما يصحب ذلك من نكد في العيش، وأمراض نفسية وجسدية، ولو بحثت عن كثير من الأمراض تجد وراءها جمرةٌ أو جمرات من الغضب الذي لا داعي له، فوفّر مالك، وحافظ على وقتك، واهتمّ بصحتك، بإعراضك عن التصدّي لأذى الناس ورديء أفعالهم وأقوالهم.

ثانيًا: أنك إذا تركت الانتقام لنفسك، ولم تُدافع عنها لله: دافع الله عنك وانْتقم لك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

فمن صبرَ على أذى الناس: «فاللهُ ناصرُه ولابُدَّ، فاللهُ وكيلُ من صَبر وأحالَ ظالِمَه على الله، ومن انتصَر لنفسِه وكلَهُ اللهُ إلى نفسِه، فكان هو الناصر لها، فأينَ مَن ناصِرُه اللهُ خيرُ الناصرين إلى مَن ناصِرُه نفسُه أعجز الناصرين وأضعفُه؟»(١)

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ: كَانَ الْأَنْبِيَاءُ ـ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ـ يُجَادِلُونَ أُمَمَهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ كَقَوْلِ قوم نُوحٍ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] فَقَالَ دَافِعًا عَنْ نَفْسِهِ: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾، وَقَالَ قَوْمُ هُودٍ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، فَقَالَ: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾

(١) جامع المسائل: ١/ ١٧٢.

[الأعراف: ٦٧]، وَقَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾، فَقَالَ مُوسَى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أَيْ مَصْرُوفًا عَنِ الْحَقِّ مَطْبُوعًا عَلَى قَلْبِكَ.

وَأَمَّا نَبِيُّنَا ـ ﷺ ـ فَتَوَلَّى الْحَقُّ سُبْحَانَهُ الْمُجَادَلَةَ عَنْهُ[1]، فَلَمَّا قَالُوا: هَذَا شَاعِرٌ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ [يس: ٦٩]، وَلَمَّا قَالُوا: كَاهِنٌ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾، وَقَالُوا: ضَلَّ فَقَالَ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم: ٢]، وَقَالُوا: مَجْنُونٌ فَقَالَ: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم: ٢] حَتَّى قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. اهـ[2]

ثالثًا: أنّ سرعة انفعالك وغضبك نابعٌ عن خفّة في العقل، وقلة في الحكمة، واستحضر دائمًا وخاصة عندما ترى مِن أحدٍ ما تكره وصية الله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: لا يحملنك أعداؤك على الخفّة والقلق وترك الصبر.

والخفيف يهتزّ ويضطرب عند أدنى تأثير ومكدّر، وخاصةً إذا رأى العاقل عنادَ من هو يرشده إلى الصلاح، وذلك مما يستفزّ غضب الحليم، فيكون خفيف العقل قليل الصبر.

رابعًا: أنَّ عفوَك عمّن ظلمك ـ مع قدرتك على الانتقام والردّ ـ لن يزيدك إلا رفعة ومحبة وتعظيمًا في قلوب الناس، وقد قال الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يُوحى ﷺ: «**وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا**»[3]

---

(١) لأنه لا يُدافع عن نفسِه إذا سبّه المشركون واتّهموه، بل كان منشغلًا في تبليغ رسالة ربّه، ودعوة الناس إلى دينِه، وقد باع نفسَه لله تعالى.

(٢) ذكره العلامة السفاريني في كتابه: لوامع الأنوار البهية: ٧/ ٢٩٧.

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٨).

فطبّق هذه القاعدة المجربة العملية، وسوف ترى أنَّكَ بعْدَ الاستعانةِ بالله، والتَّوكلِ عليه وكثرة المران: لنْ تتضايقَ مِن سوء أخلاق الناس، ولن تغضب ممن آذاك ولو جاء من عزيز وكبير.

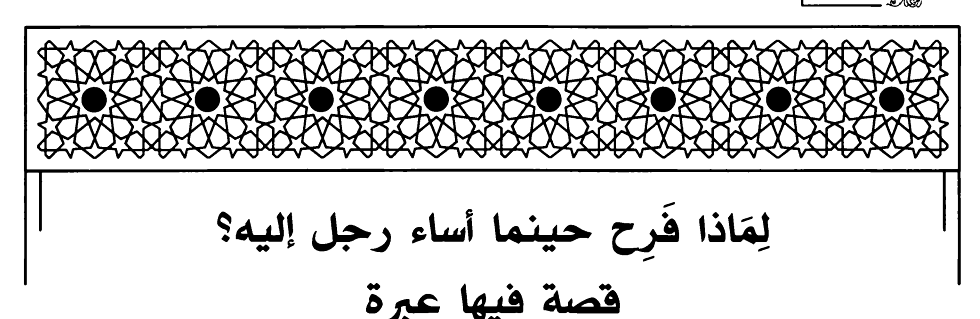
واعلم أنّ سبعين إلى تسعين بالمائة من التوقعات السيئة لا تقع، ولقد خضت بنفسي تجربةَ تطبيقها فرأيت صحتها تمامًا، فكم مرَّت علي أمورٌ مقلقة، وأحوالٌ عسيرة، وتهديدات مخيفة، وعوائق مُثبّطة، فكنت أستحضر هذه المعلومة، وأجد راحة عجيبة، وطمأنينة كبيرة، وصدَّقت تجاربي هذه المعلومة، وأثبت بنفسي خلال سنوات صحتها واطرادها.

وتقل نسبة وقوع وحدوث التوقعات السيئة حسب حسن ظنّ العبدِ وثقته بربه تعالى، وحسب تعاملِه مع الحدث، ورجاحة عقله، وثقتِه بنفسِه، فإن كان حسن التعامل مع المصائب والمشاكل، راجح العقل، حسن الظنّ بربه، قويّ الثقة به ثم بنفسِه: قلَّت نسبة وقوع التوقعات السيئة.

وإن كان سيِّئ التعامل مع المصائب والمشاكل، ضعيف العقل، سيِّئ الظنّ بربه، ضعيف الثقة به ثم بنفسِه: ارتفعت نسبة وقوع التوقعات السيئة.

والمصائب بشكل عامّ كالجبل، إذا كان قريبا منك كان كبيرًا، وهالَكَ حجمُه، وإذا ابتعدت عنه كان صغيرًا، وهان عليك أمره، وكذلك المصائب، تبدو عند قرب حدوثها كبيرة ومرعبة وخطيرة، وحينما تمضي الساعات أو الأيام تراها صغيرة.

فهيِّئ نفسك دائمًا على إعطاء المصائب أقلّ من حجمها عند أول حدوثها؛ حتى تُحافظ على صحتك ووقتك وعلاقاتك ودينك..



لِمَاذا فَرِح حينما أساء رجل إليه؟
قصة فيها عبرة

فَرَحُ الإنسان حينما يحسن أحدٌ إليه أمرٌ معقول، ولكن فرحه حينما يُسيء إليه أحدٌ أمرٌ غريب غير مألوف!

ولا ألومك على هذا الاستغراب، ولكن حينما تَقِفُ على السبب سيزول عنك العَجَب.

كان رجل شرسَ الأخلاق، سيئَ الطباع، سريعَ الغضب، شديدَ النفرة من الانتقاد والعتاب، ومن شدة عدم احتماله لمن ينتقده أو يلومُه أو يُسيء إليه يبكي، ولا يحتمل الموقف.

فسئم من هذه الطباع الرديئة، والأخلاق السيّئة، فعزم على تغييرها وإصلاحها، فقرأ الكثير من الكتب التي تتحدث عن الأخلاق وحسن التعامل، وخاصة ما كتبه ابن القيم وابن الجوزي والغزالي وغيرهم، وتمعن في الكتاب والسنة، وجعل يستنتج منها المواقف والقواعد في الأخلاق والتعامل، وعزم على العمل بها، فكان يواجه صعوبة بالغة في البداية، وكان حمل الأثقال أهون عليه من احتمال تغيير طباعه، ومضى على ذلك سنوات من حياته، جاهد فيها وصبر وصابر على العمل بها وتطبيقها، مستعينًا بالله تعالى.

حتى إنه اتخذ أوراقا يدون فيها أخلاقه السيئة، والمواقف التي لا يُحسن التصرف فيها، كما يدوّن الناس الحِكم والمسائل في مذكراتهم.

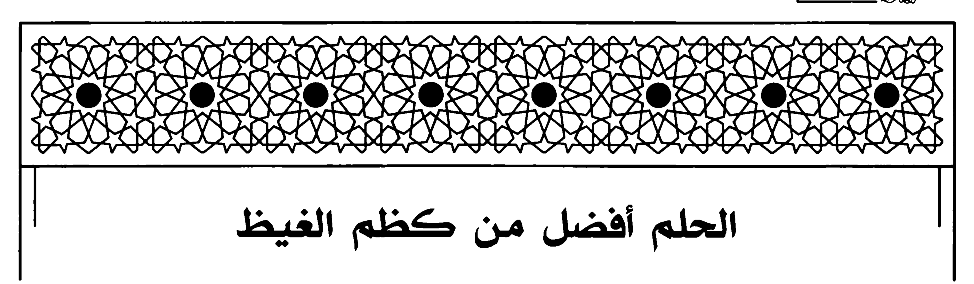
فتمرن على التحلّي بالأخلاق الحسنة، والتخلّص من سيّئها، حتى أصبح يطبقها بعد ذلك بلا كلفة، ولكن تبقى في نفسه حزازات من بعض الناس، الذين يناله منهم أذى بألسنتهم أو بتصرفاتهم.

قال: وفي يوم من الأيام حصل لي موقف شديد من قريب عزيز، فعجبت لنفسي أني لم أجد أي ضيق وهمّ، بل تقبّلت سوء تصرفه وأدرت الموقف بحكمة، وتصرّفت تصرفًا حسنًا.

ومضى الموقف وكأن شيئا لم يكن، ففرحت فرحًا كثيرًا حينها؛ لأني انتصرت على نفسي بفضل ربي، ولأنّ اجتهادي وصبري لم يضع، ولأول مرة لم أحزن ولم أتمن أنّ الموقف لم يحدث؛ لأني لولا هذا الموقف لَمَا اتضح لي أني تخلصت من صفة الغضب والضيق الذي يعقبه، ولو حصل لي مثله قبل ذلك لأحزنني فعله، وآلمني تصرّفه، وربما أبديت له انزعاجي منه.

قال: وقد تكرر مثل هذا مرارًا، وفي جميعها لم أجد فيها أدنى غضب وضيق، بل وفي بعضها عزمت على الاتصال بمن قسا عليّ وكان الحق معه؛ لأشكره على صراحته معي، وإن كان أسلوبه قاسيًا، وكلامه عليّ كان أمام الملأ!

قال: ولم أكن في جميع هذه المواقف قد استحضرت القواعد التي كنت قد حفظتها وفهمتها لأطبقها في المواقف التي تناسبها، فعلمت أنها أصبحت لي عادة، وانقلبت طباعي السيّئة إلى طباع حسنة، فحلّ الحلم محلّ الغضب، والأناة محلّ العجلة، والرفق محلّ العنف، والعفو محلّ الحقد، والتغافل محلّ اللوم والعتاب، فحمدت الله تعالى، وأيقنتُ أنَّ الإنسان ـ بما وهبه الله من قدرات وعقل وقوة وإيمان ـ يستطيع أن ينسلخ من أخلاقه وطباعه السيئة كما ينسلخ الثعبان من جلده القديم البالي.

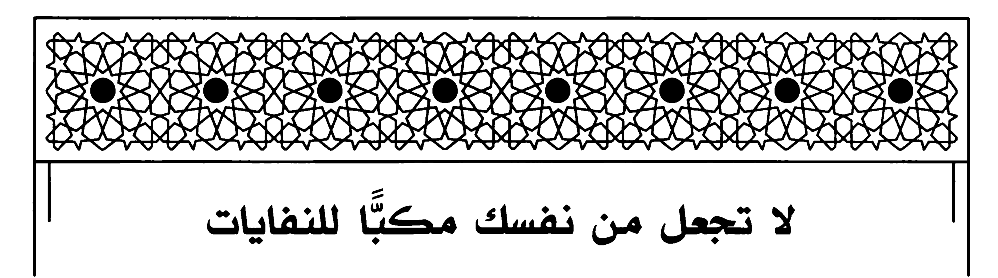


الحلم أفضل من كظم الغيظ

الحلم أفضل من كظم الغيظ؛ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلّم، أي: تكلف الحلم، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلَّا مَن هاج غيظه، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، لكن إذا تعوّد ذلك مدة صار ذلك اعتيادًا فلا يهيج الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب، وهو الحلم الطبيعي، وهو دلالة كمال العقل، وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل، ولكن ابتداءه التحلُّم وكظم الغيظ تكلفًا[1]



(١) إحياء علوم الدين (٣/ ١٧٦).



لا تجعل من نفسك مكبًّا للنفايات

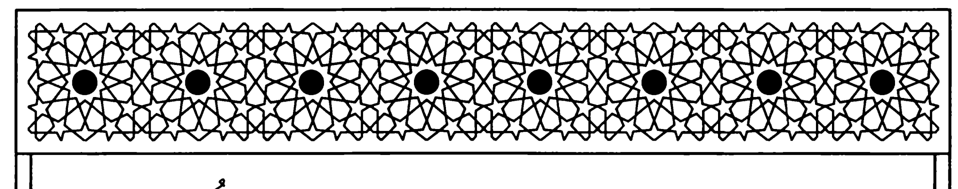
المحبط والمتشائم والنقّاد: لابد أن يفرغ ما في صدره من نفايات نتنة، وسموم قاتلة، فإياك أن تكون وعاءً يصبّ فيك زبالته وأوساخه، فتتلوث كما تلوّث.

فابتعد عن مجالسة ومحادثة ومراسلة هؤلاء، فالعافية لا يعدلها شيء.

وإذا ابتُليت بسماع كلامهم فأخرجه مباشرة قبل أن يصل إلى قلبك، ما لم يكن ما قيل فيك حقًّا، فاقبله واعمل به، وما لم يكن اتّهام يضرّك السكوت عليه فطالب بحقّك دون غضب يَخرج بك عن دائرة الوقار إلى مستنقع التهوّر والحمق.

نقل الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إحدى مقالاتِه أن رجلا قال له: كثير من الناس مثل شاحنة النفايات، تدور في الأحياء مُحَمَّلةً بأكوام النفايات: المشاكل بأنواعها، الإحباط، الغضب، الفشل، وخيبة الأمل، وعندما تتراكم هذه النفايات داخلهم، يحتاجون إلى إفراغها في أي مكان قريب، فلا تجعل من نفسك مكبًّا للنفايات! اهـ.

فلا تكن مكانًا لتفريغ نفاياتهم، وأوساخ أخلاقهم، وقذارة تصرفاتهم، وأفضل طريقة لذلك: التغافل، وعدم الاكتراث لذلك، ومقابلة السيئة بالحسنة.



المصائب التي تأتيك من الناس هي مثلُ الأقدار التي يُقدرها الله تعالى عليك مما ليس لبشر فيه سببٌ

بعض الناس يرى أنّ النعم التي تستحق الشكر والحمد: هي التي فيها نفعٌ وخيرٌ عاجل، ويرى كذلك أنّ المصائبَ التي يُقَدِّرها الله تعالى عليه مِمَّا ليس لبشرٍ فيها سببٌ هي التي يَصْبر عليها، ويَرْضى بتقدير الله لها، ولا تَجْزَعُ نفسُه بها؛ لأنها مما قدره الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾.

ولم يستشعر أنّ المصائب والمحن التي تأتي من الناس كالأقارب والأصدقاء وغيرهم هي مِمَّا يُؤْجر عليها بقدرِ صبرِه وعفوِه، وهي مثلُ التي يُقدرها الله تعالى عليه، مما ليس لبشر فيه سببٌ، كالجوع والمرض ونحوها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: الصبر على ما يُصِيبُ الإنسان بغير اختيارِه من المصائب نوعان:

نوع لا اختيارَ للناس فيه، كالأمراضِ وغيرِها من المصائب السماوية، فهذه يسهل الصبر فيها؛ لأن العبْدَ يشهدُ فيها قضاءَ اللهِ وقدرَه، وأنه لا مدخلَ للناس فيها، فيصبر إمّا اضطرارًا وإمّا اختيارًا.

النوع الثاني: ما يحصل له بفعل الناس في ماله أو عِرضِه أو

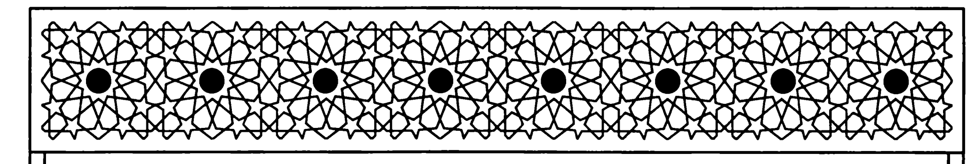
نفسِه، فهذا النوع يَصعُب الصبرُ عليه جدًّا؛ لأنّ النفس تستشعِرُ الْمُؤذيَ لها، وهي تكره الغلبة، فتَطلبُ الانتقام.

فلا يَصبِر على هذا النوع إلّا الأنبياء والصدّيقون. اهـ(١)

اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين.



(١) جامع المسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/١٦٦ ـ ١٦٧.



دار طباع الناس، ولا تلتزم بِطَبْعِك وتُلزم غيرك بمُراعاتك

بعض الناس ليس مُستعِدًّا أنْ يُكلِّف نفسه تحمل طِباع غيره، بل هو مُتمسِّكٌ بطِباعه وأخلاقه ولو كانت عوجاء، ثم يطلب من الناس أنْ يحتملوه، فيقول: هذا طبعي، فلا بدّ أنْ تُراعوني!

ومثل هذا قلَّ من يصفو له صديق، أو يدوم له رفيق.

قال بعضهم: لا إخاء لمن يُريد أنْ يَجمع هوى أخِلَّائه له حتى يُحِبُّوا ما أحبّ، ويكرهوا ما يكْره، وحتى لا يَرى منهم زللًا ولا خللًا[1]



(١) الصداقة والصديق لأبي حيان: ١٦٠.



قول بعضهم: أنا لا أستطيع كظم غيظي وامْتلاك نفسي عندما أرى ما يُغضبني

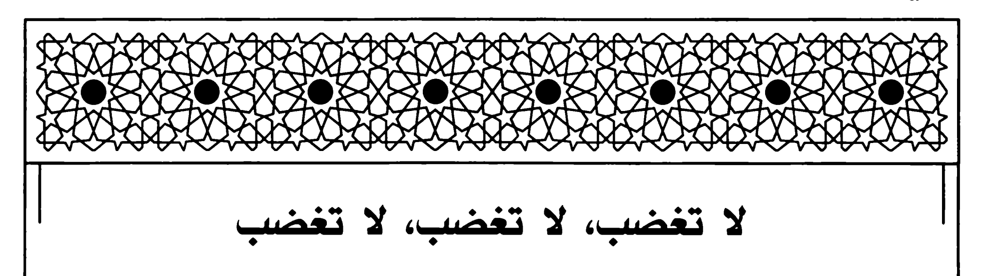
كثيرًا ما يبرر بعض الناس شدة غضبه بأنه لا يستطيع كظمه وامْتلاك نفسه عندما يرى ما يُغضبه، وأنه باختياره، بل يثور غضبه وينفعل بلا تحكّم منه!

ويُقال لهذا: لو حصل لك مثل هذا الموقف، أو جاءك الكلام الذي يُثير غضبك ولا تملك عنده نفسك من حاكم قويّ جبار، فهل تعاملك معه كتعاملك مع غيره، فيثور غضبك عليك، وتتكلّم وتردّ عليه؟

لا شك أنك ستملك نفسك، وتُمسك لسانك؛ لأنك تعلم أنك لو رددت عليه لقتلك أو سجنك أو عذبك أو فصلك من وظيفتك.

وهذا يعني أنَّ قولك هذا خطأ؛ كي تبرر به ضعفك وعجزك عن ارتقائك لدرجات الفضيلة، من الحلم والرفق والعفو والأناة، وكلّ أحد مهما كان ضلاله وخطؤه سيبرر لنفسه، حتى إنّ إبليس لَمَّا ارتكب الجرم الأكبر والأخطر والأقبح، وهو عصيانه لربه في أمره له بالسجود لآدم عليه السلام قال مبررًا عصيانه ومخالفته لربه وخالقه: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾! فأنا أفضل منه فلماذا أسجد له؟

فيا أخي: أنت قادر على كظم غيظك، وامتلاك نفسك عن الغضب، فجاهد نفسك، وغيّر قناعاتك، واتبع الخطوات التي من خلالها ستكون حليمًا حكيمًا رفيقًا، طاهر القلب، سليم الصدر، طيب اللسان، بمشيئة الله تعالى.



لا تغضب، لا تغضب، لا تغضب

جاء رجلٌ إلى النبيّ ﷺ فطلب منه وصية مختصرة وقال: علّمني شيئا ولا تكثر علي لعلي أعِيَه، أي: أفهمه وأحفظه وأعمل به.

فقال له النبيّ ﷺ: لا تغضب.

فظنّ الرجل أنها وصية مختصرة جدًّا، وفائدتها عليه قليلة، فطلب أنْ يزيده، فقال: أوصني، فقال النبيّ ﷺ: لا تغضب!

فكأنه قال: فهمت هذه الوصية المختصرة، فزدني حتى أعمل بوصيتك فأُفلح في الدنيا والآخرة، فقال: أوصني، فقال النبيّ ﷺ: لا تغضب![1]

قال الرجل: ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشرَّ كلَّه[2]

ولم أرَ في الأشياءِ حين بلوتُها عدوًا للبِّ المرءِ أعدى من الغضبْ

فدلّ هذا الحديث على أنّ الغضب أساس كلّ شر، وأنّ الحلم وكظم الغيظ أساس كلّ خير؛ **لأنّ نهيه عن الغضب يُوجب أمرين:**

أحدهما: أن يفعل الأسباب التي تؤدي إلى اكتساب محاسن الأخلاق من الكرم، والسخاء، والحلم، والحياء، والتواضع، والاحتمال

(١) رواه البخاري (٦١١٦)، والترمذي (٢٠٢٠).

(٢) هذه الزيادة رواها الإمام أحمد (٢٣١٧١)، قال محققو المسند: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين.

وكف الأذى، والصفح والعفو، وكظم الغيظ، والطلاقة والبشر، وغيرها من الأخلاق الجميلة؛ فإنَّ الإنسان إذا تخلّق بهذه الأخلاق، وصارت له عادة: كان هيّنًا ليّنًا، حكيمًا رفيقًا حليمًا، وزالت عن النفس الصفات الخبيثة، وضعف تسلّط الشيطان عليه، فكان قادرًا بمشيئة الله وتوفيقه على دفع الغضب عند حصول أسبابه.

والثاني: ألا يعمل بمقتضى الغضب إذا حصل له، بل يُجاهد نفسه على ترك تنفيذه والعمل بما يأمر به؛ فإنَّ الغضب إذا مَلك الإنسان كان هو الآمرَ والناهيَ له.

وتأمل إلى حال موسى ﵇ حينما علم أنّ قومه عبدوا العجل، فغضب غضبًا شديدًا، حتى إنه ألقى الألواح التي فيها كلام الله، من غير قصد منه، قال الله تعالى واصفًا حاله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ ولم يقل: سكن؛ لأنّ الغضب إذا اشتدّ كان كالسلطان القوي، يأمر وينهى، ويحثُّ صاحبه على فعلٍ ويأمره به ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجرّ برأس أخيك إليك وألحق الأذى به[1]، ولَمَّا طَفئ الغضبُ ضعف سلطانُه، فلم يعُد قادرًا على الأمر والنهي، ورجع سلطان العقل فأصبح هو الآمر والناهي، فتدارك موسى ﵇ نفسه وأخذ الألواح التي ألقاها.

وإذا لم يمتثل الإنسان ما يأمره به غضبه، وجاهد نفسه على ذلك: اندفع عنه شرُّ الغضب، وربما سكن غضبه، وذهب عاجلًا، فكأنه حينئذ لم يغضب، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ۝٣٧﴾ وقال: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾[2]

---

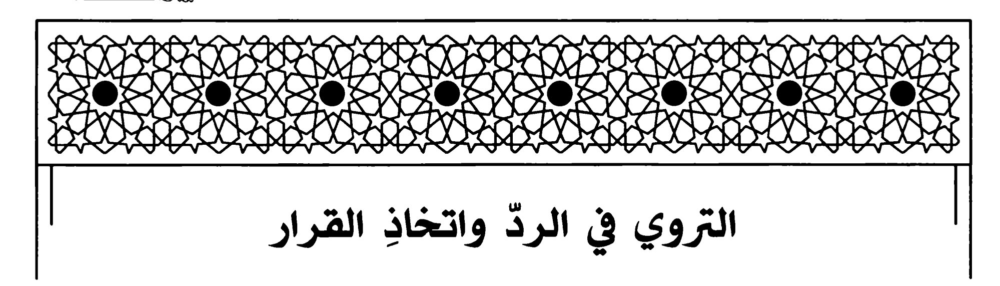
(١) ذكر هذا المعنى بعض المفسرين.

(٢) يُنظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٣٦٤).

فاعزم من اليوم على ألا تغضب، ولو غضبت فاملك نفسك ولسانك وتصرفاتك، ولا تفكّر بالموقف الذي أثار غضبك؛ لأنّ تفكيرك فيه يزيد من غضبك ويُهيِّجه، وربما ارتكبت حال غضبك وتفكيرك بهذا الموقف أمورًا تندم عليها طول عمرك.

وأكثر حالات الطلاق، والقتل، والقطيعة كان سببها الغضب، فإياك والغضب.





التروي في الردّ واتخاذِ القرار

الأناةُ والتروي، وعدمُ العجلةِ في الردِّ واتخاذِ القرار مِنْ أعظم سمات العاقل الحكيم، وهي من أهمّ أسباب تآلف القلوب.

وانْعدامُها سببٌ للكوارثِ الكبيرةِ، والمشاكل الخطيرة.

فلابد من التفكير طويلًا في كيفية التعامل مع الخطأ الذي يصْدرُ من أحد الناس.

وما أجمل حكْمةً قالها الحسنُ البصري رحمه الله تعالى، فقد قال: «كانوا يقولون: لسان الحكيم وراء قلبه، فإذا أراد أن يقول، رجع إلى قلبه، فإن كان له قال، وإن كان عليه أمسك، وإن الجاهل قلبه في طرف لسانه، لا يرجع إلى قلبه، ما جرى على لسانه تكلم به».

فالحكيم حقًّا هو الذي لا يستعجل في الردّ والكلام، ولا يكون جوابه وردُّه على طرف اللسان، فكم نَدِمَ بعض الْمُتعجِّلِين ندمًا شديدًا بسبب عجلته، وقلَّة صبره، فإنه لو صبر وتفكر في الرد والجواب المناسب لتكلَّم بكلام ينفع ولا يضر.

بل لو سكت أحيانًا ولم يردّ على من أساء إليه لكان أحسن وأسلم.

ولذلك قال لقمان الحكيمُ لابنه: يا بني ما ندمت على الصمت قط، وإن كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب[١]

(١) الزهد للإمام أحمد/١٢٦ ـ ١٢٧.

وكان يقال: إذا فَاتَك الأدب فالزم الصَّمتَ[١]

ما إنْ ندمتُ على سكوتي مرَّة ... ولقد ندمتُ على الكلام مرارا

والإنسان قلّ أنْ يندم على الترويّ والرفق والحلم، ولكنه كثيرًا ما يتجرَّع الندم والألم بعجلته ومُبادرته في الرد والسبّ.

فداويتُه بالحلمِ والمرءُ قادرٌ ... على سَهْمِه ما دام في كفِّه السَّهْمُ

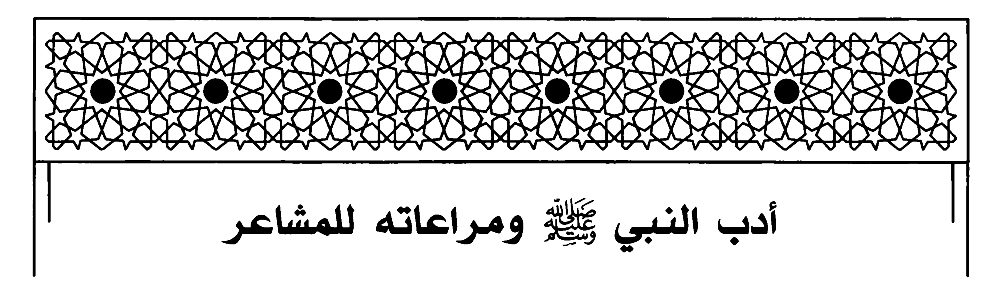
كثيرًا ما يحدث ما يُكدر الخاطر، ويُهيج الغضب، فيشعرُ الإنسانُ بدافعٍ يدفعهُ للردّ بعنفٍ على من آذاه، وإسكاتِه وإغضابه، ولا يُفكر في تلك اللحظة في عواقب فعله وغضبه، فيندم بعد ذلك، ويُحدث في القلب جُرحًا يصعُبُ علاجُه.

وليس المطلوب الكتمانَ والسكوتَ مُطلقًا، فكتمان ما بالخاطر قد يتراكم حتى يصل إلى مرحلة الانفجار، فيحدث ما لا تُحمد عُقباه.

ولكنَّ المطلوبَ أنْ يتحكم في نفسه، ولا يصدرَ منه ما لا ينبغي، فلا يردّ بكلامٍ فظٍّ قاسٍ، بل يُجيبُ خصمَه ويردُّ عليه بحكمةٍ ورويَّةٍ، دون عَجَلَةٍ وكلامٍ بذيءٍ.



(١) عيون الأخبار ٢/٥٧٣.



أدب النبي ﷺ ومراعاته للمشاعر

كان هناك جارٌ لرسول الله ﷺ طيبَ المرق، فصنع لرسول الله ﷺ، ثم جاء يدعوه لطعام صنعه له، وكان بجواره زوجته عائشة رضي الله عنها، فهل يجيب دعوته ويتركها لوحدها جائعة؟

لا، فلذلك قال النبيّ ﷺ له بكلّ لطف ـ وأشار إليها ـ: «**وهذه؟**»، فتعجَّب الرجل، وهو لم يصنع إلا طعاما قليلا يكفي النبي ﷺ وحده، فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ: «**لا**».

فعاد يدعوه مرة أخرى، فقال رسول الله ﷺ: «**وهذه؟**»، قال: لا، قال رسول الله ﷺ: «**لا**».

ثم عاد يدعوه مرة ثالثة، فقال رسول الله ﷺ: «**وهذه؟**»، فعلم أنّ النبي ﷺ عازم على اصطحابها ولن يذهب ليأكل ويشبع ويتركها وحدها جائعة، فقال: نعم، فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله[1]

تأمل وانظر إلى لطف وحسن عشرة النبي ﷺ لأزواجه! فلقد امْتَنَع من ضيافة جاره دون زوجته، حيث لم تطب نفسه أنْ يشبع ويأكل أحسن الأكل دونها!

ولم يقل لعائشة رضي الله عنها: إذا أكلت من الطعام سأحضر لكِ جزءًا منه، لا، بل لم تقرّ نفسُه حتّى يصطحبها معه، لِتأكل وتشبع!

فأيُّ أدبٍ ورحمةٍ وخلقٍ هذا الذي وصل إليه نبيّنا ﷺ؟

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٠٣٧).

وأين نحن من هذا الخلق الرفيع في تعاملنا مع زوجاتنا وأبنائنا؟

وصدق رسول الله ﷺ (خَيرُكُمْ خَيرُكُمْ لأهْلِهِ وأنا خَيرُكُمْ لأهْلي)[1]

إنه يُصدِّق أقواله بالأفعال، فيقوم على أزواجه بالرحمة والصبر والإكرام دون ملال.

فهذا النموذج الرفيع في التعامل مع الزوجات، ومُراعاة المشاعر، ليس له مثيلٌ في الواقع لا من الدّول المتحضرة ـ كما يقولون ـ، ولا من غيرها، فكيف تغيب هذه الصور المشرقة في التعامل عن بعض الناس، ويستشهد بالنماذج الأوربية والغربية؟.

والعجيبُ أنه ﷺ لم يجد حرجًا ولا غضاضةً من الذهاب والمجيء مع زوجته، ومرافقته لها، بل والإلحاح على أن لا يُستضاف إلا وهي معه! وهذا بخلاف ما عليه بعض الناس الذين يجدون الحرج الشديد من ذلك.

ثم تأمل قوله: (فقاما يتدافعان) قال النووي رحمه الله: «معناهُ يَمْشي كُلُّ واحدٍ منهما في أثر صاحبه»، أي أنه لم يمش مع الرجل، بل مشى مع زوجته، يُرافقها ويُؤانسُها! فأين هذا مع حال كثير من الناس، الذين يمشون أمام زوجاتهم ـ حرجًا أن يراهم الناس يمشون مع زوجاتهم ـ، بل بعضُهم يبتعد عنها مسافةً بعيدة، وبعضُهم لا يُرافقها في السوق لأمرٍ ضروريٍّ لهما أو لأبنائهما، وربما تركها وحدها!.

ونُلاحظ أيضًا أنه ﷺ مشى معها أمام الناس، ولم يجد الحرج في خروجها للحاجة ولو رأى الناس شخصها مادامت بحجابها الكامل.

تنبيه: الذي يظهر أنه عندما دخلا البيت، جلس الرسول ﷺ مع الرجل، وجلست عائشةُ رضي الله عنها مع زوجته أو أهله إنْ كان في البيت امرأة، أو أكلت وحدها.

---

(١) سبق تخريجه.



المجاملة ومراعاة المشاعر مطلوبة، ولكن ليس دائمًا

الْمُجاملَة: هي حُسنُ العِشرة، والمصانَعة واللِّينُ، واللطفُ في الكلام.

فمُجاملتك لغيرك يعني أنْ تُسْمعَهُ كلامًا جَميلًا فيه كثيرٌ مِن الاحْترامِ، ولو لَمْ تكُن مُخْلصًا في كلامِك، وصادقًا في موَدّتِك.

وهي ضد الْمُصارحة.

والكثير من الناس يتكلَّف المجاملة إلى حدٍّ يصل فيه إلى إحراج نفسه، والْمُداهنة في دينه، والتنازل عن حقوقه.

فربما ارتكب بعض الناس حماقةً أو تصرُّفًا سيِّئًا في حقِّك، أو في حقِّ بعض الناس، فتُجامله خشية أنْ تُغضبَه، أو يأخذَ في خاطره، فهذه المجاملة أضرَّت بكما جميعًا، أضرَّت بك حيث اعتُدي عليك، أو أُخذ بعض حقِّك.

وأضرَّت بمن جاملتَه حيث لم يجد من يردعه فيتمادى في خطئه وتصرُّفه السيّئ.

بل ويتعدَّى الضرر إلى غيركما، حيث سيكرر خطأه مع كلِّ أحد.

فلا ينبغي التكلفُ في المجاملة، ومراعاةُ مشاعر الآخرين؛ لأن ذلك يُفسدهم، حيث سيستمرون في أخطائهم وغيّهم.

ومن جاملَ المخطئ فلم يُخبره بعيبه فقد غشَّه، وأضرَّ به ضررًا بالغًا.

وقد رمى بك في تيهاء مهلكةٍ مَن بات يكتمك العيب الذي فيكا

ولا يعني ذلك الْمُبالغة في الصراحة، بل ينبغي تَجُنُّبُ التصريحِ في موضعٍ يُغني عنه التلميح.

والصدعُ بالحق لا يعني التصريح دائمًا، بل إنَّ الحكيم العاقل: هو الذي يقول كلمةَ الحق، بلا مفاسدَ يَنْتُج عنها.

والمتهور الْمُندفع: هو الذي يُطلق التصريح في أمرٍ يُغني عنه التلميح، وخاصةً إذا ترتب على تصريحه ما يُسبب فرقةً، ويُحمل كلامُه على أسوأ محمل.

قال الجرجانيُّ رَحِمَهُ اللهُ: أَجمعَ الجميعُ على أن الكنايةَ أَبْلَغُ منَ الإفصاحِ، والتعريضَ أَوْقَعُ من التَّصريح. اهـ[1]

وإنَّ لنا في رسول الله ﷺ أُسوةً حسنة، فقد كان كثيرًا ما يُلمِّحُ ولا يُصرح، وذلك لأنه يُريد أنْ يُؤلفَ بين القلوب، لا أنْ يفضحَ ويتشفَّى بذكرِ العيوب.

تقول عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كان رسولُ الله ﷺ، إذا بلغه عن الرجل شيئًا لم يقل: ما بال فلانٍ يقول كذا؟ ولكن يقول: ما بال أقوامٍ يقولون كذا وكذا؟[2]

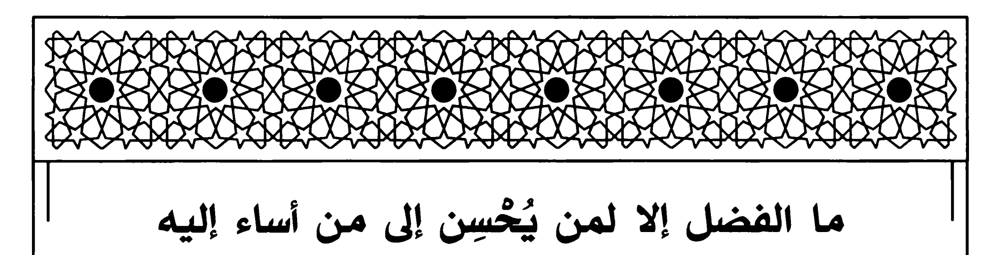
هكذا كان النبي ﷺ يقول عندما يرى خطأً صريحًا.

فمن الخطأ أنْ نعتقد أنَّ الشجاعة الْمحمودة: هي في التصريح دائمًا، والكلامِ عن كلِّ شيء، ولو ترتب على ذلك مضرَّةٌ للقائل أو لغيره.

---

(١) دلائل الإعجاز ص١١٣.

(٢) رواه أبو داود (٤٧٨٨)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.



ما الفضل إلا لمن يُحْسِن إلى من أساء إليه

الكمال والنُّبْل لمن يُحسن إلى من أساء إليه، فأما أن يُحسن إلى من أحسن إليه فليس فيه كبير منقبة، ولا شريفُ مَحْمدَة، قال النبي ﷺ: «**ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قُطعت رحمه وصلها**»(١)

يعني: ليس الواصل ـ الذي يُحمد شرعًا وعرفًا ـ الذي إذا وصله أقاربه وصلهم مكافأة لهم، وإنما الواصل الذي إذا قُطعت رحمه وصلها.

فالْواصِلُ هُو الَّذي يَتفضَّلُ على أحد، ولا يُتفَضَّلُ عليه.

ولن تجدَ مُتْعةَ الحياة حتى تُعامِلَ الناس بالمسامحة، قال بعضُهم: مَن عاشر الناس بالْمُسامحة دام اسْتِمْتَاعُه بهم.

وكنتُ إذا صحبتُ رجال قومٍ ... صحبتهُمُ وشيمتيَ الوفاءُ

فأُحسنُ حين يُحسنُ مُحْسِنُوهم ... وأجتنبُ الإساءةَ إن أساؤوا

وأُبصرُ ما يَعِيْبُهُمُ بعينٍ ... عليها من عُيُونِهِمُ غِطَاءُ

قال أبو حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وما الفضل إلا لمن يُحْسِن إلى من أساء إليه، فأما مُجَازاة الإحسان إحسانًا فهو المساواة في الأخلاق، فلرُبَّما استعملَتْها البهائمُ، ولو لم يكن في الصفحِ وتركِ الإساءةِ خصلةٌ تُحْمَدُ إلا راحةُ النفس لكان الواجب على العاقل ألا يُكَدِّرَ وقته بالدخول في أخلاق البهائم بالمجازاة على الإساءة إساءة، ومن جازى بالإساءةِ إساءةً فهو المسيءُ وإن لم يكن بادئًا. اهـ(٢)

---

(١) رواه البخاري (٥٩٩١).

(٢) روضة العقلاء: ٩١.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عدة أسباب في إطفاء نار الباغي ودفعِ أذى المؤذِي، وذكر منها: الإحسان إليه، ثم قال: هو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها، ولا يُوَفَّق له إلا من عَظُم حظُّه من الله.

فكلما ازداد أذى وشرًّا وبغيًا وحسدًا ازددت إليه إحسانًا، وله نصيحة، وعليه شفقةً، وما أظنك تُصدِّق بأن هذا يكون فضلاً عن أن تتعاطاه.

وفي الجملة، ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مائة منفعة للعبد، في عاجله وآجله. اهـ[١]

وإحسانك إلى من أساء إليك لوجه الله؛ بهدية أو دعاء أو كلمة طيبة: هو درجة النبيّين والصّدّيقين.

والنبوة قد انتهت وبقيت درجة الصّدّيقيّة، فلتعلُ همّتك لبلوغها.

وستستفيد من إحسانك إلى من أساء إليك أكثر من مائة فائدة في دينك ودنياك.

ولا تحسن إلى من أساء إليك بنيَّةِ أن تكسبَه ويَلين قلبُه لك؛ لأنه ليس لوجه الله.

وستندم غالبًا إذا لم ينفعه إحسانك.

وربما توهّم بعض الناس أن الذي أساء إليه سيفهم أنّ إحسانه إليه دليل وعلامة على أنه ذليل ومحتاج إليه، وسيزيده علوًّا واستكبارًا عليه، واحتقارًا له، وخاصة إذا كان لا يقدر عليه.

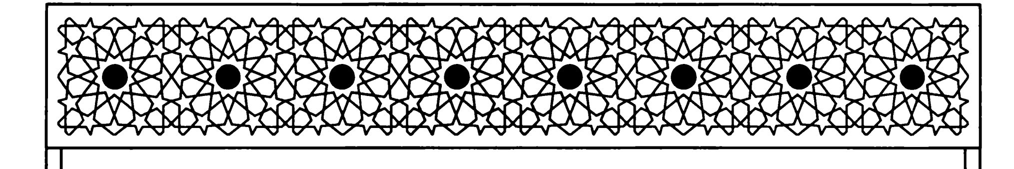
وهذا التَّوهُّمُ يحيك في صدور غالب الناس، ولا أشك أنه من الشيطان.

وإذا غلب على ظنك ذلك فعليك بالدعاء له، حتى لا يحصل ما تخوّفتَ منه.

والمهم أن تحسن إلى من أساء إليك بقدر المستطاع، لتنال خيرًا وأجرًا عظيمًا من الكريم الوهاب.

---

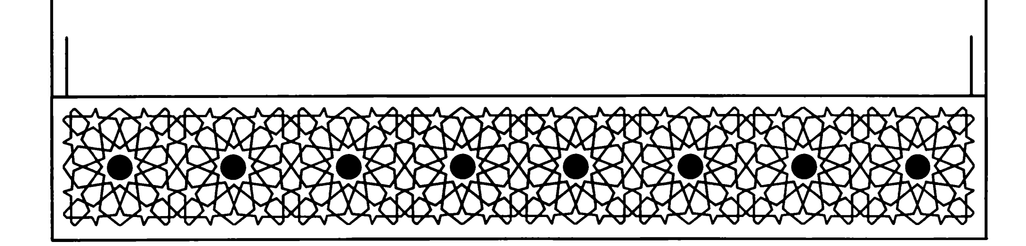
(١) بدائع الفوائد ٢/ ٧٦٤ ـ ٧٧٦.

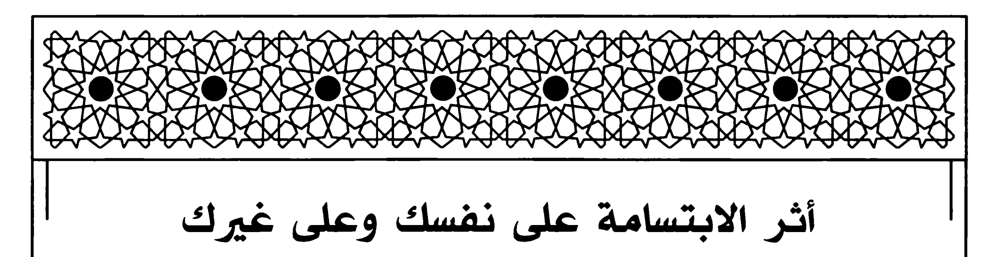


الابتسامة والبشاشة

طلاقة الوجه وحسن البشاشة والبشر من أسهل وأيسر الأمور، ومع ذلك فهو من أفضل مكارم الأخلاق، ويَكتب الله تعالى لك في كلّ ابتسامة صدقة، فربما ابتسمت في اليوم خمسين مرة، فكأنك تصدقت خمسين مرة، ولو سمعت أنّ أحدًا يتصدق في اليوم خمسين مرة لَتعجّبت كثيرًا، وأنت بحمد الله يُكتب لك أجر خمسين صدقة أو أكثر، ولا يُحرم من هذا الفضل الكبير العظيم إلا محروم.

وإليك مزيدٌ من التفصيل في هذا الخلق الكريم:





أثر الابتسامة على نفسك وعلى غيرك

إنَّ طلاقةَ الوجه وحسن البشاشة والبشر هو السِّحر الحلال الجذَّاب، وهو الذي يَسْتولي على العقول والألباب، وصاحبُ البِشْرِ محمودةٌ أفْعاله، مقبولةٌ هنَّاته، بخلاف العابس الْمُقطِّب، الْمُتجهِّم الشَّاحب، فهو مِمَّن يُستعاذُ منه، وتَستولي على القلب كُرَبٌ وضِيقٌ عند لَقَائه.

أخو البِشْرِ محمودٌ على حُسْنِ بِشْرِه ‌‌ ‌ ولن يَعْدِمَ البغضاءَ مَن كان عابسًا

الابتسامة: ضياء في وجهك، وسعادة في صدرك، وصحّة في بدنك، بها تكسب أصحابك، وتأْمن أعداءك، وتُضاعِف حسناتك، وتُخلّد ذكرك.

قال أبو حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ: «البشاشةُ إدامُ العلماء، وسجيةُ الحكماء؛ لأنَّ البِشْرَ يُطفئُ نار الْمُعانَدة، ويُحْرِقُ هَيَجان الْمُباغَضة، وفيه تَحْصينٌ من الباغي، ومَنْجاةٌ من الساعي، ومَن بَشَّ للنَّاس وجهًا، لم يكن عندهم بِدُون البَاذِلِ لَهُم مَا يَمْلِكُ»(١)

والبشاشةُ وصدقُ الابتسامة أحوج ما يرجوه الصديق من صديقه، والقريب من قريبه، بل ولا يستغني عنها أحدٌ مهما كان.

فهذا إمامنا وقدوتنا محمد ﷺ لا يراه أصحابُه إلا مُبْتسمًا، قال جَريرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما رآني النَّبيُّ ﷺ إلَّا تَبسَّمَ في وجْهِي(٢)

---

(١) المصدر السابق: ٦٥.

(٢) رواه البخاري (٣٠٣٥)، ومسلم (٢٤٧٥).

يا أَخِيْ لا تُمِلْ بِوَجْهِكَ عنّي ما أَنَا فَحْمَةٌ ولَا أنْتَ فَرْقَد

«ولقاء الناس بالتبسم وطلاقة الوجه من أخلاق النبوة، وهو مناف للتكبر وجالب للمودة»[١]



(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال: ٥/١٩٣.



لِمَاذا عاتب الله تعالى النبي ﷺ؟

كان نبيّنا وإمامنا محمد ﷺ يومًا مشغولًا مع كبار المشركين، ومُنْهَمِكًا مع ساداتهم ورُؤَسائهم، يدعوهم للإسلام، ويتلو عليهمُ القرآن.

فبينما هو على هذا الحال، إذا بصوتٍ يُناديه، ويُقاطع حديثه مع عِلْيةِ القوم، ويطلب منه أنْ يُصغيَ إليه، وجعل يسأله عن شيءٍ ويلح عليه، فالْتفت وإذا به رجلٌ ضرير العينين، لكنه صحيحُ السمع، فقد سمع حديثه معهم ولم يُراع ذلك، ولم يصبر حتى يفرغَ منهم، وهذا الرجل هو ابنُ أمِّ مكتوم رضي الله عنه، ـ وكان ممن أسلم قديما ـ، وقد أحبَّ النبيُّ ﷺ أنْ يصبر وينتظر حتى يفرغ من إقناع عِلْيَةِ القوم بالإسلام، لكنَّهُ مضى في إلحاحه وطلبِه، فتضايق منه وعَبَس في وجْهِهِ وأعْرضَ عنه؛ لِيُكْمل حديثه معهم.

فأنزل الله تعالى قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة، عَاتب فيه نبيّه وخليله ﷺ على عُبوسِه وتولّيه بِقَوْلِهِ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤﴾، إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ﴾. أي: لا تَعْبَسْ في وجه من جاءك يسعى وهو يخشى، وتتصدّى لمن استغنى.

فلم يكن مجيء ابن مكتوم في هذا الوقت الحرِج مُبيحًا لعبوس النبي ﷺ في وجْهِه، فهل يُباح لغيره العبوس في وجوه المسلمين؟

فإذا كان الله تعالى عاتَب نبيَّه وخلِيله ﷺ بِعبُوسِه في وجْهِ أعمى لا

يَشْعُرُ بِعبُوسه فكيف بمن عَبَس وكَلَح في وجه مَن يُبْصر ويُؤلِمُه ذاك العُبوس!

كيف بمن هو شاحب الوجه، كالحٌ مُقطّبٌ في كلّ أيامه أو أحوالِه، وعلى أقربائه وأهلِه!

وقد ذكر بعضُ المفسّرين «أنَّ ابن أم مكتوم وإن كان لِفَقْد بصره لا يرى القوم، لكنه لصحة سمعه كان يسمع مخاطبة الرسول ﷺ أولئك الكفار، وكان يسمع أصواتهم أيضًا، وكان يعرف بواسطة استماع تلك الكلمات شدة اهتمام النبي ﷺ بشأنهم، فكان إقدامه على قطع كلام النبي ﷺ وتقديم غرض نفسه قبل تمام غرض النبي إيذاءً للنبي عليه الصلاة والسلام، وذلك معصية عظيمة».

ومع خطئه لم يعذر الله تعالى نبيّه في عبوسه في وجه الأعمى.

هذا والرسول ﷺ إنما فعل ذلك حرصًا على دعوة كبار القوم، الذين جاء الأعمى رضي الله عنه وهو مشغولٌ بدعوتهم ونُصحهم، فقاطعه وهو في أوجِ انشغاله، فلم يكن عُبُوسُه عادةً وخُلُقًا له، إنما كان عارضًا أدّاه إليه حرصُه على دعوةِ عِلْيَة القومِ.

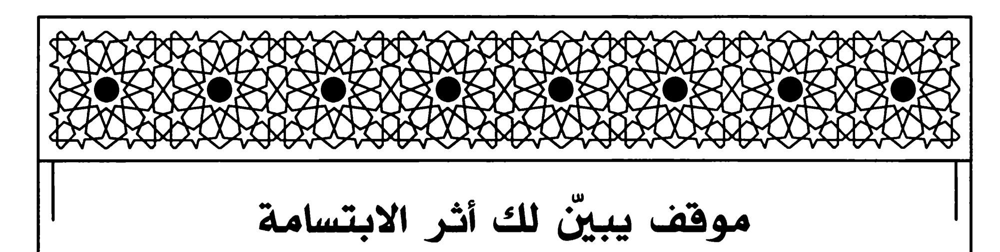
ومع ذلك عاتبه ربّه عز وجل في آياتٍ تُتلى إلى يوم القيامة، فغيرُه أحقّ أنْ يُقرَّعَ على كُلُوحِه، وأنْ يُوبَّخَ على عُبُوسِه، فليحذر كلّ ناصحٍ لنفسِه من مغبّةِ فعلِه.

هذا إذا كان شُحوبُ الوجه فقط، فكيف إذا صاحب ذلك بذاءةُ اللسان؟ أو القطيعةُ والخصام؟ فالعتاب سيتضاعف يوم الحساب إن لم يتدارك العبدُ نفسه، ويعود إلى الصواب، إلا إن عفا عنه أرحم الراحمين.

عند ذلك نعرف قيمة الأخلاق في ديننا، ونعرف مكانة البشاشةِ

والابتسامة، فهي ليست سُلُوكًا نكسب بها وُدّ الناس فقط، وإنما هي عبادةٌ نتقرّب بها إلى الله تعالى، فإذا قصّرنا فيها فيُخشى علينا من العتاب واللوم من الله تعالى، وإذا أدّيناها كما أُمرنا فزنا بالأجر العظيم.





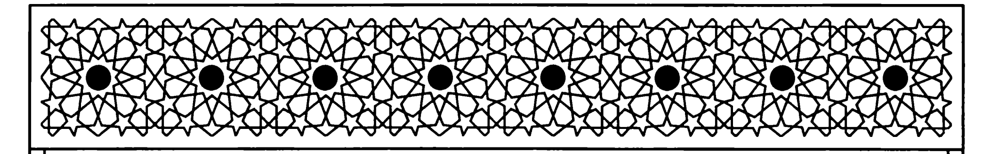
موقف يبيّن لك أثر الابتسامة

قال أحد الأقارب: ذهبت يومًا إلى دكان في شهر رمضان، وكان في زمن الحرّ الشديد، وقد خرجت وقت العصر، فاجتمع عليّ حرّ الجوع وحرّ الشمس وتعب الذهاب للدّكان، فدخلته وأنا مُجْهَد، ولو حاولت الابتسامة لَمَا استطعت، فطلبت من صاحب المحل حاجتي بأسلوب جافّ، فابتسم في وجهي ابتسامةً أنستني أتعابي وآلامي، وأذهبت عن جسدي ومعدتي لهيب الحر، وأدخلت على قلبي السرور والبهجة، فقابلته بمثلها بلا تكلّف ولا تصنّع.

قال: ودام أثر هذه الابتسامة عليّ إلى أن رجعت إلى البيت، وفي أثناء الطريق نظرت في المرآة وإذا بي مبتسم! فعجبت من نفسي، كيف لم تَنْمَح عني الابتسامة طوال هذه المدة، وبادرت بإخفائها؛ خوفًا أن يراني أحدٌ فأكون أضحوكة عنده، ولو علم السبب لزال عنه العجب.

فالابتسامةُ عظيمة النفع، وتنتقل من بِشْرِ الوجه إلى التغلغل في قلب الْمُبتسِم، وتملؤه بالسعادة والبهجةِ، فيُحسّ براحةٍ وسعادة تغمُره.





ابتسامةُ النبي ﷺ في وجه رجل يسأل وجذب رداءه!

كان رسول الله ﷺ ـ صاحبُ القلب الأبيض، والوجه الأنور، والجبين الأزهر، والخُلُق الأكمل ـ يمشي على عادته مشيًا سريعًا، وأصحابه مُلْتفُّون من حوله، وعليه رداء غليظ الجانب، فجاء أعرابي غليظ الطبع، فجبذه بردائه جبذة شديدة، رجع من شدّتها في نحر الأعرابي، أي: اسْتدار صلوات الله وسلامه عليه من قوة الجذْبة حتى استقبل صدر الأعرابي استقبالا تامًا!

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: فنظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك!

يا له من موقف شديد عصيب، وتصرّف سيِّئ دنيء، ولم يكتف هذا الرجل بأن سأله مالًا، بل طالت يدُه إليه، ووصل أذاه إلى بدنه، هذا وهو بين أصحابه!

ماذا لو حدث لك مثل هذا بين أصحابك أو طلابك أو أولادك، فماذا ستفعل؟

أمَّا إمامُنا وقُدْوتنا ﷺ فكان تعامله فريدًا نادرًا، حيث لم يلتفت إلى هذا التصرف السيِّئ، وأدار الموقف بحكمة ورحمة، وتَنَازل عن حقّه، وانشغل في قضاء حقّه وحاجته، فلذلك ضحك في وجهه، ثم أمر له بعطاء[1]

---

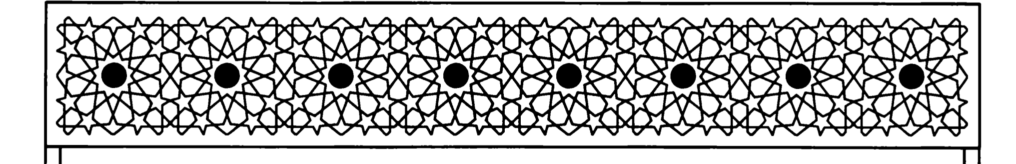
(١) رواه البخاري (٣١٤٩)، ومسلم (١٠٥٧).

وصدق الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

ومن كان شديد الحبّ له، فلْيكن شديد الاتّباع له؛ لينال حبّ الله لـــه، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

فاحرص على الاقتداء بأخلاقه وتعاملاته ﷺ.





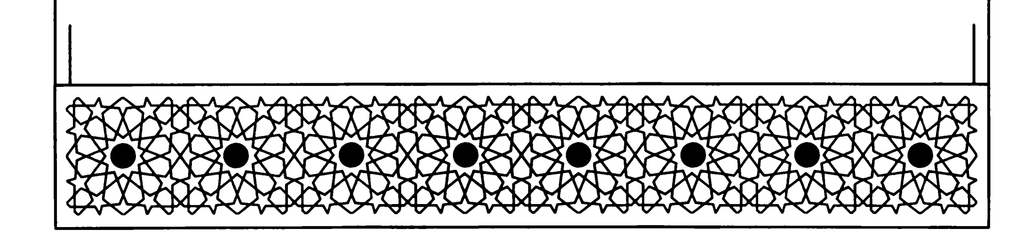
الكلمة الطيبة، وفنّ الصمت والاستماع

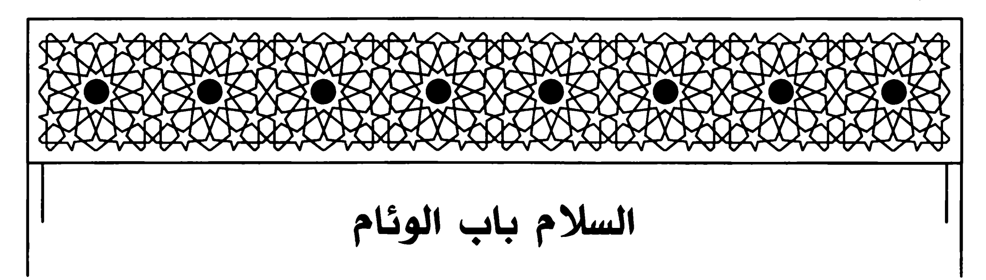
الكلمة الطيبة صدقة، فأكثر من الصدقات بكثرة كلماتك الطيبة، والكلام لا يُكلّفك أيّ جهد وتعب، فلا تحرم غيرك السرور والأنس والسعادة بسماع كلام جميل منك، ولا تحرم نفسك اللذة والأنس والأجر عند إدخالك السرور على غيرك.

وكما أنّ المتكلم بما ينفع محمود، فكذلك الساكت عن الشر وعما لا خير فيه محمود.

واستماعك بإنصات وأدب يُدخل السرور على المتكلم.

وسأفصل الكلام على هذه الأخلاق العظيمة إن شاء الله تعالى:





السلام باب الوئام

السلام باب الوئام، ولولا الوئام لهلك الأنام، وهو من أعظم أسباب الألفة والمحبة والترابط بين المسلمين؛ لأنّ قولك لغيرك: «السلام عليكم» إخبارٌ منك له بسلامته من غشِّك ومَكْرك، وأيّ مكروهٍ يصله منك.

وهو دعاءٌ للمسلَّم عليه بالسلامة والرحمة والبركة.

والسلام من محاسن الإسلام، وابتداؤه سنةٌ عند اللقاء، على من عرفت ومن لم تعرف، من صغير وكبير، وغني وفقير، وشريف ووضيع، فابتداؤك الناس بالسلام دليلٌ على تواضعك وسلامتك من الكبر.

فإذا أردت أن تعرف وتتحقق أنك متواضع أو متكبر: فانظر إلى حالك مع السلام، فإن كنت ممن يُشيعه، ولا تمرّ على أحد مهما كان إلا ابتدأته بالسلام، عرفته أم لم تعرفه، فأبشر ببراءتك من الكبر والغرور والعُجب.

والسلام من حق المسلم على أخيه المسلم، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: حق المسلم على المسلم ست، ـ وذكر منها ـ: إذا لقيته فسلم عليه..

فحقُّ المسلم عليك أيها المسلم، أنْ تُسلّم عليه إذا لقيتَه أو مَرَرْتَ به، سواءٌ عرفتَه أو لم تعرفْه.

بل أمر النبي ﷺ بالسلام وحث وأكدّ عليه، قال البراء بن

عازب ﵄: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ـ وذكر منها ـ: وإفشاء السلام[١]

فإياك أن تتهاون في هذا الحق الذي عليك لإخوانك المسلمين.

فالذي يمرّ على إخوانه ولا يُسلم عليهم، قد خالف أَمْرَ نبيّه وإمامِه ﷺ، وتسبّب في نُفرةِ القلوب وضيقِها؛ لأن إفشاء السلام من أسباب المحبة والألفة بين المسلمين، وتركُهُ يقطع هذه الألفة والمحبة، كما قال النبي ﷺ: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»[٢]

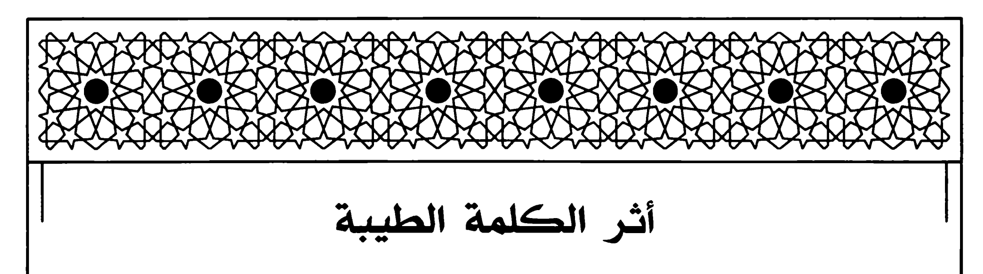
فما أجمل أنْ تُعوّد نفسك ومن تحت يدك على إفشاءِ السلام أيها المسلم، فلا تمرّ بأحدٍ إلا بادرتَه بالسلام، وإن زدْتَ على ذلك بشاشةً وابتسامةً فهو نورٌ على نور.



---

(١) رواه البخاري (٥٦٣٥)، ومسلم (٢٠٦٦).

(٢) رواه مسلم (٥٤).



أثر الكلمة الطيبة

خاطب الناس بأحسن الألفاظ وألطف العبارات حسب الإمكان، ويستوي في ذلك الصغير والكبير، والفقير والغني، والعالم والجاهل، والقريب والبعيد، والصالح والفاسق، من غير مداهنة وإقرار بمعصية وبدعة.

قال بعض الحكماء: الكلام اللين يغسل الضغائن والأحقاد الكامنة في النفوس.

ولْنتأمل قول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾.

ما أعظم وأرفع تعاليم الإسلام، وما أحسن وأنفع توجيهاتِ الملكِ العلّام، فالله تعالى الذي خلقنا، ويعلم ما يُصلحنا وينفعنا، لم يأمرنا ويحثنا على أن نقول للناس والآخرين الكلام الحسن فحسب، بل أمرنا أن نقول أحسن وأنفع الكلام، حتى لمن يُخالفنا ويُخطئ علينا!

فقل لمن أحببته في الله: إني أحبّك يا فلان.

وقل لمن أعجبك قوله أو فعله: كم أعجبني فيك هذا التصرف الجميل، أو أَسْمعه هذه العبارة: لقد أسعدتني وشرحتَ صدري بقولك كذا، أو بفعلك كذا.

وقد أرشدنا نبيُّنا ﷺ إلى إبداء المشاعر الطيبة تجاه أخينا المسلم

فقال: «**إِذا أَحبَّ أَحدُكُم أَخاهُ فَليُعلِمهُ أَنهُ أَحبَّهُ**»[١]

بل كان عليه الصلاة والسلام ينشر كلمات الحبّ للصغير والكبير، قال يومًا لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «**يا معاذ إني أحبك**»[٢]، ورأى ﷺ النساء والصبيان مقبلين من عرس، فقام إليهم وقال: «**اللهم أنتم من أحب الناس إليّ**». قالها ثلاث مرار[٣]، وجاءت إليه امرأة من الأنصار ومعها صبيٌّ لها، فكلَّمها رسول الله ﷺ ثم قال: «**والذي نفسي بيده، إنكم أحبُّ الناس إليّ**» مرتين[٤].

فكم جذبت هذه العباراتُ العذبةُ قلوبًا نافرةً، وشرحت نفوسًا ضائقة، وجبرت خواطر مُكدّرة، وكم كان لها من الأثر الكبير في دوام الصحبة وتقويتِها.

وبالمقابل: كم شتَّتَ الكلام القاسي والعبارات الفظة الغليظة من أصدقاء، وكم فرقت من أحبابٍ أوفياء، ويا سبحان الله، ماذا يضر هؤلاء لو استخدموا الكلمات الهينة اللينة، فتنشرح بسببها الصدور، ويصفو الود، وتسود المحبة والألفة؟

ولكن ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فالكلام الطيب اللين، وإبداءُ المشاعر الطيبةِ للناس، وتَعاهُدُهم بذلك: من أعظم أسباب دوام العشرة، وتقوية روابط الأخوة، وإذهاب الضغائن والخواطر السلبية من النفوس.

احرصْ على حفظِ القلوب مِن الأذى ... فرجوعُها بعد التَّنافر يَعْسُر

إنَّ القلوبَ إذا تنافر وُدُّها ... مثلُ الزجاجةِ كسرها لا يُجْبَرُ

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٢١)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٦٩٠)، وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٣٧٨٥).

(٤) رواه البخاري (٣٧٨٦).

قال أبو حاتم رَحِمَهُ اللهُ: من أضاع تَعَهُّدَ الوُدِّ مِن إخوانه حُرِمَ ثَمَرَةَ إخائِهم، وآيَسَ الإخوانَ مِن نفسه. اهـ[(١)]

دخل مجموعةٌ من اليهود على رسول الله ﷺ، فقالوا: السَّام - أي الموت - عليكم، يُوهمونه أنهم يقولون: السلام عليكم، ففهمت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مقصدهم فغضبت وقالت: وعليكم السَّام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: «**مهلا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله**» فقالت: يا رسول الله، أولم تسمع ما قالوا؟ فقال: «**قد قلت: وعليكم**»[(٢)]

فإذا كان النبي ﷺ قد استعمل أطيب الكلام مع من سبه وتنقصه، أفيليق بنا أن نستخدم أسوأ وأشنع الكلام مع إخواننا وجيراننا ممَّن نختلف معهم في الرأي والاجتهاد أحيانًا؟

حتى ولو أخطأ علينا أحدٌ من المسلمين، فلا يليق أن نرد عليه بقول غليظ، وكلام جاف بغيظ.

ولْنتأمل كيف أُمر النبيان الكريمان، موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، أن يتلطفا في القول مع فرعون، الذي ادعى الألوهية من دون الله تعالى، وقال للناس: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، فأمر الله رسولَيه إليه، أن تكون دعوتهما له بكلام رفيق، لين سهل رقيق: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾؛ ليكون أوقع في نفسه، وأبلغ في قيام الحجة عليه، وأدعى لقبوله لدعوتهما.

وأنت لست بأفضل من موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه، فأنت إذًا من باب أولى.

---

(١) روضة العقلاء: ٩١.

(٢) رواه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٥٧٨٤).

وكم يحتاج ذلك كلّ مسلم عند التربية والدعوة والتعامل وخاصة لمن كان تحت يده، من أهل وزوجة وأولاد، وطلاب وموظفين، فهم أولى بالرفق واللين، قال النبيّ ﷺ: «**والكلمة الطيبة صدقة**»(١)

الكلمة الطيبة: تحفظ المودة، وتديم الصحبة، وتمنع كيد الشيطان أن يوهي الألفة والمودّة بين الأصدقاء والإخوان، ويفسد ذات بينهم، بل إن طيب الكلام حتى مع الأعداء مطلوب؛ لأنه سببٌ في إطفاء الخصومة، وإخماد الغضب، مما يقرب القلوب، ويذهب غيظ الصدور، ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤].

الكلمة الطيبة: تغسل الضغائن المستكينة في الجوارح، وتجمع الأفئدة، وتجلب المودة، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد قال: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أنْ تلقى أخاك بوجه طلق**»(٢)

فكل كلمةٍ طيّبة ليّنة ـ أيها المسلمُ ـ لا تضر في الدين، ولا تسخط الرب الكريم، وترضي الجليس، فلا تبخل بها على أخيك المسلم، يأجرك الله عليها، وتكونُ حجابًا لك من النار، قال النبيّ ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة**» متفق عليه(٣)

وما أورد الناس في المهالك، ولا أوقعهم في رديء المسالك، ولا حصلت القطيعة والفرقة إلا بسبب بذاءة اللسان.

تعاهد لسانك إن اللسان	سريعٌ إلى المرء في قتله
وهذا اللسان بريد الفؤاد	يَدلّ الرجال على عقله

---

(١) رواه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (٢٣٨٢).
(٢) رواه مسلم (٦٨٥٧).
(٣) رواه البخاري (١٤١٧)، ومسلم (٢٣٩٨).

وإنَّ الكلام القاسي الغليظ من أعظم ما يُنفر عنك الناس، ويُبعدك عنهم، ويَجعلك بغيضا ثقيلًا على قلوبهم.

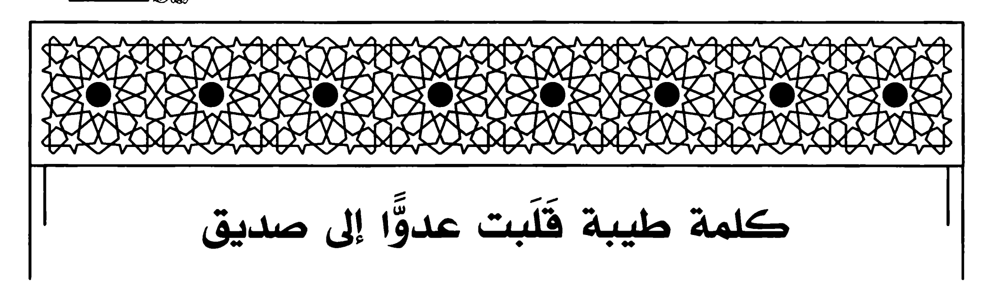
وليس هناك أحدٌ أحبُّ وأكرم إلى الصحابة مِن رسول الله ﷺ الذي يفدونه بأرواحهم وقلوبهم وأولادِهم، ومع ذلك قال الله تعالى في حقّه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي: لو كنت سيِّئَ الكلام، قاسي القلب عليهم: لانفضوا عنك وتركوك، وذهبوا عنك وهجروك، ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفا لقلوبهم، ورحمةً بهم.

فكيف ترجو وتأمل أن يحبك الناس، وأن يقترب منك أبناؤك وأقرباؤك، وأنت تُعاملهم بألفاظٍ غليظة، وعبارات قاسية؟

ولنْ تقول كلمةً حال الرضى أو الغضب أو الردّ أو الجدال إلا وهناك أحسن وألْطف وأجمل منها، فاخترها ودع غيرها؛ لتصفو النفوس، وتزرع الودّ، وتجمع الكلمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ لم يقل: قولوا الحسن، بل الأحسن.

فكيف بمن يقول الأسْوأ؟





كلمة طيبة قَلَبت عدوًّا إلى صديق

ألّف رجل كتابًا فقال في موقع التواصل (تويتر): انتهيت اليوم من تأليف كتابي.. ولقد وجدت لانتهائة سعادة لم أجدها لغيره..

ولم ينتبه للخطأ الإملائي في قوله: (لانتهائة)

فردّ أحدهم: كنت أنوي قراءته، لكني تراجعت لِمَا رأيت من ضعفك في الإملاء (انتهائة؟!)

فأجابه بقوله: هذا من غيرتك على اللغة العربية، جزاك الله خيرًا، ولعلك تقتنيه ـ وأشرف بإهدائه لك ـ لتفيدني وتصحح أخطائي، فالمؤمن عون لأخيه!

ماذا سنخسر إذا رددنا على من أساء إلينا بلطف وأدب؟

ولماذا لا نلتمس له العذر؟

غرّدت مرّةً في موقع التواصل الاجتماعي (تويتر) بهذه العبارة: نص علماؤنا على تحريم البلوت كأعضاء اللجنة الدائمة، وابن باز، والألباني وابن عثيمين وغيرهم رحمهم الله؛ لأنها تهدر الوقت، ولاعتمادِها على التخمين، وغير ذلك.

فردّ عليّ أحدهم: «ما رأي سماحتك في قول المفتي؟»

ثم أرسل لي رابطًا فيه فتوى للشيخ عبد العزيز آل شيخ يُجيز هذه اللعبة.

فأرسل بعدها بدقائق: «والله إني أعلم أنك لن تردّ، لكن إذا أردتَ أنْ أرسل لك فتوى تُحَرِّم جوال الكاميرا الذي في جيبِك!».

فأجبته بقولي: «أشكرك على ما أفدتني به، جزاك الله خيرا».

فرد علي بقوله: «جُوزيت خيرًا ياشيخ، ورفع الله قدرك على تواضعك الجمّ».

ثم قام مِن فوره بمتابعتي!

إنّ الإعراض عن الجدال، والرفق في الرد، وحسن الظنّ بالمعترض، والإحسان إلى المسيء: كلّ ذلك من أسباب اكتسابِ محبة الناس، والسلامة من شرورهم وأحقادهم وعداواتهم، والظفر بالأجر إذا اقترن ذلك بصلاح النيّة.

فانظر كيف جعلتُه ـ بفضل الله تعالى ـ صديقًا مُحبًّا لي، بكلمة حسنة، ودعاء يسير.

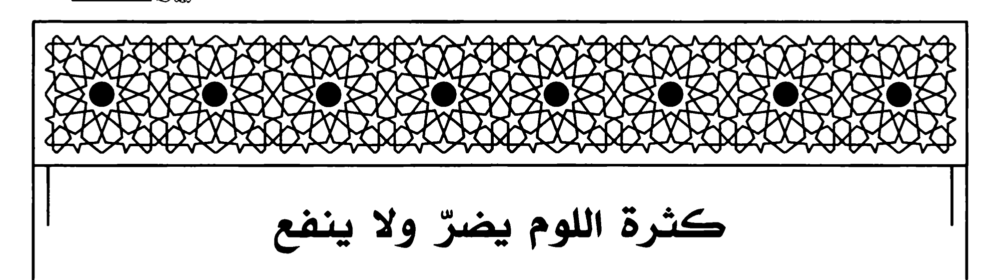
وماذا لو أني جادلته فقلت: أنا لم أُفْتِ، إنما نقلت فتوى علمائنا، أو قلت: تأدَّب في الرد والنقاش، ونحو ذلك: لاستمر على عداوته وعنادِه، بل سيزداد عداوةً وكراهية.

فتلطف مع الناس بالكلام اللين الرقيق، وابتعد عن الكلمات النابية القاسية، وجاملهم بما لا محذور فيه.

ولا أذكر أني ردّيت ردًّا حسنًا رفيقًا على من أساء إليّ مهما بلغت إساءته وغضبه وحقده فاستمرّ في الإساءة، بل إما أن يسكت وإما أن يعتذر.

أوليس من الحكمة والعقل والدين أن نقول للناس حسنًا؟ وأن نقابل الإساءة بإحسان؟

إنه لا يكلفنا شيئًا، فهو كلام في اللسان نستلّ به أحقاد القلوب، وأضغان الصدور، ونأمن به من مكر الماكر، وشرّ الحاسد، وظلم الحاقد، وتربّص المخالف.



كثرة اللوم يضرّ ولا ينفع

بعض الناس كثير اللوم على كلّ صغيرة وكبيرة، وربما ظنّ أنه إذا عاتب ولام ولده أو زوجه أو صاحبه فلن يكرر الشيء الذي يراه خطأ.

قال لي أحدُ الأزواج: أمضيت خمسًا وعشرين سنةً مع زوجتي، لم أذق طعم ولذَّة الحياة الزوجية، بل حياتنا مشحونةٌ بالمشاكل وسوء التفاهم، ففكرتُ ذات يومٍ في سبب ذلك، فقلت: لعلي أنا السبب في ذلك، ثم جلست مع نفسي لأبحث عن الخلل، فوجدْتُه كثرةَ لومي لها، وكثرةَ ما أقول لنفسي حين أرى منها سلوكًا خاطئًا: لا بدّ أنْ ألومها وأُعاتبها، ولو سكتّ لتجرّأتْ عليّ وعادتْ لهذا السلوك مرّةً أُخرى.

قال: فرأيت منها حين تركت اللوم والعتاب كلّ الاحترام والتقدير، وسارتْ حياتُنا بعد ذلك بأحسن حال.





الحذر من الإكثار من الكلام، والتساهل في إطلاق العبارات

إن قلَّة الكلام وعدمَ الإكثار من الحديث مع الناس من أفضل طُرق السلامة من الشر والهمّ والإثم.

ومَن أكثر الكلام فلا بدّ أن يقع في خطأ، أو يتسبب في أذية أحدٍ، أو يُفهم عنه ما لم يُردْه.

وقد قال رسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ كانَ يُؤْمنُ بالله والْيوْمِ الآخرِ فَلْيقُلْ خيرًا أو لِيصمُت**»[1]

فهذا هو المنهج في الكلام: إما أن تقول ما فيه نفع وفائدة في دينك ودنياك، وإلا فالتزم الصمت فهو خير لك في دينك ودنياك.

وقد قال الله تعالى: ﴿...عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾...﴾ [ق: ١٧، ١٨].

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: أَنْصِفْ أُذُنَيْكَ مِن فِيكَ، فإنّما جُعُلَ لك أُذُنَانِ اثنتان وفَمٌ واحدٌ، لتَسْمَعَ أكثرَ ممّا تقول[2]

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: اللسان قوام البدن، فإذا استقام اللسان استقامت الجوارح، وإذا اضطرب اللسان، لم يقم له جارحة[3]

وكان يقال: إذا فَاتَك الأدب فالزم الصَّمتَ[4]

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (١٨٢).
(٢) عيون الأخبار٢/٥٧٣.
(٣) موسوعة ابن أبي الدنيا ٧/ ٦٣.
(٤) عيون الأخبار ٢/٥٧٣.

وعن سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: كان يقال: الصمت زين العالِم، وستر الجاهل[(١)]

فالعالِم والعاقل لا يزيده الصمت والسكوت إلا وقارًا وسَمتا، ومكانةً وفضلًا، وأما الجاهل والأحمق، فإنه بصمته يستر جهله وحُمْقه، وعَوَره وعِيَّه.

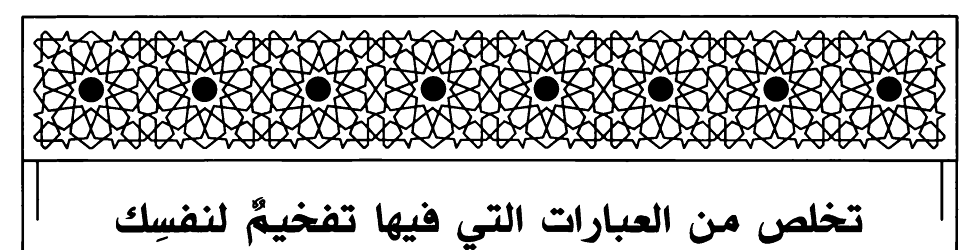
وقال أكثم بن صيفِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَقْتَلُ الرجلِ بين فَكّيهِ[(٢)]

وقال أبو بكر بن عياش رَحِمَهُ اللَّهُ: أدنى نفع السكوت السلامة، وكفى بالسلامة عافية، وأدنى ضرر النطق الشهرة، وكفى بالشهرة بلية[(٣)]

وقيل لقيس بن السكن رَحِمَهُ اللَّهُ: ألا تتكلم؟ قال: لساني سبع من السباع، أخاف أن أدعه فيعقرني[(٤)]



(١) الحلية (تهذيبه) ٢/٤٠٩.
(٢) عيون الأخبار١/٣٨١.
(٣) الحلية (تهذيبه) ٣/٨١.
(٤) الحلية (تهذيبه) ٣/٢٩٩.



تخلص من العبارات التي فيها تفخيمٌ لنفسِك

هناك عبارات تُشعر السامع أنَّك تعظم بها نفسك، والأجدر بك ألا تستعملها ولو كانت نيّتك سليمة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله عليه الصلاة والسلام في خطبة الكسوف (يا أمة محمد) ولم يقل يا أمتي: «أنه ينبغي له ـ أي: ـ للواعظ ـ حال وعظه ألا يأتي بكلام فيه تفخيم لنفسه، بل يبالغ في التواضع؛ لأنه أقرب إلى انتفاع من يسمع». اهـ(1)

ومن أمثلة كلام الواعظ والمتحدث الذي فيه تفخيم لنفسه ـ وقد لا يقصد ذلك، ولكن الأولى تركُه ـ:

١ ـ قوله حينما يتحدث عن نفسِه: نحن، فعلنا، قلنا، رأينا، رجحنا.

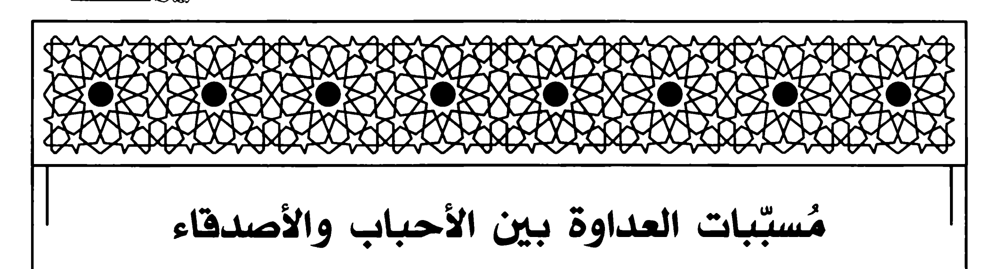
٢ ـ الإكثار من ذكر قصصه ومواقفِه.

٣ ـ توجيه النصائح للناس بعبارات لا تشمله؛ كأن يقول: افعلوا كذا، أدوا زكاة أموالكم، ربوا أولادكم، ولْيقل: لنفعل كذا، يجب أن نُؤدي زكاة أموالنا.



---

(١) فتح الباري: (٣/ ٤٩١).



مُسبّبات العداوة بين الأحباب والأصدقاء

إنَّ أقْصَرَ طريقٍ لجلب العداوة، وكسرِ رباط الأُخوَّة والصداقة: المبالغةُ في المزاح والجدال والعتاب، فبسببها وقعتِ الفرقةُ بين الأقارب والأصدقاء، وشُتِّتَ شملُ المتحابين والأخلاء، وعن طريقها حلَّ الحزنُ والوحشةُ في القلوب، ووقع الناس في الآثام والذنوب.

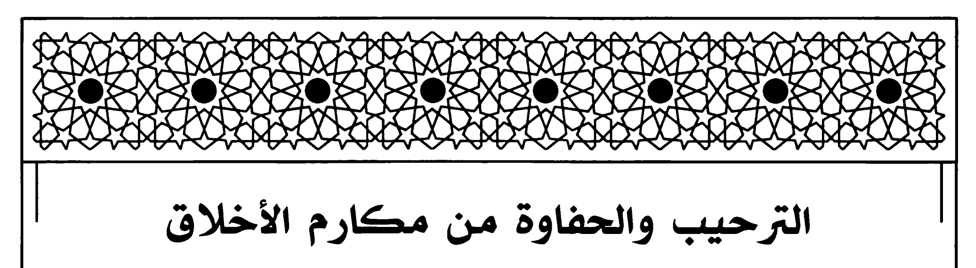
وقد جمعتُها في هذين البيتين:

أيا مَن يُريد دوام الإخاء ... عليك بلاءٍ ولاءٍ ولاء

فلا لِلْمَلَامِ ولَا لِلْمِراء ... ولا للمزاحِ فكن ذا دهاء

فإياك وكثرةَ المزاح والجدال والعتاب، مهما حصل ومهما غلب على ظنّك أنه لن تحصل مفسدةٌ من ذلك، ومن سَبَر العداوات والخصومات الحاصلة بين الأقارب والأصدقاء: وجد كثيرًا منها أو أكثرها بدأت بالمزاح أو الجدال أو العتاب، وانتهت إلى نفقِ التنافر والتقاطع.





الترحيب والحفاوة من مكارم الأخلاق

شتان بين من إذا قابلتَه قابَلَك ببرود وقحطٍ في عبارات الترحيب، التي يبخل بها عليك ويحرمك الأنس والسعادة التي تعقبها، بل هو غير محتفلٍ بك، ولا يُشعرك بالتلهّف لك، وبين من يهشّ في وجهك، وتظهر على وجهه علامات الفرح والاستبشار عند لقائه بك، ويرحِّبُ بك ترحيب محبّ، وتتسابق عبارات الترحيب والسؤال عن حالك من فمه، وتشعر بعد فراقه بأبواب السعادة والفأل قد فُتحت لك.

فالأول: لا يكون محلّ اهتمام عند الناس، ولا يحفَلون بقدومِه، ولا يحزنون لغيابه، بل حضوره وتخلّفه سيّان عندهم.

وأما **الثاني** ـ صاحب البِشر والكرم والسخاء ـ: فالنفوس تتلهّف للقائه، وتأنس بمجالسته، وتحزن لغيابه، ويشعر كلّ أحد أنه أحبّ الناس إليه، وأقربهم منه.

ومن عادة النبيّ عليه الصلاة والسلام إذا اسْتقبل أحدًا أنْ يسْتقبله بهذه الأخلاق الثلاثة:

١ ـ الترحيب به، فقد كان كثير الترحيب والحفاوة بمن يلقاه من أصحابه، جاء وفدٌ إليه فقال لهم: «**مرحبا بالقوم غير خزايا ولا ندامى**»[(١)]، وجاءت أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها فرحّب بها وقال:

(١) رواه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧).

«مرحبا بأم هانئ»[١]. ، وأقبلت فاطمة رضي الله عنها ابنته يومًا فقال لها: **«مرحبا بابنتي»**[٢]

هكذا يُرحّب بالقريب والبعيد، صلوات الله وسلامه عليه.

٢ ـ البشاشة في وجهه، فلا يكاد يلقى أحدًا إلا تبسّم في وجهه، حتى قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: ما رآني النبيّ ﷺ إلا تبسم في وجهي[٣]

٣ ـ البشارة له، فقد كان عظيم البشارة للناس، ويدخل السرور على قلوبهم، ويفتح لهم أبواب الأمل والفأل، وكان كثيرًا ما يقول للصحابة رضوان الله عليهم: أبشروا، وجاء نفرٌ من بني تميم إلى النبي ﷺ، فقال: **«يا بني تميم أبشروا»** قالوا: بشرتنا فأعطنا، فتغير وجهه، فجاءه أهل اليمن، فقال: **«يا أهل اليمن، اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم»**، قالوا: قبلنا[٤]

وقد قال الله تعالى له: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ «أي: وإذا جاءك المؤمنون فحيّهم ورحب بهم ولقِّهم منك تحية وسلامًا، وبشرهم بما يُنَشِّط عزائمهم وهممهم، من رحمة الله، وسعة جوده وإحسانه»[٥]

فهذه ثلاثُ صفات لا يتصف بها إلا الموفَّقون المكمّلون أخلاقًا.

ومِن حُسْن اسْتِقْبال النبيّ ﷺ للناس وترحيبه بهم، وبشاشته لهم: ظنّ بعضهم أنّه أحب الناس إليه، وأفضلهم عنده.

---

(١) رواه البخاري (٣٥٧)، ومسلم (٣٣٦).
(٢) رواه البخاري (٣٦٢٣)، ومسلم (٢٤٥٠).
(٣) رواه البخاري (٦٠٨٩)، ومسلم (٢٤٧٥).
(٤) رواه البخاري (٣١٩٠).
(٥) تفسير السعدي (ص: ٢٥٨).

فهذا عمرو بن العاص رضي الله عنه، حينما أسلم ـ وكان إسلامه متأخّرًا، في العام الثامن من هجرة النبي ﷺ ـ استقبله النبي ﷺ استقبالا حافلًا، وانبسط في الحديث معه، وكان يلقاه بالبشر والترحيب، كعادته مع بقيّة الصحابة رضي الله عنهم، ثم بعد أشهر قليلة من إسلامه بعثه على جيش ذات السلاسل، وأمّره عليهم، وفي القوم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فحدّث نفسه أنه لم يبعثه على الجيش الذي فيه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما إلا لمنزلةٍ شريفة وقدر كبير ومكانة عظيمة له عند النبي ﷺ، فجاءه وهو لا يشكّ أنه أحبّ الناس إليه، فأراد أنْ يسمع ذلك منه فقال له: يا رسول الله من أحبّ الناس إليك؟

فانْتَظر أن يقول: أنت، لكنه تفاجأ حينما سمعه يقول: عائشة!

فقال: إني لست أسألك عن أهلك، قال: فأبوها.

قال: ثم من؟

قال: عمر.

قال: ثم من؟ حتى عدّد رجالًا، فقال في نفسه: لا أعود أسألُ عن هذا[1]



(١) رواه البخاري (٨)، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٤٠١)، واللفظ له.



أتْقِنْ فنّ الإنصات والاستماع[1]

إنّ من محاسنِ الآداب وفضائلِ الأخلاق وجميلِ الصفات حسنَ الإنصات والاستماع؛ فهو خصلة رفيعة ومهارة عالية قلّ من يحسنها.

وقد استمع نبينا وقدوتنا ﷺ لزوجه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وهي تقصُّ عليه حديث أم زرع الطويل فأقبل عليها ولم يقاطعها ولم يحتقر حديثها، حتى إذا فرغت رفع قدرها وأسعد قلبها بقوله: «**كنت لك كأبي زرع لأم زرع**»[2].

وحينما جاءه عتبة بن ربيعة رسولًا من قريش يعرض عليه أمورًا يريد أن يصده بها عن دعوته أنصت له وأقبل عليه حتى إذا انتهى من كلامه قال له ﷺ: «**أفرغت يا أبا الوليد؟**» قال: نعم، قال: «**فاسمع مني**» الحديث.

قال الحسن بن علي رضي الله عنهما مؤدبًا ابنه: يا بُنيّ إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلَّم حسن الاستماع كما تتعلَّم حسن الكلام، ولا تقطع على أحد حديثًا وإن طال حتى يمسك.

وقال الحسن البصري - رحمه الله - «إذا جالست الجهال فأنصت لهم وإذا جالست العلماء فأنصت لهم؛ فإن في إنصاتك للجهال زيادة في الحلم، وإن في إنصاتك للعلماء زيادة في العلم».

---

(١) استفدت كثيرا من مقالة مسددة للأستاذ الدكتور إبراهيم بن صالح بن عبد الله الحميضي جزاه الله خيرًا.

(٢) رواه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨).

والناس يحبون من يسمع لهم، ويقدر آراءهم ويشعرهم بأهميتهم، والمستمع الجيد يكسب المزيد من المعلومات، ويفهم النفسيات، ويعرف الحاجات، ويَسْلَم من كثير من الآفات والفلتات، وينجح في بناء الصداقات والعلاقات، ويسمو في أعين الأفراد والجماعات، والإنصات والاستماع فن ومهارة له قواعد وأصول وآداب.

فمن آدابه وقواعده:

١ ـ أن تُقبل على المتحدث بوجهك وتتواصل معه بعينك، وتشعره بأنك مستوعب لما يقول بالكلام تارة وبالحركة تارة، كأن تقول: نعم، صحيح، جيد، وتهز رأسك علامةً على قبول كلامه وفهمه.

٢ ـ عدم المقاطعة إلا عند الضرورة، وعدم إشعار المتحدث بأنك تعرف ما يقول.

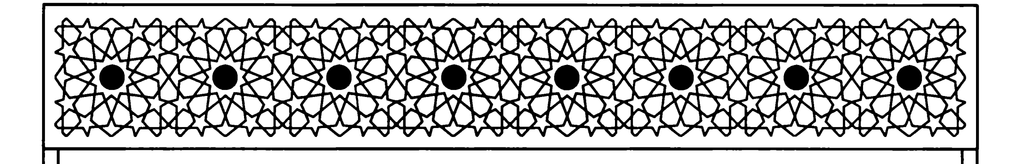
كان جماعة من الناس عند عطاء بن أبي رباح رَحِمَهُ اللَّهُ فتحدث رجل بحديث فاعترض له آخر في حديثه، فقال عطاء: «سبحان الله ما هذه الأخلاق؟ ما هذه الأخلاق؟ إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم منه به، فأريه أني لا أُحسن منه شيئًا».

٣ ـ عدم الانشغال عن المتحدث بالبدن أو الفكر، أو باستخدام الجوال ونحوه، أو الاستماع بنية الرد.

وفي كثير من الأحيان يكون كلُّ ما نحتاجه هو وجود أحدٍ يستمع إلينا، فهذا هو الذي يفتح الباب للثقة والمحبة.

ويعد الاستماع والإصغاء من أهمّ أدوات حلّ المشاكل الزوجية والأسرية وغيرها.

إنّ إنصاتك لمن يشكو لك ما يلْقاه من زميله أو مديره يُخفّف عنه الحمل والعبء العظيم، ويضع الكثير من الهموم عن كاهله، وبذلك تحسّن نفسيّته، ويعتدل مزاجُه، مع الحذر من غيبته.



الصبر

الصبر: هو حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوهما.

والصبر جندٌ لا يُهْزم، وحصنٌ حصين لا يُهْدم، والنصر على النفس والهوى وشياطينِ الإنس والجن مع الصبر، وهو أنصر لك من الرجال، وخير ما أُعطيتَ، قال رسول الله ﷺ: «**وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع مِن الصبر**»[1]، والله تعالى يُوفّي الصابرين أجرهم بغير حساب، وأخبره أنه معهم بهدايته، ونصره، وتمكينه، فقال الله تعالى ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾.

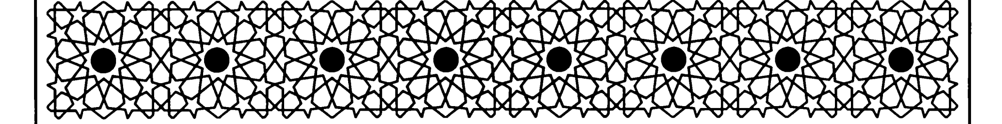
فمَا خاب صابرٌ لله قط، ولا يزال في رفعة وقوة ما دامت روحه في بدنه.

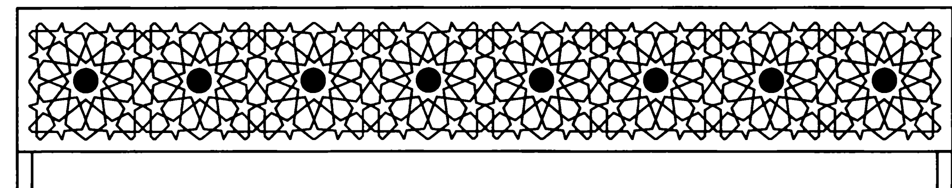
والعزّ والحقّ والمجد لا يعيش في هذه الحياة إلا خاضعًا للقوّة، فكن قويًّا مع نفسك، شجاعًا في قراراتك: تبلغ الغاية في حسن تعاملك، والكمال في حسن أخلاقك، وتُوهب لك إرادةٌ سامِقةٌ تُعانِق في سموّ أهدافها الجوزاء، وتُضاهي الصخور الصمّاء في قوتها وعزّتها وثباتها أمام رياح الهوى والطيش.

وإليك ما يُعينك على الصبر، جعلنا الله من عباده الصابرين:

---

(١) رواه البخاري (١٤٦٩).





مفتاح حسن الخلق وفن التعامل: الصبر

أتدري ما هو خير وأوسع ما أُعْطيَه الإنسان؟

يجيبك على هذا أعلمُ الخلق بالله وأنصحهم وأفصحهم رسولُ الله ﷺ: «**ما أُعطِيَ أحدٌ عطاءً خَيْرًا وأوسعَ من الصَّبْر**»[١]

حتى قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو علم العبد الكنز الذي تحت هذه الأحرف الثلاثة ـ أعني اسم الصبر ـ لما تخلف عنه.

فالصبر سبب في حصول كل كمال، فأكمل الخلق أصبرهم، ولم يتخلف عن أحد كماله الممكن إلا من ضعف صبره؛ فإن كمال العبد بالعزيمة والثبات، فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص، ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص.

فإذا انضم الثبات إلى العزيمة أثمر كل مقام شريف وحال كامل، ولهذا في دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد**»[٢]

ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلا على ساق الصبر». اهـ[٣]

وما أجمل ما قاله ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعلم أنّ نفسَك بمنزلة دابّتك، إنْ عرَفتْ منك الجدّ جدّت، وإنْ عرفتْ منك الكسل طمعت فيك،

---

(١) رواه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

(٢) رواه الإمام أحمد (١٧١١٤)، والنسائي (١٣٠٤)، وحسنه محققو المسند.

(٣) طريق الهجرتين (ص: ٥٦٦).

وطلبتْ منك حظوظَها وشهواتها. اهـ[١]

وهذه القاعدة هي المفتاح للدخول إلى عالم النفس العجيبة الغريبة الغامضة، وتزيل إشكالًا قد يرد على بعض الناس، وهو: ما سرّ نشاط بعض الناس من أصحاب الهمم والعزائم وعدم تعبهم فيما يسعون إليه، وغيرهم يُصاب بالكسل والخمول، ولا ينجز كما أنجز هؤلاء؟

فيا لها من قاعدة قد أثبتها وقْع الواقع، وصدقتها جحافلُ التجارب.

ومن أسرار هذه القاعدة العظيمة: أنّ النفس إذا رأت منك الطمع والميل إلى شيء ألحَّتْ عليك وصرفت ذهنك إليه، وإن رأت منك صدودًا وإعراضًا: أعرضت وتركت الإلحاح.

«كان أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: كنت بالعراق، أمر عَلَى تلك القصور والمراكب والملابس والمطاعم التي للملوك، فلا تلتفت نفسي إِلَى شيء من ذلك، وأمر عَلَى التمر، فتكاد نفسي تقع عليه، فذكرتُ ذلك لبعض العارفين فَقَالَ: تلك الشهوات آيَسَ نفسَه منها فآيَسَتْ، والتمرةُ أطْمَعَها فيه فطمِعَت، كما قيل:

صبرتُ عَلَى اللذات حتى تولت ... وألزمتُ نفسي هَجْرَهَا فاسْتَمَرَّتِ
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى ... فإنْ أُطْمِعت تاقت لها وإلا تَسَلَّتِ
وكانت عَلَى الأيام نفسي عصيّة ... فلما رأت عزمي عَلَى الذُّلِّ ذَلَّتِ»[٢]

فمتى رأت منك نفسك الرغبة في شيء رغبت، ومتى رأت منك القناعة قنعت، وصدق القائل:

---

(١) الجامع المنتخب من رسائل الحافظ ابن رجب: ١٩٧، مع شيء من التصرف.
(٢) المصدر السابق: ١٩٧.

وَالنَّفْسُ راغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَها وإِذَا تُرَدُّ إِلى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

والرغبة محمودة إلا في الرذائل، والقناعة محمودة إلا في الفضائل.

فيا مَن تشكو مِن خُلق وطبع صعب عليك إصلاحه: اعزم على إصلاحه بكل ثبات وصرامة، وستجد نفسك بعد ذلك تنقاد لك، ولا تُفكر فيها أبدًا.

ويا من تشكو ضعف الهمة، وفتور العزيمة: اجمع قواك على العزيمة فيما تصبو إليه، واثبت على هذه القوة والإصرار مدة يسيرة من الزمن، قد لا تتجاوز أيامًا: وسوف ترى العجب العجاب، في تغير همتك وإرادتك نحو الأفضل، وستلاحظ في نفسك نشاطًا لم تعهده.

واعلم أن ملاك ذلك كلّه: الصبر، ولأجل ذلك ذُكر الصبرُ في القرآن في نحو تسعين موضعا أمرًا به، أو ثناء على أهلِه، أو جزاءً لهم.

وقد جاء الوعد الصادق أنَّ النصرَ مع الصبر، وثبت بتجارب الأبطال أنّ الظّفر بالنّصر صبرُ ساعة.

وكذلك الانتصار على النفس والشيطان صبر ساعة.

وكسب الصفات الحسنة من الحلم والكرم والإيثارِ صبر ساعة.

وصدق القائل:

إنّي رأيتُ وفي الأيامِ تجربةٌ للصَّبرِ عاقبةً محمودةَ الأثرِ
وقلَّ مَنْ جدَّ في أمرٍ يحاولهُ واستصحبَ الصَّبرَ إلّا فازَ بالظَّفرِ(١)

وإليك هذا الموقف الذي يتكرر مثله كثيرًا لعموم الناس: قال أحد طلاب العلم: «قمت كعادتي لصلاة الوتر، وسوف أسافر إلى الرياض

(١) العقد الفريد: ١/ ٢٠١.

فجر هذا اليوم، فجاءني الشيطان وقال: أكمل نومك، فوراءك سفر طويل، ووالله كأني أشعر بمخاطبته شعورًا واضحًا، ونفسي متثاقلةٌ عن القيام لأني نمتُ متأخرًا، ولكن حينما سمعت هذا الوسواس الشيطاني: تعوذت بالله من شره، وعزمت بقوة على القيام، فذهب الخمول والكسل، وشعرت بالنشاط وعزة الانتصار على النفس والشيطان، وقمت ليلةً لذيذة مع القرآن، بين يدي الكريم الرحيم تبارك وتعالى».

فالنفس تحتاج إلى صبر ثوان معدودةٍ للانتصار على الشيطان والنفس الأمارة بالسوء.

إنَّ الفاصل بين الانتقام والكلام الفظّ وبين المسامحة والرفق بالكلام: عزيمةٌ صادقةٌ لا تتجاوز خمس ثوان! فهلا صبرت هذه الثوانيَ المعدودة لأجل الله تعالى؟ هلا صبرت هذه الثوانيَ لتنتصر على الشيطان الرجيم؟ ولِتُدْرِك مطلوبك؟

وإنَّ صبرَك هذه الثواني اليسيرة على التخلّق بالأخلاق الحسنة وترك الأخلاق السيّئة: أهون ـ ولا مقارنة ـ من صبرك على الآلام والأضرار التي تعقب انتقامك وعنفك في كلامك وتصرفاتك، وأهون من حرّ نار جهنم نجانا الله منها بمنّه وكرمِه.

إنّ العزيمة الصادقة لله وبالله ﷻ: هي أقوى سلاح تنتصر به على نفسك الأمارة بالسوء، وعلى الشيطان الذي أقسم الأيمان المغلظة ليُغوينّك.

إنّ الصبر في هذه اللحظات اليسيرة يعْقبهُ شعورٌ عجيب عظيم بالفرح في الانتصار على النفس والهوى والشيطان، وشعور بالعزة والقوة والأنفة والقرب من الله تعالى.

إنّ الصبر في هذه اللحظات اليسيرة هي التي أنجت العديد من

العظماء والصالحين من الوقوع في الفتن التي حلّت بهم، فما بينهم وبين الوقوع في الفتن ورذائل المعاصي من الشبهات والشهوات إلا صبر هذه اللحظات.

فاصبر بضع ثوانٍ حين يدعوك الشيطان إلى الحقد، أو الغضب، أو قطيعة مسلم، أو البخل، وذق طعم هذا الصبر طيلة حياتك، وسوف تجد لهذا الصبر من حسن العاقبة، وطيب العيش، والرفعة والتوفيق والسعادة.

إنّ الذي صبر في هذه اللحظات اليسيرة: قد عوضه الله اللذة والمتعة والأنس في الجنة خالدًا مُخلّدًا فيها، ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

كن كالصخرة الثابتة في البحر، تضربها موجاتٌ عاتيةٌ إثر موجات، وكلّ موجة في ساعتها مثل الجبل، فترتدّ الأمواج وتُهزم أمام ثباتها ورسوخها.

فالمصائب، وأذى الناس، وسوء تصرفاتهم وأخلاقهم تُرى في وقتها كبيرة، فإن ضربتك وأنت قليل الصبر، ضعيف الإرادة آذتك وربما قتلتك، وإن ضربتك وأنت عظيم الصبر، قوي الإرادة رجعت خائبة حسيرة ذليلة، وبَقِيْتَ أنت لا أقول كما كنت، بل أعظم صبرًا، وأقوى إرادة وتحمّلًا، فالمصائب لا تزيد المؤمن العاقل إلا ثباتًا وقوة، وعزة وصبرًا.

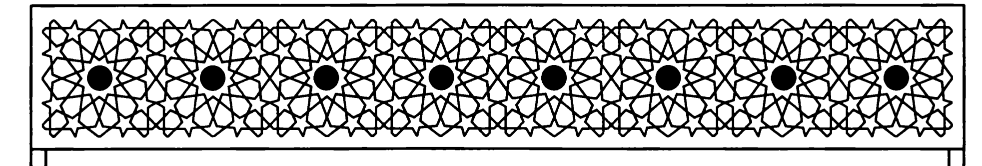
واعلم أنّ من ترك شهوة الانتقام والغضب والكلام الفظ وغيرها من الأخلاق الرديئة لم يكن فاقدًا للشهوة، ومن كان كريمًا باذلًا لم يكن كارهًا للمال، ومن أرغم نفسه على الصبر على نيل معالِي الأمور لم يكن كارهًا للراحة وإجمام النفس.

ولكنَّ الفرق بين هؤلاء وبين غيرهم: أنهم تغلّبوا على شهوات النفوس وحظوظها، وخالفوا الهوى كلّما كان صادًّا عن الهدى.

«وينبغي للعاقل أنْ يتمرَّن على دفعِ الهوى المأمونِ العواقبِ لِيَتمرَّن بذلك على ترك ما تُؤذي عواقبُه»[1]، فإذا رأى نفسَه تهوى أمرًا لا مصلحة فيه: فلْيعوّدها على مُخالفة هواها، كمن يهوى الشهرة، والجاه.



(١) روضة المحبين: ٤٦٨.



هناك أمور إذا شهدتها بقلبك أعانتك على الصبر على أذى الناس وجنايتِهم عليك

المصائب التي يقدرها الله تعالى علينا قد يُجريها على أيدي الناس، وقد يُجريها على غيرهم، فينبغي علينا أن نصبر على جميع هذه المصائب، وأنْ نعلم أنّها من تقدير العزيز العليم.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **عدّةَ أسباب تُعِينُك على الصبر على أذى الناس وجنايتِهم عليك:**

أحدُها: مشهد القَدَر، وأن الذي جرى عليك بمشيئة الله وقضائه وقدره، فاجعل ذلك كالتأذي بالحر والبرد، والمرض والألم، وهبوب الرياح، وانقطاع الأمطار؛ فإنَّ الكلَّ أوجبته مشيئة الله، فما شاء الله كان ووجب وجودُه، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده.

وإذا شهد هذا: استراح، وعلم أنه كائنٌ لا محالة، فما لِلْجزع منه وجْهٌ، وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت.

المشهد الثاني: مشهد الصبر، فيشهده ويشهد وجوبَه، وحسنَ عاقبته، وجزاءَ أهله، وما يترتب عليه من الغِبطة والسرور.

ويكفي في فضل صبرك على أذى الناس: أنّ الله تعالى يُوَفِّيك الأجر الوفير يوم القيامة بغير حساب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

وأنك تفوز بمحبة الله لك، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾.

وأنّه تعالى معك حين صبرِك، يحفظك، وينصرك، ويُؤيِّدك، قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾.

المشهد الثالث: مشهد العفو والصفح والحلم، وما فيه من الحلاوة والطمأنينة والسكينة، وشرفِ النفس وعزها ورفعتها عن تشَفِّيها بالانتقام.

وما انتقم أحدٌ قَطُّ لنفسه إلّا أورثَه ذلك ذُلًّا يجده في نفسه، فإذا عَفا أعزَّه الله تعالى، وهذا مما أخبر به الصادق المصدوق حيث يقول ﷺ: «**ما زاد الله عبدًا بعَفْوٍ إلّا عزًّا**»(١)

فالعزّ الحاصل له بالعفو أحبّ إليه وأنفع له من العَزّ الحاصل له بالانتقام؛ فإنّ هذا عِزٌّ في الظاهر، وهو يُورِث في الباطن ذُلًّا، والعفوُ ذُلٌّ في الباطن، وهو يورث العزَّ باطنًا وظاهرًا.

المشهد الرابع: مشهد الرضى، وهو فوق مشهد العفو والصفح، وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة، لا سيما إنْ كان ما أصيبتْ به سببُه القيامَ لله، ومن لم يرض بما يصيبه في سبيل محبوبه فلينزل عن درجة المحبة، وليتأخر فليس من ذا الشأن.

المشهد الخامس: مشهد الإحسان، وهو أرفع مما قبله، وهو أن تُقابل إساءة المسيء إليك بالإحسان، فتُحسن إليه كلَّما أساء هو إليك.

فيا من آذاك أحدٌ من الناس، إنك قد ربحت عليه؛ لأنه قد أهدى إليك حسناتِه، ومحاها من صحيفتِه، فينبغي لك أن تشكره وتحسن إليه.

واعلم أنَّ الجزاءَ مِن جنس العمل، فإنْ عفوت عمَّن أساء إليك وأحسنت إليه، فسيعفو اللهُ تعالى عنك، في يومٍ أنت أحوجُ ما تكون فيه إلى العفو والمغفرة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المشهد السادس: مشهد السلامة وبَرْد القلب، فلا تُشغل قلبَك وخاطرك بما نالك من الأذى وطلبِ الثأر، وشفاءِ نفسِك، بل فرِّغْ قلبك من ذلك، وسترى أنَّ سلامتك وصفاء ذهنِك أنفع لك وألذُّ وأطيب.

المشهد السابع: مشهد الأمن، فإنك إذا تركتَ المقابلة والانتقام: أمِنت ما هو شرٌّ من ذلك، ولابد أنَّ عفوَك وحلمَك وصفحَك، سيُخفف حقدَ عدوك، ويكف من غيظِه، بعكس الانتقام، فإنه يزيد الشرّ والحقد والعداوةَ والفرقة.

المشهد الثامن: مشهدُ النعمة، فأنت في نعمةٍ عظيمةٍ حينما يصلك الأذى من الناس، وذلك من وجوه:

أحدها: أن تشهد نعمة الله عليك في أن جعلك مظلومًا تترقب النصر، ولم يجعلك ظالما تترقب الْعقابَ والأَخْذ، فلو خُيِّر العاقل بين الحالتين ولابد من إحداهما، لاختار أن يكون مظلومًا.

ومنها: أنْ تشهدَ نعمةَ اللهِ في التكفيرِ بذلك مِن خطاياك، فإنه ما أصاب المؤمنَ همٌّ ولا غمٌّ ولا أذى إلا كفَّر الله به من خطاياه، فلذلك في الحقيقة دواء يُستخرج به منك داءُ الخطايا والذنوب.

ومنها: أن تشهد كون تلك البليِّة أهونَ وأسهلَ من غيرها، فإنه ما من مِحنة إلا وفوقَها ما هو أقوى منها وأمَرّ.

ومنها: توفيةُ أجرِها وثوابِها يوم الفقر والفاقة.

وفي بعض الآثار: أنه يتمنى أناس يوم القيامة لو أن جلودهم كانت تُقرَض بالمقاريض؛ لِمَا يرون من ثواب أهل البلاء.

وإن العبد ليشتدُّ فرحه يوم القيامة، بما له على الناس من الحقوق في المال والنفس والعرض، فالعاقل يَعُدُّ هذا ذُخرًا ليوم الفقر والحاجة، ولا يُبطله بالانتقام الذي لا يُجدي عليه شيئًا.

المشهد التاسع: مشهد الأُسْوة، وهو مشهد شريف لطيف جدًا، فإن العاقل اللَّبيب يرضى أنْ يكون له أسوةٌ برُسُل الله وأنبيائه وأوليائه، وخاصته من خلقه؛ فإنهم أشد الخلق امتحانًا بالناس، وأعظمهم صبرًا على أذاهم.

فيا من آذاك أحد إخوتك، أما ترضى أن يكون يوسفُ عليه السلام أُسوتك وقدوتك، وهو الذي صبر على أعظم الأذى من إخوتِه؟

ويا من آذاك أحد أصدقائك أو أقارِبك، أما ترضى يكون أُسوتك وقدوتك ذاك النَّبِيَّ الذي ضَرَبَهُ قَوْمُهُ حتى خرج منه الدم، فجعل يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»[1]

أفلا ترضى أن يكون لك أسوةٌ بخيارِ خلق الله، وخواصِّ عباده وأوليائِه؟

«وإذا كان هذا خير خلق الله وأكرمهم على الله لم يَنتقِمْ لنفسِه قَطُّ، مع أنَّ أَذَاه أَذَى الله، ويتعلّقُ به حقوق الدين، ونفسُه أشرفُ الأنفُس وأزكاها وأبرُّها، وأبعدُها من كلّ خُلُقٍ مذموم، وأحقُّها بكل خُلُقٍ جميلٍ، ومع هذا فلم يكن يَنتقِم لها، فكيف يَنتقِمُ أحدنا لنفسِه التي هو أعلم بها وبما فيها من الشرور والعيوب؟

بل الرجل العارف لا تُساوِي نفسُه عنده أنْ ينتقم لها، ولا قدرَ لها عنده يُوجِبُ عليه انتصارَه لها»[2]

المشهد العاشر: أن تشْهَد ذُنُوبَك، وأنّ الله إنما سلَّطهم عليك بذنبك، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾﴾.

---

(١) رواه البخاري (٦٩٢٩)، ومسلم (١٧٩٢).

(٢) جامع المسائل: ١/ ١٧١.

فإذا شهد العبدُ أن جميع ما يناله من المكروه فسببُه ذنوبُه: اشتغلَ بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي سلَّطهم عليه بسببها عن ذَمِّهم ولَومِهم والوقيعةِ فيهم.

وإذا رأيتَ العبدَ يقع في الناس إذا آذَوْه، ولا يَرجع إلى نفسِه باللوم والاستغفار: فاعلمْ أنَّ مصيبتَه مصيبةٌ حقيقية، وإذا تاب واستغفر وقال: هذا بذنوبي، صارتْ في حقّهِ نعمةً[1].

وخلاصة القول: لا تلتفت إذا أذى الناس وتقصيرهم في حقّك، وأوكل جميع شؤونك إلى خالقك، الذي بيده نواصي الناس كلهم، فلو شاء لعطفهم عليك، وسخرهم لك.

وإليك هذا المشهد العظيم حقًّا، الذي عظّمه ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ وأكْبره وأجلَّه، حتى أحْجم عن التصريح به، واكْتفى بالمثال عليه، وذكر أنّ العبارة تجفو عنه، وأنّ الإشارة إليه بعض الإشارة..

وهو أن تُوْقن حقّ اليقين وتشهد بقلبك انفرادَ الله تعالى بالخلق، وأنَّ ما يحصل من خير وشرّ، ونفع وضرّ إنما هو بمشيئة الله وتقديره وعلمِه، وجرى به قلمُه، وهذا يفتح لك باب الاسْتعاذة به في كلِّ أمورك، ودوامَ الالتجاء إليه والافتقار إليه في كلّ شؤونك، ومتى فُتح لك هذا الباب: قرّبك ربك الرحيم الودود من عتبة العبودية، وطرحك عند بابه فقيرًا عاجزًا مسكينًا، لا تملك لنفسك ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

ويكون دَأَبُك وشغْلُك الشاغل بعد ذلك في البحثِ عن عيوب نفسِك وأعمالِها، التي بسببها سُلّط عليك، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ

---

(١) مدارج السالكين: ٢/٣٠٣ ـ ٣٠٧، جامع المسائل: ١/١٦٨ ـ ١٧٤، بتصرّف.

أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾، فما أصابك هو بعض ما اقترفَتْه يداك.

فإذا أُصبت بمصيبة، أو تسلّط عليك عدوّك، أو جفاك صديقك، أو عقّك ولدك، أو كرهك حبيبك: شهدت بقلبك تسلّط عدوّك الشيطاني أو الإنسيّ عليك، وأنت مع ذلك ملتفتٌ إلى ربك وناصرِك ووليك، عالمٌ بأنّ نجاتك في يديه، وناصيته بين يديه، وأنه لو شاءَ لأعانك وخلَّصك من يديه، فتتضرع إليه وتتذلّل بين يديه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا مشهد عظيم المنفعة، جليل الفائدة، تحته من أسرار العبودية ما لا يناله الوصف.

وفوقه مشهد أجلُّ منه وأعظم وأخصّ، تجفو عنه العبارة، وإنَّ الإشارة إليه بعضُ الإشارة، وتقريبُه إلى الفهم بضرب مَثل تَعْبُر منه إليه». اهـ.

وهو شهودك أنّ كل مصيبة وبليّة فالله الرحيم العليم الحكيم قَصَدها وساقها إليك، واختارك لها من بين الناس؛ ابتلاء واختبارًا لك؛ لينظر صبرَك عليها، ورضاكَ به، وتوجّهك والْتفاتَ قلبك حينها يكون لمن؟

وهو لم يصرّح بهذا المشهد، ولكن ذكر مثالا لتستوعب العقول فهمه، واللبيب بالإشارة يفهم، ذكر أنّ مثَلَه مَثَل عبدٍ مملوكٍ لدى سيّد غنيّ كريم محبّ له، مُشْفق عليه، فأخذه بنفسِه، وقدَّمه ليضرب عنقه بيده، فأَحْكم رَبْطه وأغْمَض عينيه، وقد أَيقن العبد أنه في قبضته، وأنه هو قاتله لا غيره، وقد علم مع ذلك برَّه به ولطفَه ورحمتَه ورأفتَه وجودَه وكرمَه، فجعل يناشده ويتوسّل إليه بأوصافِه، ويَدْخل عليه به: يا سيدي، أنت المشفق علي، والرؤوف بي، والكريم علي، والمحسن إلي، قد أُغلِقت عليّ الأبواب إلا بابك.

قد انْقَطَعت كلّ السُّبل لنجاته إلا السبيل إليه، وتلاشت فرص الحياة إلا من قِبَله، وذهب عن خاطره وفِكْرِه كلُّ سبب، فانقطع تعلُّقه بكلّ شيء إلا به، فهو مُعْرِض عن عدوِّه الذي سلّطه سيّدُه عليه عقوبةً أو ابتلاءً واختبارًا لصبره وقوة محبته له، وتعلّقه ورضاه به.

فحاله كحال من جاءته مصيبةٌ ومحنةٌ على يد عدوٍّ من الإنس أو الجنّ، فهو يعلم أنّ الله تعالى هو الذي سلّط ذلك العدوّ، فهو مشغول بالتوبة والرجوع إلى الله، وطَلَبِ العون منه، ولم ينشغل بالطعن في عدوه، وسبِّه وعيبه.

وكحال من غلَبَتْه شهوته أو غضبُه فعصى الله تعالى، فهو يعلم أنّ الله هو الذي سلّط الشيطان عليه وتغلَّب عليه، فهو مشغول بالتوبة والإنابة والاستغفار، ولم ينشغل بلوم الشيطان المتسبب بذلك.

وهو بمنزلة من قد أخذه محبوبُه وجعَل يخنقه، وهو لا يشهد إلا خَنْقَه له، فهو يقول: اخنق خنقك، فأنت تعلم أن قلبي يحبك[1]

وإذا تأملت ما ذكره رحمه الله وعَمِلْت به: تغيّرتْ حياتك وعشت في جنَّةِ الأنس والسعادة، وزالت همومك وغمومك تجاه ما تراه من تسلّط الأعداء عليك أو على غيرك، وتغيَّرت نظرتك تجاه المصائب وأذى الناس، وتسلّطِ الشيطان عليك بإضعاف همّتك، واتباع هواك في الشهوة والغضب.

وكلما صدق العبد مع الله: انقطع إليه حتى في أحْلَكِ الظروف، ولم ينشغل بعدوه وخصمه عنه، وإذا ابتلي بولد عاق، أو زوجة ناشز، أو صديق خذَله، أو عدوٍّ تسلَّط عليه، أو حاكم ظلمه: لم ينشغل قلبُه

(١) طريق الهجرتين بتصرف (ص: ٣٨٢ ـ ٣٨٤).

وفكرُه بالدفاع عن نفسِه، وسبِّ عدوّه، وعتاب صديقه وولده وزوجته، بل يشهد أنّ الله تعالى هو الذي سلّطهم عليه لحكمةٍ يراها ويعلَمُها.

فسلّم أمرك لله، واسْأله أنْ يكفيَك شرّ عدوّك الذي قدَّر الله الكريم الرحيم بك تسليطه عليك، وأنْ يهدي ابنك الذي ابتلاه بالمعاصي والكسل واتّباع الهوى، وأنْ يصلح زوجتك التي قضى بحكمته أنْ يصدّها عنك، وأنْ يرد عليك صديقك الذي قدَّر عليه أن يجفوك وينْبُو عنك، فلا تُعاتب ولا تُحاسب، واترك الانتقام لنفسك، ولا تنتقم لها ولا تُدافع عنها لله، ومتى فعلت ذلك دافع الله عنك وانْتقم لك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن صبرَ (على أذى الناس) فاللهُ ناصرُه ولابُدَّ، فاللهُ وكيلُ من صَبر، وأحالَ ظالِمَه على الله، ومن انتصَر لنفسِه وكلَهُ اللهُ إلى نفسِه، فكان هو الناصر لها، فأينَ مَن ناصِرُه اللهُ خيرُ الناصرين إلى مَن ناصِرُه نفسُه أعجز الناصرين وأضعفُه؟ اهـ[1].

وقد كان الأنبياء ـ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ـ يجادلون أممهم عن أنفسهم ويُدافعون عنها؛ كقول نوح: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ﴾ فقال مُدافعًا عن نفسه: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾.

وقال قوم هود: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ فقال: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾.

وقال فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۝١٠١﴾ فقال موسى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ۝١٠٢﴾.

وأما نبينا ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فلم يكن يُجادل عن نفسه ويُدافع عنها إذا سبّه

(١) جامع المسائل لابن تيمية ١/ ١٧٢.

المشركون واتّهموه، بل كان منشغلًا في تبليغ رسالة ربّه، ودعوة الناس إلى دينِه، وقد باع نفسَه لله تعالى، ووَكَل أمره كلّه لله، وترك أمْرَ الناس له، فتولى الحق سبحانه المجادلة عنه، فلما قالوا: هذا شاعر قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾، ولما قالوا: كاهن قال الله تعالى: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾، وقالوا: ضل فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾، وقالوا: مجنون فقال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ حتى قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[1]

بل إنه استحيا أن يأمر الناس ألا يدخلوا بيوته بغير إذنه، وأن يخرجوا منها إذا طعموا، فقال الله مبيّنًا حقّه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

وتأمل كيف لم يُسمَع منه ﷺ كلمة واحدة يلومُ بها الرماة الذين أمرهم يوم أحد بأن يكونوا فوق الجبل، ونهاهم أشد النهي عن النزول، سواء انتصر المسلمون أو انهزموا، وقال لهم بكلّ وضوح: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا، حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم فلا تبرحوا حتى أُرسل إليكم»، رواه البخاري، ومع ذلك نزل أغلبهم وتركوا الجبل، فكان ذلك سببًا في هزيمة الجيش، وقتلِ العشرات من الصحابة، وأذى النبي ﷺ.

والعجيب كذلك: أنه ﷺ لم يذكر هذا الموقف ولو مرة واحدة، فهذا يدل على كمال تعلّقه بالله، وإيمانه التامّ بأنه هو الذي قدّر هذا الأمر، فصرف قلبه إليه، ولم ينشغل بغيره ما دام الأمر قد قُدّر وانتهى.

(١) لوامع الأنوار البهية للسفاريني نقلا عن ابن الجوزي ـ بتصرف ـ: ٧/ ٢٩٧.

فمتى علم الله تعالى كمال افتقارك إليه في كلّ شؤونك، وعدم التفاتِك إلى حظوظ نفسك، وانتقامك لها: تولّى شؤونك بتمام التوفيق والإعانة والبركة والتسديد.

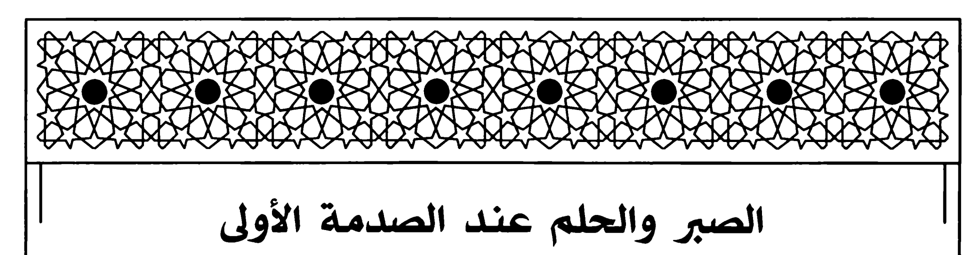
ولن يُخيّب الله تعالى عبدًا رأى قلبه قد انقطع إليه، واتّكل عليه، وفوض كلّ أمورِه إليه، وأحسن ظنَّه به، وزهد بما عند الناس، وطمِع فيما عنده، وخافه ولم يخفْ أحدًا معه، وأحبَّه ولم يُحبّ أحدًا معه، ورجاه ولم يرج أحدًا معه، ويُصبح ويُمسي، وينام ويستيقظ وهمّه وشغله وغايته رضى الله.

لن يخذل هذا الذي تولاه ويُسْلِمه لأعدائه ليتسلّطوا على قلبِه ودينه، وإنْ تسلّطوا بعض التسلّط على جسده أو ماله، وصدق الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

فهنيئًا لكلٍّ من أُوذي فعفا وغفر، هنيئًا لكل من سمع من غيرِه كلامًا جارحًا فكتم غيظه وصبر، هنيئًا لكل من اختار المسامحة على المقاطعة، واختار الحلم على الجهل، واختار الرفق على العنف، واختار البشاشة على العُبوس، وقدّم التآلف على التدابر، وقدم مصلحة الجماعةِ على مصلحة نفسِه.

هنيئًا له هذه الفضائل العظيمة، التي يخسرها من لا يحتمل أذى الآخرين، فينتقم لنفسه ويرى ذلك عزةً وحفظًا للكرامة، وكأن الأنبياء والصالحين لا كرامة لهم، حينما عفوا وصفحوا وتركوا الانتقام لأنفسهم.





الصبر والحلم عند الصدمة الأولى

مرّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال لها ناصحًا وواعظًا: «اتقي الله واصبري» قالت: إليك عني، فإنك لم تُصَبْ بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها بعد أن ذهب: إنه النبي ﷺ، فأخذها مثل الموت من الخوف والندم على ما قالت، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»[1]

أي: إنما الصبر الكامل الذي يترتب عليه الأجر الجزيل لكثرة المشقة فيه إنما يكون عند أول وقوع المصيبة الذي يصدم القلب فجأة.

وأكثر من يُصاب بمصيبة يزول أو يخفّ جزعه، ويذهب عنه الحزن والألم بعد ساعات أو أيام، ولا يكون حينها من أهل الصبر ما لم يصبر عند أول المصيبة، وبداية الألم.

وكما أن الصبر عند الصدمة الأولى، فمن لم يصبر عند أول هول المصيبة فلا يعدّ صابرًا، فكذلك الحلم عند الصدمة الأولى، فمن لم يحلم ويكظم غيظه عند أول الأمر الذي يُثير غضبه فلا يُعدّ حليمًا.

فجاهد نفسك على الصبر والحلم عند أول الصدمات مهما عظمت.

ومما يُعينك على الصبر عند المصيبة: علمك أنّه لن يصيبك إلا ما كتب الله لك، وأن كل ما قدره الله عليك خيرٌ لك.

---

(١) رواه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).

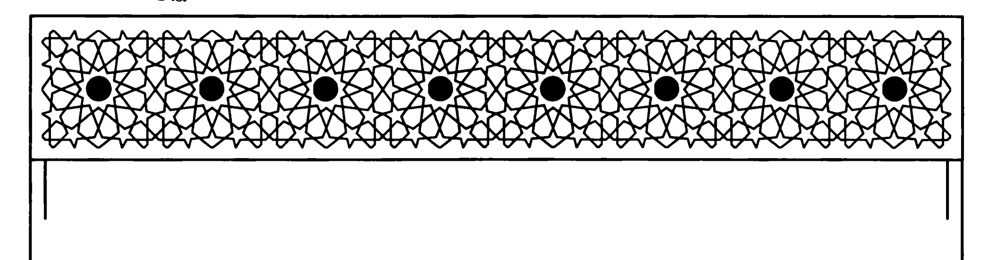
ومما يعينك على الحلم: الْتماس العذر للذي أغضبك، واستحضارك الأجر العظيم على كظم غيظك.

ومن لم يكن صبورًا حليما فهو خفيف العقل؛ وأيّ خفة أشد من ذلّ الجزع وطيش الغضب؟

وما قيمة العقل إذا لم يُسعف صاحبه عند الحاجة إليه؟

والعقول يُعرف وزنُها ورجاحتها عند البلاء لا عند الرخاء، فما أكثر العقلاء عند الرخاء، وما أندرهم عند البلاء.

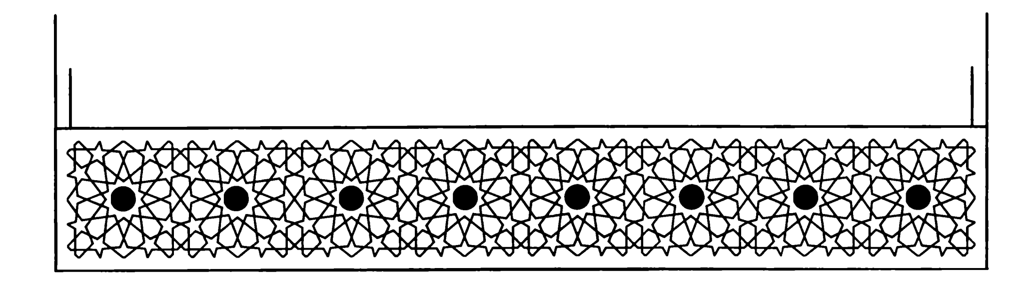


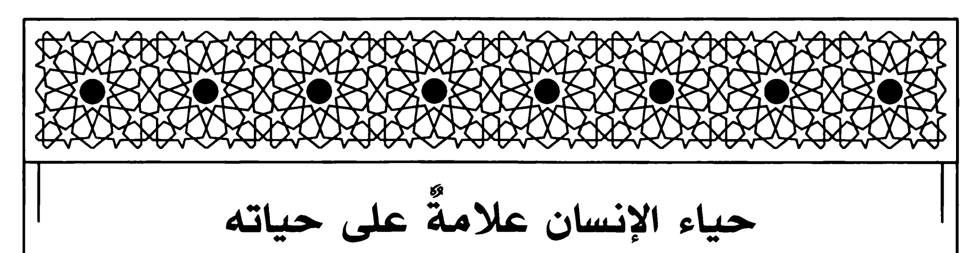


الحياء والاحترام والأدب

الحياء خلق شريف، متى ما اتَّصفت به انتظمتْ على إثْرِه أخلاقٌ عظيمة كثيرة، كالاحترام، والأدب، والعدل، والإنصاف، وهذه الأخلاق الثلاثة لا يتصف بها إلا النبلاء العظماء.

وسأفصل فيها بمشيئة الله تعالى:





حياء الإنسان علامةٌ على حياته

الحياء: مادة حياة القلب، وهو أصل كل خير، وذهابه ذهاب الخير أجمعه، والعاقل يسعى إلى تحصيله، ويجتهد في اكتسابه.

وإذا اجتمعت فيك ـ أخي الموفق ـ صفة الحياء والحلم فقد حزت خيرًا عظيمًا، فهاتان الصفتان تُعينان العبد على انتظامِ أخلاقه وكرم سجاياه.

مرّ النبي ﷺ يومًا فسمع رجلا من الأنصار وهو يعاتب أخاه في الحياء، ويقول له: إنك لتستحيي، حتى كأنه يقول: قد أضر بك، فجعل ينهاه عنه، ويقبّح له فعله، ويزجره عن كثرته، وكأنه رأى أن الحياء من أخلاق النساء لا من أخلاق الرجال، فوقف النبي ﷺ وقال للذي ينهاه ويعظه: «**دعه، الحياء من الإيمان**»[(١)]

وأخبر أنّ «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»[(٢)]، فمن كان فيه خلق الحياء فإنه لا يصدر منه إلا الأخلاق الطيبة، والصفات الحسنة.

فالحيِيُّ: طيب الكلام، لا يتكلم إلا بالخير وبكلام طيب وبأدب، وإذا مَشَى لم يمش بعجلة ولا بُطْء، رفيق، يستر ولا يفضح، سالم من أمراض الحقد، والغلّ، والخيانة، والكذب، والنفاق، وانتهاك الأعراض.

---

(١) رواه البخاري (٦١١٨)، ومسلم (٣٦).

(٢) رواه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

ومن مَلَك ظاهره عن القبائح: حريٌّ بأنْ يملك باطنه عنها كذلك.

فما أعظم أثر الحياء على صاحبه، حيث حبَّب إليه الفضائل، وبغّض إليه الرذائل.

فالحياء «مشتق من الحياة، فإنَّ القلب الحيَّ يكون صاحبه حيًّا فيه حياء يمنعه عن القبائح، فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**الحياء من الإيمان**»[(١)]، فإن الحي يدفع ما يؤذيه، بخلاف الميت الذي لا حياة فيه فإنه يسمى وقحًا، والوقاحة الصلابة وهو اليبس المخالف لرطوبة الحياة، فإذا كان وقحًا يابسًا صليب الوجه لم يكن في قلبه حياة توجب حياءه»[(٢)].

ولذلك ترى من خلَعَ عنه لباس الحياء يتصف بصفات وقحة جدًّا منها:

١ ـ البذاءةُ والغلظة والعنف في الكلام والردّ والجدال، فتراه كثير الغيبة والطعن في الناس، وربما ردّ على من تكلم في مجلس بكل وقاحة وجرأة، ويرى أن هذا من شجاعته ورجولته وقوته وحزمه، وما درى أنه من قلة حيائه وخفة عقله.

٢ ـ عدم مبالاته بمن غضب ولو كان قريبًا أو صديقًا حميمًا، فربما أغلظ على صاحبه أو قريبه ولو كان أكبر منه سنًّا أو أكثر منه علمًا.

٣ ـ خفةُ العقل، فلا يملك عقلًا راجحًا يرجع إليه عند اتخاذه لقراراته وتصرُّفاته، بل يقول ويفعل حسب هواه، وشهوةُ غضبه وفرحه هي التي تتحكم به، ومن كان كذلك لا يُفلح، ولا يسعد من صاحبه وجالسه، ولا يستفيد منه.

---

(١) تقدّم تخريجه.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ١٠٩).

٤ ـ اقتحامه للرذائل والقبائح، ولذلك قال النبي ﷺ: «**إن مما أدرك الناسُ من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت**»(١)

ومعنى الحديث: أنّ الحياء ـ الذي لم يزل مستحسنًا في شرائع الأنبياء الأولين كلّهم ـ «هو الرادع عن القبيح، فمن لم يستح فإنه يصنع ما شاء»(٢)

فإذا اتَّصف الإنسان بصفة الحياء، كان في نفسِه آمرٌ يأمره بالأخلاق الفاضلة، والأفعال الحسنة، وزاجرٌ يزجره عن القبائح والرذال، وهذا هو واعظ الله في قلب العبد المؤمن الذي أشار إليه النبي ﷺ، في قوله: (ضرب الله مثلا صراطا مستقيمًا، وعلى جَنَبَتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستورٌ مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعًا، ولا تتعرجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد يفتح شيئا من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، والصراط الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم)(٣)

ومن لم يتّصف بصفة الحياء، وكان وقحًا صلبًا: لم يكن من نفسه هذا الأمر، فلم تنفعه الأوامر والمواعظ الخارجة، إن لم تصادف هذا الواعظ الباطن في نفسه.

فمن لم يكن له من نفسه واعظٌ لم تنفعه المواعظ، فإذا فقد هذا

---

(١) رواه البخاري (٣٤٨٣).

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٢٧٨).

(٣) رواه الإمام أحمد (١٧٦٣٤)، وصححه محققو المسند.

الأمر الناهي بفقد الحياء فهو مطيع لا محالة لداعي الغي والشهوة طاعةً لا انفكاك له منها»[١]

٥ ـ عدم تأثره ومبالاته بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه، وهذا أشد من الأول، «بل كثيرٌ منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعل، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء، وإذا وصل العبد إلى هذه الحالة لم يبق في صلاحه مطمع»[٢].

وخلق الحياء كغيره يمكن اكتسابه، وذلك باتباع ما يلي:

١ ـ أن يقترب الإنسان من الله تعالى، ويمتثل أوامره، ويجتنب نواهيه، وإذا فعل ذلك حاز على أعلى خصال الإيمان، بل أعلى درجات الإحسان، وحينها تنفر نفسُه من كلّ ما يقبح ويشين، وتُحِبّ وترغب في كلّ ما يجمل ويزين.

٢ ـ مجالسة أهل الحياء والفضل والأدب، والجليس يؤثّر على جليسه من حيث لا يشعر، وتنتقل إليه عاداته وطباعه وأخلاقه في الغالب.

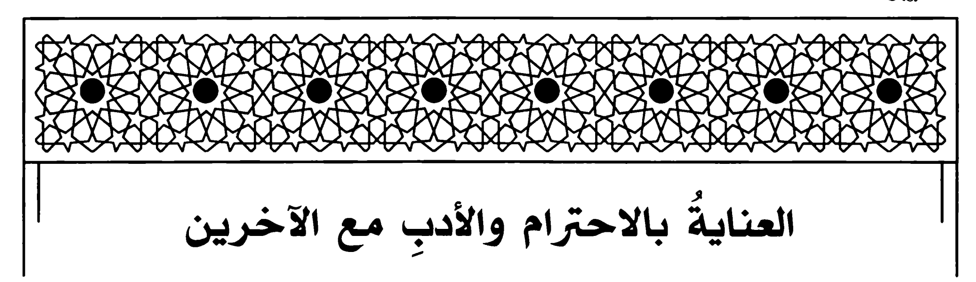
إذا كنتَ في قوم فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الأرْدَى فتردى مع الرّدي
عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينه ... فكلُّ قرين بالمقارَن يقتَدي



---

(١) ذكر هذا المعنى ابن القيم في كتابه بدائع الفوائد (١/ ١٨٢)، ثم قال: تأمله، وإياك والوقوف مع كثافة الذهن، وغِلَظ الطباع، فإنها تدعوك إلى إنكار هذه اللطائف وأمثالها، فلا تَأْتمرْ لها.

(٢) الجواب الكافي لابن القيم (ص: ٦٩).



العنايةُ بالاحترام والأدبِ مع الآخرين

الأدب مع الناس مِن أعظم ما يجلب المودة والمحبة، ويزرع في القلوب السعادة والودّ والألفة.

رأيـتُ الـعـزَّ فـي أدبٍ وعـقـلٍ　　وفـي الـجـهـل الْـمَـذلَّـةَ والـهـوانـا

وقد كان النبي ﷺ على جلالة قدره، ورِفْعة منزلته: يتعامل مع الناس بمنتهى الذوق والأدب والرفق، بل إن أدبه طال حتى اليهود وعبَّاد الأصنام، فيعود يهوديًّا مريضًا، ويأكل الطعام مع يهوديٍّ آخر، بل وفي حال الحرب يقبل هدية يهوديةٍ من أهل الحرب، ويرد على من قال: السام عليكم، أي الموت، وهو يعلم مقصدهم وتحريفهم، بكلمة (وعليكم) بكلّ لطف وهدوء.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأدب المرء: عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه: عنوان شقاوته وبَواره. فما استُجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب[1] اهـ.

والأدب مع الناس من أعظم ركائز الدين، وأفضل الأعمال عند رب العالمين.

قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كاد الأدب يكون ثُلثَي الدِّين[2].

بل قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الأدب هو الدين كله[3].

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٢٠٩ ـ ٢١٠.
(٢) صفة الصفوة ٤/ ٣٧٩.
(٣) مدارج السالكين ٣/ ٢٠٠.

وقد كان السلف الصالح يتعلمون الأدب قبل تعلم العلم، ويَرَون أن تعلم الأدب أهمُّ من تعلم العلم.

فهذا الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: كنا نأتي العالم فما نتعلم من أدبه أحب إلينا من علمه[1].

فالاحترام والأدب في أقوال وتصرفات الناس بعضِهم مع بعضٍ ينبغي أنْ يكون هو الأساسَ والأصل، مهما قويت وتقادمتِ العلاقة، وتجذَّرت المودَّة، وكثيرٌ من الناس لا يُراعي ذلك مع أصدقائه، وإنما مع الغرباء، وهذا من العجيب!

فحريٌّ بنا أنْ نُعامل الناس بغاية الأدب والاحترام واللباقة.

وصورُ قلَّةِ الاحترام والأدب كثيرةٌ منها:

١ ـ مُناداةُ الصغيرِ للكبير باسْمه الْمُجرَّد دون كُنيته.

٢ ـ الاستهتار والاحتقار، وإطلاقُ الكلماتِ التي فيها تنقُّصٌ ولمز.

٣ ـ إخلاف الوعد، وعدم القيامِ بما اتفق عليه.

٤ ـ مُقاطعةُ الْمُتحدث من دون حاجةٍ لذلك، أو إخباره بأن ما يقوله من خبرٍ أو قصةٍ معروفةٌ لديه.

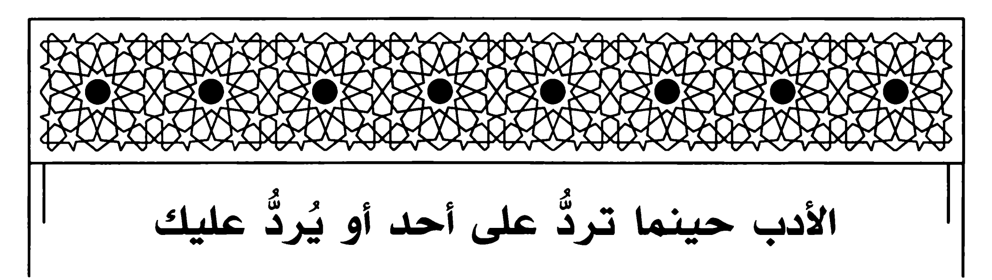
٥ ـ المزاح الثقيل، والمزاح في غير وقته.

٦ ـ عدمُ البشاشة والابتسامة، والسلامُ أو ردّه ببرودٍ أو تعبيس.

٧ ـ عدمُ الاعتداد بما يصدُر ممن هو أهلٌ للرأي والاستشارة.



(١) الحلية (تهذيبه) ٢/٢٣.



الأدب حينما تردُّ على أحد أو يُردُّ عليك

لا يخلو أحدٌ مِن أنْ يردّ على غيرِه مِن الناس أو يردّوا عليه، فلذا كان لزامًا على العاقل أن يعرف الأدب حينما يردّ ويُردّ عليه:

أولًا: أدبك إذا ردَدت على أحد:

١ ـ أنْ يخلو من الجدال العقيم، ويكون بهدوء ولطف.

٢ ـ أنْ تنتقي للردّ كلماتٍ طيبةً ليّنة، وتجتنب الجفاء فضلا عن الكلام البذيء.

٣ ـ ألا يكون هدفُك هو الإلزام والإقناع، بل هدفُك الأسمى هو الحق، فتبتدئ ردّك بدليله، دون أنْ تُطالب الآخر بقبولِه، أو تتهمه بأنه يميل مع هواه.

٤ ـ أن تلتمس العذر لأخيك في قوله أو فعله متى كان لذلك سبيلٌ.

٥ ـ أنْ تُركز على الأدلة والبراهين، ولا تُلزم غيرك بأقوال علماء بعينهم، فأقوالهم يُحتج لها بالأدلة الشرعية الصحيحة الصريحة، ولا يُحتجّ بها على الأدلة الثابتة.

٦ ـ ألا تستعجل في الردّ لكون ما سمعته أو قرأته غير مألوفٍ لديك، وغير معروف عند علماء بلدك، فقد يكون هو الحقّ.

ثانيًا: أدبك إذا ردَّ عليك أحد:

ينبغي لك إذا تحدّثت عن أمرٍ من أمور الدين أو الأخلاق أو التربية في مجلس أو خطبة، أو كتبتَ مقالًا أو غيره أنْ تفرح وتُسرّ بمن ردّ عليك بحقّ؛ لأنّ هذا يدل على وعْي الناس وانتشار العلم، ولو كان الردّ جافًا فلا تحزن ولا تتضايق؛ لأنّ دافع الراد الغيرة على الدّين والأخلاق والأعراف الصحيحة غالبًا.

وافرح بالمخالف المحقّ كفرحك بالمؤيد المحقّ؛ لأنَّ الغايةَ هي الوصولُ للحق، فقد يكون انتفاعُك بالمخالف أكثرَ من انتفاعك بالموافق.

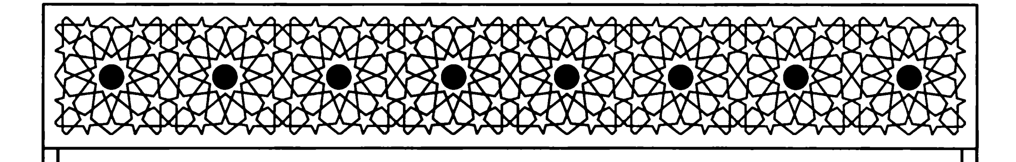
واحذر أن تدافع عن قولك إذا تبين لك عدم صوابه، واتّضح لك بالبراهين زيفُه، فتكون ممن اتبع هواه، وانتصر لنفسِه.

بل أعلن بكلّ رحابة صدر تراجعك عن قولك، واشكر من دلّك عليه، ولو كان في أسلوبه جفاءٌ.

والنبلاء لا يغضبون ممن ينتقدهم انتقادا بناءً، بل تتسع صدروهم لتقبل النصح والرد والاعتراض عليهم من كلّ ناصح؛ لأنهم تخلّصوا من حظوظ النفس التي هي أساس كلّ شر، ورأس كلّ بلاء، وهي السمّ القاتل الذي يفتك بكثير من خصال الخير والقيم، والمخدر الذي قد يطول مفعوله للعقل، والقفل الذي يمنع دخول الحكمة للقلب.

نعوذ بالله من حظوظ النفس والانتقامِ لها ورؤيتها.

۞ ۞ ۞



أدب الحوار

الحوار: هو مراجعة الكلام بين طرفين مختلفين أو أكثر، مع تقديم الحجج والبراهين لإقناع أحدهم للآخر، أو لتقريب وجهات النظر فيما بينهم.

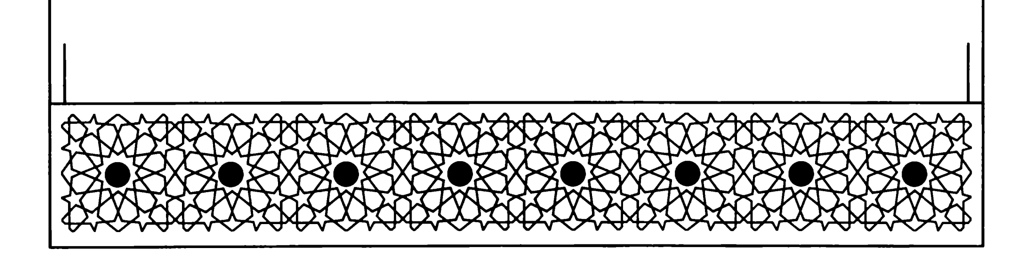
والحوار من ضروريات الحياة لأمور منها:

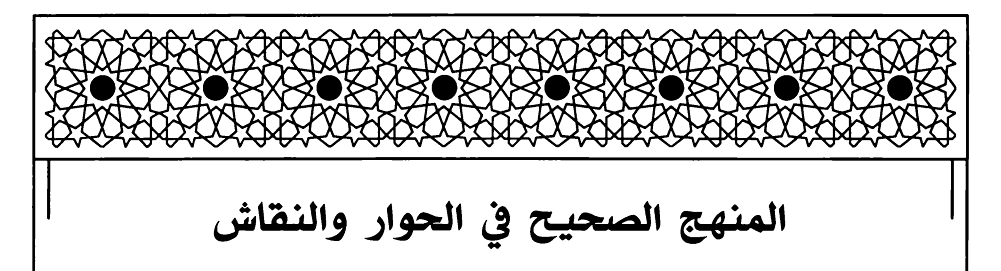
١ ـ أنه السبيل الوحيد لإقناع المخالف.

٢ ـ أنه الباب الرحب الذي من خلاله يدخل الحق والصواب لقلوب الناس.

٣ ـ أنه المانع الأكبر من حدوث الخلافات والصدامات والحروب التي تأكل الأخضر واليابس.

ولأجل ذلك سأفصل الحديث في هذا الأدب الضروري بمشيئة الله تعالى:





المنهج الصحيح في الحوار والنقاش

تضايقت قريش من النبي ﷺ، فاجتمعت يومًا، فقالوا: انظروا أعْلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه، ولينظر ماذا يرد عليه. فقالوا: ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة. فقالوا: أنت يا أبا الوليد. فأتاه عتبة فقال: يا محمد، أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ـ ﷺ ـ ثم قال: أنت خير، أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ـ ﷺ، فقال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فتكلم حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومه منك؛ فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرًا، وأن في قريش كاهنًا، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى، أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك، حتى تكون أغنى قريش، وإن كان إنما بك الباءة، فاختر أي نساء قريش شئت، فلنزوجك عشرًا. فقال رسول الله ـ ﷺ: «**فرغت؟**». قال: نعم. فقال رسول الله ـ ﷺ: «**بسم الله الرحمن الرحيم**: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ حتى بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ [فصلت: ١ ـ ١٣]. فقال عتبة: حسبك حسبك، ما عندك غير هذا؟ قال: «**لا**»، فرجع إلى قريش[1]

(١) رواه الحاكم (٣٠٠٢) وصححه، وعبد بن حميد (١١٢٣)، وأبو يعلى (١٨١٨)، وابن =

لقد رسم لك ـ أخي المسلم ـ النبيُّ ﷺ في هذا الحوار منهجًا نافعًا، ومسلكًا رفيعًا ناجعًا، ويتلخص هذا المنهج في النقاط التالية:

١ ـ الانصات والاستماع التام لأقوال وحجج الآخرين، ولو كان في نظرك فاسدًا لا يستحق أن يُسمع له، فهل هناك أبشع وأقذع من كلام وقول عتبة بن ربيعة؟ كلا، ومع ذلك استمع له النبي ﷺ بكل أدب وإنصات.

٢ ـ عدمُ مُقاطعة المتحدث والمُحاور، فلك أن تتخيّل مدى فظاعة كلام عتبة للنبي ﷺ، حتى بلغت به الخسة والجرأة أن قال: إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب..

كلامٌ في غاية السخف والبذاءة، لكنه الخلق العظيم الذي تحلى به نبيّنا الكريم ﷺ، ولو مع مَنْ تجاوز الحدَّ في البذاءةِ وقلَّةِ الأدب.

٣ ـ سؤال المتحدث بكل أدب ولطف هل فرغ من حديثه أم لا؟؛ لأن المتحدث إذا لم يُكْمل حديثه لن يكون منصتًا جيدًا، ولن يكون راغبًا في الاستماع، بل سينتظر متى تُكمل حديثك، حتى يكمل هو حديثه.

٤ ـ الرد على الخصم والمناقِش بالرد الحسن الذي ليس فيه سب أو شتم أو تجريح؛ لأن الهدف من الحوار والنقاش ليس الانتقام والتشفي، بل الوصول للحق بإقناعه، أو على الأقل أن يفهم وجهة نظرك، سواء قبلها أم لا

= أبي شيبة (٣٦٥٦٠) عن جابر بن عبد الله، وذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية: ١٦٠، رحمهم الله جميعًا، وما بين الشرطتين ليست عند الحاكم.

٥ ـ الاختصار في النقاش، وعدمُ الإسهاب الممل في عرض وجهة نظرك، فخير الكلام ما قلّ ودلّ.

فهذه بعض آداب الحوار والنقاش التي تعلمناها من قدوتنا وحبيبنا محمد ﷺ.

ولو سرنا على هذا المنهج فلن يحصل سوء تفاهم وتخاصم.

ورحم الله الإمام الشافعي إذ يقول: «رأيي صوابٌ يحتمل الخطأ، ورأيُ غيري خطأ يحتمل الصواب».

ولو تأمَّلنا في هذا الكلامِ القليلِ في مبناه، العظيمِ في معناه، لوجدناه منهجًا سديدًا وقاعدة عظيمة في التعامل مع الناس وآرائهم:

١ ـ التحاور والنِّقاشُ مع الآخرين، وسماع آرائهم بصدر رحب.

٢ ـ إبداء الرأي من دون الإلزام بأخذه، أو التسخط بعدم قبوله.

٣ ـ أن رأيه باعتقاده هو الصواب والحق، لكنه سيستمع لرأي غيره الذي يعتقد أنه خطأ يحتمل الصواب، ولذلك يستمع إليه، ويتأمل حججه وبراهينه، فقد يرى هذا الرأي ويكون أصوب من رأيه، فهو مستعد أتم الاستعداد لتغيير وتبديل رأيه وقناعته إن كان الرأي الآخر هو الأصوب.

٤ ـ إحسانه الظن بالآخرين وبآرائهم، فآراء الناس ومن يُخالفهم قد تكون أحسن وأجمل وأصوب من رأيه.

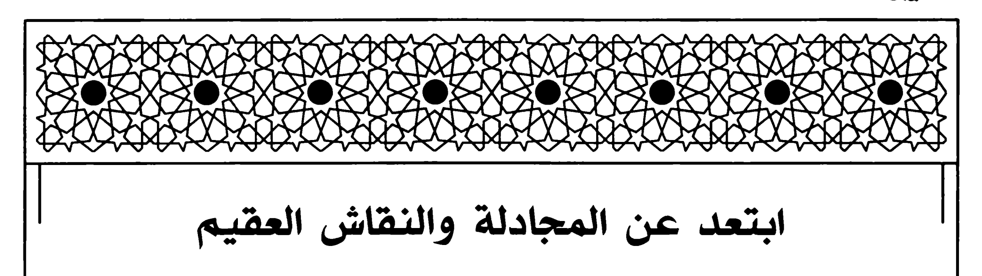
هذا هو منهجه وطريقته، فلْنسِرْ نحن على هذا المنهج الناجح النافع.

ولو سار الناس على هذا المنهج، وهو منهج التشاور والتحاور، وإحسان الظن بالآخرين، والاستعداد لقبول آرائهم ومقترحاتهم، دون

الإلزام بآرائنا ومقترحاتنا: لما دبَّ بيننا الاختلاف والتشاحن، ولا تغلغل فينا التنافر والتخاصم، ولرأينا حلًّا مُصيبًا لمشاكلنا بكل يسرٍ وسهولة.

وهذا المنهج ينبغي أن يسير عليه كلٌّ واحدٍ مع من يخالفه، الوالدان في البيت، والأستاذ في مدرسته، والرئيس في عمله، وكلّ راع مع رعيته.





ابتعد عن المجادلة والنقاش العقيم

ترك الجدل العقيم خصلة محمودة نبيلة، قال رسُولُ الله ـ ﷺ ـ «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا**»[(١)]

ومعنى قَوْلِه: (لِمَنْ تركَ الْمِراء): أيْ الْجِدَال، وذلك خَوْفًا مِنْ أَنْ يَقَع صَاحِبه فِي الخصام والغضب، الْمُسبِّبِ للعداوة والفرقة.

وقَوْلُه: (وإنْ كان مُحِقًّا): أي وإن كان ذا حقٍّ في نفس الأمر؛ وذلك لأنه بعد أن يُرشدَ خصْمَه إلى الحقّ، ويأبى خصمُه قبولَه والإذعانَ له، وهو يعرف أنْ خصمه مُعاندٌ لا يقبل الحق، فلا ثمرة ولا فائدة مِن جداله، سوى تضييعِ الوقت فيما لا ينفع، وإحداثِ البغضاء والحقد.

فالنبيّ ﷺ ضمن وتكفّل لِمَن ترك الجدال والمِراء ـ وإنْ كان على حقٍّ ـ طلبًا لِمَرْضاةِ الله تعالى، وسعيًا لِلْأُلْفة ونَبذِ الخصومة، ضمن له مكانًا في الجنة، وذلك بأنْ يُثبِّته الله على الدين، ويُجنِّبه الزيغ والضلال، جزاءً على فعله العظيم.

فالجدال الذي يُؤدِّي إلى الخصومة والشقاق والوحشة لا بدَّ أنْ تبتعدَ عنه حتى تسلم القلوب، وتصفو النفوس.

وجاء في الصحيحين[(٢)] أنَّ رسول الله ﷺ قال: (اِقْرءُوا القرآن ما ائْتلفت عليه قلوبكُم) أي اِجْتَمعَتْ، (فإذا اِخْتلَفتُم)، أي في فهم معانِيه

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٠٢)، وحسَّنه الألباني.

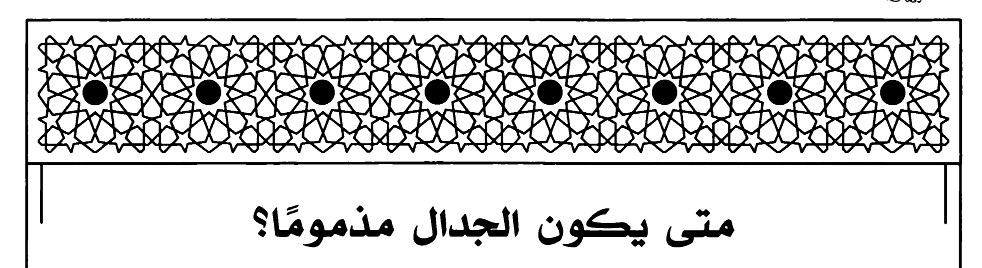
(٢) البخاري (٥٠٦١)، ومسلم (٢٦٦٧).

(فقومُوا عنهُ) قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: أي تفرَّقُوا؛ لِئلَّا يتمادى بكمْ الِاخْتلاف إِلى الشَّرّ. اهـ[1]

فهذا الحديث من أوضح الأدلة والبراهين: في النهي عمَّا يُنفر ويُحدث الخلاف بين المسلمين، فإذا كانت قراءةُ القرآن والجلوسُ لسماعه، ومعرفةُ تفسيره ومعناه ـ وهي من أعظم العبادات ـ ينتج عنها اختلافٌ: فإننا نقوم عن هذه العبادة، ولا نستمر في هذه الجلسة التي فيها القراءة والعلم، فكيف بمجالسَ عامةٍ لا يُوجد فيها ذكرٌ ولا قراءةُ قرآن، ويُطرح فيها ما يُسبب الخلاف والتفرقة، من التعرُّض للجماعات أو الأشخاص أو الحكومات، فهذه المجالس أولى أنْ يُقام عنها، وتُترك وتُهجر.



(١) فتح الباري ٩/١٢٩.



متى يكون الجدال مذمومًا؟

دعا دين الإسلام إلى كُلِّ ما فيه أُلْفةٌ ومودَّة، واجْتماعٌ وترابط، ونهى عن كلِّ ما يُسبِّب العداوةَ والبغضاءَ، والتنافرَ والْفُرقة، ومِمَّا جاء الإسلام بالتحذير منه: المراءُ والجدال، ولو كان مع أحدِهما الحقُّ، فإنَّ الخصام يُضيِّعه ويُبطله في الغالب.

ولا يعني هذا أنْ يتنازل صاحب الحقِّ عن حقِّه، ويُترَكَ الظالمُ والمعاندُ دون محاسبةٍ وردْع، فإنَّ لِأَخذِ الحقِّ طُرُقًا ليس منها الجدال والخصام، وذلك بالْمُناقشة الهادئة، أو برفعه لوليِّ الأمر ليردّ الحق ويُنصف المظلوم من الظالم.

والْمراء والجدال المذموم هو ما يكون فيه أحدُ أمورٍ أربعة:

١ ـ أنْ يكون معه حدَّةٌ وغضبٌ وقسوة.

وقد أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ، بأنْ يُجادل غيرَه بالتي هي أحسن، فقال الله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفقٍ ولينٍ، وحسنِ خطاب. اهـ[1]

وأمر تعالى المؤمنين أنْ يُجادلوا الكفار بالجدال الحسن، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٦١٣.

فقد أُمِرْنا أنْ نُجادل أهلَ الكتاب بالتي هي أحسن، فما بال بعضنا يُجادلُ أخاه بالتي هي أقبحُ وأخشن.

٢ ـ أنْ يكون بلا تثبُّتٍ ولا بيّنة ولا علم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾

وهذا هو حال الكثيرِ من الناس في مُناقشاتهم وجدالهم، حينما ترِد قضيَّةٌ من القضايا، فيَحْتَدُّ النقاش والجدال مع فقر البيّنة والبرهان، والأجدر أن تُشاع ثقافةُ طلب الحقّ بالبحث والتحرير ووأد الجدال العقيم.

فاجتنب هذه الْمُجادلاتِ مع الناس، فإنَّها هي التي أفسدت القلوب، وأوجدتْ فيها الوحشةَ والحقد.

٣ ـ أنْ يكون عديمَ الفائدة.

ولقد أكثَرَ السلفُ الصالح رحمهم الله من ذمِّ الجدال العقيم، وحذَّروا منه وبيَّنوا خطره، فهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: الْمِراءُ لا تُعقل حكمته، ولا تؤمن فتنته[(١)].

وقال بعض السلف: إذا أراد الله بعبدٍ شرًّا، أغلق عنه بابَ العمل، وفتح عليه بابَ الجدَل[(٢)]

وقال آخر: دع المراء والجَدلَ، فإنَّك لنْ تُجادل إلا أحدَ رجلين، إما رجلٌ هو أعلم منك، فكيف تعادي وتُجادلُ مَن هو أعلمُ منك؟.

وإما ورجلٌ أنت أعلمُ منه، فكيف تعادي وتُجادِل من أنت أعلمُ منه ولا يُطيعُك؟[(٣)]

---

(١) موسوعة ابن أبي الدنيا ٧/ ٩٤.
(٢) السير(تهذيبه) ٢/ ٨٢٦.
(٣) السير(تهذيبه) ٢/ ٥٥٤.

ومن أقرب الأمثلة على ذلك: ما نراه في كثيرٍ من مجالسنا، مِن جدال بعضنا لبعض، في أمورٍ تافهة لا مصلحةَ من نتائجها، كأنْ يتجادل الأصدقاء في الفريق الفلانيّ، وأنه أفضلُ من الفريق الآخر، أو أنَّ المركب الفلانيَّ أفضلُ من غيره، وكذلك الجدال في التوجهات والسياسات، من مُؤيِّدٍ ومُعارض، والنتيجةُ من هذه الْمُناقشات والْمُجادلات: لا شيء، سوى تعكير القلوب والخواطر، وإضاعةِ الوقت، وإحْداثِ الفرقةِ والعداوة، وإطْلاقِ الألفاظ القاسيةِ والجارحة.

٤ ـ أنْ ينوي صاحبه أن يتغلّب على خصْمه ويعلو عليه ويُفحمه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: صح عن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: ما ناظرت أحدًا على الغلبة. اهـ[١]

أي: ما جادلت أحدا بنية أن أتغلّب عليه وأُقنعه، بل بنية طلب الحق، فإن كان الحق معه اتبعتُه.

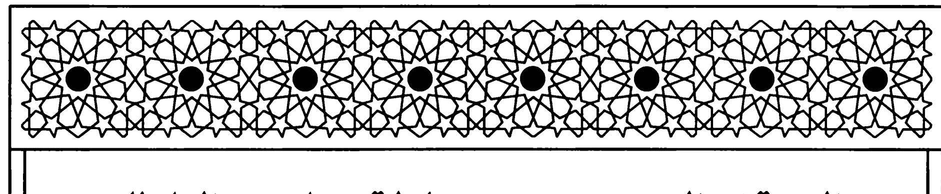
ولو أن كلّ أحد نوى هذه النية عند النقاش والجدال: لهداه الله للحق وسدده بإذن الله.

ولا بد أنْ يُعلم أنَّ مَنْ كان شديدًا في جِداله وخِصامه: فهو من أبغض الناس عند الله تعالى، قال النبيّ ﷺ: «**إنّ أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِم**»[٢]

قال العلماء: الْأَلَدّ: هو الشَّدِيد في جِدَالِه، وهو الذي كلَّما فُتح بابٌ للجدال كان أسرَعَهم إليه، وأقواهم مُجادلةً فيه، بلا بحثٍ ولا علمٍ ولا معرفة.

(١) طبقات الشافعيين (١/٥٨).

(٢) رواه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).



الموقف الصحيح من مجادلة صاحب الباطل

من الحكمة ألا تُجادل صاحب الباطل، بل اذكر الحق بدليله، فإنْ جادلك فاسكت؛ لأنّ غرضه الإثارة والثّرثرة وتضييع الوقت، فهو مريضٌ بداء الجدال شفاه الله وهداه.

قيل للإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: يا أبا عَبْد الله، أكون في المجلس ليس فيه مَن يعرف السنة غيري، فيتكلم مبتدع فيه، أرد عليه؟

فقال: «لا تَنْصب نفسك لهذا، أخبره بالسنة ولا تخاصم»(١)

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيْتُ فقيهًا قطُّ يُدارِي ولا يُماري، إنَّما ينشر حِكْمتَهُ، فَإنْ قُبِلتْ حَمدَ الله، وإنْ رُدَّتْ حَمدَ الله»(٢)

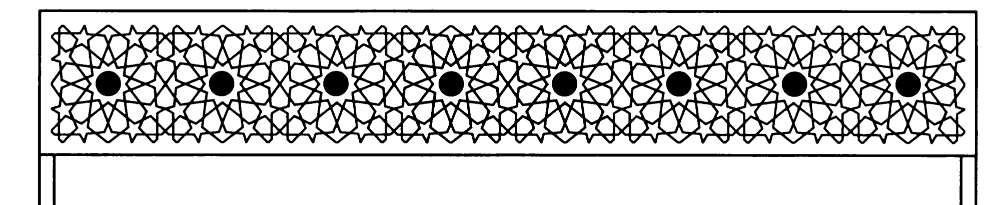
وقيل للإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: الرجل له علم بالسنة يجادل عنها؟ قال لا، ولكن يخبر بالسنة، فإن قُبل منه وإلا سكت(٣)



(١) طبقات الحنابلة (٢/ ١٥٦).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٦٧).

(٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١/ ١٦٢).

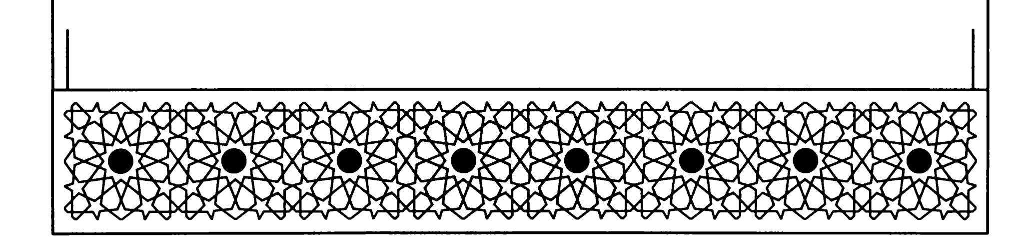


سلامة الصدر

الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر: لا تطيب إلا بسلامة صدور أهلها، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

فكيف تطيب الحياة في هذه الدنيا الدنيئة المليئة بالمصائب والمنغصات والأكدار وأهلها قد امتلأت صدورهم بالأحقاد والبغضاء والحسد والكبر؟

وسأفصل في هذا الموضوع الهام بمشيئة الله تعالى:





من علامات سلامة القلب
محبة الرفعة والخير للآخرين

لن تبلغ كمال الإيمان ولن تَنْعم بسلامة القلب حتى تحبَّ الرفعةَ والخير والبركة والزيادة لأقرانك وطلابك وأصحابك في العلم والدين والدنيا والقبول والذكر الحسن.

قال النَّبِيُّ ﷺ: «**لا يُؤمنُ أحدُكُم حتَّى يُحبَّ لأخِيهِ ما يُحبُّ لِنفسه**»[١]

ومعنى الحديث: «أنَّ الموصوفَ بالإيمانِ الكامل: مَنْ كان في معاملته للناس ناصحًا لهم، مريدًا لهم ما يريده لنفسه، وكارهًا لهم ما يكرهه لنفسه، ويتضمَّنُ أن يفضِّلهم على نفسه؛ لأنَّ كلَّ أحد يُحِبُّ أن يكونَ أفضَلَ من غيره، فإذا أحَبَّ لغيره ما يحبُّ لنفسه فقد أَحَبَّ أن يكونَ غيره أفضَلَ منه»[٢]

والدَّعوى لا بدَّ لها من بيّنة، وأكبر دليلٍ على أنك تُحب للناس ما تُحب لنفسك: أنْ تمدحَ من صدر منه ما يستحق المدح، وتشكره وتذكر عمَله في المجالس، وتُحبَّ أنْ تسمع من يمدحه ويُثني عليه، وتفعلَ الأسباب التي يكون بها طلابُك وأقرانُك وأصحابُك مثلك أو أفضلَ منك، بأنْ تساعدهم، ولا تكتمَ عنهم أيّ طريق وسبيل يُؤدي إلى تفوقهم ونجاحهم ورفعتهم.

---

(١) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).
(٢) المفهم للقرطبي: ١/ ٢٢٧.

وإذا حصلت على خيرٍ دنيويٍّ أو دينيٍّ وجدتَ الرغبةَ في إخبارهم بأسبابِ تحصيل هذا الخير؛ لكي ينالوا مثل ما نِلْت أو أحسن.

قال القاضي أبو يعلَى رَحِمَهُ اللهُ: سمعت أبا منصور الخياط رَحِمَهُ اللهُ (٤٠١ ـ ٤٩٩) ـ إمام مسجدٍ ببغداد ـ يقول: أول يوم جلس والدك القاضي الإمام للقضاء واجتمع الناس: حضرت صلاة الظهر فتأخرت وقلت: يا سيدنا نتجمل بالصلاة وراءك فَقَالَ لي: تقدم يا أبا منصور جمالك صلاتي وراءك.

فغرس لَهُ فِي قلوب العامة والخاصة نباهة وجلالة[1]

فما أجمل أن يتخلق الشيوخ والمعلمون بهذه الأخلاق، ويرفعوا من قدر طلابهم، ليغرسوا لهم في قلوب العامة والخاصة نباهة وجلالة.

كنت يومًا جالسًا مع أحد الفضلاء المعروفين بكثرة المؤلفات النافعة، فرأيته يتصل على أحد المشايخ ويطلب منه دعم كتاب صدر لأحد طلاب العلم، ويقول: اقرأ الكتاب وتحدّث عنه في موقع التواصل (تويتر) لدعمه وتحفيزه، ثم اتصل بعدة مشايخ، الذين لهم مكانة بين الناس.

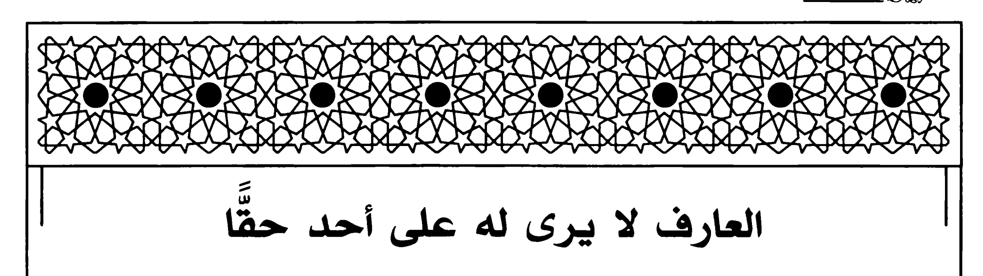
فقلت له: ما مصلحتك في هذا؟ ولماذا تتعب نفسك في شيء ليس لك؟

فقال: أحبّ له مثل ما أحبّ لنفسي، والله إني فرح بكتابه وكأنه لي، وأريد أن ينتفع به الناس، وأنا أفعل هذا مع غيره بحمد الله.

فانظر إلى سلامة قلبه، وحرصه على نفع غيره، ولقد عاد ذلك عليه بالبركة والقبول عند الخاص والعام.

---

(١) طبقات الحنابلة (٢/ ٢٥٤).



العارف لا يرى له على أحد حقًّا

ما أجمل ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العارف لا يرى له على أحد حقًا، ولا يشهد له على غيره فضلًا، ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب.

وكان كثيرًا يقول: مالي شيء، ولا مني شيء، ولا فيَّ شيء، وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المُكدِّي وابن المكدي وهكذا كان أبي وجدي

وكان إذا أُثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعدُ إسلاما جيدًا. اهـ(١)

ومن يستطيع أن يقول هذه العبارة ولو على جهة التواضع المتكلَّف!

وأنت أعلم بنفسك وخفاياها، ولا تغتر بمدحِ من يَظنّ بك خيرًا، وتخفى عليه عيُوبُك؛ فإنّ العاقل أعرف بنفسه من غيرِه.

ومَنْ مِنَّا ـ بعد هذا الكلام من إمام العلماء رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ سيغتر بأيّ ثناءٍ يسمعه أو يقرؤه من الآخرين، أو يغترُّ بأي عمل يعمله، وقول يقوله، وعبادةٍ يقوم بها؟!

لقد كان رحمه الله تعالى مِن أبعد الناس رؤيةً لنفسِه، واعتدادًا بها، ومن أشدهم تهذيبًا لها، ومن أعرفهم بربه وما يستحقه سبحانه.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٥٢٠).

ومن كان على هذه الصفة لا شك أنه سيرى أنه مُقصّرٌ في حق الله تعالى عبادةً ودعوةً وإسلامًا خالصًا، ويُوجب عليه ذلك أن يُجدّد صدقَ إسلامه لله تعالى كلّ وقت، ويرى من نفسِه أنها لم تُسلم الإسلام الكامل بعدُ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مقت النفس في ذات الله من صفات الصديقين، ويدنو العبد به من الله تعالى في لحظة واحدة أضعاف أضعاف ما يدنو بالعمل. اهـ[1]

وكلّما ازدادت معرفةُ العبدِ بربّه وعظمتِه وحقوقِه عليه، ونظر إلى تقصيرِه في جنب الله، ونظر إلى نعم الله عليه في دينه ودنياه: ازداد هضمًا لنفسِه، واستصغر ما عمل، وتعاظم تفريطَه وذُنوبَه.

وهكذا كان حال السلف الصالح رحمهم الله:

فهذا مطرِّف بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: ما مدَحني أحد قطّ إلا تصاغرتْ إليّ نفْسي.

وهذا بكر بن عبد الله المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول وهو واقفٌ في عرفة: لولا أنِّي فيهم لقلتُ: قد غُفِر لهم.

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كذلك ينبغي للعبد أن يُزريَ على نفسِه ويَهضِمَها.

وهذا عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ قرِئ عليه كتاب المناسك، فانتهى إلى حديث وفيه: قال عبد الله وبه نأخذ.

فقال: مَن كتب هذا من قولي؟

قيل: الكاتب الذي كتبه.

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ١٥٥.

فلم يزل يحكّه بيده حتى مَحَاه، ثم قال: ومن أنا حتى يُكتب قولي؟

وهذا إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ يقول له المرُّوذي: ما أكثر الداعيَ لك! قال: أخافُ أن يكون هذا استدراجًا بأي شيء هذا؟

وقدم رجل من طَرَسُوس فقال: كنا في بلاد الروم في الغزو إذا هدأ الليل، رفعوا أصواتهم بالدعاء، ادعوا لأبي عبد الله ـ الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ ـ، وكنا نَمُدُّ المنجنيق ونرمي عن أبي عبد الله، ولقد رُمي عنه بحجر، والعِلج على الحصن متترس بَدَرَقَة فذهب برأسه وبالدَّرَقَةِ، فتغير وجه أبي عبد الله وقال: ليته لا يكون استدراجًا.

وقال له المرُّوذي رَحِمَهُ اللَّهُ يومًا: إنّي لأرجو أن يكون يُدعى لك في جميع الأمصار، فقال: يا أبا بكر، إذا عرف الرجلُ نفسه فما ينفعه كلام النّاس.

وقال له رجلٌ جاء من خرسان: الحمدُ لله الذي رأيتُكَ، قال: اقعُد، أيُّ شيءٍ ذا؟ مَن أنا؟

وقال رجل: رأيتُ أثر الغَمِّ في وجه أبي عبد الله، وقد أثنى عليه شخص، وقيل له: جزاك الله عن الإسلام خيرًا، قال: بل جزى الله الإسلامَ عني خيرًا. من أنا وماَ أنا؟![1]

فهذه بعض الأمثلة على هضم السلف الصالح لأنفسهم، ولا يُوفَّق لهذا إلا مَنِ امْتَنّ الله عليه، واصطفاه إليه، اللهم اجعلنا منهم.

ولقد وصل هؤلاء الأئمة وغيرهم إلى منزلة فوق منزلة التواضع،

---

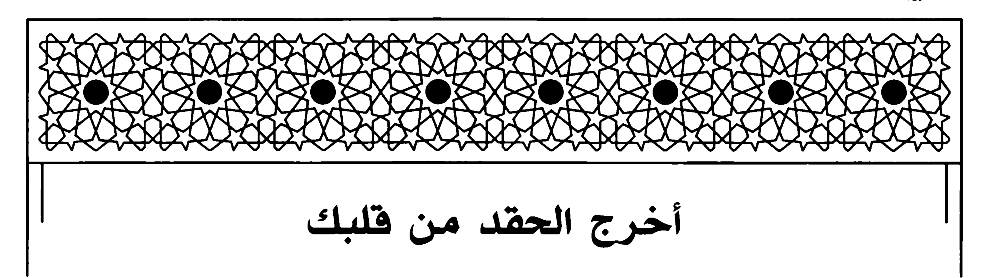
(١) يُنظر لهذه الآثار وغيرها إلى: حياة السلف بين القول والعمل للمؤلف: ٤١٧ ـ ٤٢٣، تاريخ الإسلام للذهبي: ٥/١٠١٣.

وهي هضم النفس، والتواضع: ألا ترى في نفسك ما يُميّزك عن غيرك لتنزل إليهم، وهضم النفس: أنْ ترى أنّك مقصّرٌ مع الله ومع الناس، وإذا جاء خيرٌ منهم رأيته تفضّلا منهم، وإذا جاءك ما تكره رأيت أنّك السبب في ذلك، كما قال بكر بن عبد الله المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا رأيت من هو أكبر منك، فقل: هذا سبقني بالإيمان، والعمل الصالح، فهو خير مني، وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل: سبقتُه إلى الذنوب والمعاصي، فهو خير مني، وإذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظّمونك فقل: هذا فضلٌ أَخَذُوا به، وإذا رأيت منهم تقصيرًا، فقل: هذا ذنْب أحدثتُه[1]

هذه أخلاق العظماء من الأولياء والصالحين، نسأل الله أن يجعلنا منهم.



(١) صفة الصفوة ٣/ ١٧٥، موسوعة ابن أبي الدنيا ٧/ ٥٢٧.



أخرج الحقد من قلبك

الْحِقْد المذموم: هو بغض مسلم بسبب شحناء وعداوة دنيوية.

وقد جعل الله تعالى من نعيم الجنة زوالَ ما في صدورهم من غلّ؛ لِمَا يسببه من النكد والغم والقلق الذي هو من أعظم العذاب، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

وصاحب الحقد والغلِّ في عذابٍ دائم، لا يذوق معه طعمَ السعادةِ والإيمان.

وفي كلّ يوم جدّد عفوك عن كل مسلم ظلمك أو أخذ مالك، أو اغتابك، وأشدّ الناس عليك أذيّة هو أول من ينبغي أن تبدأ بتحليله والاستغفار له، وسؤال الله أن يهديه، وألا يعذبه بسببك.

ولِمَاذا يُشغل المؤمن نفسه بالعتاب والحقد والردود والشكاوى؟

والْتفاته لهذه الأمور يُحدث له أضرارًا كثيرة منها:

١ ـ أنه يشغل قلبه وخاطره بما يضره ويكدره، والعاقل لا يفعل هذا.

٢ ـ أنه مشغول في الدنيا بزرع الحسنات ليحصدها يوم القيامة، فإذا انشغل بغير ذلك تسبب في تقليل زرعه أو إفسادِه، والمؤمن لا وقت عنده لمثل هذه الأمورِ التافهة، بل هو في سباق إلى الدار الآخرة، والمتسابق لا يلتفت إلى من يعترض طريقه بالسبِّ والأذى والسخرية، بل يمضي كي لا يُسبق، ولو انشغل بهم لَمَا كان في عداد الفائزين قطعًا.

ولو لم يكن من ثمار كظم الغيظ إلا أنه يقي صاحبه من سُكْر الغضب، الذي مِن شدة سُكْره لا يكاد يَسْمع ولا يعي ما يقول لكفى، كما قال الشاعر:

وإذا غَضِبْتَ فكُنْ وقُورًا كاظمًا ... لِلْغَيظِ تُبْصرُ ما تَقولُ وتَسْمَعُ
فكَفى به شَرفًا تَصَبُّرُ ساعةٍ ... يَرْضى بها عنكَ الْإلهُ وتُرْفَعُ

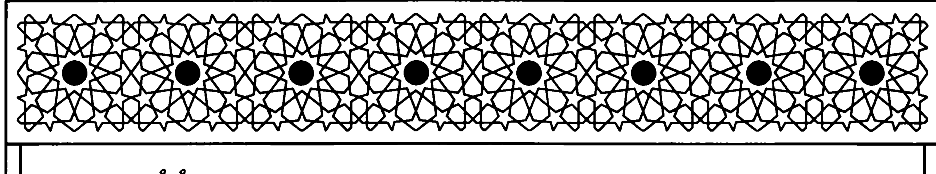
أعرف امرأة ضربت أروع الأمثلة في سلامة الصدر، وعفّة اللسان، ولم يُسمع منها يومًا أنها دعت على من ظلمها وآذاها، أو سبته أو شتمته، وغاية ما تقول إذا أوذيت أذى شديدًا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وشَتَمَتْها امرأةٌ أصغر منها بكثير شتمًا مقذعًا، فجعلت تُخاطبها برفق، وتقول: عظم الله أجرك ليس الأمر ما قلتي، وأنا بريئة مما اتهمتيني به، هداك الله وسامحك.

قالت لي: والله لم أحمل في قلبي حقدًا عليها، ولا على أيٍّ أحدٍ آذاني، بل أدعو لهم جميعًا.

تنبيه: لا يعني الحلم وكظم الغيظ والعفو ألا يتخذ الإنسان الأسباب المشروعة النظامية في ردّ عدوان الظالم عليه، بل له الحق في ذلك، ولكن مع ذلك لا ينتقم لنفسه بالشتم والسبّ والغضب والانتقام، بل يقصد ردّ عدوان الظالم وكفّ شرّه عن الناس.





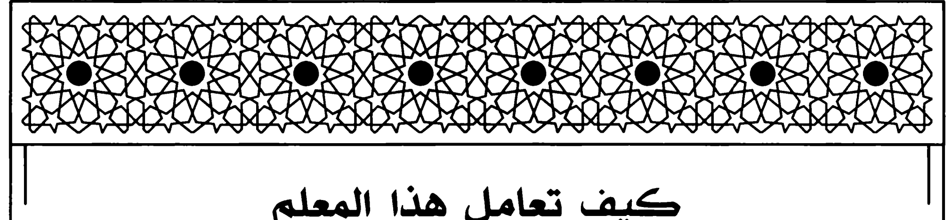
لماذا أمسك هذا العالِمُ زوجته سيّئة الخُلُق؟

ذكر ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ أنّ الشَّيخَ أبا محمد بن أبي زيد رَحِمَهُ اللهُ ـ وهو من العلم والدين في المنزلة المعروفة ـ كانت له زوجة سيئة العشرة، وكانت تقصِّر في حقوقه، وتؤذيه بلسانها، فيقال له في أمرها، ويُلام بالصبر عليها، وكان يقول: أنا رجل قد أكمل الله عليّ النعمة في صحة بدني ومعرفتي، فلعلها بُعِثَت عقوبةً على ديني، فأخاف إذا فارقتها أنْ تنزل بي عقوبةٌ هي أشدّ منها. اهـ[1]

فيا من ابتُلي بقريب أو زوج أو زميل سيّئ الخلق، صعبِ المراس، ضيّق العَطَن: اصبر عليه، فلعلّ الله تعالى قد كفّ عنك شرورًا كثيرة باحتمالك له، وصبرك عليه؛ فإنَّ الربّ رحيم، لا يكاد يجمع المحن والمصائب على عبده.



(١) أحكام القرآن (١/ ٤٦٩).



كيف تعامل هذا المعلم مع مَن تكلّم عليه أمام طلابه؟

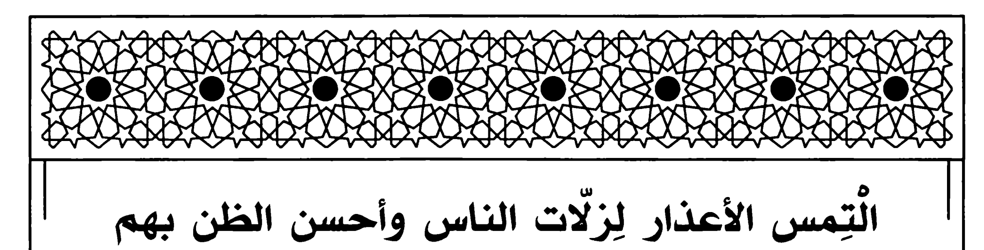
كان مجموعةٌ من طلاب العلم يومًا في أحد المساجد يتدارسون القرآن، وكانوا حريصين على خفض الصوت حتى لا يشوّشوا على الذين جلسوا يقرؤون القرآن في المسجد، وبينما هم كذلك إذ جاء رجل غليظ فخاطب معلّمهم أمام المجموعة بأسلوب غليظ ووجه عابس: اخفض صوتك، فنحن نقرأ!

فقال له: أبشر بإذن الله، ثم خفض صوته أكثر، وأكمل القراءة وكأن شيئًا لم يكن.

وحينما رأى الدَّهْشة على وجوه أصحابِه قال لهم: «إنّ من الابتلاءات التي تُواجه المسلم: تعرُّضَه لبعض الإساءات والغلظة في القول من بعض إخوانه المسلمين، فالموفق من يتحلى بخلق الصبر والحلم وكظم الغيظ، حتى يكون من الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾، وقال عنهم: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾.

ونحن ولله الحمد قد عافانا الله تعالى من الابتلاء بتسلّط المنافقين والكافرين علينا، فهلا صبرنا على غِلَظ بعض إخواننا المسلمين؟

وإننا نحمد الله تعالى على أن ابتلانا بمثل هذه المواقف، ثم منّ علينا ووفقنا ربنا للصبر والحلم والعفو والتماس الأعذار؛ لأنَّ الغالب في حياتنا أننا نلاقي البِشْر والإكرام من عموم الناس».



الْتِمس الأعذار لِزلّات الناس وأحسن الظن بهم

ما أحوجنا لالتماس الأعذار لِزلّات الناس وإحسان الظن بهم، فبِه يصفو الخاطرُ من الْمُكدِّرات والْمُنغِّصات.

قال أبو قلابة رَحِمَهُ اللهُ: إذا بلغك عن أخيك شيْءٌ تكرهه فالتمس له العذْر جُهدَك، فإن لم تجد له عذرًا فقل في نفسك: لعل لأخي عذرًا لا أَعْلَمُه(١)

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: إذا سمعت كلمةً من مسلم فاحملها على أحسن ما تجد، حتى لا تجد محملا(٢)

تأنَّ ولا تعجلْ بلومِك صاحبًا ... لعلَّ له عذرًا وأنتَ تلُوم

توفي ابنٌ ليونس بن عبيد رحمهما الله تعالى فقيل له: إنَّ ابن عون لم يأتك! فقال: إنا إذا وثقنا بمودةِ أخٍ لا يضرنا ألا يأتينا!(٣)

يا له من جوابٍ سديد، وردٍّ رشيد، من رجلٍ فَقَد صاحبَه في أحْلك الظروف، وهو موتُ ابنه وفلذةِ كبده، ومع ذلك لم يحملْ عليه في خاطره، ولم تَنْزلْ مودَّتُه من قلبه، ولم تَهتزَّ ثقتُه به من نفسه.

وهذه امرأةُ طلحة بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ الذي كان من أجود الناسِ في زمانه، تقول له مُتسخطةً من أصحابه: ما رأيت أَلْأَمَ مِن أصحابك، إذا

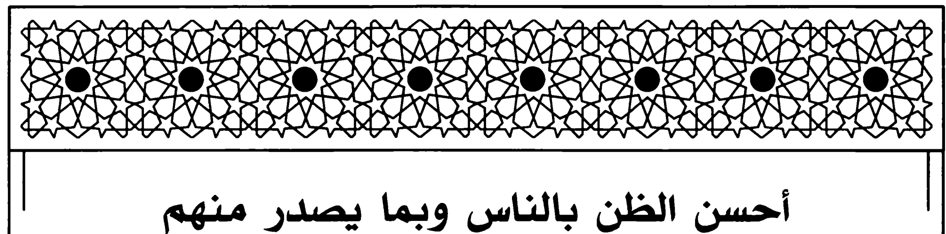
(١) صفة الصفوة ٣/ ١٦٨، موسوعة ابن أبي الدنيا ٧/ ٥٢٥.
(٢) موسوعة ابن أبي الدنيا ٧/ ٥٢٥.
(٣) الصداقة والصديق لأبي حيان: ١٣٦.

أيسرتَ لزموك، وإذا أعسرتَ تركوك، فقال: هذا من كَرَمهم، يَغْشَوْنَنَا في حال القوة منًّا عليهم، ويُفَارِقُونَنَا في حال العجز منًّا عنهم![١]

فهذا والله من أحسن الظنون، وقمَّةِ الْتماسِ الأعذار.



(١) محاضرات الأدباء، للراغب الأصفهاني: ١/ ٣٣٤.



أحسن الظن بالناس وبما يصدر منهم من قول أو فعل

احذر أشدَّ الحذر من سوء الظنّ، وعامل الناس بحسن نيّة، ما لم يظهر من أحدهم ريبة.

والْمَقصودُ بالظنِّ الْمنهيِّ عنه: أنْ تتَّهم أحدًا بلا بيِّنةٍ أو قرينةٍ مُؤَكَّدة، كمن يتهم أحدًا بأنَّه فاسقٌ أو مُنافق، أو مُتكبِّرٌ أو بخيلٌ أو نحوُ ذلك.

وهذا الظنُّ إنما هو إثمٌ وذنبٌ على صاحبه، قال أبو حامد الغزاليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: اعلم أن سوءَ الظن حرامٌ مثلَ سوءِ القول، فكما يحرم عليك أنْ تُحَدِّثَ غيرك بلسانك بمساوئ الغير، فليس لك أن تُحَدِّثَ نفسك وتسيءَ الظن بأخيك.

والظن: عبارةٌ عمَّا تركن إليه النفس، ويميل إليه القلب.

وكما يجب عليك السكوتُ بلسانك عن مساويه، يجب عليك السكوتُ بقلبك، وذلك بترك إساءة الظن، فسوءُ الظن غيبةُ القلب، وهو منهيٌّ عنه أيضًا، وَحَدُّهُ: أَلَا تَحْمِلَ فِعْلَهُ على وجهٍ فاسد، ما أمكن أن تحمله على وجه حسن. اهـ[١]

وكَمْ نَخَرَ هذا المرضُ القتَّال في قلوبِ الأقرباء، وكم تقاطع بسببه الأصحاب والأصدقاءُ.

---

(١) إحياء علوم الدين: ٢/ ١٧٧، ٣/ ١٥٠.

فالظنُّ هو من أعظم أسباب التقاطُعِ والتدابُر، والقتلِ وإراقةِ الدماء.

فما من شرٍّ إلا والظنُّ السيِّءُ أحدُ أسبابه، وما من جريمةٍ إلا وهو أحدُ دوافعها.

بل إنَّ الظنَّ السَّيِّئ يجعلُ الحسن قبيحًا، والحقَّ باطلًا، فإذا أساء أحدٌ الظنَّ بأحد، فابْتسامتُه له يعتبرها شتيمةً واسْتهزاءً، ومدحُه له يراهُ خوفًا أو رياءً، فكلُّ حقٍّ جاء من قِبَلِه يراه باطلًا وضلالًا

وصدق القائل:

وعَيْنُ السُّخط تُبْصِرُ كلَّ عيبٍ   وعَيْنُ أخي الرضى عن ذاك تعمى

وصدق الآخر:

وعينُ الرّضَى عن كل عيبٍ كليلةٌ   ولكنّ عينَ السُخط تُبدِي المساويا

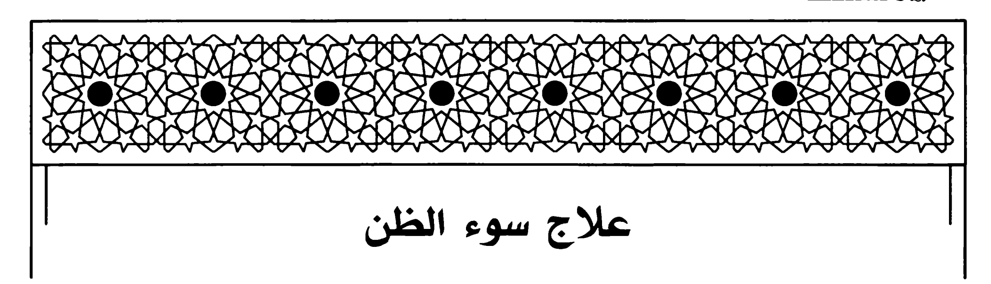
واعلم أنَّ أسرارَ القلوب لا يعلمها إلا علَّامُ الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءًا، إلا إذا انكشف لك بعيانٍ لا يحتمل تأويلًا، فعند ذلك لا تعتقدْ إلا ما علمتَه وشاهدتَه، فما لم تشاهده ولم تسمعه ثم وقع في قلبك، فإنما الشيطان يلقيه إليك، فيجبُ عليك تكذيبه فإنه أفسق الفساق.

والظنُّ إنَّما مَنشؤه التَّوهُّمُ والتخمين، فكيف يبني عاقلٌ حكمًا على وهمٍ واحتمال؟.

وما أكثرَ ما يطرق مسامعنا في مجالسنا وبيوتنا: فلانٌ قصد بكلامه كذا، وفلانٌ يعني بتصرُّفه كذا، وفلانٌ ما فعل كذا إلا رياءً ونفاقًا.

وإذا حلَّ سوءُ الظن في النفوس، أدى بها إلى الاتهام المتعجل، وتتبع العثرات، وتلقُّطِ الهفوات والزَّلات.

والكاسب الوحيدُ هنا هو إبليسُ نعوذ بالله منه.



علاج سوء الظن

إليك أسبابا تجنُّبك وتخلصك من سوء الظن، وهي كما يلي:

أولًا: أنْ تدعو اللهَ دائمًا بألا يجعل في قلبك غلًّا للذين آمنوا، فسوء الظنِّ من أعظمِ أسباب الغلّ والحقد على الناس.

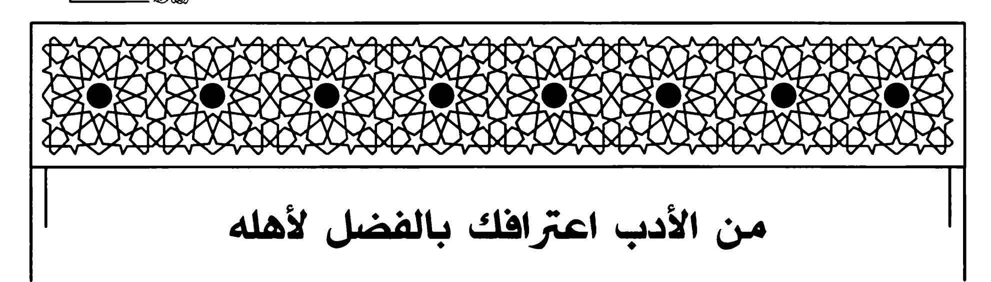
ثانيًا: أنْ تُصارح مَن وجدت في نفسك عليه، أو اعتقدت فيه أمرًا يُضايقك، فالْمُصارحةُ تُزيل آثار الحقد والغل، والظَّنِّ والوهم، فكم مِنْ إنسانٍ ظنَّ بأحدٍ ظنًّا سيِّئًا، فلمَّا صارحه بذلك تبيَّن لهُ أنه واهمٌ في ظنِّه، فارْتاح فؤاده، ونجا من الإثم جرَّاءَ ظنِّه، ما لم يغلب على ظنّه أنّ المصارحة تزيد المشكلة سوءًا.

ثالثًا: أنْ تُحسن الظنَّ بالناس، ولا تُشغلَ نفسك بمقاصدهم ونيَّاتهم، وفكِّر طويلًا قبل أن تَحْكم أو تَتَّهم، ولئن تُخطئ بحسن الظن أهونُ من أن تُخطئ بالتسرع بسوء الظن.

رابعًا: أنْ تلْتمس المعاذير للناس، وتتركَ تتبعَ العورات، واقْتناصَ الزلات.

خامسًا: أنْ تدعو لمن أسأت ظنّك به، وأنْ تُحسن تعاملك معه، قال أبو حامد الغزاليُّ رَحِمَهُ اللهُ: وإذا خطر لك خاطر بسوءٍ على مسلم، فينبغي أن تزيد في مراعاتِه وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك، فلا يلقي إليك الخاطرَ السوءَ خوفًا مِن اشتغالك بالدعاء. اهـ[1]

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ١٥١).



من الأدب اعترافك بالفضل لأهله

من علامة المروءة والأدب وسلامة الصدر من الكبر والحسد ما يلي:

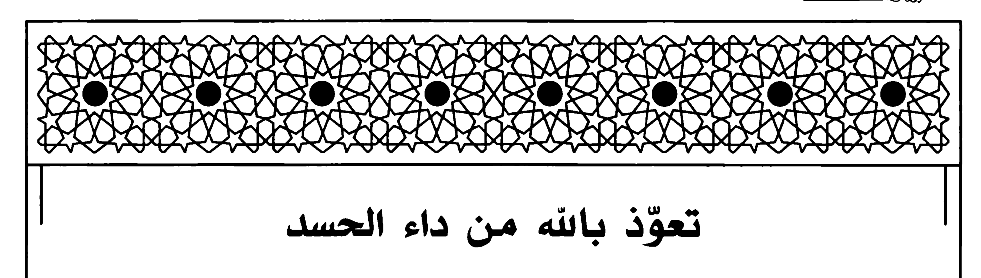
١ ـ أن تعترف بالفضل لأهله، وتقرّ بفضائل الآخرين.

٢ ـ أن تنسب الفائدة التي استفدتها من أحدٍ له.

٣ ـ أن تشكره وتُثني عليه أمام الملأ.

إذا أفادك إنسان بفائدة ... من العلوم فأَدْمِن شكره أبدا
وقل فلان جزاه اللَّه جنَّته ... أفادنيها وألق الكبر والحسدا





تعوّذ بالله من داء الحسد

الْحَسَد: هو تمني زوال النعمة عن المسلم الذي يستعملها فيما يُباح.

وهو داءٌ يصعب شفاؤه، والْمُبتلى به لا يُمكن إرضاؤه، والخيرُ كلُّ الخير في فراقه.

كلُّ العداوة قد تُرجى إماتتُها ... إلَّا عداوة من عاداك من حسد

قال معاوية رضي الله عنه: كلُّ الناس يمكنني أن أرضيه إلا الحاسد، فإنه لا يرضيه إلا زوال نعمتي![1]

والحاسد أساءَ في الحقيقةِ إلى الْمُنعم جل وعلا.

ألا قُل لمن كان لي حاسدًا ... أتدري على من أسأتَ الأدب

أسأتَ على الله في فعْلِه ... لأنَّك لم ترض ما قد وهب

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الحسد فيه بخل وظلم؛ فإنه بخل بما أُعطيه غيره؛ وظلمه بطلب زوال ذلك عنه. اهـ[2]

وقال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله في قصّةِ قتلِ قابيل هابيل: وأكبر العبر في الآية أن قصة ابنَي آدم أقدم قصة تدلنا على أن الحسد كان مثار أول جناية في الشر، ولا يزال هو الذي يفسد على الناس أمر اجتماعهم، من اجتماع العشيرة في الدار إلى اجتماع القبيلة إلى اجتماع

---

(١) مُحاضرات الأدباء: ١/ ١١٦.

(٢) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ١٤٤).

الدولة، فترى الحاسد تثقل عليه نعمة الله على أخيه في النسب أو الجنس أو الدين، وهو لم يتعرض لمثلها لينالها، فيبغي على أخيه ولو بما فيه شقاؤه هو. اهـ[(١)]

ومن أعظم ما يزيل الحسد ويجتثّه: الإيمان التامّ بالقضاء والقدر.

وحسد الإنسان لمن فُضّل عليه بعلم، أو مكانة، أو منصب: من أبشع الطباع، وأبغض الصفات، وهو خلق إبليس، وهو الذي جرّ إخوة يوسف إلى التخلص منه.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ عند قول إخوة يوسف: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾: هذه آية من عبر الأخلاق السيئة، وهي التخلص من مزاحمة الفاضل بفضله لمن هو دونه فيه أو مساويه، بإعدام صاحب الفضل، وهي أكبر جريمة؛ لاشتمالها على الحسد، والإضرار بالغير، وانتهاك ما أمر الله بحفظه. اهـ[(٢)]

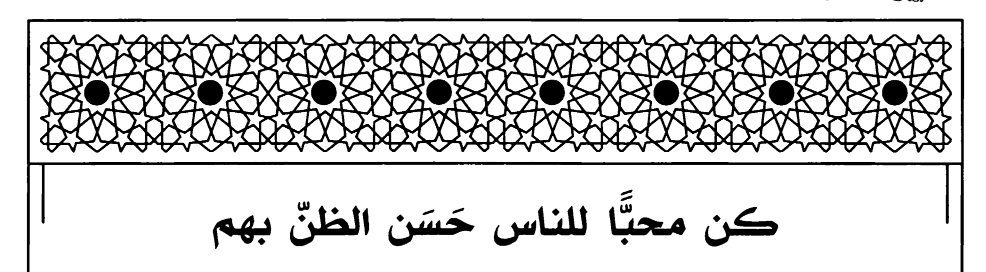
وبعض الناس عنده دينٌ يرْدعه عن الاعتداء على المحسود بالطَّعْن والتَّنْقيص، لكنه يسكت عن ذكرِ فضائله، ويُحجم عن الذبّ عن عرضه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: كثيرٌ من الناس الذين عندهم دينٌ لا يعتدون على المحسود، فلا يُعِينون مَن ظلمه، ولكنهم أيضًا لا يقومون بما يجب من حقه، بل إذا ذمه أحد لم يوافقوه على ذمه ولا يذكرون محامده، وكذلك لو مدحه أحدٌ لسكتوا، وهؤلاء مدينون في ترك المأمور في حقه مفرِّطون في ذلك، لا معتدون عليه، وجزاؤهم أنهم يُبْخسون حقوقهم فلا يُنْصَفون أيضًا في مواضع، ولا يُنْصَرون على مَن ظلمهم كما لم يَنْصُروا هذا المحسود.اهـ[(٣)]

---

(١) تفسير المنار: ٦/ ٣٠٥.

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٢٣).

(٣) مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٢٥).



كن محبًّا للناس حَسَن الظنّ بهم

أحسن ظنك بالناس إلى درجة أنك قد تخدع بسبب المبالغة في حسن ظنك بهم، وطيب قلبك تجاههم، ولذلك بادر الصغير والكبير والفقير والغني والقريب والبعيد بالسلام والتحية والبشاشة، ولا يمنعك ردّ الرد البارد من بعض الناس من السلام عليه والترحيب به.

وستجد أثر ذلك عليك وعلى الناس، أما على نفسك: فستشعر بحبهم والشفقة عليهم، ولن تحمل في قلبك ضغينة على أشدّ الناس إساءة لك بإذن الله.

وألزم نفسك على أن تحمل كل تصرف يصدر من الناس على محمل حسن، وأحسن الظن بهم.

قال بعض طلاب العلم: كان بعض المشايخ وغيرهم ـ جزاهم الله خيرًا ـ حينما أتوجه لعمل ما يخبرونني أحيانًا بأنني سأُبتلى بالحساد والمغرضين!

ولكني بحمد الله لم أر حاسدا ولا مغرضًا، ولم يقف في طريقي الدعوي والعلمي حاسد ولا حاقد؛ لأنني بحمد الله أُكثر من مدح مَن أَحْسن، وأقبل نصيحة الناصح بصدر رحب، وأحتوي من غضب وأساء، ولا أتردد بالاعتذار عند خطئي ولو كان نسبة الخطأ واحدًا بالمائة، وإذا علمت بأن أحدا وجد في خاطره عليّ بادرت إليه بالمكالمة أو المقابلة، فشرحت له موقفي، وطيبت خاطره بالكلام اللين. اهـ.

وأما على الناس: فستجدهم يكنون لك الحب، ويبشون في وجهك، ويفرحون بلقائك بهم.

والعجب من بعض الناس ـ هداهم الله ـ أنه يكره خُلُقًا من أحد الناس، أو يسمع أنه يقع به، أو يعلم عن خطأ وقع به، ثم لا يبادر إلى احتواء الموقف والإصلاح والنصح.

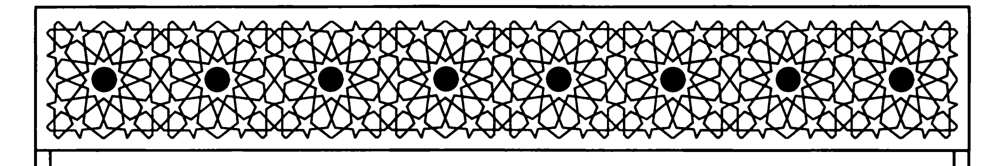
فأحدهم يأبى أن يعتذر عند الخطأ.

وآخر يعلم أن فلانا يحمل في قلبه عليه فلا يطيب خاطره ويستفصل عن سبب ذلك، فإن كان أخطأ اعتذر، وإن لم يكن قد أخطأ بين له عدم خطئه.

وثالثٌ إذا وقف على خطأ بعض الناس لم ينصحه بنفسه، بل يُرسل إليه من يتوعّده إن كان صاحب منصب، أو يُعَرِّض به عند بعض الناس.

وماذا سيخسرون لو احتووا هذه المواقف وعاملوا الناس بالرفق والرحمة والمسامحة والاعتذار، فالخطب والله يسير، والأمر سهل جدًّا، ولا تستحق أنفسنا أن نغضب لها إلى هذا الحدّ، وهذه الدنيا لا تستحقّ كذلك مَن يغْضب وَيُوَالي ويُعادي لأجلها؛ فإنّ كلّ من عادى غيره أو قاطعه لأمر لا يتعلق بمحارم الله فلا يجوز، وهو من الانتصار للنفس الأمارة بالسوء.



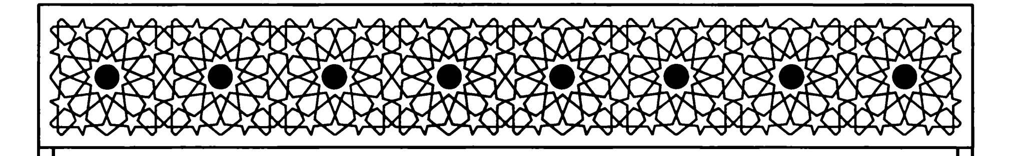


نزغات شيطانية تنتاب بعض الناس عند الانتقاد أو عدم تقدير أحد لهم

قد تكون يومًا في مجلس، ويدخل رجلٌ فيسلم عليك ببرود ولم يتحفّ بك، فيأتيك شعورٌ بأنه لو عرفك، وعرف منصبك، أو مرتبتك الوظيفية، لتحفَّى بك، وسلم عليك بحرارة، وأكرمك، وربما وددت أنَّ أحدًا عرَّفه بك، ولو فعل ذلك لفرحت، وهذا الشعور فيه شائبةُ كبر وعلو ورؤية نفس، والذي ينبغي عليك أن تطرده من نفسك، وأنْ ترى أنك مثل غيرك من عامة الناس، ولا تحبّ أنْ تتميّز بإكرامٍ وحفاوةٍ مِن بين الناس.

وقد ينتقدك مَن هو أقلُّ منك مكانةً وعلمًا وشرفًا، أو ينصحك بأسلوب جافّ: فينتابك شعور خاطف بالرد عليه لسوء أسلوبه، أو لجرأته عليك مع الفارق بينكما ـ في الظاهر ـ، فإياك أن تسمح لهذا الشعور الشيطاني بالمكث في خاطرك وقلبك ولو لثانية، بل بادر بطرده، فإنه من نفخ الشيطان وهمزه وأزّه ونزغِه، وركز في نصح الناصح ونقده، ودع أسلوبه له، فما لك وله؟





الألفة واجتماع الكلمة

اجْتِمَاعُ كَلِمَةِ المسلمين، واتحادُهم، وعدمُ التسبب في أيِّ أمرٍ يُفرق جمعهم، ويُحدث تنافر قلوبهم: أمرٌ جاءت به الأدلة القطعية المتواترة، وهو مِن أعظمِ أركان دين الإسلام، وهو مِمَّا امْتَنَّ الله تعالى به على هذه الأمة فقال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

فلا يجوز لأحدٍ أنْ يسعى في شرخٍ أمر امتنّ الله به على أمة الإسلام.

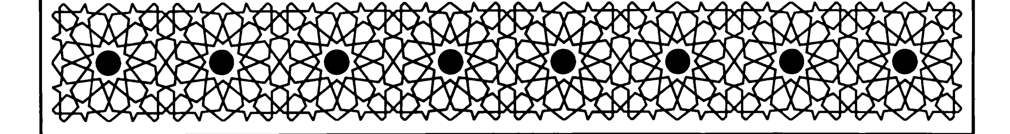
وقد ذكر الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ مِن أمثلة الأدلة القَطْعِيّة: اجْتِمَاعَ الْكَلِمَةِ[١].

فلا يجوز خرم هذا الأصل القطعي المعلوم من الدين بالضرورة إلا في مواضع مُستثناةٍ، يُفتي بها أهلُ العلم المعتبرون في كلّ زمان ومكان.

وسأفصل الكلام في هذا الأصل الهامّ الضروري بمشيئة الله تعالى:

---

(١) تهذيب كتاب الموافقات للمؤلف: ٣٠٥ ـ ٣٠٦.



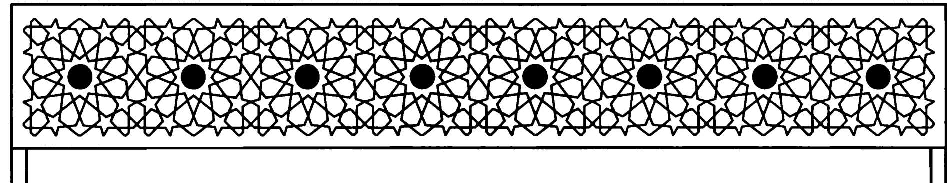


من الحكمة والعقل
ترك الردّ لأجل مصلحة تآلف القلوب

إذا كان النبي ﷺ ترك أمورًا شرعيَّةً لأجل تأليف القلوب؛ كترك بناء الكعبة على قواعد إبراهيم، وقتلِ المنافقين، فتركك ـ أخي الموفق ـ الردّ على أمورٍ تضيق صدرك، قد تبدر من بعض الناس تجاهك ومُؤاخذة ومُعاتبةِ أصحابها: أولى؛ وذلك لأجل مصلحة تآلف القلوب، وجمع الكلمة.

ومن كان غايتُه رضى الله والجنة: هان عليه عدمُ الانتقام لنفسِه إذا كان ذلك في رضى ربه الشكورِ الكريمِ، والجزاءُ مِن جنسِ العمل.





نصيحة لمن هجر وقطع مسلمًا لأسباب دنيوية

تأمل موقف الصديق أبي بكرٍ رضي الله عنه الذي كان ينفق على مسطحٍ رضي الله عنه لقرابةٍ بينهما، فهو ابنُ خالته، وكان ممن تكلَّمَ في الإفك، بل هو ممَّن اتهم عائشةَ ابنته صراحةً بما برَّأها الله منه رضي الله عنها، فحلف أبو بكر ألا ينفق عليه، ولم يَهْجره ولم يُقاطعْه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: بلى والله، أُحِبُّ أن يَغفر الله لي، وَرَدَّ إلى مسطحٍ نفقته وقال: والله لا أنزعها أبدًا(١)

تأمّلْ كيف نهى الله تعالى أنْ يقطع المعروف عمَّنْ اتَّهَمَ عرضه وشرفه.

ولا مُقارنة بين ما تعرض له أبو بكر رضي الله عنه من ظُلم من قريبه مِسطَح، وبين ما تعرضتَ له أنت من ظلمٍ من قريبك أو صديقكٍ أو جارك.

أفلا تُحبُّ أنْ يغفر الله لك؟ فاغفر وسامح كلّ من آذاك إنْ كنت تريد من الله تعالى أنْ يغفر لك ويُسامحك، في يومٍ قد تندم على عدمِ مُسامحتك وعفوك، حين ترى جزاء العافين بأمِّ عينك.

ولا يعني هذا ألا نُحاسب المخطئ، فقد حاسب النبي صلى الله عليه وسلم بعضًا من الصحابة رضي الله عنهم على بعض الأخطاء والذنوب.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٧١٩٦).

ولكن المحاسبة لا تعني إعلان المقاطعة، والغلظة والجفاء.

وتزداد شناعة القطيعة إنْ كان بينهما رحمٌ وقرابة، والعاقل يتجنَّب قطيعة قريبه خشيةَ غضب ربه، وسوءِ سُمعته.

ولا أدَعُ ابنَ العَمّ يَمْشِي عَلى شَفًا ولو بَلَغَتْنِي منْ أذاهُ الجَنادِعُ[١]
ولكن أُواسيهِ وَأنْسَى ذُنوبَهُ لِتُرجِعَهُ يَوْمًا إليّ الرّواجِع
وأُفْرِشُهُ مالي وأحفَظُ غيْبَهُ ليسمعَ أني لا أُجازيهِ سامعُ
وحسبُكَ من جهلٍ وسُوءِ صَنيعَةٍ مُعَاداةُ ذِي القُربى وإنْ قيلَ قاطعُ

ويا سبحان الله!! على ماذا هذا الكره والتقاطع؟ على دنيا فانيةٍ حقيرةٍ، أو زلةِ لسان لا يَسلم منها أحد! أمَا لَكَ في رسولك وحبيبك ﷺ أسوةٌ حسنة؟ أتعرف من هو عبد الله بن أبيّ بن سلول؟ ذلك المنافق الذي اتَّهم عرض رسول الله ﷺ!! اتهم زوجته عائشة بالفجور والزنا، حتى دخل الهمُّ والحزنُ كلَّ بيتٍ من بُيوت المدينة، وأصاب عائشةَ رضي الله عنها كربٌ شديدٌ، واغتمّ نبيّنا صاحب القلب الأبيض ﷺ غمًّا شديدًا، حتى برَّأ الله عائشة من فوق سبع سموات، وهو الذي قال مرةً: (ليخرجن الأعز منها، يعني نفسه، الأذل، يعني رسول الله ﷺ)، وما زال أذاه في رسول الله وأصحابه وعرضه حتى داهمه الموت، فجاء ابنه عبد الله بن عبد الله فقال: يا رسول الله أعطني قميصك أكفِّنه فيه، وصلِّ عليه، واستغفر له، فأعطاه صاحب القلب الأبيض الطاهر قميصه وقال له: آذِنِّي أصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وثَبَ إليه عمرُ رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أتصلي على ابن أبّي وقد قال يوم كذا: كذا وكذا، يعدِّد عليه قوله، فتبسَّم رسولُ الله ﷺ وقال: أخِّر عني يا عمر.

---

(١) الجنادع: الدَّوَاهي والمصائب والبَلايا.

فقال عمر: أما قال الله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾؟

فقال: لو أعلم أني إن زدْتُ على السبعين غُفِر له: لزدت عليها.

فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[١]

الله أكبر! ما أعظم قلب رسول الله وما أطهر فؤاده، مع كلِّ ما فَعله واقترفه هذا المنافق، وهو ليس بمسلمٍ ذي سُمْعةٍ حسنةٍ ولا قريب، ولكنه محسوبٌ من عدادِ الْمُسلمين في الظاهر، إلا أنه عليه الصلاة والسلام ما هجره وما قطعه، بل صلى عليه وكفَّنه بقميصه واستغفر له.

وعندما دخل نبيُّ الله ﷺ مكةَ فاتحًا مُنْتصرًا وقفتْ أمامه جموعٌ من قريشٍ أذلةً صاغرين، وبعضهم قد كان آذى رسول الله ﷺ أذىً شديدًا، فمنهم من قد سبَّه وشتمه، ومنهم من اتهمه بالسحر والشعوذة، ومنهم من ضربه وضرب أصحابه، فقال لهم: ما تظنون أني فاعل بكم؟ فقالوا: أخٌ كريم وابن أخٍ كريم، فقال قولته الشهيرة: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإذا كان هذا خيرَ خلق الله وأكرمَهم على الله لم يَنتقِمْ لنفسِه، مع أنَّ أذاه أَذَى الله[٢]، ويتعلّقُ به حقوق الدِّين، ونفسُه أشرف الأنفُس وأزكاها وأبرُّها، وأبعدُها من كلّ خُلُقٍ مذمومٍ، وأحقُّها بكل خُلُقٍ جميلٍ، ومع هذا فلم يكن يَنتقِم لها، فكيف يَنتقِمُ أحدُنا لنفسِه التي هو أعلم بها وبما فيها من الشرور والعيوب؟، بل الرجل العارف لا تُساوِي نفسُه عنده أن ينتقم لها، ولا

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٦).

(٢) أي أن من يُؤذي رسول الله فقد آذى الله تعالى، وفي بعض النسخ: لله، ولعل الْمُثبت هو الصواب.

قدْرَ لها عنده يُوجِبُ عليه انتصارَه لها. اهـ[١]

وها هو يوسف عليه السلام، ألقاه إخوته في الجبّ بعد أن تآمروا على قتله، وفرقوا بينه وبين أبيه وأهله أربعين سنة ـ كما قيل ـ، ذاق خلالها مرارة العبودية والسجن والظلم، فلما رفع الله من شأنه وأصبح عزيز مصر والْتقى بإخوته وقالوا له «تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ» فبماذا ردَّ عليهم؟ قال لهم «لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» فلم يُذَكِّرْهم بالماضي ولا حتى عاتبهم، بل سامحهم ودعا لهم.

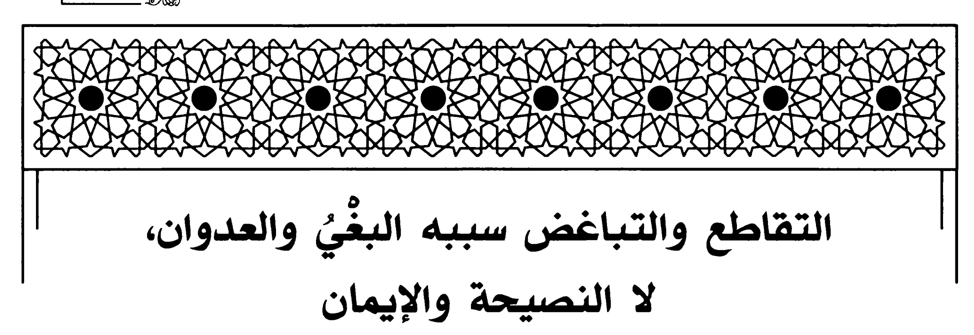
فبادرْ بطلب الصُّلحِ والعفو من صاحبك وقريبك، قِفْ أمامَه واطْلُب منه الْمُسامحة ونسيان الماضي، قبل أنْ تقفَ أمامَ الْحَكَم العدل سبحانه، فلا مجال للصلح حينها، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، إنما هي الدِّقةُ في الحساب، وسيُحاسبك على أمورٍ عملتها أو قلتها لصاحبك لم يَخْطر ببالك أنْ تُحاسَبَ عليها، ويُوقفُك على أمورٍ كنتَ تظنُّ أنك المحقُّ فيها، فإذا بك تكون الظالمَ الْمُعتدي، فتتقطَّع حسرةً وندمًا على عدمِ صلحك معه في الدنيا.

فها هو السجل بيدك اليوم، فإن أردت ألا يُفتح يوم القيامة فبادر بطلب الصلح والعفو، واحذر أن تأخذك العزة بالإثم.

وقد عدَّ كثيرٌ من العلماء التقاطع من الكبائر.

ومن أعظم الوسائل في ذهاب الكراهية من القلب: الدعاءُ بظهر الغيب لمن تُبغض، فإنه على ما فيه من الأجر العظيم لا يلبث الداعي لأخيه مع الأيام حتى يخف ما يجده في قلبه تجاهه.

(١) جامع المسائل لابن تيمية: ١/ ١٧١.



التقاطع والتباغض سببه البغْيُ والعدوان، لا النصيحة والإيمان

إن ما يحصل بين المسلم وبين أخيه المسلم من التقاطع والتباغض إنما هو بغيٌ وعدوان، سببه الظلم من أحدهما أو من كليهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: الاجتهادُ السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة، إلا مع البغي، لا لمجرد الاجتهاد.

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

فلا يكون فتنة وفرقة مع وجود الاجتهاد السائغ، بل مع نوع بغي. اهـ[(١)]

وبعض الناس يعتقد أنه إذا تكلم على أحدٍ من الناس، بسبب فعلٍ أو قول صدر منه، أو خطأ يراه، يعتقد أن كلامه القاسي وغضبه وشدته بدافع الغيرة على الدين يرفع الحرج عنه في كلّ ما يصدر منه، وأن ذلك سائغ شرعًا، ولو أدى ذلك إلى التقاطع والتنافر، وهذا اعتقاد مجانب للصواب.

وقد يصل الأمرُ ببعض الناس إلى شكايته، أو مخاطبته أو مراسلتِه بأقسى لهجة، وأعنف صيغة، كلُّ ذلك باعتقاده أن هذا هو الحل الأمثل، وأنه يقدم رضى الله ولو سخط الناس، وأنه لا تأخذه في الله لومة لائم،

---

(١) الاستقامة: ٥٢.

حتى ولو علم أنه سيترتب على فعله ما هو أعظم وأبغض إلى الله مما أنكره عليه مضى في اجتهاده الخاطئ، وهذا من عدم الفقه.

وقد أخطأ أشد الخطأ بهذا الظن، فكلّ من أنكر منكرًا فترتب عليه منكرٌ أعظم منه ـ كالتقاطع والتنافر ـ: حَرُم عليه هذا الإنكار.

هذا إذا لم يكن هذا المنكرُ شنيعًا وكبيرًا، وتعدَّى ضرره إلى الآخرين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: إذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مستلزمًا من الفساد أكثر مما فيه من الصلاح لم يكن مشروعًا. اهـ[1]

وقال أيضًا: وكلُّ ما أوجب فتنة وفرقة فليس من الدين ـ سواء كان قولًا أو فعلًا ـ. اهـ[2]

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: إنكار المنكر أربع درجات: **الأولى**: أن يزول ويخلفه ضده، **الثانية**: أن يقل وإن لم يزل بجملته، **الثالثة**: أن يخلفه ما هو مثله، **الرابعة**: أن يخلفه ما هو شر منه، فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة. اهـ[3]

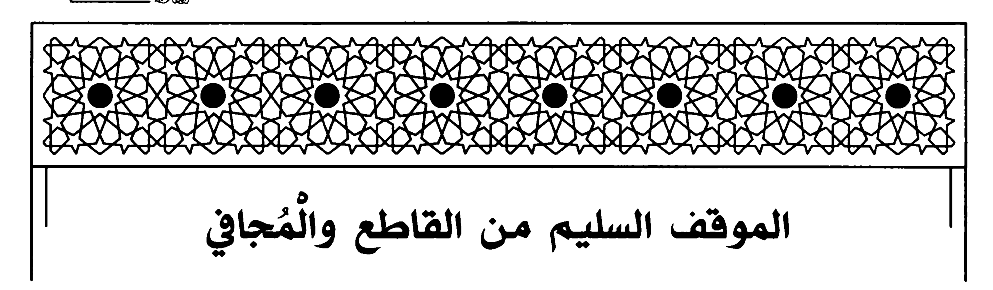


---

(١) الاستقامة: ٢٤١.

(٢) الاستقامة: ٥٦.

(٣) أعلام الموقعين ٢/ ١٤.



الموقف السليم من القاطع والْمُجافي

إذا رأيتَ من أحد نوعَ جفوة، أو بدايةَ قطيعة، فلا تُلحّ عليه وتُكثر من عتابه، فهذه حالةٌ من الفتور تعتري الكثير من الناس، وَلْيَكُنْ لسان حالك ومقالك ما قاله مَن كان على مثل حالك:

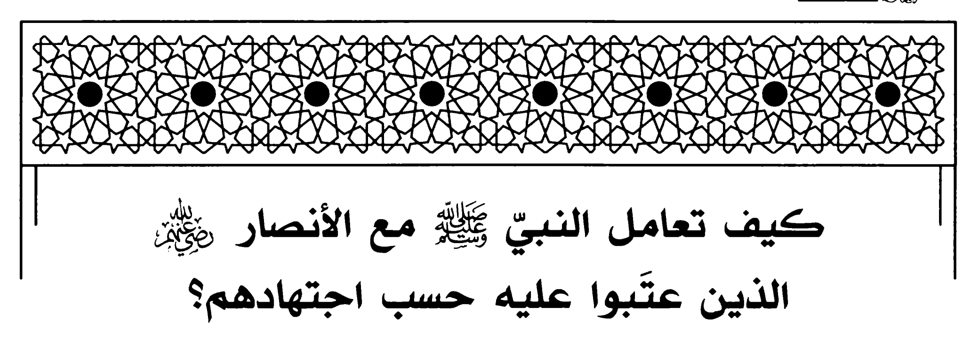
رأيتك لا تختار إلا تباعدي فباعدْتُ نفسي لاتِّباع هَواكا
فبُعْدُكَ يُؤذيني وقُرْبيْ لكمْ أذى فكيف احْتياليْ يا جُعِلْتُ فِداكًا؟

واحذرْ أنْ تُسمعه كلماتٍ قاسيةً بسبب هُجرانه، أو تفعل ما يُغضبه ويُثير الحقد في صدره، فتنسدّ الطرق في إرجاعه.

يقول أحدُ الحكماء[1]: لا تقطعْ أحدًا إلا بعد عجزِ الحيلة عن اسْتصلاحه، ولا تَتْبَعْه بعد القطيعة وقيعةً فينسدّ طريقه عن الرجوع إليك، فلعل التجارب تَردُّه إليك، وتُصْلحه لك.



(١) الصداقة والصديق: ٢٥٩.



كيف تعامل النبيّ ﷺ مع الأنصار رضي الله عنهم الذين عتَبوا عليه حسب اجتهادهم؟

حينما انتصر المسلمون في يَوْم حُنَيْنٍ، وهي معركة عظيمة، حدثت بين النبي ﷺ، وبين هوازنَ ومعهم ثقيف، في شوالَ من السنة الثامنة من الهجرة: غَنِمَ المسلمون منهم غنيمةً عظيمة، فقسَمَها النبي ﷺ فِي الْمُؤلَّفةِ قلُوبُهم، وهم كبار القوم الذين أسلموا حديثًا، فأعْطَى أبا سُفْيان، وعُيَيْنَةَ والْأقْرع، وسُهَيل بن عَمرو وغيرَهم، وهم كانوا من كبار كفار قريش، الذين طالما حاربوه وقاتلوه، لكنهم أسلموا قبل قسْم الغنيمة بأيَّامٍ قليلةٍ فقط.

ولَم يُعطِ الْأنْصارَ شيئًا، الذين بذلوا دماءَهم وأرواحهم لنصرة الإسلام، والدفاعِ عن رسول الأنام ﷺ، وذلك لحكمة عظيمة، ودرس للأمة، فوَجَدُوا في أنفسهم، إذْ لَمْ يُصِبهُم ما أصابَ النَّاسَ، وقالوا بحسرةٍ وأسى: إنَّ سيوفنا تقطر من دمائهم، وهُم يذهَبُون بالْمغْنَم؟

والرسول ﷺ لم يُعطهم شيئا من الغنيمة؛ اتكالا على ما وَقَر في قلوبِهم من الإيمان، الذي لا يزيده عطاءُ الدنيا، ولا يُنْقصه الحرمان منها.

ولكنْ محبة ما أُبيح لهم منها، وما حصَّلوه بسيوفهم وجهادهم، أوْجد في قلوبهم شيئًا، إذ رأوا غنائمهم تُقسم على غيرهم، ولا يُعطَون منها، ولم يفطنوا للحكمة الرشيدة المقصودة.

فلم يتمالك سَعْد بْنُ عُبَادَةَ ﷺ نفسه، فجاء إلى النبي ﷺ، لِيصارحه ويُخبره بما يجول في خواطر الناس، فلما أخبره بذلك، تعجَّب كيف حلَّ ذلك في قلوبهم، وقال لهُ: فأيْن أنتَ مِن ذلك يا سعْد؟ قال: ما أَنَا إِلَّا مِنْ قَوْمي.

رضي الله عن سعدٍ وأرضاه، لمْ يُجاملْ ويُحاب، بل صارحه بما جُبل عليه قلبُه.

فقال: فاجْمَعْ لِي قوْمك. فلمَّا اجْتَمعُوا قام فقال: ما حَدِيث بلغنِي عنكُمْ؟

أراد أن يتحقق ويتأكد مما سمعه، ولم يحكم عليهم حتى يسمع منهم.

فخطَبهُمْ خطبة بليغةً عجيبة، ألانت قلوبهم، وأدْمعت أعينهم، وأقْنعت عقولهم، واستخدم لغة الحبّ والنصح: النقاش والحوار الهادئ، لا الشدة والتهجَّمَ والقسوة، قال لهم: يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فجمعكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟

وجعلت هذه الكلمات تقرع قلوبهم، وتَهُزُّ أفئدتهم، وتُحرِّك مشاعرهم.

وكُلَّما قال شيئًا قالُوا: اللهُ ورسولُهُ أمنُّ، أي: المِنَّةُ والفضلُ للهِ تعالى ورسولِه ﷺ.

ثم قال لهم: ما يَمْنعُكُم أنْ تُجيبُوا رسُولَ الله؟

قَالُوا ـ ودموعُهم تسيل على خدُودِهم ـ: الله ورسولُهُ أَمَنُّ.

ثم قال: أما والله لو شِئْتُم لَقُلتُم فصَدقتُم وصُدِّقتُم: أتيتنا مُكَذَّبًا فصدَّقناك، ومَخذُولًا فنصَرْناك، وطَريدًا فآويناك، وعائِلًا فواسَيْنَاك.

فجعلوا يقولون: بل الْمَنّ علينا لله ولرسُولهِ.

ثم قال: أما تَرضونَ أنْ يَذْهبَ النَّاسُ بالشَّاةِ والبعيرِ، وتذهَبُونَ برسول اللهِ إلى رحالِكُمْ؟

ما أعظمه من كلام، وما أوقعه في نفوس صحابته الكرام.

يقول لهم، مُبينًا لهم حكمته وقصده، في عدم إعطائه لهم شيئا من الغنيمة، أما يُرضيكم أن أُعطي الناس شيئًا من تفاهةِ الدنيا: أغنامًا ودُرَيهمات، وأعطيكم أنتم نفسي ووقتي، وأجعلُكم أهلي وخاصَّتي.

ثم قال لهم: لولا الْهجرَةُ لكُنتُ امْرأً من الْأنصارِ.

أي: لولا أني هاجرت، وأصبحت من المهاجرين شرعا وعرفًا، لَتسمَّيت باسم الأنصار لا المهاجرين.

ثم قال لهم: ولو سَلَكَ النَّاسُ واديًا وشعْبًا لَسلَكْتُ وادِيَ الْأنصارِ وشِعْبَهَا.

الْأنصارُ شِعارٌ، والنَّاسُ دِثَارٌ.

انظر وتأمل لهذا الثناء والمدح الجميل.

والشِّعار: هو الثَّوْب الَّذي يلي الْجلد، والدِّثار الَّذي فَوقه.

وهِي اسْتِعارَة لَطيفة، يبين لهم شدَّةَ قُربهم منهُ، وأراد أيْضًا أنَّهم بطانته وخاصَّته، وأنَّهم ألْصق به وأقْربُ إلَيه مِنْ غيرهم.

ثم قال لهم: اللَّهمَّ ارحَم الْأنصار وأبْناء الْأنصار، وأبْناء أبْناء الْأنصار.

فبَكَوا رضي الله عنهم وأرضاهم بكاءً شديدًا، حتَّى أخْضلُوا لِحَاهُم، وقالُوا: رضِينا بِرَسُولِ الله قَسْمَا وحَظًّا.

أي: رضينا بهذه القِسمة العادلة، أن نرجع بالرسول الأمين، والنبيِّ الكريم، ويرجع بقيةُ الناس بأموال الدنيا ومتاعها.

رضي الله عن الأنصار، آثروا الآخرة على الدنيا، ورضوا برسول الله ﷺ، لا يبيعون بحبيبهم ولا يشترون، لا يرجعون عن بيعهم حتى يموتوا.

فانظر إلى حلم واسْتِعْطاف النبي ﷺ لهم، وكيف أنه لم يُعنّفهم، بل بَيَّن لهم الحقّ والصواب بأسلوبٍ لطيف مقنع، وبرّر لهم موقفه[(١)]

ونستفيد من هذه القصة ما يلي:

١ ـ أن الإنسان إذا رأى من أحدٍ ما يكرهه ويَنْقمه لا يكتم ذلك ويُخفيه، فيجد ألمًا وحرَجا في قلبه، وسوءَ ظنٍّ بصاحبه، بل عليه مصارحته بلطف وأدب، ويبين له ما يجده في خاطره، وعلى الآخر أن لا يُغضبه ذلك أبدًا، بل يشكُره على إهدائه عيبًا كان خافيا عليه، والمؤمن مِرْآة أخيه المؤمن.

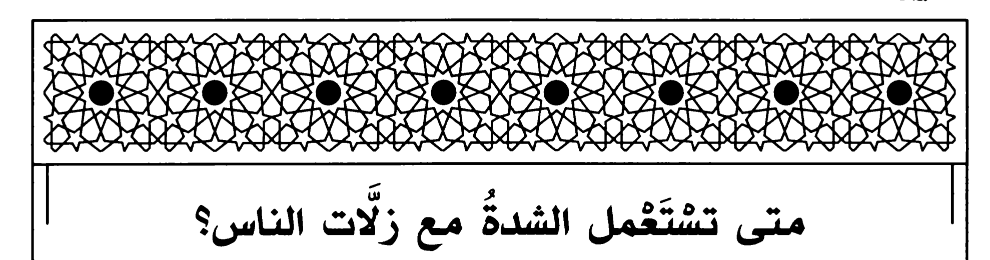
٢ ـ أنه لا ينبغي للرئيس والمسؤول أن يجابه من ينتقده بالعنف والشدة، بل يحاوره ويناقشه؛ طلبًا للحق، لا للإفحام والردّ، ولا يركن عند عجزه إلى مصادرةِ الرأي والاتكاء على منصبه.

وهكذا ينبغي أن يكون الوالد مع ولده، والمعلم مع تلميذه، والإمامُ مع جماعته.

٣ ـ أنه ينبغي الثناء والمدحُ للآخرين، وأنه ليس مذمومًا إذا كان الثناء صِدْقًا لا تملقًا، ومن صور جفاف المشاعر المذمومة: عدم الثناء على أفعال الناس الحميدة، وجهودهم النافعة، فتجده حجرًا قاسيًا، لا يعرف شكرًا ولا حمدًا.

---

(١) روى هذه القصة الإمام أحمد (١١٧٣٠٩)، والبخاري (٣١٤٧)، (١٠٥٩).



متى تسْتَعْمل الشدةُ مع زلَّات الناس؟

الزلل والخطأ الواقع عليك من الناس لا يخلو من إحدى ثلاث حالات:

الحالةُ الأُولى: أنْ يأتي من رجل صالح، حصلت منه زلةٌ أو كبوة لا يخلو منها أحدٌ من البشر.

فهذا الذي أجمع على مُسامحته العقلاء، واتفق على التجاوزِ عنه الحكماء، ولم يختلف العلماء والعقلاء في اسْتحبابِ عذره.

والذي لا يتجاوز ويعفو عنه ليس له في الوفاء أيّ نصيب، ولا يعرف الإنصاف، بل خلُقه اللوم والتثريب.

الحالةُ الثانيةُ: أنْ يأتي من رجل صالح، تكررتْ منه الزلةُ، ولم تكن كثيرةً أو شنيعةً، ففضائلُه تطْغَى على ذنوبه، ومحاسِنُه تعلو على مساويه، فهذا اختلف الحكماء والعقلاء فيه على قولين لا ثالث لهما:

القول الأول: أنْ يُعامَل كما يُعامَل الأول.

القول الثاني: أنْ يُعاتَب عتابًا رقيقًا رفيقًا.

وكلا القولين سائغ، والعمل بأيِّهما جائز.

وقد أجاد أحدُ الشعراء في علاج مَن هذه حاله فقال:

إذا كثرت ذنوبٌ من خليلٍ	فَقِفْهُ بين وصلٍ واجتناب
وأَنْظره فَلِلأَيامِ حُكْمٌ	بذلك كلُّ ماضي العزم آبِ
وعاتِبْه فكم أَبدَى عتابٌ	جَلِيَّةَ مُشْكلٍ بعد ارتياب

وَرَجِّ النفعَ في الإعراض عنه إذا أخْفَقْتَ من نفعِ العتاب
وراجِعْه بعفوك حين يَثْنِي عِنانًا للرجوع أو الإياب
فإنَّ العفو عن ذي الحزم أولى إذا قَدَرَتْ يداك على العتاب
فإنك واجدٌ للحيِّ ذنبًا وتَعْدِمُ ذنبَ مَن تحت التراب

الحالةُ الثالثة: أنْ يأتي ممن كثرتْ زلَّاتُه، وتوالتْ أخطاؤه، أو كان الخطأُ شنيعًا مُقذعًا، فيه تجاوزٌ على الشريعة، وجُرأةٌ على الملَّة، فهذا ممَّا لا خلاف فيه بين أحدٍ في تأكّد ردعه، واسْتحباب أو وجوب زجره، حتى لا يتمادى على العباد، أو يستهين بأوامر الله تعالى ودينه.

فصاحب الفسق والفجور، أو المصر على هضم حقوق الأصدقاء والأقارب، يجبُ أنْ يُردَّ عليه ويُؤدَّب، وبرفقٍ مهما أمكنْ في بادئ الأمر، فإنْ تمادى فبالشدة والحدَّة التي تُناسب حاله.

والله تعالى اشترط لمن عفا أن يتحقق في عفوه الإصلاح فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وشَرَط الله في العفو الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأمورًا به. اهـ(١)

وبعضُ الناس لِفساد طِباعه قد يُفسده التسامح والتبسط، ويُجرئه التعامل الرفيق معه، كما قال الشاعر(٢):

أضرَّ بي حسنُ خُلْقي عند عِشْرَته وربما ضرَّ حسنُ الخلْق أحيانًا



(١) تفسير السعدي ١/ ٧٦٠.
(٢) الصداقة والصديق لأبي حيان: ٢٠٤.



الإصلاحُ والسعيُ في تأليفِ القلوب من أخلاق النبلاء الأتقياء

إصلاحُ ذات البين، والحرصُ على لَمِّ شمل الْمُتقاطِعَين، وتقريب وجهات النظرِ من أعظم الأعمال عند الله تعالى.

قال النبيّ عليه الصلاة والسلام: «**ألا أخبركم بأفضلَ مِنْ درجة الصلاة والصيام والصَّدقة؟**»

قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «صلاحُ ذاتِ البينِ؛ فإنَّ فسادَ ذات البين هي الحالِقةُ»[١]

إنَّ المكارمَ كلَّها لو حُصِّلتْ رَجَعَتْ بِجُمْلَتِها إلى شَيئَينِ
تَعْظِيمُ أمْرِ الله جلَّ جلالُه والسَّعيُ في إصْلاحِ ذاتِ البَيْنِ

فهذا العملُ العظيمُ أفضلُ مِنْ درجة صلاة النفل وصيام النفل والصَّدقة!

فيا سبحان الله! ما أزهد الكثيرَ من الناس في هذا الأجر العظيم!

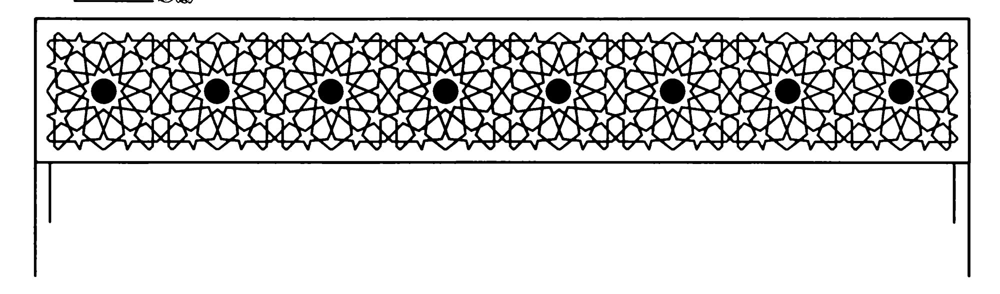
وقد رغَّب الله تعالى في الإصلاح بين المتخاصمين فقال الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

---

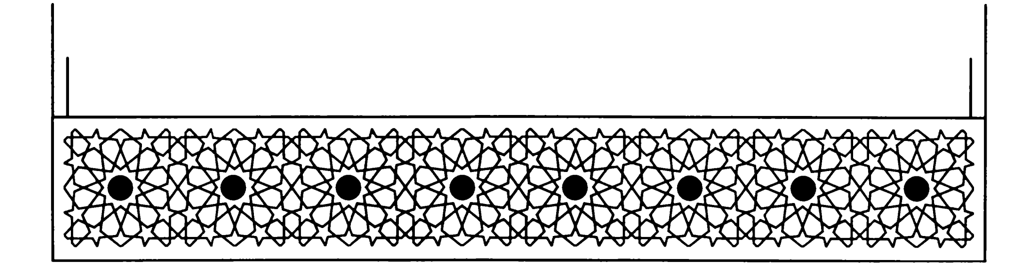
(١) رواه الإمام أحمد ٦/ ٤٤٤، وأبو داود (٤٩١٩)، والترمذيُّ (٢٥٠٩)، وقال: «حسن صحيح»، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

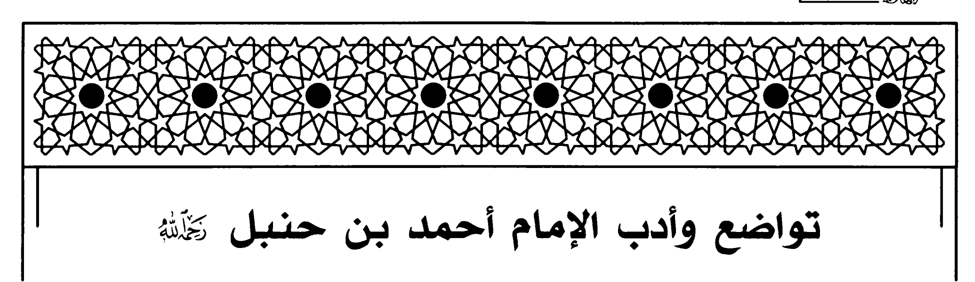
ومِن أهم الأمور عند حدوث المشكلة، أنْ يُبادر الجميع إلى احتوائها، وعدمِ تركها تَتَراكَمُ وتَتَفاقم، وإذا لم يُبادِروا إلى ذلك، فسوف تحدث القطيعةُ والفرقة والبغضاء غالبًا.





قصص ومواقف وحِكم





تواضع وأدب الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ

قَالَ حرمي بْن يُونُسَ: أتيت أبا عَبْد اللهِ الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ فسألته عَنْ حديث فقال: نعم، حتى أخرجه لك، قال: فلما كان فِي نصف النهار إذا رجل يدق عَلَيّ الباب، فخرجت فإذا أَبُو عَبْدِ اللهِ! فقلت: حاجة؟ قَالَ: نعم، قلت: تدخل، قَالَ: نعم، فدخل فأخرج إلي رقعة فيها أحاديث فقرأها عَلَيّ، ثم أبرد(١) عندي ومضى(٢)

انظر إلى أدب الإمام أحمد بن حنبل وتواضعه رَحِمَهُ اللهُ، حيث أتى بنفسه إلى هذا الطالب، ودخل بيته وحدَّثه، وطيَّب خاطره بمكثه عنده بعض الوقت.



(١) أي: أقام عندي حتى انكسر حرّ الشمس.

(٢) طبقات الحنابلة (١/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤).



موقف الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ مع قاض سعى في أذاه

قال الشيخ عبد الله البسام رَحِمَهُ اللَّهُ: حدث شَغْب[1] بمناسبة تقرير بعض الأساتذة المصريين في مدينة عنيزة، وذلك أنَّ أحد الطلبة انتقد هذا الأستاذ ووشى به إلى قاضي عنيزة، فبعث عمَّا حدث للمعارف، فعُزل المصري عن وظيفته، فقام بالمطالبة وتفرَّق الناس إلى صنفين، فصنفٌ أيَّده وقال: لا محظور فيما قاله، وقالوا: قد سبقه السيوطي فيما قاله في (الإتقان)، ومنهم شيخنا عبد الرحمن ابن سعدي (١٣٠٧ ـ ١٣٧٦) وثُلَّة من الطلبة.

وصنفٌ نقدوه وشدُّوا أزْر القاضي، وطال النزاع وكثرت الوشايات والمقالات المُغْرِضة، فأورثتْ بين الشيخَين عبد الرحمن ابن سعدي والقاضي حزازات، فحاول القاضي عزله من إمامة وخطابة الجامع، وقال لشيخنا محمد العبد العزيز المطوع: نصَّبناك إمامًا في الجامع، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: ما كان ينبغي لمثلي أن يحُلَّ محلَّ شيخنا، فضجَّ الناس، وأبرقوا للملك يطلبون تأييد شيخنا ابن سعدي، فأجابهم الملك لتأييده مدة حياته، فعند ذلك تَنَكَّر الناس عليه، وتعكَّر صفو الحياة، وتحزَّب الناس، فلما رأى ذلك ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وطلب الإعفاء من منصبه فأعفي.

فتعيّن مدرسا بالمعهد العلمي بالرياض، وتوالت عليه أمراض كانت

---

(١) الشغب: تهييج الشرّ.

تعتاده، فوافاه أجله المحتوم سنة (١٣٧٤) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وصلى عليه شيخنا عبد الرحمن ابن سعدي صلاة الغائب في عنيزة. اهـ[1]

صفاء القلب من الحقد والحسد كرامة وهبة من الله، فاطلبها منه.

فمع ما قام به القاضي تجاه الشيخ السعدي رحمهما الله، وسعيه في عزله عن الإمامة والخطابة إلا أنه لم يحقد عليه، بل صلى عليه صلاة الغائب لما مات، فيا لها من قلوب ما أطهرها.



(١) علماء نجد خلال ثمانية قرون (٣/ ١١٣ ـ ١١٤).



تواضع الإمام أبي جعفر الطحاوي

قال بعضهم: حضرت مجلس أبي جعفر الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٣٩ ـ ٣٢١)، وعنده أبو عثمان بن حماد رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٧٥ ـ ٣٢٩) وهو يومئذ قاضي مصر، فدخل إليه رجل، فسأل أبا جعفر عن مسألة، فقال له أبو جعفر: مذهب القاضي أيده الله كذا وكذا، فقال له السائل: ما جئت إلى القاضي، إنما جئت إليك، فقال: يا هذا، مذهب القاضي ما قلت لك، فقال له السائل مثل ما قال له أولًا، فقال أبو عثمان: أفته أيدك الله، فقال أبو جعفر: إذا أذن القاضي أيده الله أفتيه، ثم أفتاه بعد ذلك[1]

انظر إلى أدب وتواضع الإمام أبي جعفر الطحاوي، مع أنه أكبر من القاضي بأكثر من خمس وثلاثين سنة، فما أجمل أن يتحلى المسلم بمثل هذا الأدب مع شيوخه وأقرانه وغيرهم، بل ومع مَن هم أصغر منه، إذا كانوا من أهل العلم والفضل، ولن ينقص ذلك من قدره، ويحط من مكانته.

فالتواضع والأدب دليل على التوفيق والصدق وسلامة الصدر.

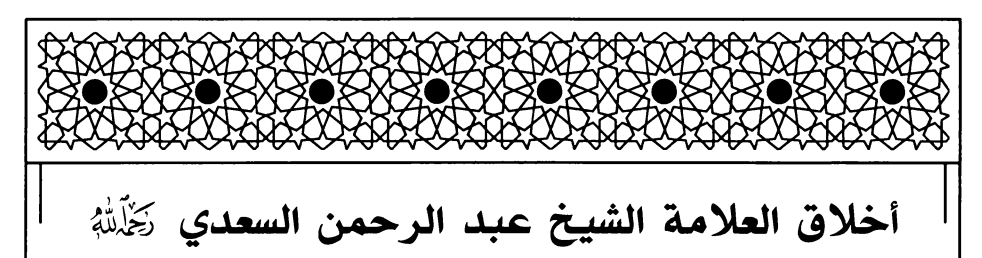
ولما تواضع آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وخضع قرب وعز، ولما تكبر إبليس واستعلى طرد وذل، وهذه سنة الله في خلقه، يرفع من تواضع، ويضع من تكبر.

وصدق القائل:

وإذا تذللت الرقاب تواضعا   منا إليك فعزها في ذلها

---

(١) ترتيب المدارك (٣/ ٢٣٣).



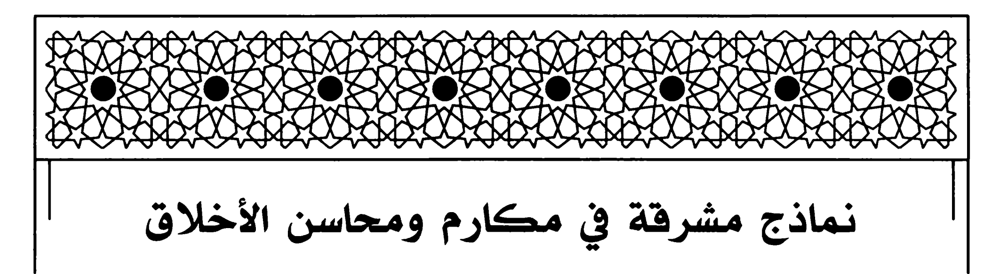
أخلاق العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله

«الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله له أخلاق أرقّ من النسيم، وأعذب من السلسبيل، لا يُعاتب على الهفوة، ولا يُؤاخذ بالجفوة، يتودّد ويتحبب إلى البعيد والقريب، يقابل بالبشاشة، ويحيّي بالطلاقة، ويُعاشر بالحسنى، ويُجالس بالمنادمة، ويجاذب أطراف أحاديث الأنس والود، ويعطف على الفقير والصغير، ويبذل طاقاته ووسعه بالخير، ويساعد بماله وجاهه، وينشر علمه ونصحه، ويُدلي برأيه ومشورته بلسان صادق وقلب خالص وسرٍّ مكتوم»[(١)]

فليتحلّ المسلم بهذه الأخلاق والقيم؛ ليرفعه الله ويبارك فيه.



(١) علماء نجد للبسام ٣/ ٢٠١.



نماذج مشرقة في مكارم ومحاسن الأخلاق

الحياة مليئة بالنماذج المشرقة، والأمثلة الرائعة في مكارم ومحاسن الأخلاق، وسأذكرها على جهة الاختصار، وأبيّن صفات بعض الذين عاشرتهم؛ لنتّصف بها، ونتخلّق بها، ولقد استفدت من أخلاقهم كثيرًا، وجعلت أخلاقهم وحسن تعاملهم بين عينيّ، فاستفدت كثيرًا، جزاهم الله خيرًا، وكثر من أمثالهم، ولم أذكر أسماء أصحابها؛ لأن الهدف هو إبراز هذه المكارم لعلها تكون حافزًا ودافعًا للاقتداء بها:

المثال الأول: كنت في بداية طلبي للعلم قد حلّقت في سماء العلم والكتب قراءة ودراسة، وكنت أشعر بنوع من النشوة والترفع؛ ظنًّا مني أنّه من أجل توقير العلم!

وكنت يومًا أسير في الطريق على قدمي، فمرّ أحد أساتذتي الكرام على سيارته، الذين لهم مكانة جليلة في قلبي، فلما رآني توقف ونزل للسلام علي!

فأكبرت ذلك منه، وارتفع قدره عندي، وكان هذا الموقف له أكبر الأثر عليّ في عدم الترفع والعُجب والتكلّف، فجزاه الله عني خير الجزاء.

المثال الثاني: كنت أدرس في علم التجويد والقراءات على أحد المشايخ الفضلاء، الذي كان آية في الأدب وحسن الأخلاق والتواضع وطرحِ التكلّف، فاعتذرت له يومًا عن الدرس؛ وأخبرته أنّ السيارة حصل

عليها عطل، فجاء وأخذني من بيتي لمسجده حتى لا يفوتني الدرس، ثم أرجعني مرة أخرى!

المثال الثالث: كنت في صغري مخفقًا في دراستي، فقرّر أخي الأكبر جزاه الله عني خيرًا أنْ أنْتَقِلَ إلى مدرسةٍ أُخرى، فانتقلت إليها، وكان مديرها أستاذًا صاحب أخلاق عالية، وتعاملًا حسنًا، وكان هو السبب بعد الله تعالى في حماسي للدراسة، وحرصي ونشاطي، حيث كان يُشجعني دومًا، ويُثْنِي عليّ ويشكرني، وقال لي عبارته التي لم أنسها إلى يومي هذا، وهي التي أخرجني الله تعالى بسببها من حضيض الإهمال والإحباط: ما رأيك بالأمر الفلانيّ؟

طلب رأيي في أمر يتعلّق بالمدرسة والتعليم!

فقلت في نفسي: من أنا حتى يسألني عن هذا الأمر الكبير؟ أَوَ مثلي يُستشار؟

فعقدت العزم على الجدّ والمذاكرة، لا لشيءٍ إلا لئلا أسقط من عينه، وأخسر ما أراه من تشجيعِهِ وثنائه.

فنجحت تلك السنة بتقدير ممتاز، وكنت الثالث على دفعتي والحمد لله.

وأكملت دراستي المتوسطة والثانوية فيها، وكانت النتائج ما بين الممتاز والجيد جدًا، ثم التحقت بجامعة الإمام بالقصيم، ودخلت قسم اللغة الإنجليزية، فدرستُ سنةً نجحت فيها بمُعدَّلٍ مرتفع.

فانظر إلى هذا الموقف النبيل من هذا الأستاذ القدير، كيف أثر عليّ تأثيرًا بالغًا، وكان سببًا في اجتهادي ونجاحي في الدراسة.

المثال الرابع: بينما كان أخي جالسا في المسجد، إذ رآه أحد المشايخ الكبار سنًّا وقدرًا، فقام وأقبل إليه، فلم يشعر إلا وهو واقف

عند رأسه ليسلّم عليه، فقام إليه وعانقه، وقد حدثني بهذا الموقف وهو متأثر تأثّرًا كبيرًا من كرم أخلاقه وتواضعه وأدبه.

المثال الخامس: أحد المشايخ الفضلاء لا يسعه الفرح والسرور إذا علم أنّ الناس أثنوا على أحد زملائه أو تلاميذه فضلا عن مشايخه، أو عمل عملا جليلًا، كتأليف كتاب، وانتشار ذكره بين الناس، ويُبادر بإرسال الشكر والثناء والتحفيز.

وكثيرًا ما يثني على غيره في المجالس وعند ورود ذكره، فما أنبله وأحسن أخلاقه.

المثال السادس: أحد الفضلاء النبلاء كان آية في حسن الأخلاق والتعامل، وخاصة في التواضع واللين والأدب وحفظ اللسان.

فهو يُعامل الصغير كالكبير، يحترمه ـ بلا تكلّف ـ، وتجد من أصدقائه من يصغره عشر سنين.

ولم أقف يومًا ـ على كثرة مصاحبتي له ـ على كلمة قاسية على أحد، ولم أره غضب مرة واحدة، ولا يعرف العتاب ولا اللوم والحقد، وأغلظ كلمة تسمعها منه إذا بلغه أمر يُستنكر من أحد: شيء غريب.

وقد غمره الله أدبًا واحترامًا لكل أحد.

ومن صاحبه تعلّم مكارم الأخلاق من سلوكه أكثر من أقواله، وهذا ما يُنادي به الحكماء من السلف الصالح وغيرهم.

المثال السابع: أحد الفضلاء المباركين لو قيل له: هل تقدر على أن تغتاب، لربما قال: لا، كلٌّ قد سلم من لسانه، ولا يسمح لأحد بالغيبة أبدًا.

ويغرق أصحابه بالثناء والإكرام والتقدير، وإذا أُثني عليه يُحاول تغيير الموضوع بأدب.

المثال الثامن: أحد العلماء الأجلاء، لا مثيل لابتسامته، وحسن بشاشته، يكاد وجهُه يستنير منها، وهو لا يتكلّفها، بل هي عادته وأخلاقه مع الجميع.

وإذا جرى الحديث عن العلم ازدرى نفسه وقلة حفظه وتحصيله، وأثنى على بعض الحفاظ والمبرزين، وقد يكونون من أقرانه، ولكنه في الحقيقة عالم محقق متقن لا يُشقّ له غبار.

المثال التاسع: أحد السباقين للخيرات، المبادرين إلى المكرمات، لا يكاد يقابل صديقه إلا ومعه هدية له، ككتاب، أو عطر، ونحو ذلك، ولا تسل عن أثرها على قلوب أصدقائه وأقاربه.

المثال العاشر: أحد المشاهير في مواقع التواصل، جعل موقع (تويتر) وسيلةً لدعم أصحاب الحسابات النافعة، وخاصة الذين لا يتابعهم إلا القليل من الناس، فيُثني على حساباتهم، بل إنه يراسل أصحابه الذي يُتابعهم الكثير من الناس ويطلب منهم دعم بعض أهل الخير والصلاح؛ رغبةً في إدخال السرور عليهم، وتحفيزهم وإبرازهم، وهذا من أنواع الكرم، وهو دليل على صفاء القلب، ومحبته لإخوانه ما يُحبه لنفسه، فجزاه الله خيرًا، وكثر من أمثاله.

المثال الحادي عشر: أعرف امرأةً عاقلة حكيمة حصل خلافٌ بينها وبين زوجها، حتى كَثُرَ خلافُهما وعَظُم، فطلّقها طلقةً واحدة، ثم انتهت عدّتها، وحاول إرجاعها مرارًا فرفضت، ومنذ طلاقها لم تتكلّم عنه بسوء ولا بكلمة، بل كانت تُثْني عليه، وجعلت في بيتها ـ الذي هو ملكها ـ قسمًا خاصًّا منعزلا له، وتُصلح له غداءه وعشاءه كلّ يوم، وتُرسله مع أولادها، تفضُّلا منها وكرَمًا ووفاء، ومكثت على هذا الحال قرابة عشر سنين، حتى تزوج بغيرها، وكانت تحثّ أولادها على برّه والقيام بشؤونه.

وقارن بين هذا الوفاء والخلق الرفيع وبين مَن تضع حفلةً في مناسبة فراق زوجها، وتحطُّ مِن قدره كلّما جاء ذكرُه، ولا تذكره إلا بسوء!

المثال الثاني عشر: اتَّصل عليَّ رجلٌ لا تربطني به علاقة، وقال: إنّي عَلِمْت أنّ صديقي فلانًا ـ وهو من أعزِّ أصدقائي ـ قد ظلمك بالأمر الفلاني، وإني أقف بجانبك ضدّه، ولن أُقرّه على ظُلْمِه وتعدِّيه.

فانظر كيف وَقَف مع الحق ونصره ولو على حساب أعزِّ أصدقائه، فيا لها من أخلاقٍ ما أعظمها، وليس هذا غريبًا على أخلاق المسلمين، الذين ربّاهم الإسلام على مثل هذه القِيَم والأخلاق النبيلة.

وقد تقول: لماذا لم تذكر النماذج المظلمة في سوء الخلق؛ كي نحذر منها؟

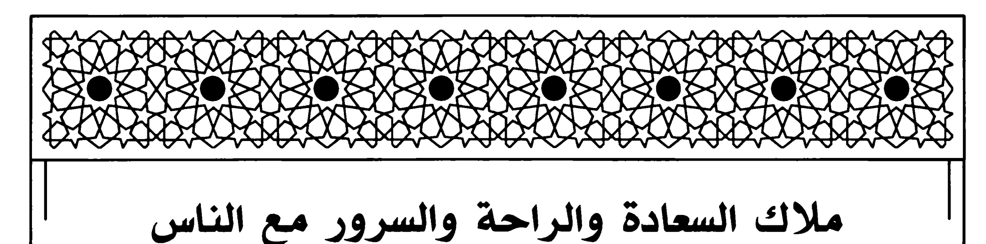
فأقول: إنما لم أذكرها لعدة أسباب:

السبب الأول: أنه ما من أحدٍ إلا وقد واجه من الناس تصرفات لا تعجبه، وكلمات تُؤلِمُه، ولو جعلنا نتذكرها لعادت إلينا آلامها وأحزانها، التي عانينا منها وقتها، فهل من العقل أن نجدد الآلام والأحزان التي عافانا الله منها؟

فينبغي علينا أن نتناساها، وأن نجعلها خلف ظهورنا، لا أن نجعلها أمامنا.

السبب الثاني: أنّ هذه النماذج المظلمة لو وقفنا عندها لأثرت علينا ظلمتها، وعِشْنا في ظلام لا نرى إلا سوادًا، وسنرى الأشياء على غير حقيقتها، والأجدر بنا أن نتجنب هذا الظلام ونبحث عن النور؛ كي نرى الأشياء على حقيقتها، ولكي يُضيء لنا هذا النور دربنا وطريقنا نحو الحياة الجميلة، والأهداف النبيلة، والراحة النفسية.

السبب الثالث: أنه يجب علينا أن نلتمس لأصحابها الأعذار تلو الأعذار.



ملاك السعادة والراحة والسرور مع الناس

إذا أردت ملاك السعادة والراحة والسرور مع الناس فعليك بهذه القواعد الثلاث:

١ ـ لا تُظهر عدم رغبتك أو مُيولك لأيّ أحد مهما كان السبب، بل قابل الجميع بالْبِشْر.

٢ ـ لا تنتظر ممّن أحسنت إليه جزاء ولا شكورًا.

٣ ـ وطّن نفسك على أنَّ أصدقاءك وأهلك وطلابك سيخطئون عليك أو على غيرك، وإذا فعلت ذلك لم يكبر في نفسك خطؤهم، والْتمست العذر لهم؛ لأنهم بشر جُبلوا على النسيان والخطأ، وقد يصدر منك خطأ تجاههم.

وعاملهم حينها بالنصح والإرشاد، لا باللوم والعتاب.





درس تربوي من الخلاف الذي حصل بين أَبي بَكْرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما

كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما مُحَاوَرَةٌ - أي كلامٌ وجدال -، فأغضب أبو بكر عمَرَ، فانصرف عنه عمر مُغْضَبا، فاتَّبَعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه.

رضي الله عن أصحاب نبيّنا محمدٍ ﷺ، وجمعنا بهم في جنات النعيم.

هذان الصحابيان الجليلان، اللذان هما أفضلُ الناس بعد النبيِّين والْمُرسلين، يَحدُث بينهما من الخلاف وسوءِ التفاهُم، بل والغضبِ وإغلاقِ الباب في وجه صاحبه، كما يحدث من جميع الناس، والذي يُميِّزُهم عن جميع الناس أنَّ هذا الخلاف الشديدَ لا يدوم طويلًا، ولا يُحدث فُرقةً وعداوة، بل لا يزدادان بعد ذلك إلا محبَّةً وأُلفةً وصلة.

فهذا الصِّدِّيقُ أَبُو بكْرٍ رضي الله عنه، يَطلبُ من الفاروق أن يَسْتغْفرَ لهُ ويُسامحه، فلمْ يَفْعلْ ذلك، بل وأغْلق بابهُ في وَجْهه.

فما موقفك لو واجهكَ أخوك أو صديقُك بمثل هذا؟، ربما ستقطعه وتكرهه، ولو اعتذر إليك بعدها وتأسَّف: فلن تقبل عذره وأسفه إلا أنْ يشاء الله، ولو قبِلْتَ عذره: لبقي في قلبك مَوجِدةٌ وحَنَقٌ عليه.

انظر ماذا حصل بينهما بعد ذلك، فحينما رأى أبو بكرٍ من عمر رضي الله عنهما

هذا الردّ: أصبح مهمومًا حزينًا، وكأن الجبال على عاتقَيْه، أتدري لماذا؟ ليس لما لاقاه من جفاء عمر، بل خوفًا أنْ يكون قد آذاه، أو بَدَرَ منه شيءٌ أساء إلى صديقه، فما كان منه إلا أنْ أقْبلَ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ، آخذًا بِطرَفِ ثوْبه حتَّى أبْدَى عن رُكْبَتهِ من شدَّةِ الهمّ والغمّ، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «**أمَّا صاحِبُكُمْ فقد غامرَ**» أي خاصَم، فَجاء وسَلَّمَ ثم قَالَ: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي فأبى علي، فأقبلت إليك، فقال: «**يغفر الله لك يا أبا بكر**» ثلاثًا.

فما كان من عُمَرَ الفاروق إلا أنْ نَدِمَ على فعله، وأحسّ بحرقةٍ تجاه تصرُّفه.

فلا إله إلا الله، أين من يتكلَّمُ على صديقه أو أخيه بكلامٍ سيِّئ، أين مَن يُغضب صاحبه ويُكدِّر خاطره، ثم يَمضي على وجهه كأنَّ شيئًا لم يكن، لا يسأله مغفرةً وعفوًا، أو يستسْمحُه ويُطيِّبُ خاطره.

فهذا هو الكِبْرُ بعينه، يعتقد أنَّه إذا اعتذر أو طلبَ الْمُسامحة سيقلُّ قدرُه، وتسقُطُ هيبته، وهو لا يعلم أنه بعدم اعتذاره سيقلُّ قدره عند الله تعالى، وسيمقته عقلاء الناس.

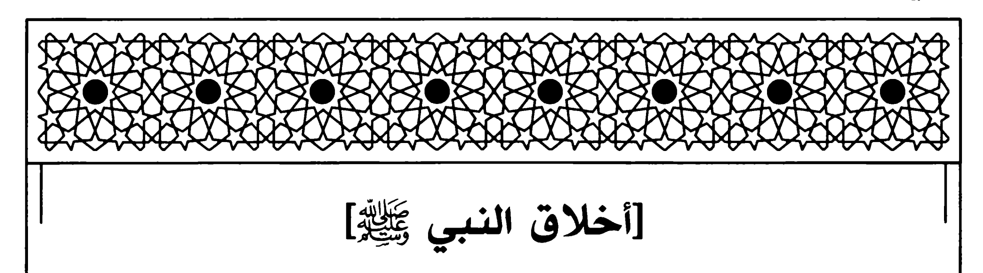
فعندما ندم عمرُ رضي الله عنه، أتى مَنْزِل أبِي بكرٍ مهمومًا فسألَ: أَثَّمَ أَبُو بَكْرٍ؟ فقالُوا: لا، فازداد همًّا وغمًّا، فما كان منه إلا أنْ توجّه إِلَى النَّبيِّ ﷺ مهمومًا حزينًا، فَسَلَّمَ عليه، فَجعلَ وجْهُ النَّبيِّ ﷺ يَتمعَّرُ، أي يتغيَّر من الغضب والحنق، حتَّى أشْفَقَ أَبُو بكرٍ على عمرَ رضي الله عنهما، فجثَا علَى رُكْبَتَيه وقال: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلمَ، وَالله أنا كُنْتُ أظْلَمَ، بدأ يُدافع ويُحاجج عنه، بل ويحلف بالله أنه كان أظلم، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق، وواساني بنفسه**

وماله، **فهل أنتم تاركوا لي صاحبي**» مرتين، فما أوذي بعدها[١]

ما أعظم قلوب الصحابةِ ﭬ، وسرعةَ عفوهم ومُسامحتهم للمخطئ، مهما بلَغَ وعظُمَ الخطأ، فالصِّدِّيقُ قبِل اعتذار الفاروقِ ﭬ، بل وجعل يُدافع ويُنافح عنه.



(١) هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه عن أبِي الدَّرداءِ ﭬ (٣٦٦١).



[أخلاق النبي ﷺ]

١ ـ سهلٌ ليّن.

٢ ـ قريبٌ من النَّاس.

٣ ـ مُجيب لدعوة من دعاه.

٤ ـ قَاضٍ لحَاجَة من استقضاه.

٥ ـ جَابرٌ لقلب من قَصده، لا يحرمه ولا يردهُ خائبًا.

٦ ـ إذا أرادَ أَصحَابه منه أمرًا وافقهم عليه وتابعهم فيهِ.

٧ ـ وَإن عزم على أَمر لم يستبدّ دونهم، بل يشاورهم ويُؤامرهم.

٨ ـ وكان يَقْبَل من مُحْسِنهم ويَعْفُو عَن مُسِيئهم.

٩ ـ لم يكن يعاشر جليسًا لَهُ إلا أتمّ عُشرَةً وأحسنها وأكْرمها.

١٠ ـ فكان لا يعبس في وَجهه.

١١ ـ ولا يُغلظ لَهُ في مقاله.

١٢ ـ ولا يطوي عَنهُ بِشْرَه.

١٣ ـ ولا يُمْسك عَليهِ فلتات لِسانِهِ.

١٤ ـ وَلا يُؤاخِذه بِما يصدر مِنهُ من جفوةٍ ونحوها.

١٥ ـ بل يُحسِن إلى عشيرِهِ غاية الإحسان، ويحْتَمله غاية الإحْتمال.

١٦ ـ ولا يعاقب أحدًا منهم.

١٧ ـ ولا يلومه.

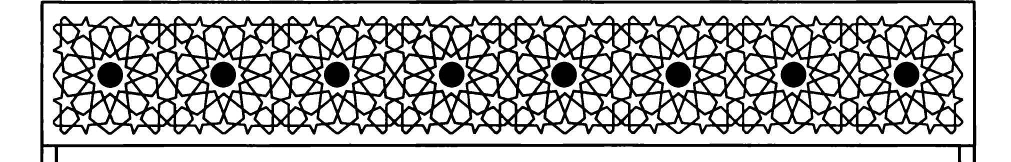
١٨ ـ ولا يباديه بما يكره.

١٩ ـ من خالطه يقول: أنا أحبُّ الناس إليه؛ لما يرى من لطفه به، وقربه منهُ، وإقباله عليهِ، واهتمامه بأَمْره، وتضحيته له، وبذل إحسانه إليه، واحتمال جفوته.

فَأَي عِشرَة كانَت أَو تكون أكْرم من هَذِه العشْرَة؟[1]

---

(١) جلاء الأفهام لابن القيم: ٢٠٠ ـ ٢٠١.



الأخلاق المذمومة

أصل الأخلاق المذمومة كلّها من خلُقين ذميمين:

الأول: الكبر.

والثاني: الدناءة.

فالفخر، والبطر، والأشر، والعُجْب، والحسد، والبغي، والخيلاء، والظلم، والقسوة، والتجبر، والإعراض، وإباءُ قبول النصيحة، والاستئثار، وطلب العلو، وحب الجاه والرئاسة، وأن يحمد بما لم يفعل، وأمثال ذلك: كلُّها ناشئة من الكبر.

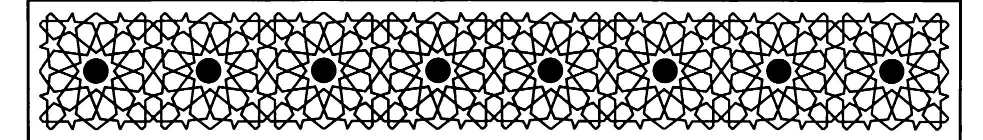
وأما الكذب، والخسة، والخيانة، والرياء، والمكر، والخديعة، والطمع، والفزع، والجبن، والبخل، والعجز، والكسل، والذل لغير الله، ونحو ذلك: فإنها من الدناءة وصغر النفس.

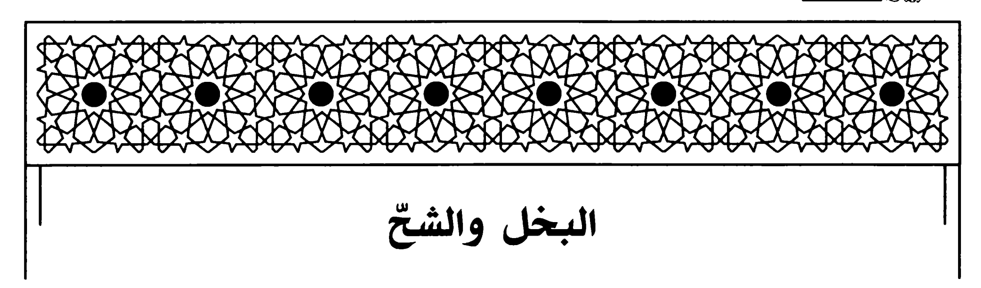
فمن دَنَت همّته وطغت نفسه: اتصف بكلّ خلق رذيل[١].

وسأفصل في بعض الأخلاق المذمومة إن شاء الله تعالى:

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١٥٣).





البخل والشحّ

البخل من أعظم الأمراض والأدواء، وأخسِّ الطبائع والأخلاق.

ولو لم يكن من آثار ومفاسد البخل، إلا أنَّ صاحبه فقد لذة الإنفاق وإدخال السرور على الفقراء والمحتاجين؛ فإن المنفقَ يجد عند إنفاقه وبذله، وإعطائه وكرمه، سعادةً عظيمة، ولذةً فائقة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ - مُعدِّدًا أسْباب انْشراحِ الصّدْرِ -: ومنها: الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه والنفع بالبدن وأنواع الإحسان، فإنَّ الكريم المحسن أشرح الناس صدرًا، وأطيبهم نفسا، وأنعمهم قلبًا، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرًا، وأنكدهم عيشًا، وأعظمهم هما وغمًّا.

وقد ضرب رسول الله ﷺ في الصحيح مثلا للبخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد، كلما هم المتصدق بصدقة اتسعت عليه وانبسطت حتى يجر ثيابه، وكلما همَّ البخيل بالصدقة لزمت كلُّ حلقة مكانها ولم تتسع عليه.

فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق، وانفساح قلبه، ومثل ضيق صدر البخيل، وانحصار قلبه[١] اهـ.

وصدق القائل:

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٢٤.

الـمـال عـنـدكَ مـخـزونٌ لـوارثـه   ما الـمالُ مالُك إلا حين تُنفِقه

وصدق الآخر:

يا جامع المال في الدنيا لوارثه   هل أنت بالمال قبل الموت منتفع

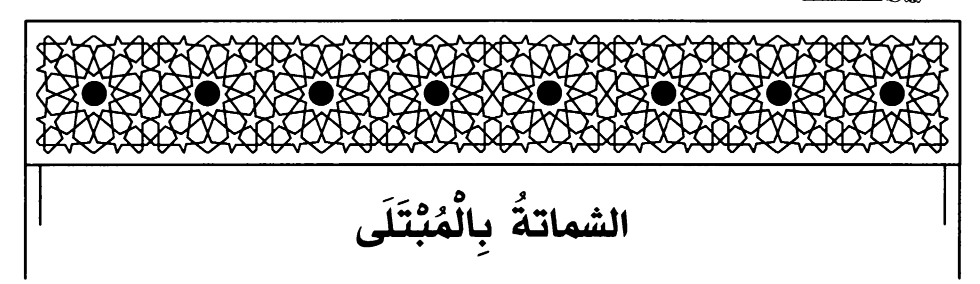
قدِّم لنفسك قبل الموت في مهل   فإنَّ حظَّك بعد الموت منقطع

وإياك وداء الشُّحّ، والشُّحّ هو: «شدةُ الحرص على الشيء، والإحفاءُ في طلبه، والاستقصاءُ في تحصيله، وجَشَعُ النفس عليه.

والبخل: منع إنفاقه بعد حصوله، وحبُّه وإمساكه، فهو شحيح قبل حصوله، بخيل بعد حصوله، فالبخل ثمرةُ الشح، والشح يدعو إلى البخل، والشح كامنٌ في النفس، فمن بخل فقد أطاع شحَّه، ومن لم يبخل فقد عصى شحَّه، ووُقي شره، وذلك هو المفلح ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾»[1]



(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٣٣).



الشماتةُ بِالْمُبْتَلَى

إذا رأيتَ مَن ابْتُلي في أولاده بانحرافٍ أو قصور، فاحذر أنْ تشْمَتَ به أو بأولاده، واسألِ الله العافية له ولأولاده، واحمَده سبحانه على صلاح أولادك، ولا تشتغلْ بلوم أهلِهِ، فقد يكونون مجتهدين، ولكنَّ الله لم يشأ صلاحهم.

وإذا رأيت من هو مفرّط في دينه، مُبْتلىً بمعصية ظاهرة أو باطنة، فلا تشمت به، ولا تقل في نفسك: يا له من مجترئ على الله، سخيف حقير، أو ما شابه ذلك، ولكن احمد الله أن عافاك مما ابتلاه، واسأل الله له الهداية، مع سعيك في ذلك.

فإياك والشماتة بأحد، فربما انتقل الداء إليك؛ عقوبةً من الله على شماتتك وعدمِ شكرك.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لو سخرتُ من كلبٍ لخشيت أن أُحوّل كلبًا[(١)]

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله: إني لأرى الشيء أكرهه في نفسي فما يمنعني أن أعيبه إلا كراهية أن أبتلى بمثله[(٢)]

وقال آخر: لا تشمت بمن حلّ به بلاءٌ، فإنه إنْ عُوفي كان مثلك، وأنت إنْ ابْتُليت كنت مثله.

---

(١) صفة الصفوة ١/ ١٩١.

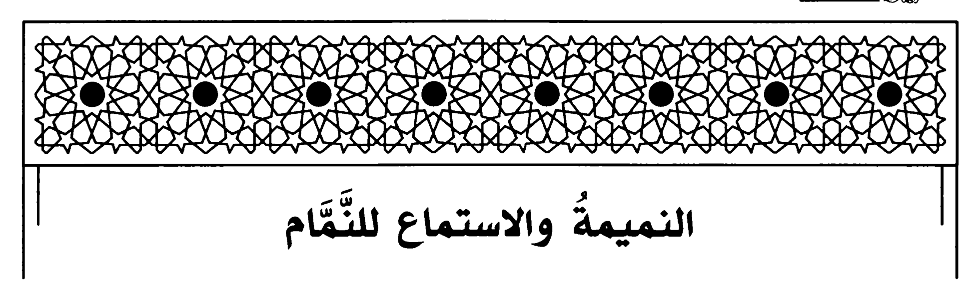
(٢) موسوعة ابن أبي الدنيا ٧/ ١٨٥.

وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: لا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ بأَخِيكَ فَيُعافِيه اللهُ وَيبْتَلِيكَ[(١)]

فكما أن الدعاء يحفظ من البلاء، فإنَّ الاستهزاء بأهل البلاء يجلبه.



(١) رواه الترمذي وحسَّنه (٢٥٠٦)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الترمذي.



النميمةُ والاستماع للنَّمَّام

توعّد النبيّ ﷺ النمام بوعيد شديد حيث قال: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ**»[١]

فنقل الكلام لا يجوز شرعًا ولا عقلًا ولا مُروءةً، إلا إذا كان لمصلحةٍ راجحة، كأنْ تُحذّر أحدًا من جليس فاسد، فهنا يجوز بل يجب أنْ تُحذره منه، وتنقل له ما شاهدْتَه منه.

ومعنى النميمة: نقل الكلام بقصد الإفساد، فتقول: فلانٌ كان يتكلم فيك بكذا وكذا.

وحقيقة النميمة: إفشاء السر، وهتك الستر عما يُكره كشفه.

فلا تنقل لأحد كلامًا ـ لا ينبغي ـ قاله غيره عنه، بل يجب أنْ تُناصِحَه وتُحذره من الغيبة، وأنْ تسعى للإصلاح دون أنْ يشعر الآخر بأن فلانا قال عنه كذا وكذا.

ويا من حُملتْ إليك النميمة، وقيل لك: إن فلانًا قال فيك كذا وكذا، سمعتُ صاحبَك فلانًا يقول عنك كذا وكذا، يجب عليك تجاه هذا النمام ـ مهما كان ثقةً عندك ـ عدَّة أمور:

أولًا: ألا تُصدقه؛ لأن النمام فاسق، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات: ٦].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).

ومن يطعِ الواشينَ لا يتركوا لهُ صَديقًا وإنْ كانَ الحَبيبَ الْمُقَرَّبا

ثانيًا: أن تزجرَهُ عن ذلك وتنصحه، وتُقَبِّحَ له فِعله وتُشنِّع عليه عمله السيِّئ.

ثالثًا: أن تُبغضه في الله تعالى إنْ لَمْ يَنْزَجِر.

رابعًا: ألا تظن بأخيك السوء؛ لقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

خامسًا: ألا ترضى لنفسك ما نهيت عنه النمام، ولا تحكِ نميمته فتقول: قد حُكي لي كذا وكذا، فتكون به نمامًا ومغتابًا[1]

بل ينبغي لك أنْ تُقابل الرجل الذي جاءك كلامٌ عنه، وتقول له: يا فلان، لقد سمعت أنَّك تقول عني كذا وكذا، وأنا لا أصدق ذلك أبدًا، فأنا أثق بك ولا أثق بمن نقل لي هذا الكلام، ولكن ليطمئنَّ قلبي.

واحذر أنْ تقول لمن نقل لك كلامًا عن أحد: بأنه ثقةٌ عندي، فلو كان ثقةً ما عصى الله بنقل الكلام.

عاتب مُصْعَب بن الزبير الأحنف بن قيس رحمهما الله على شيءٍ بلغه عنه، فاعتذرَ إليه الأحنفُ مِن ذلك ودَفَعه، فقال مُصعَبٌ: أَخبرني بذلك الثِّقَةُ: فقال الأحنفُ: كلَّا أيها الأميرُ، إن الثقةَ لا يُبَلِّغُ[2]

إذا الواشي نَعَى يومًا صديقًا فلا تَدَعِ الصديق لقول واشي

والنمام من أكثر الناس إفسادًا وضررًا.

قال يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يفسد النمام في ساعة، ما لا يفسد الساحر في شهر[3]

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/١٥٦).

(٢) عيون الأخبار ٢/٤١٧.

(٣) الحلية (تهذيبه) ١/٤٥٦.

واعلم أنَّ مَن نقل لك كلامًا عن أحد، فقد ينقل له أو لغيره كلامًا عنك لا ترضاه، فاحذرْ أنْ تأْتَمِنَ النَّمَّام.

مَنْ نَمَّ في النَّاسِ لَمْ تُؤمَنْ عقاربُهُ على الصَّديقِ ولَمْ تُؤمَنْ أفاعِيه

«ولا بد لِمنْ عُرف بها، ونُسبَ إلى مقارفتها، مِن أنْ يُحتَرسَ من مُجالسته، وألا يُوثَق بِمودَّته، وأن يُزهَد في مُواصلَته ومعاشرته»[1]



(١) روضة العقلاء: ١٦٠.



التدخل في خُصوصيَّاتِ الآخرين وتقصّي دقائِقَ حياتهم

الصداقةُ الخالصةُ، والمحبةُ الْمُتبادَلَةُ بين الناس لا تعني أنْ يتدخّل أحدُهم فيما لا يخصُّه ولا ينفعه أو ينفع غيره.

وقد قال النبيّ ﷺ: «**منْ حُسنِ إسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنيهِ**»(١).

فكلُّ أحدٍ له خُصوصيَّاتٌ لا يرضى لأحدٍ بأن يطَّلع عليها، أو يُدخل نفسه فيها.

وبعضُ الناس لا يَهْنَأُ له بال، ولا يقرُّ له قرارٌ حتَّى يعلم عن تفاصيل حياةِ الآخرين، ويعلمَ أينْ ذَهَبَوا ومع مَن ذَهَبوا!

وبعضُهم ربما اعتدى على مُمْتَلَكات غيرِه، كأنْ يدخلَ محلّ إقامته دون سابق علمٍ أو إذن.

ولو علموا أنَّ راحةَ البال في عدم التدخل في خصوصيَّاتِ الآخرين، والتنقيبِ عن أسرارهم، لَمَا شغلوا أنفسهم بهذا الخلق الذميم.

وما أجمل ما قاله أحدُ السلف رَحِمَهُ اللَّهُ: الْحَزْمُ حِفْظُ ما كُلِّفْتَ، وَتَرْكُ ما كُفِيتَ(٢).

---

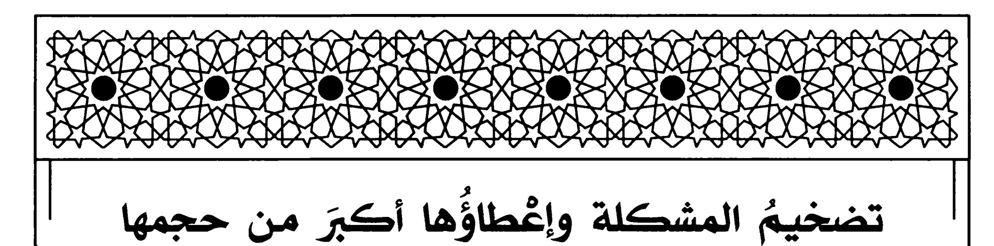
(١) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته (٥٩١١).

(٢) مجمع الأمثال: (١٠٨٧).

فالحزمُ والعقل أنْ تَحفَظ ما كُلِّفْتَ به وأُسند إليك، وَتَتْرُكَ وتدع ما كُفِيتَ.

وهل يرضى أحدنا أن يتدخَّل أحدٌ في أموره وخصُوصيَّاتِه؟ وما موقفنا لو تصرَّف أحدٌ من الناس في مقرّ عملنا، وصميمِ شُغلنا بدون إذننا ورأينا؟





تضخيمُ المشكلة وإعْطاؤُها أكبرَ من حجمها

كم من مُشكلةٍ صغيرةٍ أصبحتْ مُعضلةً ومُصيبة، بل أكثر المشاكل والخلافات كانت تافهةً وصغيرةً في بدايتِها وأصلها، ولكنَّها تضخمتْ وعظُمتْ بسبب قلةِ الحكمة في مُعالجتها.

بل إن بعض الناس قد يختلق مشكلةً مِنْ لا شيء، إما بسوء ظنِّه، أو لاستماعه لطرفٍ دون آخر، أو لِحُكْمِهِ على أحدٍ دون أن يسمع منه.

فالعاقل يستطيع إذا حصلتْ مُشكلةٌ أنْ يحصرها لئلا تكبر وتعظم، ويُبادرَ في علاجها لا تَهْييجِها.

ومن أهمّ الأسباب في حصر المشكلة وتصغيرها:

١ ـ الاستشارة، وذلك بأنْ يستشير من حصلتْ له مُشكلةٌ عاقلًا مُجرِّبًا، عارفًا حكيمًا.

والاستشارةُ لا يستغني عنها أحدٌ مهما كان عمرُه وذكاؤه وعلمه، فربنا جلَّ وعلا أمر نبيَّه ﷺ بأنْ يُشَاوِر أصحابَه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾.

فإذا كان النبي ﷺ قد أمره الله تعالى بمشاورة أصحابه، وهو الملهم الْمُوحى إليه، فكيف بغيره؟

والمشورةُ هي منهج الحكماء والعقلاء، ولا يَستغني عنها الكبراءُ والفضلاء.

فهذا عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى استشار في قوم يستعملهم، فقال له بعض أصحابه: عليك بأهل العُذْر، قال: ومن هم؟

قال: الذين إن عدلوا فهو ما رجوتَ منهم، وإن قصَّروا قال الناس: قد اجتهد عمر[(١)]

فانظر إلى نتيجة المشورة: هذه الحكمة البليغة.

ولا يَعْدم مَن استشار خيرًا ونفعًا، ومكانةً وفضلًا.

قال أعرابي: ما غُبِنْتُ قط حتى يُغبَن قومي! قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا أفعل شيئًا حتى أشاورهم[(٢)]

الرأيُ كالليلِ مُسْودٌ جوانبُهُ والليلُ لا ينجليْ إلا بإصباحِ
فاضممْ مصابيحَ آراءِ الصِّحابِ إلى مِصباحِ رأيِكَ تزددْ ضوءَ مصباحِ

ومن أعظم ما تجنيه إذا اسْتشرتهم: رفعُ اللوم عنك لو أخطأت.

فإنْ هلكتَ برأيٍ أو ظفرتَ به فأنت عند ذوي الألباب معذور

٢ ـ أنْ يبحث عمَّن يبوح له، ويبثُّ له همَّه وما حصل له؛ فإنَّ البوح من أعظم ما يُخفف الْمُصيبة، ويُزيلُ أثَرَها من القلب.

تقول لي إحدى القريبات: كثيرًا ما أُصاب بهمومٍ ومشاكل زوجيَّةٍ وأُسرية، فأُبادرُ إلى إحدى الأخوات فأبثُّ لها مُشكلتيٍ، ولا أذهب إلى أحدٍ غيرِها؛ لما كانت تتميَّزُ به من حُسن الاستماع والإنصات، فلا تزيد على نُصحي بالصبر والاحتساب، فما إنْ أُغلق السماعة إلا وقد ذهب جميع ما أجده، بل وأجد ضميري يُؤنبني خشية أنْ أكون قد اغتبتُ مَنْ وجدْتُ عليه، فإذا قابلتُه طلبتُ منه أنْ يُسامحني ويُحلِّلني!

٣ ـ الأناةُ والرفق، وتركُ العجلة، والبعدُ عن التهوّر، والتفكيرُ بتعقُّلٍ في الخطوات التي سيتخذها.

٤ ـ عدمُ نشرِ الخبر، وذكرِه في المجالس.

---

(١) عيون الأخبار ١/٦٠.

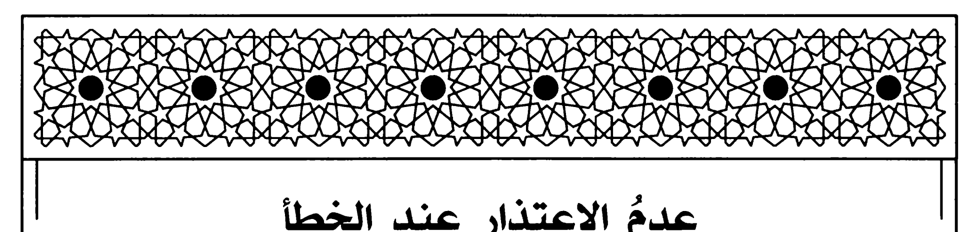
(٢) عيون الأخبار ١/٧٣.

٥ ـ أنْ يُهوّنها في نفسه، وألا يُفكر فيها مليًّا، وهذا من أهمّ الأمور في علاج المشاكل والهموم وضغوط الحياة.

والواقع أنَّ أغلب وأكثر الأخطاء ـ مهما عظمت في نظرنا ـ هي عند التجرد والتعقل ليستْ بالحجم الذي نشعر به وقتَ حصولها، ولكنْ الشيطان وقتها مشغولٌ بتهويلها وتضخيمها، وتذكيرِه بسوابق قديمةٍ لصاحب الخطأ، فلا يكاد يرى الخطأ إلا أكبر من الجبل، وأمرّ من الحنظل.

٦ ـ أنْ يجعل هناك احتمالًا أنْ يكون الخطأ منه، ولو بنسبةِ ١٪، ولْيلْتمس العذر ويُحسن الظن.





عدمُ الاعتذار عند الخطأ

إنَّ عدم اعتذار المخطئ عنْ خطئه أو تقصيره أو تأخرِه في الموعد: إنما هو لأحد سببين:

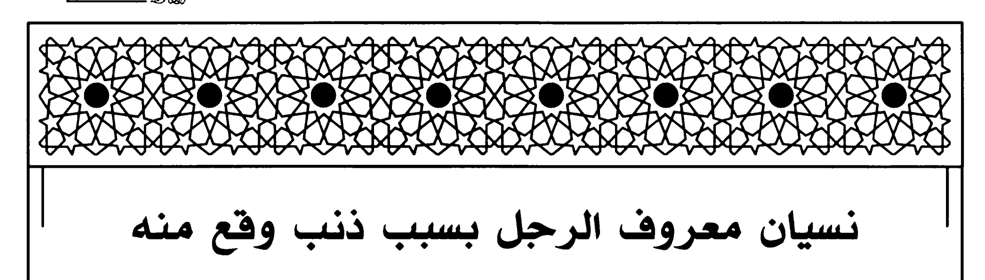
١ ـ إما لكبره وغروره وأنفتِه من الاعتذار.

٢ ـ وإما لعدم مبالاتِه، واعتقادِه أنَّ الأمر لا يستحق الاعتذار، وربما مزحَ عِوَضًا عن الاعتذار.

وهذا أخفها، وهو قبيح، وسوف ترسخ فيه هذه الصفة طول عمره، ولا يكاد يعتذر لزوجته ولا لولده إذا أخطأ، وسينظر له الناس على أنه متكبر عنيد.

وأغلب الخلافات والمشاكل تُحلّ وتنتهي بالاعتذار، فإن لم تُحسن فن الاعتذار فتسعون بالمائة من المشاكل التي ستواجهك لن تُحَلّ، وإذا حُلَّت ظاهرًا بقيَتْ في النفوس ضغائنُ وأحقادٌ عليك.





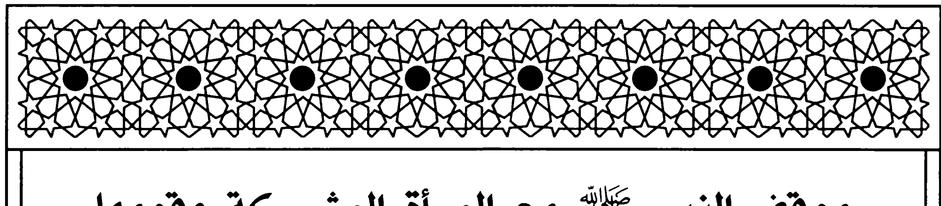
نسيان معروف الرجل بسبب ذنب وقع منه

من قلة مروءة بعض الناس وضعف عقله ودينه: نسيانُه معروف صاحبه، وجمال أفعاله، وطول عشرته، بسبب ذنب وقع منه، أو زلّة بدَرَت منه.

أيـذهـب يـومٌ واحـدٌ إنْ أسـأتُـه بصالـحِ أيامي وحسـنِ بلائيًا؟

ونفسك لا تخلو من عيوب وأخطاء، فكذلك الخلق كلهم.





موقف النبي ﷺ مع المرأةِ المشركة وقومها

سافر النبي ﷺ يومًا مع أصحابه، فعطش الناس، فاشتكوا إليه، فتوقف ونادى عمْران بن حصين وعَلِي بن أبي طالب رضي الله عنهما، فَقَالَ لهما: اذْهبا فابْتغيا الْماءَ، فانْطلقا يبحثان عنه، وقد عَطِشا عطشًا شَديدًا.

فبينما هما كذلك في شدةِ العطش والتعب إذ وجَدا امْرأةً على بعيرٍ لها، مُدَلِّيةً رِجليهَا، بين قِربَتيْنِ كبيْرتَينِ، فقالا لَها: أين الْماءُ؟

فقالتْ: هيهات هيهات، ليس لكم ماءٌ حاضرٌ ولا قريب، وأخْبرتْهُم أنَّ رِجالهَا غابُوا عَن الْحيّ، وأن لها أيتامًا ينتظرونها.

فقالا لَها: انْطلقي إذًا.

قالتْ: إلى أين؟

قالا: إلى رسول الله ﷺ.

قالت: الذي يقال له الصابئ؟

والصَّابِئُ: هو الذي خَرَجَ مِنْ دِينٍ إِلَى دِينٍ آخر.

فقَالَا لها بأدبٍ ورفق: هو الذي تعنين، فانطلقي معنا، فانْطلقت معهم.

فجاءا بها إلى النبي ﷺ، وحدثاه الحديث، فطلبوا منها أن تنزل عن بعيرها، ودعا النبي ﷺ بإناء ففرغ فيه من أفواه الْقربتين، فَتمضْمضَ في الْماء وأعادَهُ في الْقربتين؛ لكي تحِلَّ البركةُ فيهما، حيثُ اخْتلطَ رِيقُه

الطَّاهرُ الْمُباركُ بالْماءِ، وأذنَ للناس أنْ يأخذوا منه، فسقى وشرب من شاء.

كلُّ هذا، والمرأةُ المشركةُ تنظر باسْتغرابٍ وتعجُّب، إلى ما يُفْعلُ بِمائها، وكيف صار يكفي هؤلاء الكثرةَ من الناس، بعضهم يشرب منه، وبعضهم يغتسل منه.

قال عمران رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ راوي الحديث ـ: «وايم الله لقد أقلع عنها، وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملأة منها حين ابتدأ فيها ـ أي: نظنُّ ونعتقد أنَّ ما بَقي في القربتين مِن الْمَاء أكْثر مِمَّا كانَ أوَّلًا ـ وإنها تكاد تنشقُّ من الماء!»

هذه بركةُ ريقِه ﷺ.

وانظر وتأمل كيف تعامل معها، وكيف كافأها وأكرمها، مع أنها مشركةٌ كافرة، وقالت عنه بأنه صابئ، وهي لم تعطه الماء برضاها، بل أُجبرت على ذلك، ورُدَّ عليها الماءُ كما كان، لم يُنْقَصْ منه شيءٌ أبدًا!

فقال النبي ﷺ لأصحابه: «**اجمعوا لها**» فجمعوا لها من بين عجوة، وهو تمرٌ من أجود التمر بالمدينة، ودقيقة وسويقة، وهي من أجود الطعام وأطيَبِه، حتى جمعوا لها طعامًا، فجعلوها في ثوب وحملوها على بعيرها ووضعوا الثوب بين يديها.

فلم تكد تُصَدِّق ما ترى، فقد خرجت تبحث عن لُقمةٍ تسدُّ بها جوعَها، وجوعَ أبنائها الأيتام، فيأخذُها رجالٌ غرباء، إلى مَن تراه عدوًّا لها ولقومها، فإذا بها ترى الكرم والعدل والإحسان، فترجع إلى أيتامِها وقومِها، بأحسن الطعام والشراب.

ثم بعد ذلك تركها تذهب إلى أهلها.

فذهبت المرأةُ وأتت أهلها وقد احتبست عنهم هذه الْمُدَّة، فقَالُوا

لها: ما حبسك يا فلانة، قالت: العجب لقيني رجلان، فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابئ ففعل كذا وكذا، فوالله إنه لأسحر الناس من بين هذه وهذه، وقالت: بإصبعيها الوسطى والسبابة، فرفعتهما إلى السماء ـ تعني السماء والأرض ـ أو إنه لرسول الله حقًا.

أي: أنَّ ما رأتْه منه من أمورٍ خارقةٍ للعادة، لا تكون إلا من نبيّ كريم أو ساحرٍ في نظرها، ولكنَّها لم تجزم بأنه نبي؛ لكثرةِ ما قيل عنه بأنه ساحر.

فكان المسلمون بعد ذلك يغيرون على من حولها من المشركين، ويهجِمون عليهم بخيولهم، لأنهم أعلنوا الحرب والعداوة للمسلمين، ومن بين هؤلاء الْمُحاربين والأعداء، أهلُ المرأةِ وقبيلتُها، ومع ذلك كان الصحابةُ ﷺ، لَا يهجِمون على قبيلتها وأهلها، وفاءً وردًّا للجميل.

وقد لاحظَتْ هي وأهلها ذلك، فقالت يوما لقومها: ما أرى أن هؤلاء القوم يدعونكم عمدًا، فهل لكم في الإسلام؟ فأطاعوها، فدخلوا في الإسلام؟

أي: أنَّ هؤُلَاء إنما تركوكم عَمْدًا، لَا غفلةً ولَا نِسْيَانًا ولا خوفًا، بَل مُراعَاةً لِمَا سَبَقَ بيني وبيْنهم، فعندها علموا يقينًا أن هذه الأخلاقَ العظيمة، والقِيَمَ النبيلة، لا تصدُرُ من ساحرٍ ولا كذَّاب، بل من نبيٍّ مُرْسَلٍ من الكريمِ الوهَّاب، فأطاعُوهَا واسْتَمَعوا لنصيحتها، فَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ.

قبيلةٌ كاملة دخلت في الإسلام، لأجل امرأةٍ عاقلة، فما أعظم دورَ الْمرأة، وما أشدّ أثرها على أهلها ومجتمعِها.

وهذه القصة تبيّن لنا بجلاءٍ أهميَّة الأخلاق في نشر الإسلام، فهذه المرأةُ وقبيلتُها لم يدخلوا في الإسلام من باب الدعوة، بل من باب

الأخلاقِ الحسنة، فما أجمل أنْ ندعو الكفار، من الخدمِ والعاملين وغيرِهم، بأخلاقنا وقيمنا قبل أقوالنا.

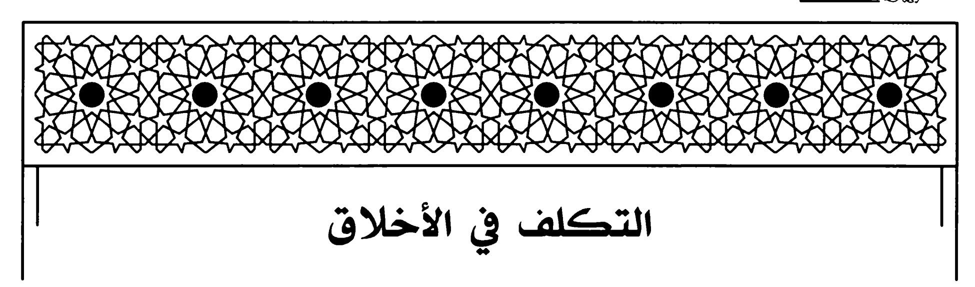
وتبيّن كذلك أنَّ الوفاء وردَّ الجميل من أخلاق المسلمين الصادقين.

وتأمل كيف كانَ الْمُسلمونَ يُغِيرونَ على الْمُشْرِكينَ عدا أهلِ المرأةِ وقبيلتِها؛ وفاءً لها وردًّا لجميلها، مع أنها لم تفعل ذلك طوعًا بل كَرْها، وهذِهِ الْغاية في مُراعاة الصُّحْبة اليسيرة.

فلْنأخذ من هذا درسًا في ردّ الجميل، وعدمِ نسيانِ جميل من أحْسنَ إلينا ولو كان يسيرًا، فالزوجان والأصدقاءُ، والأقاربُ والجيرانُ وغيرُهم، قد أسْدى بعضُهم لبعضٍ معروفًا وخيرًا، فلا ينكرْ أحدُهم جميل الآخر، ولو حصل خلافٌ وسوءُ تفاهُم، ولو بدر من أحدهم أخطاءٌ وسيِّئاتٌ، تطغى وتربو على ذلك المعروف، فالكريم والعاقل: من لا ينسى معروفًا أُسْدي إليه، واللئيمُ والأحمق مَن ينساه ويجحدُه[١].



(١) هذه القصة رواها البخاري في صحيحه (٣٤٤)، واستفدت من شرح ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ لها.



التكلف في الأخلاق

احذر من التكلف في الأخلاق، وتعاملْ مع الناس بكلِّ لُطْفٍ واعتدال.

ومن زاد عن التوسط والاعتدال: فقد دخل في التكلف المذموم، الذي نهى الله تعالى نبيَّه ﷺ أنْ يكون منهم، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ[١]

قال ابن القيم: وكل خلق محمود مكتَنَف بخلقين ذميمين وهو وسط بينهما، وطرفاه خلقان ذميمان، كالجود: الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير، والتواضع: الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة، والكبر والعلو.

فإن النفس متى انحرفت عن التوسط انحرفت إلى أحد الخلقين الذميمين ولابد، فإذا انحرفت عن خلق التواضع انحرفت: إما إلى كبر وعلو، وإما إلى ذل ومهانة وحقارة.

وإذا انحرفت عن خلق الحياء انحرفت: إما إلى جرأة، وإما إلى عجز وخور ومهانة، بحيث يُطمِع في نفسه عدوه ويفوته كثير من مصالحه، ويزعم أن الحامل له على ذلك الحياء، وإنما هو المهانة والعجز وموت النفس.

وإذا انحرفت عن خلق الأناة والرفق انحرفت: إما إلى عجلة

(١) رواه البخاري (٧٢٩٣).

وطيش وعنف، وإما إلى تفريط وإضاعة، والرفق والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق العزة التي وهبها الله للمؤمنين انحرفت: إما إلى كبر، وإما إلى ذل، والعزة المحمودة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق الشجاعة انحرفت: إما إلى تهور وإقدام غير محمود، وإما إلى جبن وتأخر مذموم.

وإذا انحرفت عن خلق الرحمة انحرفت: إما إلى قسوة، وإما إلى ضعف قلب وجبن نفس كمن لا يقدم على ذبح شاة ولا إقامة حد وتأديب ولد، ويزعم أن الرحمة تحمله على ذلك.

وكذلك طلاقة الوجه والبِشْر المحمود فإنه وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد، وبين الاسترسال مع كل أحد بحيث يُذهب الهيبة ويزيل الوقار ويطمع في الجانب، كما أن الانحراف الأول يوقع الوحشة والبغضة والنفرة في قلوب الخلق. وصاحب الخلق الوسط: مهيب محبوب، عزيز جانبه، حبيب لقاؤه.

وفي صفة نبينا ﷺ: من رآه بديهة هابه، ومن خالطه عِشْرة أحبه. اهـ[1]

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه تاريخ الإسلام عن أحد العلماء: كان على طريقة السَّلف من طَرْح التّكلُّف..

وقال عن آخر: كان على طريقة السَّلَف، ورِعًا نَزِهًا..

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه طبقات الشافعيين عن أحد العلماء: تَارِك للتكلف على طَرِيقَة السّلف.

وقال ابْن السَّمْعَانِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ عن أحدهم: تارك التكلّف على طريقة السلف.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٢٩٥).

وقَالَ الْإِسْنَوِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ عن أحدهم: كَانَ متواضعا مَاشِيا على طَرِيقَة السّلف فِي طرح التَّكَلُّف.

وقال ابن قاضي شهبة رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه طبقات الفقهاء الشافعية عن أحدهم: مطرح الكلفة على طَرِيقَة السّلف.

وقال عن آخر: كان ريض الْأَخْلَاق متواضعا على طَرِيقَة السّلف.

وقَالَ الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة عن أحدهم: كانَ متواضعًا على طَرِيقَة السّلف فِي طرح التَّكَلُّف.

فطرح التكلف: هو منهج السلف الصالح، وهذا يدل على أن هدي السلف وطريقتهم ومنهجهم ليس قاصرًا على مسائل الاعتقاد، بل يشمل كذلك الأخلاق؛ من التواضع والزهد والورع وعفة اللسان وترك التكلف في كل شيء؛ في المأكل والمشرب، والأخلاق، والمسكن، والتعامل، وغير ذلك.

فما أجمل أن تعيش حياتك بلا تكلف في مشيك، وكلامك، وتعامللك، وابتسامتك، وكن كما أنت، وألق عصا التكلف من عاتقك، بلا تثاقل ممقوت، وتصنّع ممجوج؛ فإن الناس يكرهون مَن هذا طبعه، ويحبون مَن كان مرحا سهلا سمحا في تعامله وأخلاقه وجميع شؤونه.

والذي لم يذق طعم السماحة واطِّراح التكلّف والدخول مع الناس وتقبل عاداتهم وطباعهم والضحك معهم: قد خندق نفسه بخنادق لم يُنْزل الله بها من سلطان، وحرم نفسه من لذة السماحة واطِّراح التكلّف التي تُوَلِّد التواضع والسعادة والرحمة في قلبه.

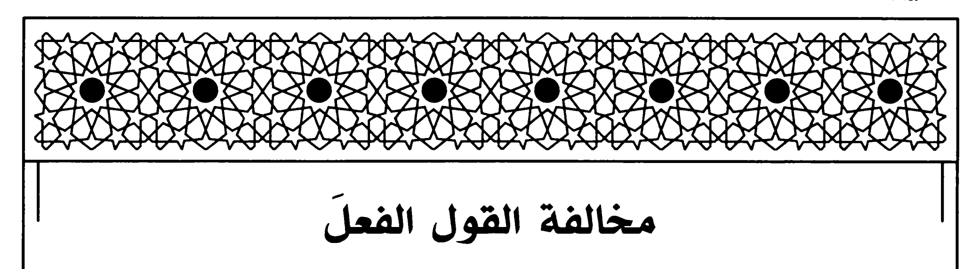
ولا ينبغي أنْ تتَكلّفَ في الاحتشام والمروءةِ؛ لأنَّها تُذهب طعم الحياة.

والانبساط الْمُنضبط طاردٌ للسَّآمةِ والْمَللِ الذي قد يعتري النفس، قيل لبعضهم: ما آفة الْمَلَالِ؟ قال: كثرة الإِدْلَالِ.

متى يَجدُ الإنسانُ خِلًّا مُوافِقًا يخففُّ عنهُ كلفةَ المتحفِّظِ

ولا يعني هذا أنْ تُفرطَ في الانبساط، فإياك وسَقْطَةَ الاسْتِرْسَالِ فإنَّها لا تُسْتَقَال؛ لأنها تجرّ إلى الهزْل والإفراطِ في المزحِ وارْتكابِ ما لا يُحمد.





مخالفة القول الفعلَ

ما أقبح بالإنسان أن يقول ما لا يفعل، وزيادةُ القول الحسن على الفعل الحسن دناءة وخسّة، وزيادةُ الفعل الحسن على القول الحسن مكرمة وفضيلة.

وصدق من قال: مثل الذي يعظ الناس وينسى نفسه مثل المصباح يضيء لغيره ويحرق نفسه.

ويقال: أحسن المقال ما صُدِّق بحسن الفعال.

وما قيمة علمٍ لا يُعمَل به؟

والناس يمقتون أشدّ المقت مَن يرونه يقول ما لا يفعل.

تجد من يتكلّم عن التعامل وحسن الأخلاق، فإذا نظرت إلى تعامله وأخلاقه وجدته بعيدًا كلّ البعد عمَّا يقول.

وتجد من يُعطي نصائح وتوجيهات في التربية وحسن العشرة مع الأولاد والأهل، وأولاده وأهله يشتكون من عنفه وقسوته.

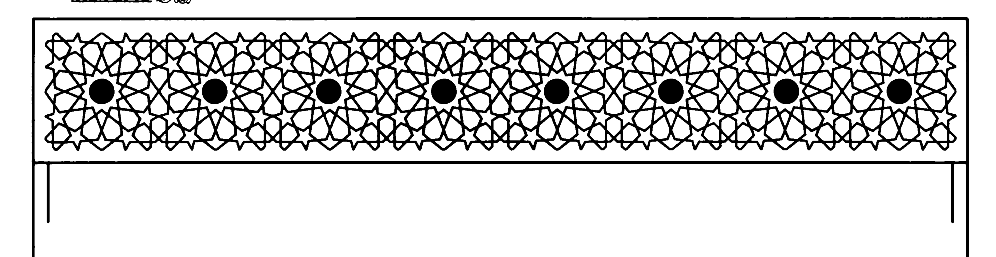
حدّثني أحد الأقارب قال: أقمتُ برنامجًا تدريبيًّا بعنوان: «فنُّ التعامل»، مدته يومان، وفي نهاية اليوم الأول طلب مني أحد الحاضرين مشاركة، فأذنت له، فقال: عندي موقف مؤثر أحبّ أن أذكره لكم للعبرة، كنت ليلةَ البارحة في إحدى المجمعات التجارية، وفي إحدى الممرات الضيّقة قابلني رجل معه ابنه، وهو ممسك بعربة التسوق، فرجع بالعربة مباشرة، وسمح لي بالمرور، مع أنه أكبر مني سنًّا، وأنا في طرف

الممر، فأنا أحقّ بالرجوع، فأعجبني تصرفه، وأكبرت تواضعه وأدبه.

وتفاجأت اليوم أنّ الذي يتكلّم عن حسن التعامل هو الذي فعل معي هذا التعامل الرائع الجميل.

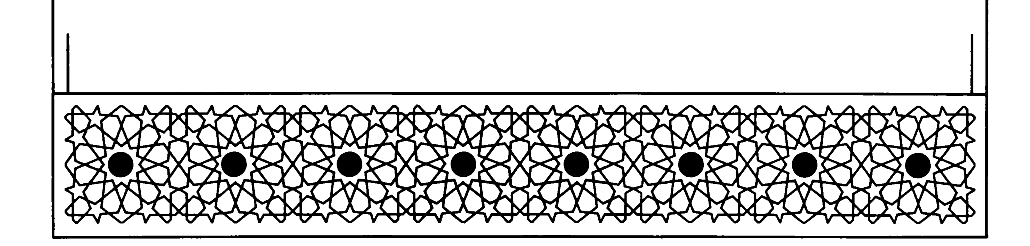
قال: فدمعت عيني، وحمدت الله تعالى أنْ وفَّقني لهذا التصرف، فلو أني ثبتّ في الممر في مكاني، وطلبت منه أن يرجع هو، فكيف سيكون موقفي، وأنا أتكلم عن فنّ التعامل مع الآخرين ثم يُخالف فعلي قولي؟

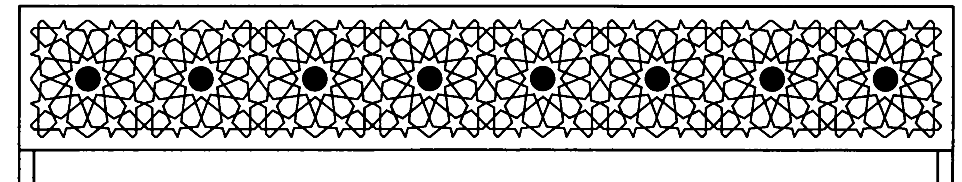




آدَابُ الانتقاد والثَّنَاء، وَحَاجَتُنَا إِلَيْهِمَا، وَأَخْطَاءُ النَّاسِ فِيهِمَا

أفردت هذا الفصل لأهميته، وحاجة الناس إليه، وكثرة هفوات الناس فيه.





حاجة الناس للانتقاد والثناء على السواء

الانتقاد والثناء من المواضيع الهامة في حياة الأفراد والشعوب، ولا يستغني عنه أحدٌ مهما علا شأنه، وعظم قدره، وجلَّ علمه، وارتفعت مكانته، فهو أحوجُ ما يكون إلى انتقاد بنَّاء، ومدحٍ وثناء.

بالانتقاد يُقوَّم الْمعوج، وبالثناء يُغذَّى ويقوى العامل والباذل.

بالانتقاد يُصحح الْخطأ، وبالثناء يُشجَّع الْمُصيب.

بالانتقاد نعرف عيوبَنَا لنصححها، وبالثناء نعرف صوابنا لنستمر عليه.

بالانتقاد نعرف سبب تأخرنا وتراجعنا فنتجنَّبه، وبالثناء نعرف سبب تقدمنا وسرّ إبداعنا فنتمسك به.

بالانتقاد ينكسر ما في نفوسنا من العجب والغرور، وبالثناء ترتفع هِمَمُنا، ويزول إحباطنا.

بالانتقاد يرتدع ويهاب المسؤول المعتدي والمتكاسل والمستبد، وبالثناء يزداد المسؤول الْمُخلص والناصح عطاءً وبذلًا

فالانتقاد والثناء الْمُنضبطان أمران ضروريان لا يستغني عنهما أحدٌ أبدًا، وأيُّ مُؤسَّسةٍ أو دولةٍ لا تُوليهما أهميّة كبرى فاحكم عليها بالفشل والإفلاس، والتخلف والضياع.

فهما قرينان مُتلازمان، لا ضدَّان مُتنافران، ولا يكفي أحدُهما عن

الآخر، وإذا انفك أحدهما عن الآخر فهو علامةٌ على فساد المنهج، وحصول خللٍ في السلوك والتربية والتعامل.

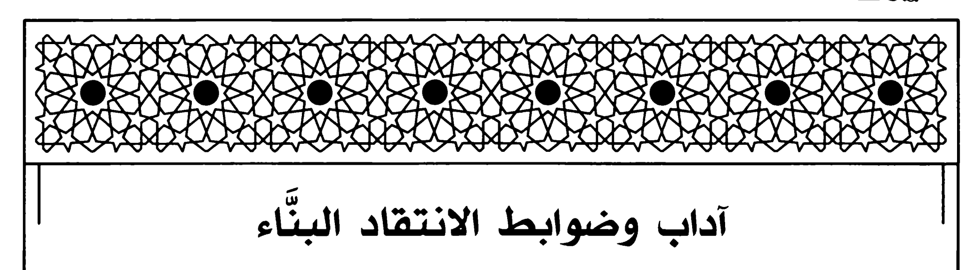
ولا تجد أحدًا يأخذ بأحدهما دون الآخر إلا رأيت الخلل حليفه، والنقصَ قرينه.

إننا كما نحتاج إلى من يمدح صوابنا نحتاج إلى من ينتقد أخطاءنا.

وكما أننا لا نستغني عمن ينتقد سلوكنا الخاطئ، لا نستغني عمَّن يمدح سلوكنا الصائب.

وأبدأ أولًا بالانتقاد وضوابطه وآدابه، ثم الثناء والمدح وضوابطه وآدابه.





آداب وضوابط الانتقاد البنَّاء

لَمَّا كان الناس مَجْبُولين على الخطأ والنقص، وكان الخلل والتقصير من طبيعةِ البشر، كان الواجبُ عليهم أنْ يُناصِح ويُقوِّمَ بعضُهم بعضًا، ومن مُسمَّيات النصيحة وأنواعها: الانتقاد.

ولما كان الانتقاد مُنتشرًا فيما بيننا، ونستعمله بلا اسْتثناء، كان لزامًا علينا أنْ نقف معه، ونعرف آدابَه وضوابطَه، لاسيما والكثير من الناس أخطأ في اسْتعماله، وأجحف في انتقاداته، وبعضهم يتوصّل بالانتقاد إلى أغراضٍ مشينة، كجرح الناس وقدحهم، وقتلِ هممهم وعزائمهم.

والمقصود بالانتقاد: إظهار عيوب الناس.

فالمنتقد يرى أنَّ الآخر مُخطئٌ تمامًا، وهو مُصيبٌ في انتقاده يقينًا، هذا هو الأصل، فمعنى ذلك: أنَّ من انتقد أحدًا من الناس، وهو ليس مُتيقنًا من صواب قوله وخطأ خصمه، فعمله هذا ليس انتقادًا بالمفهوم الصحيح، إنما هو اسْتعلاءٌ، أو تخمينٌ، أو محبَّةٌ لإبراز عُيوب الآخرين، ولا يخلو المنتقد عن غيرِ علمٍ من أحد هذه الأمور الثلاثة، وكفى بها شرًّا وعيبًا.

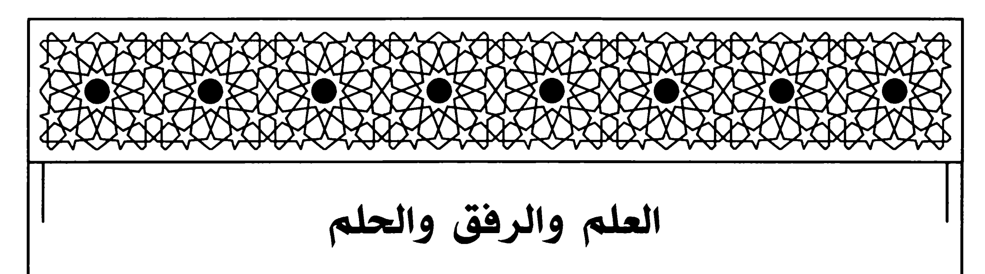
ولا ينبغي أنْ ننتقد أحدًا على أيّ فعل أو قول، إلا إذا خالف دليلًا شرعيًّا صحيحًا، أو خالف إجماع العلماء وجمهورهم، أو خالف عرفًا أو خلقًا اتفق العقلاء على اسْتحسانه.

أما ما عدا ذلك، فلا ينبغي أنْ نُحاكم الناس على حسب أذواقِنا وعاداتنا، فالأذواق والعادات مُختلفةٌ ومُتعددة.

والانتقاد واللومُ لا ينبغي اللجوءُ إليه إلا عند الحاجة إليه، فهو دواءٌ نُداوي به العيوب والأخطاء، ومتى زاد الدواءُ ضرّ المريض ورُبَّما قتله.

فإذا تحقق الإنسان بأنَّ أحدًا من الناسِ ارتكب خطأً صريحًا، مُخالفًا بذلك أمرًا شرعيًّا، أو أمرًا اتفق العقلاء على ذمِّه، فأراد أن ينتقده على ذلك، فلابد أنْ يلتزم بآداب الانتقاد البنَّاء، وهي:





العلم والرفق والحلم

ذكر العلماءُ أنَّ من أراد أنْ يأمر بمعروفٍ أو ينهى عن منكر ـ والْمُنتقِد من هذا الباب ـ لابد أنْ يكون عالمًا بما يأمر به أو ينهى عنه، رفيقًا فيما يأمر به أو ينهى عنه، حليمًا فيما يأمر به أو ينهى عنه.

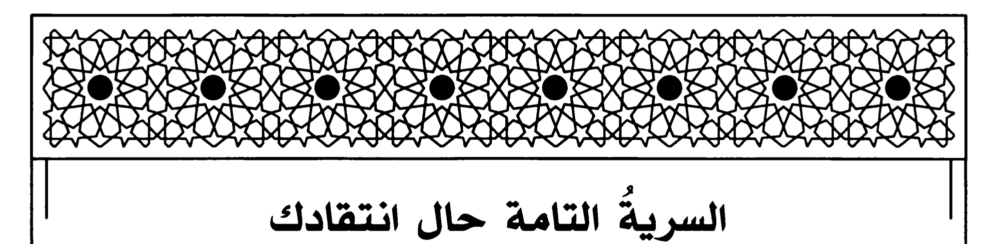
فلابد من العلم قبل الانتقاد، والرفق مع الانتقاد، والحلم بعد ذلك.

فإن لم يكن عالِمًا بالشيء الذي انتقد عليه لم يكن له أن يُخطئ الناس بلا برهان.

وإن كان عالِمًا ولم يكن رفيقًا كان كالطبيب الذي لا رفق فيه، فيُغلظ على المريض، فلا يَقْبَل منه، فيكون نفعُه قليلًا.

ثم إذا رُدَّ عليه ذلك وأُوذي، أو نُسِب إلى أنه مخطئ وغرضه فاسد: لم يكن له أن ينتصر لنفسه، فيغضب أو يحقد.





السريةُ التامة حال انتقادك

من الضروريّ أنْ يكون الانتقاد في سريةٍ تامة حال نقدك، أي بينك وبينه، ولا تنتقده أمام الآخرين، ولو كان انتقادك هادفًا وهادئًا ولبقًا؛ لأنَّ الانتقاد في حضور الآخرين ممّن لا علاقة لهم بالأمر قد يدفع الطرف الآخر إلى التمسّكِ برأيه، أو الدفاع عن نفسه، وربما بدر منه ما يسوء المنتقد فتنشأ العداوةُ حينها.

وينبغي كذلك أنْ لا تُخبر أحدًا بعد ذلك بانتقادك له، فربما وصله الخبر فيتخذُ موقفًا عدائيًّا ضدّك؛ لأنه من باب النصيحة، والأصل في النصيحة أن تكون في السرّ.

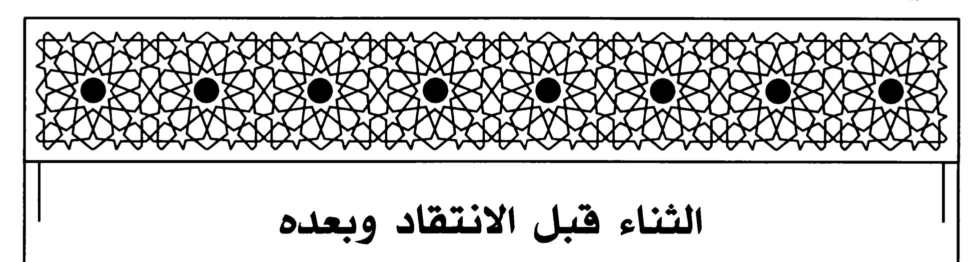
قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سرًّا حتى قال بعضهم: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه، فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبخه.

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير.

وقال عبد العزيز بن أبي رواد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان من كان قبلكم إذا رأى الرجل من أخيه شيئا يأمره في رفق، فيؤجر في أمره ونهيه، وإن أحد هؤلاء يخرق بصاحبه فيستغضب أخاه ويهتك ستره.

وسئل ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن أمر السلطان بالمعروف ونهيه عن المنكر، فقال: إن كنت فاعلا ولابد ففيما بينك وبينه. اهـ[١]

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٢٥).



الثناء قبل الانتقاد وبعده

لابدّ أن تُقدِّم بين يديْ انتقادك كلامًا جميلًا، وثناءً صادقًا، فلا يخلو المسلم من ميزةٍ وجوانب إيجابيّة.

فهذا ربُّنا جلَّ جلاله، يقول مُخاطبًا اليهودَ الضالين الظالمين، الْمَغضوبَ عليهم والْمُكذبين، بعد أنْ عدَّد ما منَّ عليهم من النعم والفضائل: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ تأمل كيف «ناداهم باسم أبيهم الذي هو أصل عزهم وسؤددهم ومنشأ تفضيلهم، ثم فصَّل النعمة التي ذكرها مجملة فيما سبق بذكر أمهات أنواعها، فذكر تفضيلهم على العالمين بمحض كرمه وفضله. .

وهذا أسلوبٌ حكيمٌ في الوعظ، فينبغي لكل واعظ أن يبدأ وعظه بإحياء إحساس الشرف وشعور الكرامة في نفوس الموعوظين لتستعد بذلك لقبول الموعظة. . ثم إنَّ في الوعظ ما يؤلم نفس الموعوظ، وحرجا يكاد يحملها على النفرة من تلقينه، والاستنكاف من سماعه، فذكر الواعظ لما يشعر بكرامة المخاطب ورفعة شأنه، وإباء ما ينمي إليه من الشرف أن يدوم على مثل ما يقترف يقبل بالنفس على القبول، كما يقبل الجريح على من يضمد جراحه ويسكن آلامه.

ألا وإن هذا الشعور، شعور الشرف والرفعة، ملازم للإنسان لا يفارقه ولكنه قد يضعف حتى لا يظهر له أثر، وفي تحريك الواعظ له اعتراف ضمني بكرامة وفضل للموعوظ يشفعان له بما يستلزمه الوعظ من

مظنة الإهانة فيسهل احتماله ويقرب قبوله»(١)

وهذا قدوتنا وإمامنا محمد ﷺ، حينما أراد توجيه انتقادٍ لابن عمرَ رضي الله عنهما أثْنَى عليه ثناءً عطرًا قبل انتقاده فقال: «**نِعمَ الرَّجلُ عبد الله لو كان يُصَلّى من اللَّيلِ**»(٢)

وشتان بين انتقادِه وانتقاد بعض الناس، هو ﷺ ينتقد على ترك ما أمر به الشرع أمر إيجابٍ أو اسْتحباب، ومع ذلك كان يُقدم بين يديْ أمره وطلبه ثناءً ومدحًا؛ لتكونَ النفسُ أدعى للقبول والاسْتجابة.

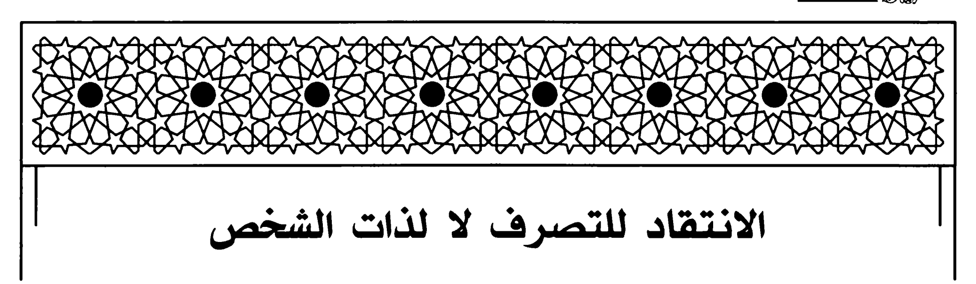
وأما بعض الناس، فينتقد غيره لمخالفتهم لذوقه وعادته، أو لمسألةٍ أو فعلٍ تختلف فيه وُجهاتُ النظر الصحيحة فيه.

ومن الْمهم أنْ يكون ختامُ الانتقاد جملةً وعبارةً مُحفِّزة، أو دُعاء صادقًا نابعًا من قلب مشفق، فختام الانتقاد والنصيحةِ بمثل ذلك يُعين على تقبُّلها، وتطييبِ خاطرِ صاحبها.



(١) تفسير المنار بتصرف ١/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢.

(٢) رواه البخاري (٣٧٣٩)، ومسلم (٦٥٢٥).



الانتقاد للتصرف لا لذات الشخص

يجب أنْ يكون الانتقاد للتصرف الذي قام به ذلك الشخص، لا أنْ يكون الانتقاد للشخص نفسه.

فبعضُ الناس قد لا يُعجبه قولُ أو فعلُ أحدٍ من الناس، فيشتغلُ بانْتقادِ ذاتِه وتجريحِ شخصِه، وربما اتهم نيَّته وشكَّك في إخلاصه.

وهذا من التعدي والظلم، فقد تختلفُ مع غيرك في رأيه وتصرُّفه، لكن لا يجوز أنْ تقدح في شخصِه وتُلغي فضائله.

كان بين خالدِ بن الوليد وسعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنهما كلامٌ وسوءُ تفاهم، فذهب رجلٌ يقع في خالدٍ عند سعد بن أبي وقاص فقال: مه، إنَّ ما بَيْنَنَا لم يَبْلُغْ دِيْنَنَا[(١)]



---

(١) الحلية (تهذيبه) ١/٩٥.

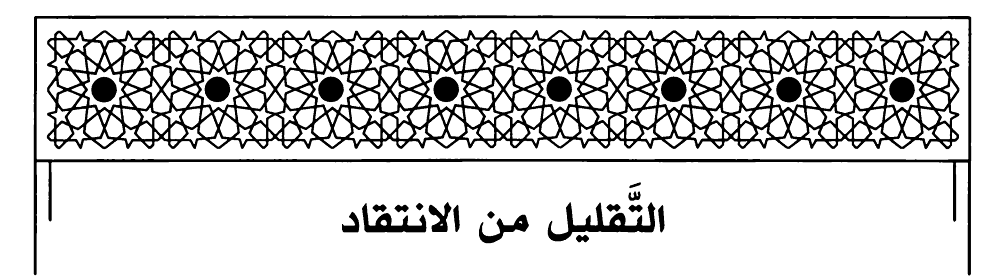


التوازن بين الثناء والانتقاد

التوازن بين الثناء والانتقاد من الأمور الضرورية، فلا يُعقل أنْ تُكثر من انتقاد أحدٍ مهما كان، دون أنْ يسمع منك ثناءً عطرًا، أو مدحًا صادقًا.

فالنفس البشرية لا تقبل مثل هذا، وترى أنَّ مَن ينتقدها ولا يُثني عليها مُتحاملٌ وحاقدٌ، أو مُجحفٌ مُتتبعٌ للزلَّات.





التَّقليل من الانتقاد

الإكثار من الانتقاد يتحول إلى عداوةٍ أو سآمةٍ، فالواجب الحذر والبعد من الإكثار منه لشخصٍ واحد.

وانظر إلى حالك، لو أنّ شخصًا كلّما قابلك قال لك قولًا جميلًا لكنه مكررٌ لمللت من ذلك، وربما رأيت أنه يستخف بك، فكيف بالانتقاد الثقيل في الأصل على النفس!

فإياك وتكرار الانتقاد في أمر ما، فتكراره يُثير حفيظة مَن انتقدت، ويُشعره أنك تتصيد أخطاءه، وأنك متسلّط عليه، وتفرض رأيك وذوقك عليه، وتُصبح بغيضًا ثقيلًا.

وإذا كررت الانتقاد: فهذا يدل على أنّك ترى من انتقدته قد فعل منكرًا في الشرع يجب عليك إنكاره.

ولو كان قد فعل منكرًا ومحرمًا في الشرع فلا ينبغي الإنكار على كلّ حال، فهناك حالات لا يجوز لك إنكار المنكر فيها، فكيف بتكرار الإنكار؟

فكل من أنكر منكرًا فترتب عليه منكرٌ أعظم منه ـ كالتقاطع والتنافر ـ فلا يجوز ذلك.

هذا إذا لم يكن هذا المنكرُ شنيعًا وكبيرًا، وتعدَّى ضرره على الآخرين.

كان هناك رجلٌ فيه حِدَّة، وكان له تسلُّط على الشّيخ أبي محمد

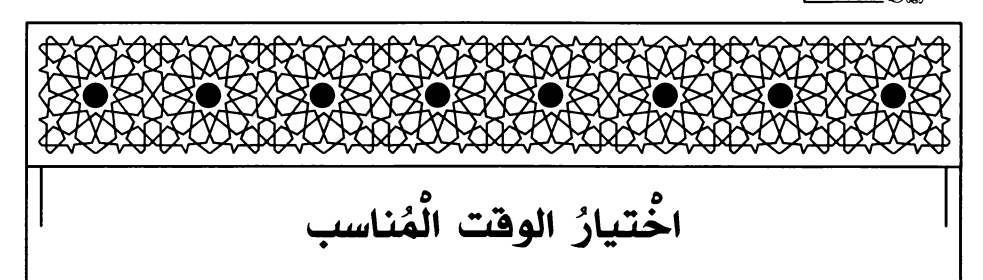
مكّيّ بن أبي طالب رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ٤٣٧)، وكان يقرب منه إذا خطب، فيغمزه ويُحْصِي عليه سَقَطاته، ويعدّ عليه زلاته، وكان الشّيخ أبو محمد كثيرًا ما يتلعثم ويتوقَّف، فجاء ذلك الرّجل في بعض الْجُمَع وجعل يُطيل النَّظر إلى الشّيخ ويغمزه، فلمّا خرج ونزل قال لمن حوله من المصلين والمحبين: أمِّنوا على دعائي، ثمّ رفع يديه وقال: اللهمَّ اكْفِنِيه، اللهمَّ اكْفِنِيه، اللَّهُمَّ اكفنيه، فأمّنُوا، فاستجاب الله دعاءه، فأُقْعِد ذلك الرّجل وما دخل الجامع بعد ذلك اليوم[1].

فانظر إلى أثر هذا الرجل على الشيخ أبي محمد المقرئ شيخ الأندلس، حيث كان كثيرًا ما يتلعثم ويتوقَّف بسبب كثرة انتقاده وتتبُّع سَقَطاته.

وهذا الصنف من الناس لا يزالون موجودين إلى الآن، وأينما حلّوا في مكان حلّت آثارهم السلبيّة في الناس، فهم من أعظم أسباب تثبيط الهمم، وفتورِ العزائم، بتتبع الزلات، وتصيّد الأخطاء، وإظهار القبيح، وستر الحسن، واحتقار كلّ من كان أصغر سنًّا أو أقلّ منصبًا، ولا شكّ أنّ ذلك من فساد قلوبهم، وتلوّث طويتهم، فليحذر المسلم أن يكون منهم.



(١) تاريخ الإسلام (٩/ ٥٧٠).



اخْتيارُ الوقت الْمُناسب

ينبغي أنْ يكون الانتقاد في وقتٍ مُناسبٍ، فبعضُ الناس لا يختار الوقت المناسب في نقده، فيُوقعُ في نفس من انتقاده الحرجَ والألم.

ومن الأوقات التي لا يُناسب فيها أنْ تنتقد فيها أحدًا:

١ ـ عند فرحه، فتعكّر عليه فرحه، وتفسد عليه بهجته.

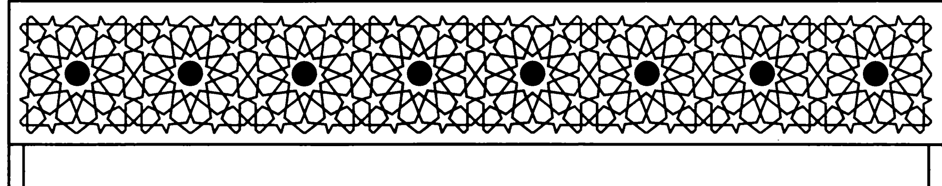
٢ ـ عند حزنه، فتزيده غمًّا وألَمًا، وربما لا يقبل منك ويردّ عليك، فينْفُر منك فتخسره.

٣ ـ عند اجتهادِه في عملٍ ما، بذل وسعه فيه، وشعر أنّه قدّم شيئًا يستحقّ الثناء والشكر، ثم يُفاجأُ بمن يوجّه له سهام الانتقاد، وقد يكون انتقادًا قاسيًا أو خاطئًا، فيزيد الطين بلّة.

وأذكر أني خطبت مرة خطبة اجتهدْتُ فيها، وتعبت في تحضيرها، فلما انتهيت من إلقائها واجهني أحدهم بانتقاد حادٍّ مباشر لاذع، فكان ثقيلا جدًّا على قلبي، ولم أنسه مهما حاولتُ تجاهله، وأنا أوقن أنه مجتهد ناصح جزاه الله خيرًا.

٤ ـ عندما لا يكون منفردًا، فالانتقاد يكون ثقيلًا غير مقبول، ويُفهم منه أنه لغرض التشفّي أو الإحراج.





لزوم الحسنى في المقال، وانتقاء اللفظ

لزوم الحسنى في المقال، وانتقاء اللفظ، وتخيُّر الكلمات علامةٌ على رجحان العقل، وسببٌ في امتلاك قلوب الآخرين.

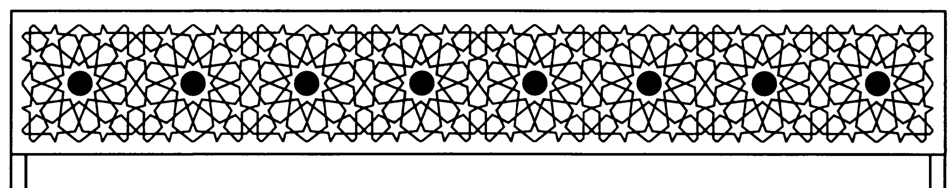
فما كان الرفقُ في شيء إلا زانه، وما نزع من شيءٍ إلا شانه، والله تعالى أمر رسوله ـ ﷺ ـ بذلك فقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، بل أمر بذلك جميع المؤمنين فقال: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

والانتقاد في الأصل بغيضٌ إلى النفوس، ثقيلٌ سماعُه وصعبٌ قبولُه، فإذا انتقدْت أحدًا دون مُستندٍ صحيحٍ لانتقادك، أو انتقدْته بأسلوبٍ جافٍّ أو أمام الآخرين، أو أكثرت من انتقاده، فَسَيَزْداد ثِقَلُه، ويصعُب تحمُّله، وتُعتبر في نظر من انتقدْته مُعتديًا مُخطأً.

وأنت قد تكون في قرارة نفسك ناصحًا مُشفقًا، لكنك لم تكن بذلك مُصيبًا مُوفَّقًا؛ لأنك لم تأت الانتقاد من بابه، ولم تلتزم بضوابطه وآدابه.

فالانتقاد ثقيلٌ وشاقٌّ بحدّ ذاته، فلا ينبغي للعاقل أنْ يزيده ثِقَلًا بخشونة أُسْلُوبه، وفظاظةِ ألفاظه.

فالواجب على المنتقد أنْ يَنْتقيَ أحسن الألفاظ والعبارات، ويبتعدَ عن الأساليبِ التي تُثيرُ وتُؤْلم، وتُفسدُ ولا تُصلح، وأنْ يختار لانتقادِهِ وبيانِ ملحوظاتِه أسلوبَ الاستشارة والْمُقارنة بين شيئين؛ فإن ذلك أدعى للقبول، وهو تنبيهٌ بأسلوب غير مُباشر، ولكنه نافع ومقبول جدًّا.



الهدف من الانتقاد النصح لا الجرح وشفاء الغيظ

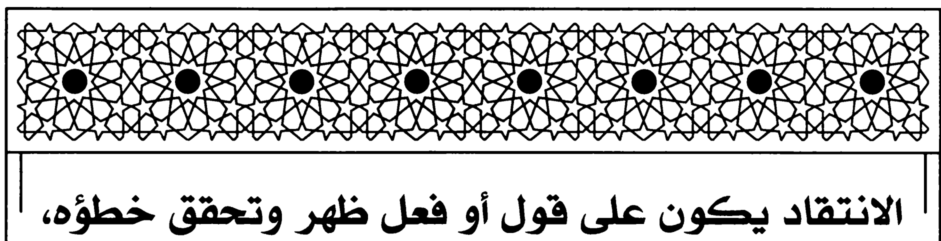
يجب أن يكون هدفُ كلِّ منتقد وناصح: النصح والإصلاح، لا الجرح والفساد وشفاء الغيظ.

وهناك فرق كبير بين انتقاد الناصح وبين انتقاد الجارح:

فانتقاد الناصح: هو الذي يرى الجوانب المشرقة فيمن انتقده، ويحب أن يزيده إشراقًا وكمالًا؛ بتنبيهه على عيبٍ فيه، أو في قوله أو عمله، ويكون خفيًّا لا علانية.

وأما انتقاد الجارح: فهو الذي لا يرى فيه جانبًا مشرقًا، فينتقده بحمم الانتقاد اللاذع؛ ليجرحه ويثبطه، أو ينتقده علانية، ما لم يكن فعلُه يستحق أن يُنتقد علانية.





الانتقاد يكون على قول أو فعل ظهر وتحقق خطؤه، لا على مخالفته لذوقك أو أمر تتحسَّسُ منه

بعض الناس يتحسَّسُ من كلمةٍ أو عبارةٍ معيَّنةٍ، أو فعلٍ أو سلوكٍ معيَّنٍ، ويرى ذلك خطأً فادحًا، أو ذنبًا قبيحًا وهو ليس في نظر الآخرين بخاطئٍ ولا سيِّئ، فينتقد الآخرين أو يعاتبهم ويلومهم على ارتكابهم للأمر الذي يتوجس منه.

وبعضهم ينتقد الناس على مخالفتهم لذوقه وميُوله وعاداته، وربما كرر الانتقاد حتى يُخيّل إلى من انتقده أنه قد ارتكب أمرًا منكرًا، وعملًا شنيعًا.

كمن ينتقد خطيبًا على ارتجاله الخطبة أو قراءته لها من ورقة.

أو ينتقد رجلًا على نوع لباسه أو لونه، ولم يكن لباسًا محرمًا، أو لباسَ شهرةٍ مخالفًا لعادة أهل البلد كلّهم.

أو ينتقد كاتبًا على أسلوبه الذي اتَّخذه في الكتابة، أو ينتقد متحدّثًا على أسلوبه في الحديث، ولم يكن في الكتابة أو الحديث ما يُعاب في ذاته، وإنما عابه المنتقد لمخالفته لذوقه.

فيا ليت الذي ينتقد الآخرين ألا ينتقدهم إلا على قول أو فعل ظهر وتحقق خطؤه، أو ثبتت حرمته بنصٍّ شرعيٍّ صحيحٍ صريحٍ، أو بما أجمع عليه العلماء.

أحدُهم يُذَكِّر صاحبَه بأمرٍ اتَّفَقا عليه، وماطل صاحبُه في تنفيذه، فأرسل له قائلًا: لا تنسَ أنك الْتزمْتَ ووافقتَ على شروطنا، والمؤمنون

على شروطِهم، فغضب من هذه العبارةِ، وقال: أزعجتني عبارتك هذه، ولو قلتَ أيَّ شيءٍ غيرَها لكان أهون!

فقال صاحبُه: هل العبارة في ذاتها خطأٌ عند جميع العقلاء؟ أم أنك وحدك تكرهُها؟ فاسْتحيا وقال: بل أنا لوحدي أكرهُها!، فقال: وما يُدريني أنها تُزعجك؟ فرضي واعتذر.

وآخرُ يستقرضُ من صاحبِه مبلغًا، وشدّد عليه ألا يُكلِّف نفسه أنْ يستقرض من أحد، فلمَّا لم يجد عنده المبلغ الذي طلَبَ، اتَّصل بأحد رجال الأعمال، فوافق على إقراضِ صاحبه قرضًا حسنًا، فأخبر صديقه بفرحٍ بما فعله.

فعاتبه عتابًا شديدًا، وأنَّبَه على فعله!

وصديقه ما أراد إلا الخير والإحسان له، فقد اعتصر قلبُه حين لم يجد المبلغ بين يديه، فهل يقف مكتوف اليدين مع صديقه الحبيب؟

وإنِّي لأستحيي من الله أن أُرى ... بحالِ اتِّساعٍ والصديقُ مضيقُ

فهل مَن أحسن ـ ولو أخطأ في الوسيلة ـ يُعاتَب وُيَعنَّف؟

وقد تقول: هو تضايق حينما عَلِمَ أنّ أحدًا عَلِمَ بحاجته، فلماذا يُخبر غيره بذلك؟

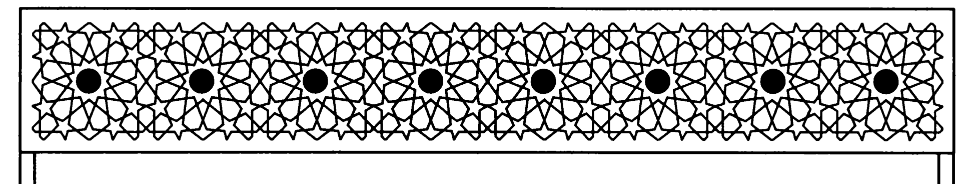
أقول: وما يُدري صاحبه بما تُكنّه نفسه، وما عليه طبعه، فهو ظن الناس مثله لا يتحرجون من ذلك.

وأمرٌ آخر، أليس الأولى أنْ يبتسم في وجهه، ويُطيِّبَ خاطرَه، ويُخبره بأنَّ الأولى ألا يفعل ما فعل؟

أليس ذلك أولى من غضبه وعتابه؟

هَبْنِي أسأتُ كما زعمتَ ... فأين عاقبةُ الأخوة

وإذا أساتَ كما أسأتُ ... فأين فضلك والمروَّةَ



قد يُخطئ المنتقد في أصْلِ انتقاده أو كميَّته أو كيفيَّته

بعضُ مَن ينتقد غيره يكون مخطئًا إما في أصْلِ انتقاده، وإما في كميَّته، وإما في كيفيَّته.

فالأول: من ينتقد بجهل، والحق مع من انتقده، وهذه رزيّة.

والثاني: من ينتقد بعلم وحقّ، لكنه يزيد عن الحدّ الكافي، كأنْ يُبالغ في اللوم والعتاب، أو يقسو ويُغلظ في الخطاب.

والثالث: من ينتقد بطريقةٍ خاطئة، كأنْ ينتقد المخطئ أمام الناس، وهذا المخطئ لم يُجاهر في فعلِ مُنْكر.

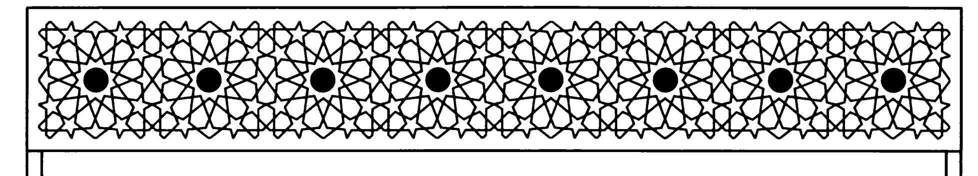
وفي هذا يقول الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

تعمدْني بنصحِكَ في انفرادي ... وَجِّنْبني النصيحةَ في الجماعةْ

فإِن النصحَ بين الناسِ نوعٌ ... من التوبيخِ لا أرضى استماعَهْ

وإِن خالفتني وعصيتَ قولي ... فلا تجزعْ إذا لم تُعْطِ طاعهْ





الفرق بين الانتقاد والتجريح، وبين النصيحة والفضيحة، وبين الصدع بالحق والتحامل

بهذه الضوابط التي تقدّم ذكرُها في الانتقاد والنصيحة نستطيع حينها أنْ نُفرق بين الانتقاد والتجريح، وبين النصيحة والفضيحة، وبين الصدع بالحق والتحامُّل.

فالانتقاد والنصيحة والصدع بالحق: هو السلوك الصحيح؛ لأنّ صاحبه التزم بهذه الضوابط والآداب.

والتجريح والفضيحة والتحامل: هو السلوك الخاطئ؛ لأنّ صاحبه لم يلتزم بهذه الضوابط والآداب، فأفرط في الانتقاد وحادَ عن الحقّ.

فبدون هذه الضوابط في الانتقاد: قد تكون كلمات المنتقد سهامًا يغرسها في قلب من انتقده، وسيفًا يقطع به طُموحه وعزيمته.

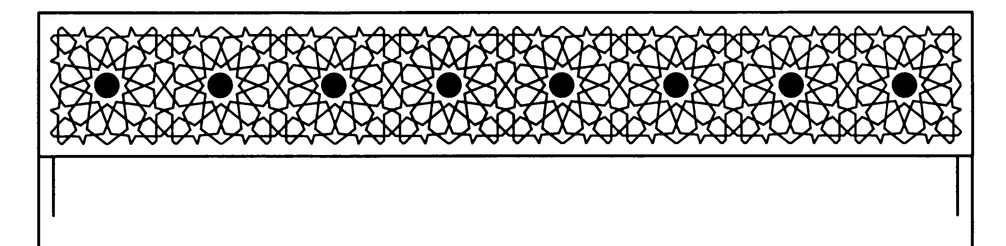
فكم سمعنا من الناس من يُحدث أنه كان في صباه يُحبُّ علمًا من العلوم، كالشعر أو الأدب، أو العلم الشرعيِّ أو الصناعة، فواجهه مُعلّمه أو بعض الناس بانتقادٍ لاذِع، فصرف عنايته واهتمامه عن هذا العلم، الذي ربما لو حفّزه وأثنى عليه لأصبح له شأنٌ كبيرٌ.

وكثيرٌ ممن رزقه الله همةً وطموحًا كبيرًا، يكون في بيئةٍ اعتادت على أمور ألفوها، وعوائد اعتادوها، فيخرج عن بعض هذه العوائد والمألوفات التي ليس في الخروج عنها مخالفة للشريعة، وحينها يُواجه سيلًا من الانتقادات اللاذعة، والعتابات المتتالية، التي لا تأتي من

الحاسد أو العدو فحسب، بل تأتي من القريب والحبيب، فيكاد ينصدم من ذلك، وإن لم يُمده الله بعونه وتوفيقه، فيصبر ويُصابر، وإلا رضخ لهذه الانتقادات، ويأس وتراجع، وضعفت عزيمتُه، وقُتل طموحه، ومات إبداعه.

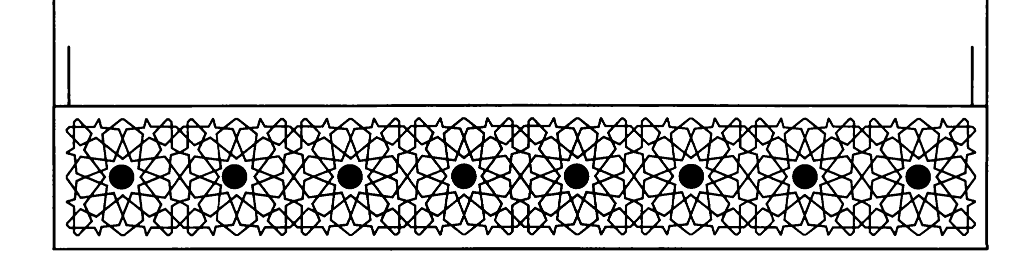
وكم أُشفق على الطَّموح المبدع الذي يعيش في البيئة المخذِّلة، وأُشفق على صاحب الهمة الذي يُحيط به مجتمع يُمجّدون العادات حتى تكون كالعبادات أو أشد، فإنْ خرج عنها لم يحتملوا ذلك منه، وأعلنوا العداوة أو القطيعة له، ورأوا حسناته سيئات، لمجرد أنه لم يسر على ما اعتادوا.

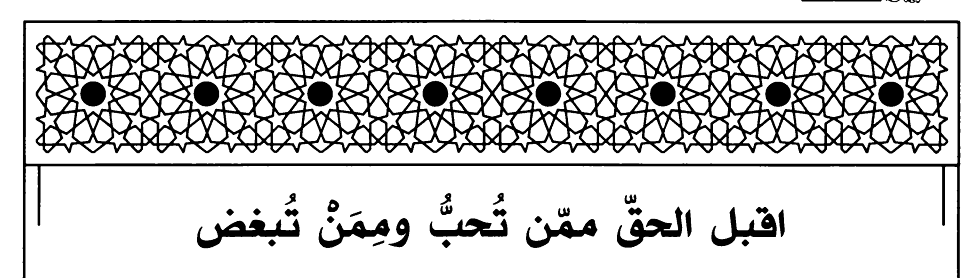




توجيهات لمن انْتُقد

عرفنا آداب الْمُنتقد، وإليك آداب مَنْ وُجِّه إليه انْتِقاد من ناصحٍ مُشفق، أو قُوبل بنصيحةٍ من مُخلصٍ ناصح، الذي التزم وأتى بآداب الانتقاد البناء:





اقبل الحقّ ممّن تُحبُّ ومِمَنْ تُبغض

العاقل يقبل الانتقاد الصحيح بصدرٍ رحْب، ويعمل بما جاء به من الحق.

ولقد ضرب سلفنا الصالح رحمهمُ الله، أروعَ الأمثلةِ في قبول الحقّ من أيٍّ أحدٍ كان، والرُّجوعِ إليه، وعدمِ الحرج من ذلك.

أتعلم لماذا؟

لعلمهم بأنَّ عدمَ الاعترافِ بالحق: هو الكِبْر بعينه، كما قال النبيّ ﷺ: (الكِبْر بطَرُ الحقِّ، وغَمطُ الناس)[1]

فالمتكبر يرد الحق، ويُعرض عنه ولا يقبله؛ لأنه معتدٌّ برأيه، جازمٌ بصواب عمله، ومع ذلك يحتقر الناس ويزدريهم؛ لأنه يرى نفسه فوقهم.

وقد سُئل أحدُ الحكماء: ما التواضع؟ فقال: ألا تقابل أحدًا إلا رأيت له الفضل عليك، بكلمةٍ قالها لك، أو معروفٍ أسداه إليك، أو ابتسامةٍ قابلك بها.

إنَّ من يُذَكِّرُك بأخطائك، ويُنبِّهُك على عُيوبك: قد أسدى إليك معروفًا عظيمًا، فجزاؤه أن تشكرَه وتُثنيَ عليه، وتأخذَ بقوله وتعملَ به، فهذا من علامةِ الإيمان، ورجاحة العقل، وصفاءِ القلب.

علامةُ شكرِ المرء إعلانُ حمده ... فمن كتم المعروف منهم فما شكر

(١) رواه مسلم (٩١).

ولو نبّهك عدوُّك على عيوبك فافْرح بذلك، ولا تشتغل بشخصِه عن الصواب الذي جاء به.

والعاقلُ ينبغي أنْ يحملَهُ كلّ تصرف من المناوئين له وتنقصهم إياه وازدراؤهم به على المنافسة في المعالي، واكتساب الحمد، وهذا من شرف النفس وعزتها كما قيل:

من كان يشكر للصديق فإنني ... أحبو بصالح شكريَ الأعداءَ
همْ صيَّروا طلبَ المعاليَ دَيْدَني ... حتى وطِئْتُ بنعليَ الجوزاءَ
ولربما انتفعَ الفتى بعدوه ... والسُّمُّ أحيانًا يكون شفاءَ

فالعاقل الفطن هو الذي يستفيد من أعدائه، ويرى مِحْنتهم مِنْحة.

عِداتي لهم فضلٌ عليَّ ومِنةٌ ... فلا أذْهبَ الرحمنُ عنِّي الأعاديا
همُ كشفوا عن زلَّتي فاجْتَنَبْتُها ... وهمْ نافسوني فاكْتسبْتُ الْمَعاليا

«ذلك بأن العدو ينقب عن الزلات، ويبحث في الهفوات، وطالب الحق يتوجه دائما إلى الاستفادة من كل شيء، والنظر من كل أمر إلى موضع العبرة وطريق الحقيقة، فإذا وجد في كلام العدو مغمزا صحيحا توقاه، أو عثارًا في طريقه نحاه، وإن ظهر له أنه باطل ثبت على حقه، وعرف منافذ الطعن فيه فسدها، فكان بذلك من الكملة الراسخين»[1]

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: من علامات الخشوع: أنَّ العبد إذا خُولف ورد عليه بالحق استقبل ذلك بالقبول والانقياد..

وقال: لا تصح لك درجة التواضع حتى تقبل الحق ممن تحب وممن تبغض فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك..

ومن تكبر عن الانقياد للحق ـ ولو جاءه على يد صغير أو من

---

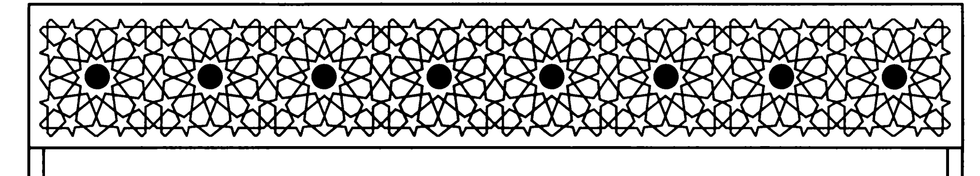
(١) تفسير المنار ٢/ ٢١ ـ ٢٤.

يُبغضه أو يُعاديه ـ فإنما تكبُّره على الله؛ فإن الله هو الحق، وكلامه حق، ودينه حق، والحق صفته ومنه وله، فإذا رده العبد وتكبر عن قبوله: فإنما رد على الله وتكبر عليه. اهـ[١]

فالحق يُقبل من أيِّ أحد، لِكونه حقًّا مُدعَّمًا بالدليل، فلا أثر للمتكلِّم به في قبوله أو رفضه.



(١) مدارج السالكين: ١/٥١٦، ٢/٣٢١، ٢/٣١٧.



بعض النماذج الجميلة، والأمثلة العظيمة، في قبول الحق، والرُّجوعِ إليه، دون تكبرٍ وأنَفة

قال ابن كثير رحمه الله: سُئل عبد الله بنُ الحسن العنبريُّ رحمه الله - وهو يومئذ قاضي البصرة، وله مكانةٌ ومنزلةٌ عند الناس - عن مسألةٍ فأخطأ في الجواب، فقال له صبيٌّ أمام الناس: أخطأتَ أيها القاضي، الحكم فيها كذا وكذا، فطأطأ رأسه قليلًا ثم قال: إذًا أرجع وأنا صاغر، لَأن أكون ذَنَبًا في الحق، أحبُّ إليَّ مِن أنْ أكون رأسًا في الباطل. اهـ[1].

وقال المفسرُ البَقاعيُّ رحمه الله في كتابه: مقاصدُ النظر: «ما تركت أحدًا ممن يُلِمُّ بي إلا قلتُ له: من وجد لي خطأً فليخبرني به لِأُصْلحه، ووالله الذي جلَّت قدرته، وتعالَتْ عظمته، لو أن لي سعةً تقومُ بما أُريد، لكنتُ أبذل مالًا لمن يُنبهني على خطئي، فكلَّما نبهني أحدٌ على خطأ أعطيتُه دينارًا.

ولقد نبهني غيرُ واحدٍ على أشياءَ فأصلحتها، وكنت أدعو لهم وأُثني عليهم». اهـ.

وقال ابن العربي رحمه الله: أخبرني محمد بن قاسم العثماني غير مرة: وصلت الفسطاط مرة، فجئت مجلس الشيخ أبي الفضل الجوهري، وحضرت كلامه على الناس، فكان مما قال في أول مجلس جلست إليه: إن النبي - صلى الله عليه وسلم - طلق وظاهر وآلى، فلما خرج تبعته حتى بلغت معه إلى

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٢١٧.

منزله في جماعة، فجلس معنا في الدهليز، وعرفهم أمري، فإنه رأى إشارة الغربة ولم يعرف الشخص قبل ذلك في الواردين عليه، فلما انفض عنه أكثرهم قال لي: أراك غريبًا، هل لك من كلام؟ قلت: نعم. قال لجلسائه: أفرجوا له عن كلامه. فقاموا وبقيت وحدي معه. فقلت له: حضرت المجلس اليوم متبركا بك، وسمعتك تقول: آلى رسول الله - ﷺ - وصدقت، وطلق رسول الله - ﷺ - وصدقت، وقلت: وظاهر رسول الله - ﷺ - وهذا لم يكن، ولا يصح أن يكون؛ لأن الظهار منكر من القول وزور؛ وذلك لا يجوز أن يقع من النبي - ﷺ -. فضمني إلى نفسه وقبل رأسي، وقال لي: أنا تائب من ذلك، جزاك الله عني من معلم خيرًا. ثم انقلبت عنه، وبكرت إلى مجلسه في اليوم الثاني، فألفيته قد سبقني إلى الجامع، وجلس على المنبر، فلما دخلت من باب الجامع ورآني نادى بأعلى صوته: مرحبا بمعلمي؛ أفسحوا لمعلمي، فتطاولت الأعناق إلي، وحدقت الأبصار نحوي، وتعرفني: يا أبا بكر يشير إلى عظيم حيائه، فإنه كان إذا سلم عليه أحد أو فاجأه خجل لعظيم حيائه، واحمر حتى كأن وجهه طلي بجلنار قال: وتبادر الناس إلي يرفعونني على الأيدي ويتدافعوني حتى بلغت المنبر، وأنا لعظم الحياء لا أعرف في أي بقعة أنا من الأرض، والجامع غاص بأهله، وأسال الحياء بدني عرقًا، وأقبل الشيخ على الخلق، فقال لهم: أنا معلمكم، وهذا معلمي؛ لما كان بالأمس قلت لكم: آلى رسول الله - ﷺ - وطلق، وظاهر؛ فما كان أحد منكم فقه عني ولا رد علي، فاتبعني إلى منزلي، وقال لي كذا وكذا؛ وأعاد ما جرى بيني وبينه، وأنا تائب عن قولي بالأمس، وراجع عنه إلى الحق؛ فمن سمعه ممن حضر فلا يعول عليه. ومن غاب فليبلغه من حضر؛ فجزاه الله خيرًا؛ وجعل يحفل في الدعاء، والخلق يؤمنون.

قال ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ: فانظروا رحمكم الله إلى هذا الدين المتين، والاعتراف بالعلم لأهله على رؤوس الملأ من رجل ظهرت رياسته، واشتهرت نفاسته، لغريب مجهول العين لا يعرف من ولا من أين، فاقتدوا به ترشدوا. اهـ[(١)]

وقال ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: أخبرك بحكاية لولا رجاؤنا في أن يسهل بها الإنصاف على من لعله ينافره ما ذكرناه، وهي: أني ناظرت رجلا من أصحابنا في مسألة فعلوته فيها لبكوء[(٢)] كان في لسانه، وانفصل المجلس على أني ظاهر، فلما أتيت منزلي حاك في نفسي منها شيء، فتطلبتها في بعض الكتب فوجدت برهانا صحيحا يبين بطلان قولي وصحة قول خصمي، وكان معي أحد أصحابنا ممن شهد ذلك المجلس فعرفته بذلك، ثم رآني قد علمت على المكان من الكتاب، فقال لي ما تريد فقلت: أريد حمل هذا الكتاب وعرضه على فلان وإعلامه بأنه المحق وأني كنت المبطل وأني راجع إلى قوله!

فهجم عليه من ذلك أمر مبهت وقال لي: وتسمح نفسك بهذا!

فقلت له: نعم، ولو أمكنني ذلك في وقتي هذا لما أخرته إلى غد.

واعلم أن مثل هذا الفعل يُكسبك أجمل الذكر مع تحليك بالإنصاف الذي لا شيء يعدله، ولا يكن غرضك أن توهم نفسك أنك غالب، أو توهم من حضرك ممن يغتر بك ويثق بحكمك أنك غالب، وأنت بالحقيقة مغلوب، فتكون خسيسًا وضيعا جدًّا، وسخيفًا البتة، وساقط الهمة. اهـ[(٣)]

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٣٠.

(٢) أي: نقص، وذلك لعدم فصاحتِهِ وبيانه مقارنةً مع ابن حزم.

(٣) رسائل ابن حزم: ٤/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨.

وألَّف الحافظ عبد الغنيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كتابًا فيه أوهامُ وأخطاءُ الحاكم أبي عبدِ الله، صاحبِ الْمُستدركِ على الصحيحين، فلما وقف عليه الحاكمُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، جعل يقرؤه على الناس، ويعترف لعبد الغنيِّ بالفضل، ويشكره على ذلك، ويرجعُ إلى ما أصاب فيه من الردِّ عليه رحمهما الله[١]

ومن أعظم الأمثلة في تقبل الانتقاد والفرح به: الوَزِيْر الكَبِيْر نِظَام الْمُلْك، قال عنه الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُعْجِبُهُ مَنْ يُبَيِّنُ لَهُ عيوبَ نَفْسه، فَيَنكسِرُ وَيَبْكِي». اهـ.

تأمل قوله: يُعْجِبُهُ مَنْ يُبَيِّنُ لَهُ عيوبَ نَفْسه، فَيَنكسِرُ وَيَبْكِي، وبعض الناس يُعْجِبُه مَنْ يمدحه ويُبَيِّنُ لَه محاسنه، وإذا بيَّن أحد له عُيوبه كان عدوًّا لدودًا في نظره، والله المستعان.

ومن أمثلة حبه وإعجابه لِمَنْ يُبَيِّنُ لَهُ عيوبَ نَفْسِه، أنه دخل يومًا على أحد العلماء، فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ بتواضع وأدب، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ ناصحًا وواعظًا: أيُّها الوزير، إِنَّ اللهَ تعالى قَدْ سَلَّطَكَ عَلَى عِبَادِهِ، فَانْظُرْ كَيْفَ تُجِيبُهُ إِذَا سَأَلَكَ عَنْهُمْ.

فما كان منه إلا أنْ طأطأ رأسه وقبل نصيحته[٢]

انظر وتأمل إلى صدقِ وسلامةِ قلوب سلفنا الصالح، يفرحون بمن يُخبرهم بأخطائهم وعُيُوبهم، ويتمنى بعضُهم أنْ لو كان غنيًّا، فيُكافئ مَن يدُلُّه على خطئه.

ولا يأنفون إذا خطَّأ الطالبُ أحدَهم، بل يُكرمونه ويَنْسِبُون الفضلَ له، فهكذا ينبغي أنْ يسير عليه المعلمون في هذا الزمن، ومَنْ يتصدَّرون مجالس العلم في المساجد والجامعات.

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٧٥.

(٢) المصدر السابق ١٢/ ١١٢.

وقارن هذا مع حال كثيرٍ من عامَّتنا وخاصَّتنا، حيث يجدون حرجًا إذا نُبِّهوا على خطأٍ فيهم، وينتقدونه بأنه ليس أهلًا أنْ يُخطِّئَهم.

كم رأينا مِن أناسٍ ذُكِّروا بخطأٍ فيهم، وعيبٍ في سلوكهم وأخلاقهم، فلا يفرحون بذلك، بل يذمُّونه ويحتقرونه، إما لأنه يصغرهم سنًّا أو منصبًا، وإما جهلًا منهم، أنه سيقلّ قدرهم إذا قبلوه.

وسلفُنا الصالح رحمهم الله يُعلنون في منابرهم أنهم قد أخطؤوا، وأنَّ فلانًا من الناس، هو مَن دلَّهم على ذلك، ويشكرونه ويُثنون عليه أمام الناس.

فما أعظم هذا المنهجَ العظيم، فلْنسر عليه، ولْنقبلِ الحق ونأخذْ به، ولا نتحرَّجْ أبدًا من ذلك، ولْنعترفْ بالفضل لمن جاء به.

ولم يكن هذا المنهج الشريف في الزمن السابق فحسب، بل هو خُلُقٌ تمسك به الأفاضل من العامّةِ والعلماء، وسار عليه العظماء والكرماء، فها هو العلامة أحمد شاكر رحمه الله تعالى، قد حقَّق كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة، فجاء السيد أحمد صقر وهو أصغر منه بكثير فانتقد كثيرًا مِن عمله وآرائه وتحقيقاتِه، فما كان من العلامة أحمد شاكر إلا أنْ أثبت في مقدمة تحقيقه كامل انتقادات السيد أحمد صقر، ولم يجد في ذلك حرجًا ولا غضاضةً عليه ولا تنقّصًا له، وقال: «ورأيت أن الأمانة العلمية تقتضي أن لا أتصرف في انتقاد الأستاذ (السيد صقر) على ما فيه من هنات، أو تحامل اعتاده كثير من شباب هذا العصر العجيب.

ولا بأس عليّ من ذلك، فما كان من نقده صوابا وإرشادا إلى خطأ وقعت فيه، تقبلته راضيا شاكرًا وصححته في هذه الطبعة، وما كان منه خطأ أو تحاملا لم أفكر في التعقيب عليه إلا فيما ندر، وما كان من مواضع اختلاف وجهة النظر تركته للقارئ يرى فيه رأيه، فيقبل منه ما

يقبل ويرفض منه ما يرفض، فما يكون لي على الناس من سلطان أفرض به رأيي عليهم، وما كان هذا من أخلاق العلماء».

ثم قال بعد ذلك: «ولقد زعم كثير من إخواننا، ووصل إليّ ذلك: أني ضقت بانتقاد الأستاذ السيد صقر في المرتين. وما أظن الذي زعم ذلك أو توهمه يعرف شيئا من خلقي، فما ضاق صدري بشيء من انتقاد قط، لان أو قسا، والعلم أمانة.

بل إني لأرى أنَّ الضيق بالانْتِقاد والتسامي عليه ليس من أخلاق العلماء، وليس من أخلاق المؤمن، إنما هو الغرور العلمِي، والكبرياء الكاذبة، وحسْبُنا في ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]»(١)

وقال الشيخ الأديب علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: كان أستاذ شاب ذكيٌّ مكفوفٌ يجادلني في بعض ما كتبت في تأويل ما لا بدّ من تأويله وما لا يمكن أبدًا حمله على ظاهره كقوله تعالى ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ مع قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ وقوله ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾، ويشتدّ أحيانًا في نقدي وتدفعه حماسة الشباب إلى الهجوم الشديد عليّ..

وأنا رجل مرّ بمراحل، فقد كانت نشأتي الأولى على يد مشايخ كلهم صوفيّة، فكان من ثمرات ذلك أن كرّهوا إليّ ابن تيميّة مثلًا وابن عبد الوهاب. ثم سافرت إلى مصر سنة ١٣٤٧هـ لأدرس فيها وأنا ابن عشرين سنة متفتح القلب للتلقّي، فحوّل خالي محب الدين ومَن عنده من روّاد المطبعة السلفية وجهتي، وجعلوني أحب ابن تيميّة وابن عبد الوهاب بعد أن كنت أكرههما.

---

(١) الشعر والشعراء، لابن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، تحيق: أحمد شاكر، الناشر: دار الحديث، القاهرة: ١/ ٥، ٣٤.

كان هذا المدرّس الشابّ يطيل مناقشتي في كتاباتي القديمة، ولا يصدّق أني مررت بها ولم أقف عليها وأني رجعت عن كثير منها، فقلت له: اكتب رسالة تردّ بها عليّ!

فتعجّب وقال: ألا تغضب؟ قلت: لا، فكتب رسالة طبعها له بعض أهل الخير ووُزّعت مجانًا. اهـ[١]

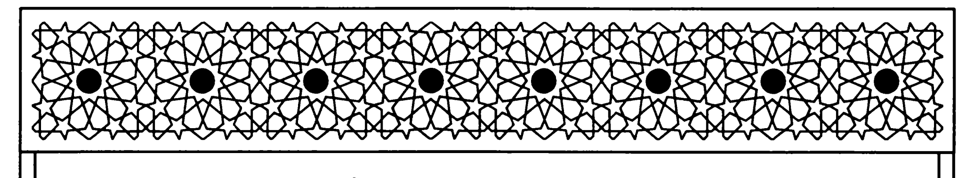
ويا من يأنف من الانتقاد: ألست تنتقد نفسك في بعض الأمور والمواقف، وتلوم نفسك على بعض التقصير في القول والعمل؟ فلماذا كان حلالًا عليك انتقاد نفسك، حرامًا على غيرك نقدُك؟

وما أقبح من يردّ الصواب لهوان صاحبه:

لا تحقرنّ الرأي وهْو موافق ... حكم الصواب إذا أتى من ناقص
فالدّرّ وهْو أجلُّ شيء يُقتنى ... ما حّط قيمته هوانُ الغائص



(١) ذكريات ـ علي الطنطاوي (٨/ ٢٢٩).



التعامل الصحيح مع الانْتقاداتِ، والخطوات العمليّة لتقبُّلها بصدرٍ رحب

الانتقاد ثقيل في الغالب، وكثير من الناس يغضب عندما يُنتقد، وربما تعكَّر مزاجه، وضاق صدره.

وإذا أردت أنْ تصل إلى مرحلةٍ تتقبل فيها الانتقاد بصدرٍ رحب، ولا يضيق صدرك منه أبدًا: فعليك بهذه التوجيهات المجرَّبة العمليَّة:

١ ـ ابحث عن حلٍّ لنفسِكَ لا لغيْرِك، فَرِضى جَميعِ النَّاسِ شيءٌ لا تَنالُه، وقدْ قالتِ الحُكَماءُ: جُبِلَ النَّاسُ على ذمِّ زمانِهم، وقلَّة الرِّضى عن أهلِ عصرِهم.

وقالتِ: لا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة.

وقالتِ: رضى الناس غاية لا تدرك.

وَمَعْنَى هذه العبارة: «أنَّ الرَّجُلَ لا يَسلَمُ من النَّاسِ على كُلِّ حالٍ، فينْبغي أن يَسْتَعملَ ما يُصْلحُه ولا يَلْتَفِت إلى قَوْلهم»[١]

وَلا رَيْبَ أنَّ مِن النَّاس مَن لا تُعجبُه بعْضُ أعمالِكَ وأقوالِكَ، فلا بد أنْ تُهيّئ نفسَك مِن أوَّلِ الأمر على تقبُّل الانْتِقاد الذي هو مِن طبيعة البشر، فاعتد على ذلك، وعلى أنَّه ليس غريبًا، بل الغريبُ عدم سماع مُنتقد، فَلَو جَاءَ أحَدٌ إليكَ، وَقَالَ: هناك مَن انتقدك على كذا وكذا، ولم

(١) «جمهرة الأمثال»: (١/ ٤٩٣).

يكن انتقادُه صوابًا، فلا تستغرب، بل تقبّل الأمر وهيِّئ نفسَك لسماعِ مِثْل هذا الانْتِقاد وأكثر؛ لأنَّ وجود غريزة الانْتِقاد في النَّاس كبقية الغرائز فيهم، فما هو الغريبُ في ذلك؟

٢ ـ أقنعْ نَفْسَكَ أنّ مَن انتقدك لا يريد مِن انتقادِه إلا الخير لك، دفعه حبُّ النَّصيحة والخير؛ وهذا يدفعك إلى حبِّه وشكرِه، لا إلى النُّفْرَةِ وضيق الصَّدْر.

ومِمَّا جاءَ فِي بَعْضِ الكُتُبِ المعاصِرة: «عندما تركز انتباهك على إلقاء اللوم على غيرك فإنك تبدِّد طاقتك وقدرتك وتضيع وقتك.

وبَدلًا مِنْ ذلكَ: حاول أنْ تركز طاقتك على تحسين نمط حياتك».

٣ ـ كن على يقين أنَّ جُلَّ الْمُنتقدين لا يَنْطَلِقون في انتقادهم مِن حقائقَ علْمية، وتَجارب مُطّردة، وثَوابت قطعيّة؛ ليُحاكمُوا الناسَ عليها، وينتقدوهم على مخالفتِها.

بل يَنْطَلِقون في انتقادهم مِن أذواقِ أنفسِهم وعاداتِهم.

وخُذْ هذا الدَّليلَ مِن الواقِع: حينما قرَّرتُ أنْ أخطب ارْتجالًا، واجهتُ انتقاداتٍ كثيرةً من بعض الناس، وكان انتقادُهم على ارتجالي للخطبة، وما قد يُسبِّبُه مِن التَّشتت والاستطراد، ولم يذكر أحدٌ منهم عيبًا واضحًا.

وصرَّح لي غيرُ واحد بأنّ الخطباء الآخرين ـ وهم أعلم وأكبر منك ـ يخطبون بورقة! فهل أنت أحسن حالًا مِنْهم؟

فَقُلْتُ لَهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ: سأخطُب الجمعة القادمة بورقة، وأَعْطُوني رأيكم فيها.

وَبَعْدَ الخُطْبَةِ قَالَوا لِي: ما أحسن خطبتك اليوم، حيث تميَّزت بالأسلوب الرائع، وعدمِ التَّشتت والاستطراد، ولا مقارنة بين خطبتك اليوم وخطبتك السابقة.

فَقُلْتُ لَهُمْ: في خطبتي السَّابقة وما قبلها كانت بين يديَّ ورقةٌ كتبتُ فيها رؤوس الأقلام والمواضيع والأدلة، حتى أضبط الوقت، ولا أستطرد ولا أتشتَّت، وأمَّا خطبتي هذه فقد خطبتُ بورقةٍ بيضاء، ليس فيها حرفٌ واحد! وجعلتُ أنظرُ إليها في الخطبة كأني أقرأ منها، وأقَلِّبها بين الفينة والأخرى!

حينها وصلت إلى قناعةٍ راسخةٍ أنّ جلَّ انتقاد النَّاس راجعٌ إلى أذواقِهم وعاداتِهم ورغباتِهم.

وإذا كانَ كذلِك: فلا ينبغي الانشغال بانتقادهم؛ لأنّ انتقادَهم ـ غالبًا ـ لا يعني خطأك، بل يعني مخالفتَك لأذواقهم، وخروجك عن مألوفِهم.

فَلِمَ الحزنُ مِن انتقادِهم؟ والاهتمام بكلامِهم؟

ويا ليت الذي ينتقد الآخرين لا ينتقدهم إلا على قول أو فعل ظهر وتحقق خطؤه، أو ثبتت حرمتُه بنصٍّ شرعيٍّ صحيحٍ صريحٍ، أو بما أجمع عليه العلماء.

٤ ـ وطِّنْ نفسك على تقبُّل الانتقاد، وعدم التضايق منه، وغيّر نظرتَك تُجاه الانْتِقاد والْمُنتقدين.

واعلم أنّ جميع الأفعال والاعتقادات: ناشئةٌ عن القناعات، فمن اقتنع أنّ الانْتِقاد مِن سِمَةِ البشر، وأنَّه لم يسلمْ أحدٌ مِن الانتقاد، حتى نبيّنا ـ ﷺ ـ لم يسلمْ مِن الانتقاد، الذي لم يأتِ مِن الكفار والمنافقين فحسب، بل مِن بعْضِ الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ: هيَّأ نفسَه لتقبُّل الانْتِقاد ولم يغضبْ ولم يحزنْ.

وأعرفُ رجلًا كان يتضايق وينزعج مِن الانْتِقاد في موضوعٍ مَا، ويتحسَّس مِنْه كثيرًا، فدار نقاشٌ مع أقاربِه وأصحابِه حول الانتقاد،

فتوصلوا إلى أنَّه ينبغي عدَمُ الغضب مِن انتقاد النَّاسِ، وأنّ العاقل لا ينبغي أنْ يكترثَ مِن انتقادِهم، ونحو هذا الكلام، وقرأ عن هذا الموضوع، واقتنعَ بذلك.

قال: وبعد شهر تقريبًا مِن هذا النِّقاش، جاءني انْتِقاد لم أسمعْ مِثْلَه قسوةً وفظاظةً في ذلك الموضوع، وفي وقت غير مناسب أبدًا، وكان قد انتقدني في نفسِ الموضوع أكثر مِن مرَّة، وقد تعجبتُ مِن نفسي أنَّي لم أغضبْ وأنا أستمعُ لهذا الانْتِقاد اللاذع، ولم أكترثْ مِن انتقادِه، وجعلْتُ أحاورُه بهدوءٍ ورحابةِ صدر، وأوضحُ له وجهةَ نظري، ثم فارقتُه ولم أحملْ في خاطري عليه مثقالَ ذرَّة، بل جعلْتُ أقولُ: إنَّما فعلَ هذا مِن حبّه لي، ونصحِه لي، ولو أخطأ في أُسلوبِه.

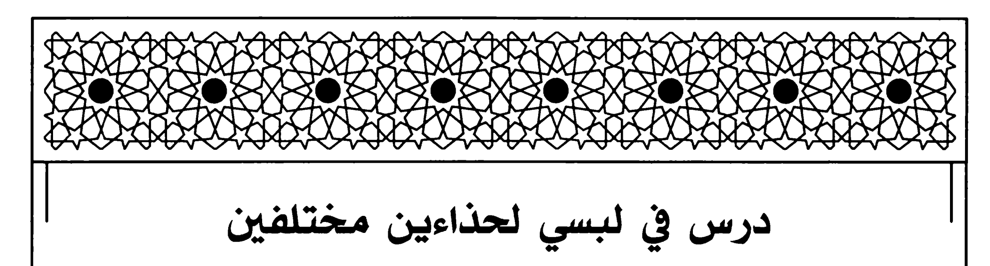
فطبّق هذه القاعدة المجربة العملية، وسوف ترى أنَّكَ بعْدَ الاستعانةِ بالله، والتَّوكلِ عليه وكثرة المران على تقبل الانتقاد: لنْ تتضايقَ مِنه مهما كان قاسيًا، ومهما جاء من عزيز وكبير.

٥ ـ اتخذْ هذه القاعدةَ منهجًا لك حينما تُنتقد بما ليس فيك: اخترتُ لنفسي ألا أغضب، ولا أرى انتقادك جارحًا.

فحينما تسمع انتقادًا لاذعًا من أحد من النَّاس، فإنَّ السفيه يحملُه على أسوء محمل، والعاقلُ يحملُه على أحسن محمل، ولو كان بعيدًا.

وحينما تحملُه على أسوء محمل، وإنْ كان ظاهر انتقاده يدل على ذلك، فماذا ستستفيد سوى الهمّ والحقد على أخيك!

فأمَّا إذا حملت تصرّفات النَّاس وانتقاداتهم على أحسن محمل: فقد استرحت وأرحت، وتجنَّبت أعظم سبب للنكد والهمّ، والأمراض الخطيرة المنتشرة.



درس في لبسي لحذاءين مختلفين

خرجتُ يومًا لصلاةِ العصرِ، فلما أردْتُ الدخول للمسجد وخلعت نعالي، تفاجأت أنهما مختلفتان! اليمنى جزمة، واليسرى نعال! ولم أشعر وأنا في الطريق بهما.

فلما صليت ولبستهما شعرت بالفرق الكبير بينهما، وكدت لا أعرف الْمَشي لاختلاف طريقة لبسهما والمشي عليهما.

وتعجبت كيف لم أشعر بذلك مع الاختلاف الكبير الواضح!

فقلت في نفسي: لقد كنت وأنا ذاهب لا أشعر بهما، ولا أشعر بقبح منظرِ لبسهما، ولا أرى أن فيّ عيبًا؛ لأني لم أقف عليه، ولو رآني أحدٌ لاستنكر ذلك وربما ضحك أو انتقدني على ذلك، وحينما شاهدتهما، وعلمت بالخطأ الذي وقعت فيه شعرت بقبح ذلك، وأثّر علي في المشي وفي التحسس من أن يراني أحد.

وقد استفدت من هذا الموقف فائدتين:

الفائدة الأولى: الأثر الكبير لمن ينصح لنا وينتقدنا على أخطائنا التي لم نحسّ بخطئها، ولم نشعر بقبحها.

فكم في أخلاقنا وتعاملنا من العيوب الكثيرة التي لم نشعر بقبحها، ولم نتصور شناعتها؛ وذلك لأننا نشأنا عليها، ولو أنَّ أحدًا انتقدنا ونبَّهنا عليها لشعرنا حينها بقبحها، وقلنا في أنفسنا: كيف لم نشعر بهذا الخلق السيِّئ من قبل؟ وهل كان الناس يشعرون بذلك، ويُشاهدون هذا القبح بوضوح؟

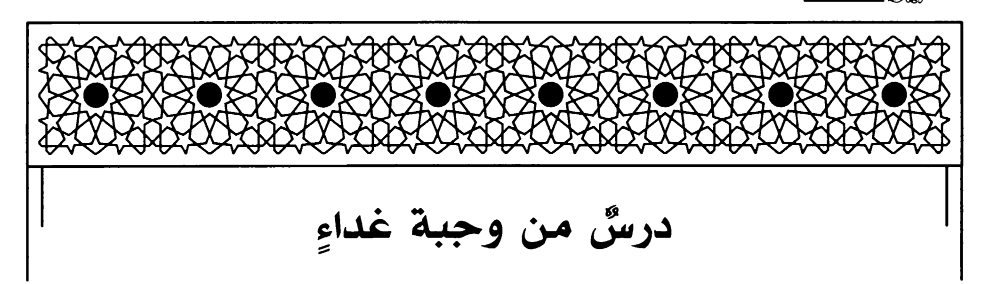
وحينها سنقول إذا كنا منصفين موفّقين: شكرًا لك أيها الْمُنتقد، ومهما كان انتقادك قاسيًا أو غير حكيم إلا أنّ لك الفضل والامتنان.

الفائدة الثانية: أنّ الإنسان إذا كان شديد التوجس من الآخرين، وعظيم التأثر من انتقادهم ونظراتهم: فإنه سيعيش مهمومًا وقلقًا، ويُصاب بالأمراض النفسية، والذي لا يُبالي بالانتقاد ـ مادام لم يُخالف الآداب الإسلامية، والأعراف السائدة الصحيحة ـ ويُحسن الظن بالمنتقدين، ويلتمس الأعذار لهم، ويتعامل مع تصرفاتهم الخاطئة بإعراض وعدم مبالاة: فإنه سيعيش براحة نفسية، ورضى تامٍّ عن شخصيّته وثقته بنفسه.

فحينما لم أشعر باختلاف نعليّ لم أُصب بالهمّ والقلق، وحينما ألقيت بالًا بذلك انعكس الأمر.

فلا تفكر بكلام الناس عنك، ولا تخف إذا وقع نظرهم على عيب فيك، وعش حياتك وفق قناعاتك، فالذين ينتقدونك سيعيشون هم حياتهم كذلك، ولن يبالوا بك.





درسٌ من وجبة غداءٍ

كنت يومًا على وجبة الغداء مع الأهل والأولاد، ومن بين أصناف الغذاء طعامٌ شعبيّ غير معهود عندهم، بل هو مستغرب وغير مستحسنٍ لديهم، وأنا مستمتع به ومتلذّذ بأكله ولله الحمد، ورأيتُ أولادي ينظرون إلي وأنا آكله وقد بدت عليهم علامات الاستغراب والتعجب، ولا ألومهم في نظرتهم هذه ولا انتقادهم لي.

لأني لو فكرت كما يفكرون لَمَا أكلت هذا الطعام الذي أشتهيه ولا يشتهونه، وأحبّه ولا يحبّونه، ولم يخطر في بالي ما خطر في بالهم؛ لأني حينما كنت صغيرًا نشأت عليه وهو طعام معهود ومفضل لدى المجتمع في ذاك الزمن، ولم أفكّر حينما كنت صغيرًا بما فكروا فيه، فلم يظهر لي فيه عيبٌ واحد.

وكلنا مصيب، فقد أصبتُ حينما أكلته؛ لأنني قد جربته وتحققت من جودة طعمه، وهم أصابوا كذلك حينما استغربوا رغبتي فيه؛ لأنهم لم ينشؤوا عليه ولم يتذوّقوه من قبل، ولم ينظروا إليه إلا بصورة سلبية.

فلذلك لم أَلُمْهم على عزوفهم عنه وانتقادهم لي بالرغبة فيه، ولم أجد أيّ ضيقٍ من ذلك.

فتأملت في غالب انتقاد الناس بعضهم البعض، فوجدته من هذا القبيل؛ فإنّ غالب من ينتقد إنما ينتقد أمرًا لم يجربه ولم يمارسه، فلا يرى إلا الجوانب السلبية فقط، وأما الذي انْتُقِد فقد عرف منافع ما يقوم

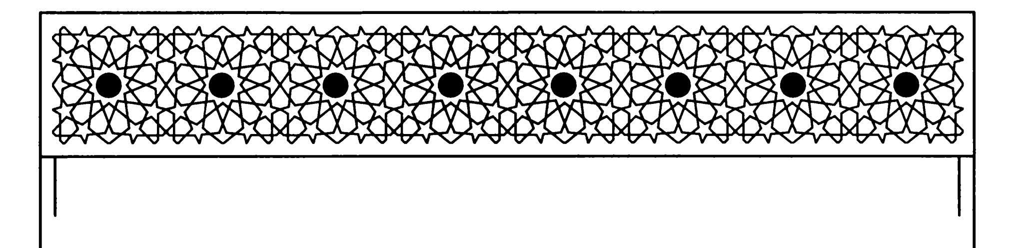
به بالتجربة والفعل وعنده تبريرٌ لما يقوم به، فلا ينبغي له أن يغضب من انتقاد الناس له، وليعذرهم لأنهم لم يروا ما رأى، ولم يجربوا ما جرب، ولم يحيطوا بما أحاط به.

وبعض الناس يكون انتقاده بسبب خلل في تصوره أو علمه أو ذوقه، كما قال المتنبي:

ومَن يكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ يجدْ مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

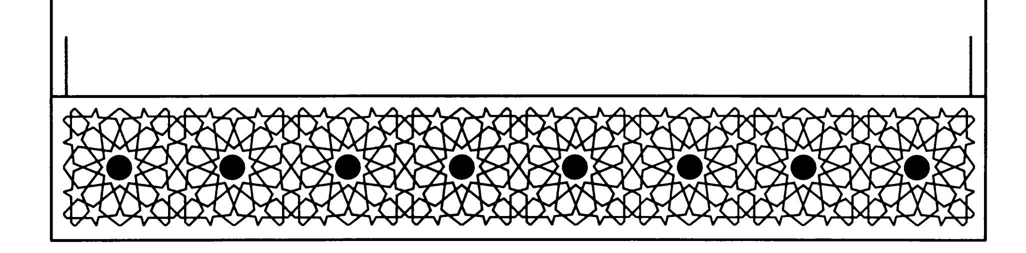
فكان لزامًا عليه لكي يسير في طريقه نحو النجاح دون أدنى تعثر ألا يلتفت إلى مثل انتقاد مَن هذا حاله.





أهميّةُ المدح والثناء

وبعد أنْ انتهينا من آداب الانتقاد وضوابطه، نأتي على الشق الآخر، وهو المقابل والقرين له، ألا وهو الثناء والمدح والشكر.





أهمية شكر الناس على محاسن أعمالهم والثناء عليهم

ما أجمل أنْ نُكثر من شكر الناس على محاسن أعمالهم ونُثني عليهم، ولو لم نستفد نحن منها أيّ فائدةٍ لأنفسنا، فهذا الخُلُقُ لا يتخلق به إلا النفوس الشريفة، كيف وقد سمى الله تعالى نفسه شاكرًا! فقال: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾، وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

قال العلامة محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والنكتة في اختيار هذا التعبير تعليمنا الأدب، فقد علمنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذا أدبا من أكمل الآداب بما سمى إحسانه وإنعامه على العاملين شكرًا لهم مع أنَّ عملهم لا ينفعه ولا يدفع عنه ضرًّا، فيكون إنعامًا عليه ويدًا عنده، وإنما منفعته لهم، فهو في الحقيقة من نعمه عليهم إذ هداهم إليه وأقدرهم عليه، فهل يليق بمن يفهم هذا الخطاب الأعلى أن يرى نعم الله عليه لا تعد ولا تحصى وهو لا يشكره ولا يستعمل نعمه فيما سيقت لأجله؟ ثم هل يليق به أن يرى بعض الناس يسدي إليه معروفا ثم لا يشكره له ولا يكافئه عليه، وإن كان هو فوق صاحب المعروف رتبة وأعلى منه طبقة؟ فكيف وقد سمى الله ـ تعالى جده وجل ثناؤه ـ إنعامه على من يحسنون إلى أنفسهم وإلى الناس شكرًا، والله الخالق وهم المخلوقون، وهو الغني الحميد وهم الفقراء الْمُعْوِزون؟

فَتَرْكُنا شكر الناس وتقدير أعمالهم قدرها سواء كان عملهم النافع

موجها إلينا أو إلى غيرنا من الخلق، فهو جناية منا على الناس وعلى أنفسنا؛ لأن صانع المعروف إذا لم يلق إلا الكفران فإن الناس يتركون عمل المعروف في الغالب، فنُحرم منه ونقع مع الأكثرين في ضده فنكون من الخاسرين..

ثم إن كفران النعم لا بد أن يؤثر في نفس من عساه يوجد منهم، فإن لم يكن أثُرُه تركَ السعي والعمل، كان الفتور فيه..

كذلك الشكر يؤثر في إنهاض همة أَعْلياء الهمة من المخلصين في أعمالهم الذين لا يريدون عليها جزاء ولا شكورًا؛ ذلك أنهم يرون عملهم الخير نافعا فيزيدون منه، كما أنهم إذا رأوه ضائعا يكفون عنه. اهـ(١)

واسأل نفسك: متى رأيت صفة في أحد من الناس فمدحته عليها؟

فهل يعقل أن من حولك ومن تخالطهم لا تُوجد عندهم صفات وأخلاق بارزة؟ هذا لا يعقل.

وإن كنت ترى وتكتم، فهو عيب فيك، وقد يدل على حسد في القلب.

فينبغي علينا أن نفتّش عن الصفات الحسنة والقيم النبيلة فيمن حولنا من أقارب وأولاد وأصدقاء وطلاب، فنبرزها لهم، ونشكرهم عليها.

فما عذرنا ونحن نبخل حتى بالكلمات اليسيرة من الثناء، وهو أمرٌ لا يُكلفنا ولا يُتعبنا، ومع ذلك فهو يصنع في النفوس ما لا يصنعُه المال.

فشكرُ الناسِ والثناء عليهم صفةٌ لا يتحلى بها إلا شرفاء الناس، أصحابُ القلوب الصافية السليمة.

---

(١) تفسير المنار ٢/ ٤١ ـ ٤٢.

فيا أيها المربي والْمُعلم، اشْكُر طلابك وأبناءك إذا رأيت منهم أعمالًا صالحة، وأفعالًا حسنة.

وعندما ترى أحد طلابك صاحبَ همّة ونباهة وإبداع: فبادر إلى تحفيزِه والثناء عليه وعلى مواهبه، فهو في أمس الحاجة إلى سماع ذلك منك، وستكون تلك الكلمات عونًا له على مزيد من الجدّ والإبداع، ولن ينساها لك أبدًا.

وإذا بخلت وشححت عليه ثم كبر وواصل مسيره ونجاحه وإبداعه: سيسمع ذلك من غيرك، ولو أسْمعته بعد ذلك فسيكون لكلامك ولو ملأت الكون مديحًا وتحفيزًا الأثر الأقلّ على نفسه؛ لأنه جاء كلامك في غير وقته وحاجته، وربما رأى سكوتَك حينها نوعَ خذلانٍ أو حسدٍ له.

أيُّها الرئيسُ والْمُدير، تلَمَّس أحسن ما عند مُوظّفيك فاشْكرهم عليه، وشجعهم على الثبات عليه.

لِيَكن الثناءُ والتحفيز هو السمةَ البارزةَ فيك، فبه تَسْتَنْهِضُ النفوس للعمل، وتُحيي الفأل والأمل، وتقضي على الخمولِ والكسل.

لِنَمْلأ أسماع أحبابِنا وطلابنا وأقاربنا وزوجاتنا وأولادنا الثناء الصادق، والتحفيز النافع، والكلمات المشجّعة.

إنَّ إشاعةَ خلق الثناء والشكر على المعروف في المجتمع: يُحيي الأمم، ويُعلي الهمم، ويصنع الرجال، ويُوجد القادة والأبطال، ويزرع الحب والمودة بين الناس، وينزع من الصدور الغل والحقد والكراهية.

إنَّ الثَّناءَ لَيُحْيي عَزْم صاحِبه   كالغَيثِ يُحْيي نداهُ السَّهلَ والجبلَا

أمَّا أنْ نرى العاملين المخلصين ـ مهما كان إخلاصهم ـ ولا نشكرهم ونثني على صنيعهم: فهذا تقصيرٌ في حقهم، وخطأٌ نقترفه تجاه محاسن أعمالهم، وتجفيفٌ لمنابعِ التنافسِ والإبداعِ على كافّة الأصعدة.

ومن العجيب أنّ تجد بعض الأساتذة وطلاب العلم لا يتفاعلون مع تلاميذهم الذين أصبحوا نجباء، ولا يُسمعونهم عبارات الثناء والتحفيز، ولو قام أحد طلابهم بعمل جليل ينفع مجتمعه أو بلده فإنهم لا يحفلون به، وإذا قابلوه لا يُبدون له أيّ اهتمام أو مشاعر فرحٍ بما وُفّق له من الأعمال والإنجازات الجليلة.

أهو عدم مبالاة، أم حسد؟

وربما كان السبب في ذلك أنه لا زال يراه صغيرًا جاهلًا، كما هو الحال عند أوّلِ مقابلتِه وتعليمِه له، وهذا ليس مبررًا، فقد كان هذا المعلم وهذا الشيخ صغيرًا وجاهلًا حينما تتلمذ على أستاذِه وشيخه، فهل كان يرضى أن يُعامَل هو بمثل ما يُعامِل تلميذَه؟

وإنَّ الشكر والثناء لا يستغني عنه أحدٌ مهما كبُر سنُّه، وعظُم قدره، فالكبير إذا مدحه طفلٌ صغيرٌ بصفةٍ تميَّز بها عن غيره فرح بها مهما كتمها، فكيف لو جاء هذا المدح من كبيرٍ خبير؟

ولو كانَ يستغني عن الشّكرِ ماجدٌ ... لرفعة شأنٍ أوْ علوِّ مكانِ
لما أمرَ اللهُ العبادَ بشكرِهِ ... فقالَ اشكروني أيُّها الثّقلانِ





شُكرك للناس تعود ثمرته وفائدتُه عليك أنت كذلك

إنَّ شُكرك للناس وتحفيزك لهم: تعود ثمرتُه وفائدتُه عليك أيضًا، حيث تُشارك المحسن والعامل أجره وعمله؛ لأنك بدعائك وثنائك وتحفيزك، تسببتَ في مُواصلته واسْتمراره وثباته على عمله الصالح.

لَمَّا قدم النبي ﷺ المدينة أتاه المهاجرون فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا قومًا أبذل من كثير، ولا أحسن مواساة من قليل، من قوم نزلنا بين أظهرهم، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خِفْنا أن يذهبوا بالأجر كله.

فقال النبي ﷺ: لا، ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم[١]

ومعنى الحديث: أنَّ الأنصارَ من شدَّة إيثارهم للمهاجرين، وكثرة نفقاتهم، خاف المهاجرون أنْ يَذهبَ الأنصارُ بالأجر كله، فقال لهم رسول الله: «لا»، أي لا يفضلونكم ولا يحوزون بالأجر وحدهم، إذا كنتم تدعون لهم، وتُثنون عليهم وتُشجعونهم على محاسن أعمالهم، فتُعْطَون على الدعاء والثناء من الأجر، ما يُعْطَوْنَ على النفقة والعطاء[٢]

فلْنحرص على أنْ نتخلق بهذا الخلق الكريمِ الفاضل، ولْنشكرِ

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٧) وغيره عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، وصححه الترمذيُّ والألباني.

(٢) يُنظر: بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، لأبي بكر محمد بن أبي إسحاق الكلاباذي: ٣٣٢.

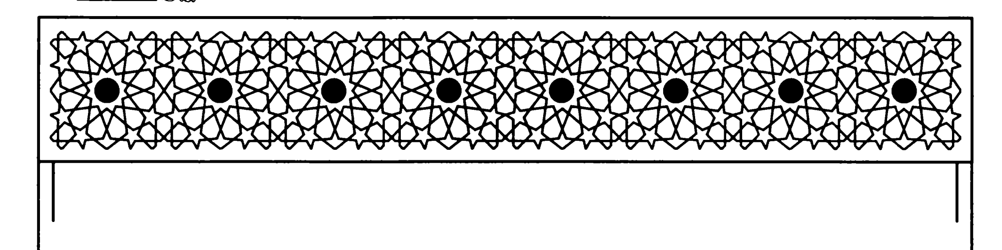
الْمُحسنين والناصحين والعاملين أعمالًا طيبة، ونُثني عليهم، ونُبارك لهم جُهدهم وأعمالهم، ولْندع كثرة انتقادهم، فكثرةُ الانتقاد تُميتُ العزائم، وتُوهن الهمم.

وشكرك لهم من تمام شكر الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**»(١)

فهذا نصٌّ صريحٌ صحيح، بأنَّ منْ لم يَشْكُر النَّاس على إحسانهم وصالح أعمالهم فإن شُكره لله تعالى يكون ناقصًا، وإذا شكرهم فقد شكر الله تعالى.



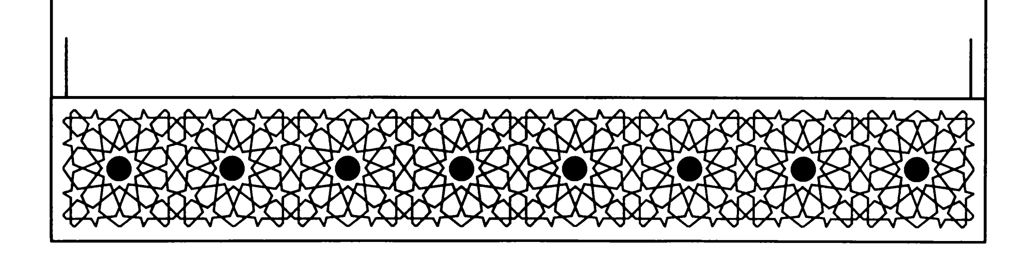
(١) رواه الإمام أحمد (١١٢٨٠) والترمذيُّ (١٩٥٤)، وصححه والألباني.

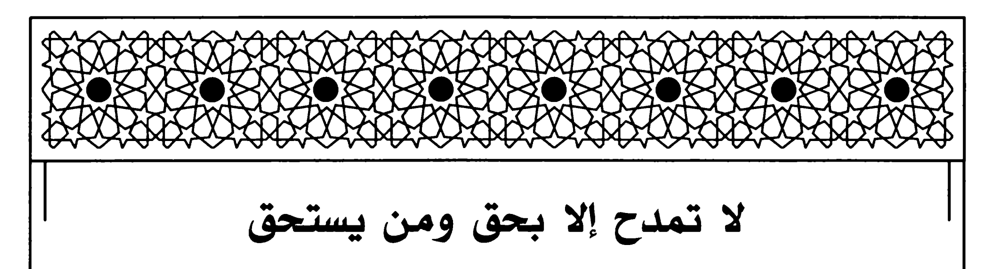


آداب المدح والثناء

وبعد أنّ عرفنا أهمية الثناء على الآخرين، وشكرهم وتحفيزهم، لابدّ أنّ نعرف آداب وضوابط الثناء والشكر.







لا تمدح إلا بحق ومن يستحق

إنَّ مدح من لا يستحق المدح والثناء نوعٌ من النفاق والكذب والرياء، وهو بذلك يُعين ويُساعد على نشر الفساد والضر بين الناس.

ويضرُّ الممدوح ضررًا بالغًا، حين لم يُصارحْه بعيوبه وأخطائه بأسلوبٍ حكيمٍ ليِّن.

وهذا النوع من الناس هم الذين عناهم النبي ﷺ بقوله: «**إذا رأيتم المدَّاحين فاحثوا في وجوههم التراب**»(١)

وكلمة المدَّاحين جاءت بصيغة المبالغة، وتعني المكثر من المدح، فيمدح في حقٍّ أو باطل.

وأمَّا منْ مُدِحَ بِما فيه فلَا يدْخلُ في النَّهي، فقد مُدِحَ النبيُّ ﷺ، ولَمْ يَحْثُ في وجْه مادحِهِ تُرابًا.

والمدح في وجه الممدوح ممنوعٌ إذا كان فيه أحد هذه الأمور:

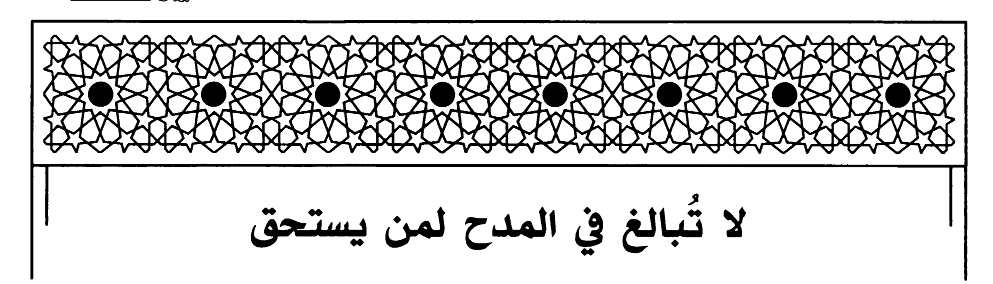
١ ـ المبالغة في المدح.

٢ ـ الكذب والنفاق.

٣ ـ الخوف على الممدوح من الفتنة والإعجاب والغرور.

وإذا خلا المدح من أحد هذه الأمور فلا بأس، بل هو مطلوب محمود.

(١) رواه مسلم (٣٠٠٢).



لا تُبالغ في المدح لمن يستحق

كثيرًا ما يدفعنا حبُّ أحدٍ من الناس، وإعجابنا وفرحنا بما يقوم به من أعمالٍ طيبة، وخصالٍ فاضلة، إلى المبالغة في مدحه وشكره؛ مما قد يؤدّي إلى إصابتِه بالإعجاب والغرور جرّاء ذلك.

جاء وفدٌ إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أنت سيدنا، فقال ـ ﷺ ـ: «**السيد الله تبارك وتعالى**» قالوا: وأفضلنا وأعظمنا طَوْلا، فقال: «**قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان**»[١]

هكذا ردَّ عليهم المدح، مع أنه يستحق ما قالوا ﷺ.



(١) رواه الإمام أحمد (١٦٣٠٧)، وأبو داود (٤٨٠٨)، وصححه الألباني.



إظهار السرور بالمدح المنضبط بالضوابط الشرعيّة

لا يُلام أحدٌ على ما يجده من محبةٍ للذكر الحسن، والثناء والمدح المنضبط بالضوابط الشرعية.

فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**». رواه مسلم[١]

وعند الإمام أحمد[٢] بإسنادٍ صحيح على شرط مسلم بلفظ: «الرجل يعمل لنفسه فيحبه الناس»، وهذا القيد لا بدّ منه، فلو عمل أحدٌ عملًا للناس قاصدًا الثناء فلا أجر له في ذلك، ولكنه يعمله لنفسه في الأصل، فينتشر ذكره عند الناس فيحمدونه.

فأخبر النبيّ ﷺ أن حَمْد الناس للمؤمن بشارة معجلة في الدنيا، فكيف لا يفرح أحدٌ ببشارةٍ معجلةٍ له في الدنيا؟

قال ابن رجب رحمه الله: إذا عمل العمل لله خالصًا، ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك، ففرح بفضل الله ورحمته، واستبشر بذلك، لم يضره ذلك. اهـ[٣]

---

(١) (٢٦٤٢). (٢) (٢١٤٧٧).

(٣) جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٨٣).

وينبغي أن تشكر من أثنى عليك بحقّ بلا إفراط، وأن تُظهر له أنّ ثناءه قد أفرحك وأدخل السرور على قلبك.

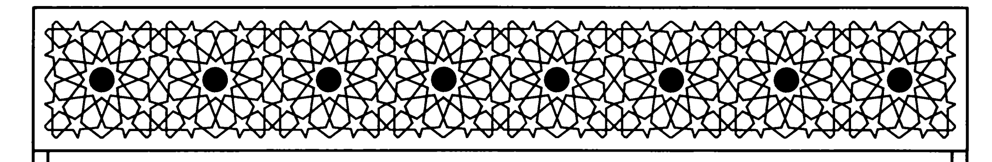
واحذر من تكلّف ردّ الثناء الصادق من الناس، وإظهارِ عدم الرضى بذلك، إذا لم يكن في الثناء محذورٌ، كالكذب أو تجاوز الحد، فإنّ ذلك يُؤثر في نفسه، ويُكدّر خاطره، ولا أظنّك ترضى ذلك لمن أحبّك وباح لك بما في نفسه من الحب والتقدير.

وأَكْثِر من الثناء على الله تعالى، ونسبةِ الفضل له، واشْكر المثني على حبّه وحسن أخلاقه، ومَن صدق مع الله فلن يغرّه ثناء أهل الأرض كلهم.

قال سفيان بن عينية رحمه الله: ليس يضرّ المدحُ من عرف نفسه(١)



(١) موسوعة ابن أبي الدنيا ٧/ ٣٣٠.



صور الشكر لا تقتصر على الكلمات فقط

صور الشكر لا تقتصر على الكلمات فقط، بل هناك ما هو أبلغ منها أحيانًا، وهو الشكر العملي، ومن صوره:

١ ـ أن تسعى لنشر علمه بين الناس.

٢ ـ أنْ تنشر كتبه، وتنتقي منها الأنفع وتنشره في مواقع التواصل خاصة.

٣ ـ أن تفرغ بعض دروسه أو خطبه أو كلماته وتنشرها لينتفع بها الناس.

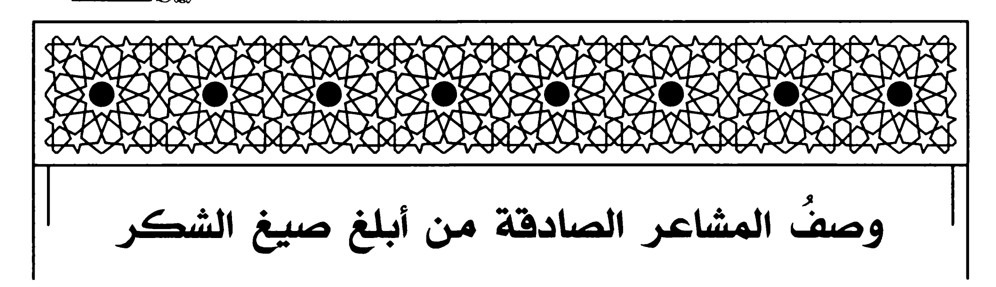
٤ ـ أن تعيد تغريداته النافعة والهادفة.

٥ ـ أنْ تذبّ عن عرضه، وتنشر محاسنه، وتستر عيوبه.

٦ ـ أن تهدي له هدية تناسبه.

وهذا من أعظم ما يُدخل السرور على هؤلاء المبدعين والناجحين، ويشدّ من أزرهم، ويشرح صدورهم، وهو أحبّ إليهم من ألْف كلمةِ شكرٍ وثناءٍ ومدح.





وصفُ المشاعر الصادقة من أبلغ صيغ الشكر

هناك صيغٌ في الثناء والشكر دارجة على الألسنة، لا يكاد يكون لها الأثر الكبير على من أُثني عليه، كقولهم:

١ ـ عملٌ تُشكر عليه.

٢ ـ شكرًا على ما قمت به.

٣ ـ أحسنت.

وغيرها من الصيغ، وخاصة إذا كانت بأسلوب بارد.

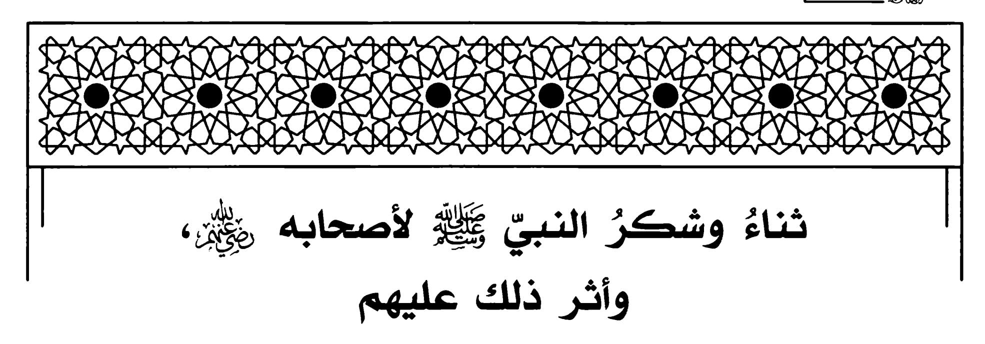
ومن أحسن الصيغ وأبلغها أثرًا وتأثيرًا على قلب من تُثني عليه: التعبيرُ عن مشاعرك الصادقة، حيث تشعر بأنّ في قلبك كلامًا تحب أن تقوله لمن أَهدَى لك هدية، أو ساعدك، أو قدَّم عملا جليلا لدِيْنِه أو مجتمعه، فأبْدِ هذا الشعور ولا تُخْفِ منه شيئًا، وما خرج من القلب وقع في القلب.

ومن الأمثلة على ذلك:

١ ـ لقد فرحت كثيرًا بهديتك، التي جاءت في وقتها، وصادفت حاجتي لها.

٢ ـ جزاك الله خيرًا، فقد سعدت وسررت بما قمت به من عمل جليل كبير، وهذا يدل على طموحك وعلوّ همتك.

ونحو هذه العبارات.



ثناءُ وشكرُ النبيّ ﷺ لأصحابه ﷺ، وأثر ذلك عليهم

القائد الأعظم، والرسول الأكرم ﷺ، الذي كسب بأخلاقه العظيمة الرجال، وصنع بقيَمِه الزكيّة الأبطال، كان يُثني ويشكر الناس على محاسن أعمالهم، وفضائل أفعالهم.

فقد كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يتلمَّس الصفات الحسنة والمواهب الجليلة في أصحابه، فيُبْرِزُها ويشكر عليها.

فقد نظر في صفاتِ وأخلاقِ أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فرأى من أعظمها وأبرزها: حبَّه للنبي ﷺ وتضحيته له فقال عنه: «**إن أمَنّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر**»[(١)]

ونظر في صفاتِ وأخلاقِ عمر ـ رضي الله عنه ـ فرأى من أعظمها وأبرزها: قوتَه في الحق، فقال عنه: «**والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجًّا قط، إلا سلك فجا غير فجّك**»[(٢)]

ونظر في صفاتِ وأخلاقِ عثمان ـ رضي الله عنه ـ فرأى من أعظمها وأبرزها: الحياءَ، فقال عنه: «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة**»[(٣)]

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).
(٢) رواه البخاري (٣٢٩٤)، ومسلم (٢٣٩٦).
(٣) رواه مسلم (٢٤٠١).

ونظر في صفاتِ وأخلاقِ عليّ ـ رضي الله عنه ـ فرأى من أعظمها وأبرزها: حبَّه لله وسوله، وحبَّ الله ورسولِه له، فقال عنه: **«لأعطين الراية غدا رجلا يفتح على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»**(١)

ونظر في صفاتِ وأخلاقِ أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ فرأى من أعظمها وأبرزها: حِرْصه عَلَى طلب الحَدِيثِ فقال عنه ـ حينما سأله عن أسعد الناس بشفاعته يوم القيامة ـ: **«لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث»**(٢)

ونظر في صفاتِ وأخلاقِ خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ فرأى من أعظمها وأبرزها: إقدامَه وبسالته في الجهاد، فقال عنه: **«سَيفٌ مِن سُيوف اللهِ»**(٣)

ونظر في صفاتِ وأخلاقِ أحد أصحابه فرأى من أعظمها وأبرزها: الْحِلْم، وَالْأَنَاة، فقال عنه: **«إنَّ فِيكَ خصلَتينِ يُحبُّهُما الله: الْحلم، والأناة»**(٤)

وقال عن فاطمة ـ رضي الله عنها ـ: **«سيدة نساء المؤمنين»**(٥)

وقال عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: **«من أحب أن يقرأ القرآن غضًّا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»**(٦).

وقال لأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ـ رضي الله عنه ـ: **«ليهنك العلم أبا المنذر»**(٧)

---

(١) رواه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٤).

(٢) رواه البخاري (٩٩).

(٣) رواه البخاري (٣٧٥٧).

(٤) رواه مسلم (١٧).

(٥) رواه البخاري (٦٢٨٥)، ومسلم (٢٤٥٠).

(٦) رواه الإمام أحمد (٣٥)، وابن ماجه (١٣٨).

(٧) رواه مسلم (٨١٠).

وَقَالَ لِجَعْفَر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: «**أَشْبَهْتَ خَلْقِي وخُلُقِي**»[١]

ولذلك: خرج جيلٌ قاد الأمم، ووصل في سموّ أخلاقة وهمّته إلى أعلى القمم، وفتحوا البلاد شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا.

فإذا أردت أن تصنع من طلابك قادةً أذكياء نجباء، وأن ترفع همم وعزائم مَن حولك من الأصدقاء والأقارب والأهل حتى تناطح السحاب: ففتّش عن الصفات الحسنة فيهم، وأبرزْها واشكرهم عليها، واجتهد في تطويرها وثباتها.

فربما كانت في أحدهم صفة عظيمة لم يُلْق لها بالًا، ولكن حينما تبرزها وتذكرها له، وتشكره عليها: يلتفت إليها، ويبدأ في تطويرها والعناية بها، حتى ينتفع بها هو وغيره انتفاعًا عظيمًا.

وهذا من أعظم المعروف الذي جاءت الشريعة بالحث عليه، قال النبي ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلِق**». رواه مسلم[٢]

فلا تحتقر كلمةً تبذلها لأخيك؛ تحمل في طياتها تحفيزًا على خير، وتنبيهًا على صفة وخلق عظيم؛ فربما أجرى الله تعالى خيرًا كثيرًا من جرّاء هذه الكلمة.

فقد ألّف الإمام البخاري رحمه الله صحيحه بسبب كلمةٍ سمعها من شيخِه إسحاقَ بن راهويه رحمه الله حين قال: (لو أن أحدكم يجمع كتابًا فيما صح من سنة الرسول ﷺ) قال البخاري: (فوقع ذلك في نفسي) فألّف كتابه الصحيح الذي هو أصح كتاب على وجه الأرض بعد كتاب الله.

وانصرف إمام المحدثين في زمانه الحافظُ الذهبي رحمه الله لعلم

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٩).
(٢) (٢٦٢٦).

الحديث بسبب كلمةٍ سمعها من شيخه البرزالي ﵀، قال الذهبي عن شيخه البرزالي: (هو الذي حبّب إليّ طلب الحديث، فإنه رأى خطي، فقال: خطّك يشبه خط المحدثين! فأثّر قوله فيّ). اهـ[١]

واسأل نفسك ـ أخي المسلم ـ: متى رأيت صفة في أحد من الناس فمدحته عليها؟

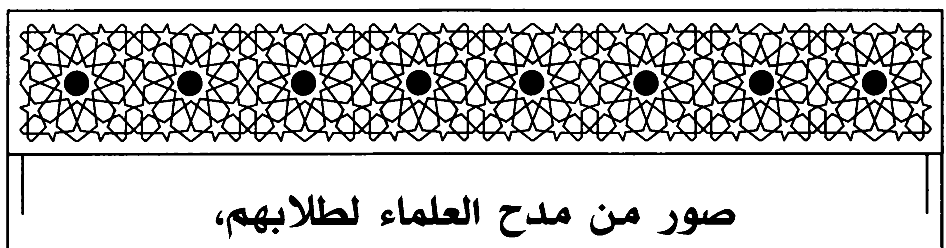
فهل يعقل أنَّ من حولك ومن تخالطهم لا تُوجد عندهم صفات وأخلاق بارزة؟ هذا لا يعقل.

وإن كنت ترى وتكتم، فهو عيب فيك، وقد يدل على حسد في القلب، فاحذر من ذلك أشدّ الحذر.

فينبغي عليك أن تتلمّس فيمن حولك من أقارب، وأولاد، وأصدقاء، وطلاب، الصفات الحسنة، والقيم النبيلة، فتبرزها لهم، وتشكرهم عليها.



(١) ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام للذهبي (ص: ٤٠).



صور من مدح العلماء لطلابهم، وبعدُهم عن التثبيط والتعويق

قال الذهبي عن تلميذه أبي العباس الدمياطي رحمهما الله: الإمام، المفيد، الحافظ، محدّث مصر.

وقال عن تلميذه ابن كثير رحمه الله: الإمام، الفقيه، المحدث، الأوحد، البارع.

وقال عن تلميذه صلاح الدّين الصّفدي رحمه الله: الإمام، العادل، الأديب، البليغ، الأكمل.

وقال عن تلميذه خليل بن كليكدي رحمه الله: الإمام، الحافظ، الفقيه، البارع، المفتي(١)

فانظر وتأمل كيف يفيض بالثناء العجيب على تلاميذه، الذين يكبرهم بأكثر من عشرين عامًا، وتجد بعض الناس يبخل بكلمة ثناء على أقرانه، أو طلابه الذين يكبرهم بسنوات قليلة، والقلب إذا سلم من الحسد والكبر وحظوظ النفس كرم اللسان وجاد بالثناء والمدح والشكر.

وإذا امتلأ من الحسد أو الكبر أو حظوظ النفس: بخل اللسان بالثناء والتحفيز، وكان ديدَنُه التثبيط، والتعويق.

وقد ذمّ الله تعالى الْمُعَوِّقينَ والمبطّئين، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن

---

(١) المعجم المختص بالمحدثين (١٤، ٧٥، ٩١، ٩٢).

﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: يُبطِّئ ويُثبّط غيره عن نصرة الدين، وقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾، أي: المعوقين لغيرهم عن الجهاد ونصرة الدين.

ومن صفات الْمُبَطِّئين والْمُعوِّقين لأهل الخير:

١ ـ كثرة انتقادهم.

٢ ـ تتبع زلاتهم.

٣ ـ تخوُّفهم من العواقب الوهمية لما يقومون به.

وعكس هذا الصنف: المحفز، الذي يحفّز غيره على الخير والبذل والإصلاح.

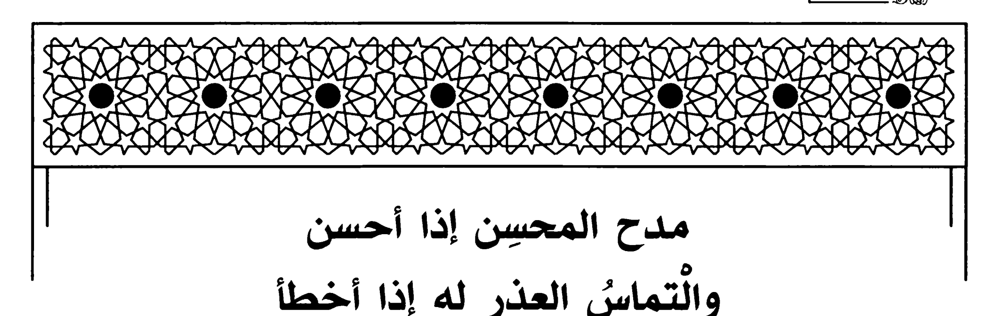
فكن محفّزا لا مُبطِّئا مُعوِّقًا.

والمدح الصادق، والثناء الجميل يؤثر في النفوس تأثيرًا بالغًا، ويستنهض الهمم، ويقوي العزائم، ويُعيد المقصر إلى جادّة الطريق.

ذكر أحد الفضلاء في موقع التواصل (تويتر) أنه يعرف رجلا يقوم بعمل جليل قلّ من يعمل مثله، وحينما ذكر هذا العمل ووصفه بدقة عرف هذا الرجل أنه المقصود، وكان قد فتر بعض الشيء، فأرسل إليه وقال: كأنك تعنيني، فقال: نعم.

قال: فرجعت لي العزيمة أشد من قبل، واجتهد فيه وواظب على ما كان يعمله وأحسن، وقال في نفسه: أرى الناس يثنون عليّ على هذا العمل الذي جلّ في أعينهم، وأنت دون ذلك؟





مدح المحسِن إذا أحسن والْتماسُ العذر له إذا أخطأ

الناس بالنسبة لمدح المحسن وذمّه أقسام ثلاثة:

القسم الأول: من يمدحه إذا أحسن، ولا يذمّه إذا أخطأ، بل يلتمسُ له العذر.

القسم الثاني: من لا يمدحه إذا أحسن، ولا يذمّه إذا أخطأ.

القسم الثالث: من لا يمدحه إذا أحسن، ويذمّه إذا أخطأ، ولا يلتمسُ له العذر.

فالأول محسن، والثاني مقصّر، والثالث ظالم.

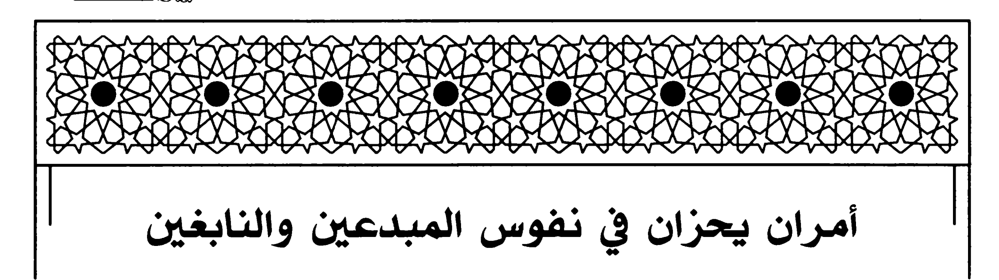
والمحسنون الذين عُرفوا بالخير ونفع الناس من حقّهم علينا أن نشكرهم على إحسانهم، ونعذرهم عند خطئهم.

والإنسان محلُّ النّقص والخلل، والتقصير والزلل، وكلّ بني آدم خطّاء، وهل يسوغ لأحدٍ أن يبرئ نفسه من الزلل؟

من ذا الذي تُرضَى سَجَاياه كلُّها ... كفَى المرء نُبْلًا أن تُعَدّ مَعايبُه

وما أقبح من إذا بلغه عنك خير وعمل صالح تجاهل ذلك ولم يُلْق له بالا وكأنه لم يسمع، وإذا بلغه عنك خطأ وزلة تحمس وبدا عليه الغضب، وأنكر عليك في وجهك ومن ورائك، وربما شهّر بك.

إِن يسمعوا سيِّئًا طاروا به فَرَحًا ... مني وما سَمِعوا من صالحٍ دَفَنُوا



أمران يحزان في نفوس المبدعين والنابغين

مما يحز في نفوس المبدعين والنابغين:

١ ـ حرمان زملائهم، وأساتذتهم، والنخب في المجتمع، من الثناء على جهودهم، وسماعِ الكلمة الطيبة المحفزة لهم، والدافعة لهم إلى الأمام، مما يجعلهم يتساءلون عن سبب ذلك: أهو الحسد، أم عدم المبالاة، وفي هذه الحالة يجد الشيطان مَدْخلًا لزرع العداوة والبغضاء وسوء الظن في نفوسهم.

٢ ـ أنْ يأتي بعض الثناء والشكر من بلاد كثيرة، سوى أهل بلدهم، وكأنّ كلمات الثناء والشكر ستقلِّل قدرهم، وتُنْقص أموالهم!

فيا معشر طلاب العلم، ويا أعيان البلد، ويا أيها القدوات لا تبخلوا بكلمات الثناء والشكر على طلابكم، وإخوانكم، وأبناء بلدكم، من المبدعين، والخطباء، والدعاة إلى الله، وطلاب العلم، والذين يسعون بمصالح المسلمين العامة، والذين يدعمون كلّ ما يرتقي وينهض بالبلد، فبهذه الكلمات:

تكسبون ودّهم ودعواتهم.

وترفعون هممهم.

وتزيدون من عطائهم وثباتهم.

وثيرون الحماسة في نفوسهم.

وتُشاركونهم الأجر.

وتقطعون على الشيطان حِبَاله التي يصيد بها من تخلى عنه الأحباب، وبخل بالثناء على جهوده الأصحاب، وجفاه أهل القدر والشأن.

ومن المؤسف أن تجد الكثير من أصحاب العقائد الباطلة، والمذاهب الضالة، والأهواء المنحرفة، يقوي بعضهم بعضًا، ويشد بعضهم على يد بعض، ويُكثرون من المدح والثناء على من عمل عملًا يُوافق أهواءهم، ويخدم أهدافهم، ويحقق غاياتهم، ولا تكاد تجد عُشْرَهُ عند كثير من أهل الحق والعلم والدين.

بل إنّ بعض هؤلاء يتلقَّفون أهل الخير ويجرونهم إلى بدعهم وأهوائهم من خلال تفعيل دور المدح والثناء والشكر، وذلك بأن يُثنوا على أسلوب وطرح بعض أهل الخير، ويُلْمحوا إليه من طرق غير مباشرة بأنه لو سكت عن الأمر الفلاني لكان له الأثر الكبير على شهرته وقبول الناس والنخب المثقفة، والطبقة الراقية، ولو تكلم عن ذلك الأمر الذي يحقق أهدافهم ـ ولو بطريق غير مباشر ـ لفرح الناس به، وأعجبوا به، ونفعهم وقدم الخير لهم.

وقد لا يثبت أمام هذه السيول الجارفة من المديح والثناء، لاسيما وأهل الخير والعلم غافلون عنه، باردون تجاه محاسنه وجميل أفعاله، حرموه من مشاعرهم، وبخلوا عليه بأقلّ حقوقه عليهم، وما أكثر من ضل من ضلّ لأجل هذا السبب.

ولقد أخبرني أحد طلاب العلم أنّ أحدَ المشايخ الذين عندهم بعض الانحرافات كان يتصل عليه كثيرًا، ويطلب منه مقابلته وزيارته، بينما لم يلق عشر ذلك من المشايخ الذين عُرفوا بسلامة المنهج.

إنّ خطيب الجمعة الذي يُمضي ساعات في إعداد خطبته، والعالم

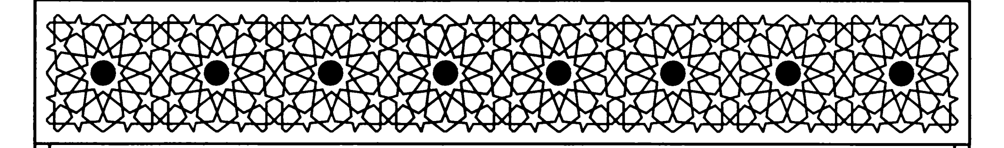
الذي أمضى سنوات طويلة في التعليم ورفع الجهل عن الناس، والداعي إلى الله الذي يتنقل بين المساجد يبلغ رسالات الله، والمؤلف الذي نذر نفسه للعلم والبحث والكتابة، والطبيب الذي أرهق نفسه في معالجة المرضى والصبر عليهم، والمواطِن الصالح الذي نذر نفسه ووقته للسعي في مصالح عامة المسلمين وقضاء حوائجهم والرُّقي ببلده: يستحقون الثناء والشكر على بذلهم وجهودهم، وصبرهم ونفعهم.

فإن عجزت عن مكافأتهم بالفعل فكافِئْهم بالقول، بأن تشكرهم وتدعو لهم، وتنشر محاسن أفعالهم، وتذب عن أعراضهم، ومَنْ أثنى فقد جَزَى.

وصدق القائل:

يجزيكَ أو يثني عليكَ وإِنَّ مَن … أَثْنى عليك بما فعلتَ فقد جَزَى





الأخلاق والعلماء والمعلّمون

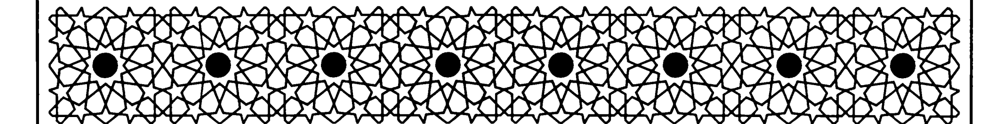
ينبغي للعالِم وطالب العلم والمربي أنْ يهتمّ بأخلاقه وسلوكه تهذيبًا وارْتقاءً، وأنْ يكون على هديِ قُدْوته وإمامه نبيّنا محمد ﷺ، وأنْ يتعامل مع الآخرين بأحسن مُعاملة ما اسْتطاع إلى ذلك سبيلًا.

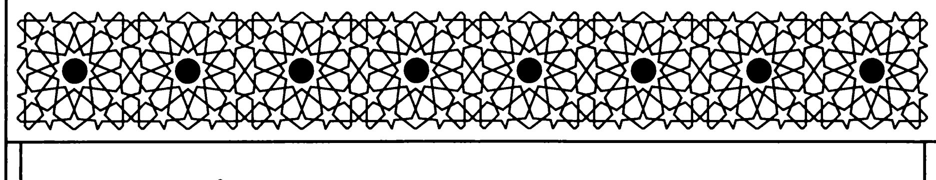
ولذلك فإنَّ العلماءَ وطلاب العلم والمربين هم أولى الناس وأحقُّهم بالأدب وحسن الخلق؛ لأنهم أعلم الناس بالحق، ولمكانهم بين الخلق، فالناس ينظرون إليهم نظرة خاصة ويجعلونهم قدوات، فإن أحسنوا كان ذلك سببًا لمحبة الناس لهم وقبول الحق منهم، وإن أساؤوا كان ذلك سببًا لبعد الناس عنهم وكراهية ما هم عليه.

سفِهَ رجلٌ على أحد السلف وآذاه فاحتمله وقال: لأيِّ شيءٍ تَعلَّمنا العِلْم؟

فلأيِّ شيءٍ تعلمنا نحن العلم، وفهمنا وقرأنا كثيرًا من الآيات والأحاديث التي فيها الصبر والحلم وكظم الغيظ، فإذا لم نعمل بها فما قيمتها في صدورنا!

وطالب العلم أحوج ما يكون إلى الأخلاق والأدب مع المخالفين والمسيئين.





التلازم بين طلب العلم واكتساب الأخلاق

طلب العلم من أعظم أسباب نيل واكتساب حسن الخلق، ومن طلب العلم ولم يكتسب حسن الخلق والتواضع وهضم النفس فذلك لخلل في طلبه أو نيته وصدقه؛ وذلك لأنّ أعظم العلوم: العلم بالله، ودينه، وسنة نبيه ﷺ، ومن ازداد علمه بالله تعالى وعظمته وحقه عليه، وعلم بما أعده سبحانه من الثواب للمتمسكين بشرعه، وبالعذاب لمن خالف أمره: فإنه سيزداد خوفًا منه، واحتمالًا للأذى لأجله، وسوف يسعى جاهدا في التخلص من أمراض القلب والرياء والعجب ورؤية النفس والانتقام لها، وسيكون همُّه نصرةَ دين الله القويم، لا نصرة حظوظ نفسِه.

ومن عرف الله تعالى حق المعرفة: عرف استحقاقه سبحانه للحمد والشكر والعبادة والحب والتعظيم، وأقرّ بتقصيره في القيام بذلك، فلا يتسلل إلى قلبه هذا العجب ولا الغرور ولا الكبر.

لو اسْتحضر طالب العلم، أو الداعي إلى الله، أو العالم، أو الصالح، قبح ترفعه عن الخلق، وتثاقله في مشيته وحديثه، وعدم بشاشة وجهه: لأقلع عما كان عليه وكره صنيعه، فالناس لا يقتربون ولا يحبون من هذه أخلاقه وطباعه، بل ينفرون منه، وينظرون إليه نظرة ازدراء أو بغض، وأما صاحب البشاشة والتواضع واللين: فهو بذلك قد ملك قلوب الناس، فإذا حضر مجلسًا فرحوا به، ورحبوا به، وانفتحت قلوبهم لحديثه، واستمتعوا بكلّ لحظةٍ معه، وفارقوه وهم أشدّ حبًّا له.

قيل لأحد حكماء العرب: ما لك تلقى العامة ببشر وترحيب؟

فقال: دفعُ ضغينةٍ بأخفّ مؤونة، واكتسابُ مودّةٍ بأهون مبذول.

وينبغي أن ترى ـ لا سيما إذا كنت طالب العلم ـ الفضل لمن بادرك بالسلام، أو سألك عن مسألة، أو طلب منك رأيًا، أو شكا إليك همًّا، فافرح به، وأظهر له البشر، فهو يستحقّ ذلك، فقد اختارك من بين كثير من الناس ووثق بك، وهو يرى فيك القدوة الحسنة، فكن كذلك، وأبشر بالقبول والتوفيق.

فهذا حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما يقول: ثلاثة لا أكافئهم: رجل بَدَأنِي بالسلام، ورجلٌ وسّع لي في المجلس، ورجل اغبرّت قدماه في المشي إليّ إرادة التسليم عليّ، فأما الرابع فلا يكافئه عنّي إلا الله جلّ وعزّ، قيل: ومن هو؟ قال: رجل نزل به أمرٌ فبات ليلَته يفكّر بمَنْ يُنزله، ثم رآني أهلًا لحاجته فأنزلها بي[(١)]

وبعض الناس ـ هداهم الله ـ قد يرى أنَّ سلام الناس عليه من حقه عليهم، وأنهم إنما سلموا عليه يبتغون شرف السلام عليه، وهو وإن لم يقل ذلك بلسان مقاله، فلسان حاله يشهد بذلك، حيث إنه يردّ السلام ببرود، ولا يظهر البشر والفرح بسلام الناس عليه، وهذا من الكبر والترفع وسوء الخلق أعاذنا الله من ذلك.

ويُخشى على أمثال هؤلاء أن يكونوا عند أنفسهم عظماء، وعند الله تعالى محتقرين أذلاء، وقد استعاذ السلف الصالح من ذلك، قال عتْبةُ بن غَزْوانَ رضي الله عنه: أعُوذُ بالله أنْ أكُونَ في نَفْسي عظيمًا، وعنْدَ الله صَغيرًا[(٢)]

قال ابن القيم رحمه الله: يَنْبَغِي للْعَبد أَن يستعيذ بِالله أَن يكون عِنْد نَفسه

---

(١) عيون الأخبار ٣/ ١٧٧.

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٧).

عَظِيما وَهُوَ عِنْد الله حقير. اهـ[١]

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: أعوذ بالله من رؤية النفس ورؤية الخلق؛ فإن من رأى نفسه تكبر، والمتكبر أحمق؛ لأنه ما من شيء يتكبر به إلا ولغيره أكثر منه.

وقد رأينا من يرائي ولا يدري، فيمتنع من المشي في السوق، ومن زيارة الإخوان، ومن أن يشتري شيئًا بنفسه!

وقد كان بشر الحافي يجلس في مجلس عند العطار.

وأبلغ من هذا كله أن نبينا ﷺ كان يشتري حاجته ويحملها.

وخرج علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو أمير المؤمنين إلى السوق، فاشترى ثوبًا.

وقد كان طلحة بن مصرف قارئ أهل الكوفة؛ فلما كثر الناس عليه، مشى إلى الأعمش فقرأ عليه، فمال الناس إلى الأعمش، وتركوا طلحة.

والمعاملة مع الله تعالى هكذا تكون. اهـ[٢]

وإياك أن يسبقك غيرك إلى البداءة بالسلام، بل بادر بالسلام على من مررت عليه، ومن جلس بجوارك في مسجد أو في أيّ مكان.

وما أجمل ما قاله ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: أقل مراتب العُجْب: أن تراه يتوقَّر عن الضحك في مواضعه، وعن خِفَّة الحركات وعن الكلام. اهـ[٣]

أي: أنّ من مراتب العُجب أنْ يتجنب الرجل الضحك في مواضعه، وحصول أسبابه، وأن يكون ثقيلا في حركاته، وتنقلاته،

---

(١) جلاء الأفهام (ص: ٢٤٠). (٢) صيد الخاطر: ٣١٣.

(٣) رسائل ابن حزم (١/ ٣٩٥).

والتفاته، متكلّفًا في كلامه، كاتمًا بعض مشاعره خوفًا من أن تكون سببًا في ذهاب هيبتِه.

وطالب العلم هو في الحقيقة خادم لدين الله تعالى، وخادم لطلاب العلم وغيرهم، بتوصيل العلم لهم، ورحمتهم، وتحبيبهم لله، وتحبيب الله لهم.

وإذا استشعر طالب العلم أنه خادم في سبيل الله: تواضع وهضم نفسه، ولم يجد في نفسِه منّةً ولا تَفَضُّلا على أحد.

فهذا العالم الإمام، شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي بلغ الإمامة في الدين، وأذل الله به أنوف المارقين، وجاهد بسنانه ولسانه وبيانه الكفار والمنافقين، وصدع بالحق أمام الأمراء والوزراء، ولم تأخذه في الله لومة لائم، ومع ذلك كان يرى نفسه خادمًا للمسلمين، فقد أرسل رسالة لأحد أمراء الجيش الإسلامي جاء فيها: وكتب الخادم في ذلك.. والخادم خادم لخدمتكم.. فأنتم الرأس وغيركم جسد من الأجساد، وأنتم العين وغيركم السواد..

وكتب رسالةً لأحد أقرانه القضاة جاء فيها: وقد كتب الخادم في ذلك..

بل ووصف نفسه بأنه مملوكٌ فقال: من المملوك أحمد ابن تيمية إلى قطب الدين..

والمملوك يسلم على من تحيط به العناية[١]

فالشيخ يهضم ويذلّ نفسه في ذات الله، ولنصرة دينه، وقد قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من أَذَلَّ نَفْسهُ لله فقد أعزَّها. اهـ[٢]

---

(١) يُنظر: جامع المسائل: ٩/ ٦٥، ٧٧، ٢٥٧.

(٢) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٣٢٧).

وكانَ رَحِمَهُ اللهُ «يدني الْفَقِير الصَّالح ويكرمه، ويؤنسه ويباسطه بحَديثه المستحلى، زِيَادَةً على مثله من الأغنياء، حَتَّى إنه رُبمَا خدمه بِنَفسِهِ، وأعانه بِحمْل حَاجته؛ جبرًا لِقَلْبِهِ، وتقربًا بذلك إلى ربه»[١]

فالعجب لمن أكرمه الله بالعلم ورفعه به في الدنيا كيف يزهد بمكارم الأخلاق التي لن يرفعه الله يوم القيامة إلا بها، كالبشاشة، والبداءة بالسلام على من عرف ومن لم يعرف، والتواضع لمن هو أقل منه علما أو سنا أو منصبًا، واحتمال أذى المستفتين، والرفق بالمخالفين، وإكرام الطلاب والسؤال عنهم.

فحريٌ بطلاب العلم والعلماء أنْ يتحلّوا بالأخلاقِ الحسنة، فهم محطُّ أنظارِ العامّةِ والخاصّة، وأُعيذ طلاب العلم أن تكون أخلاقهم كأخلاق الجهال.

وأخلاق بعض العوام كأخلاق العلماء والحكماء.

وخير الناس من جمع العلم وحسن الخلق.

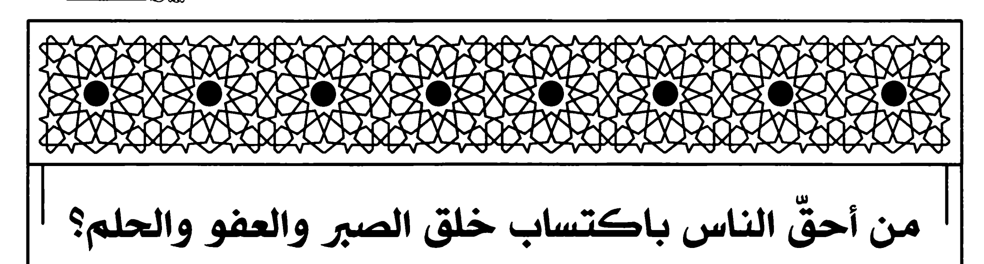
وشرهم: سيِّئ الأخلاق الجاهل.

فيا طالب العلم، ابْذُلْ نفسك لله وفي سبيل الله، واجْتَهِدْ في خدمة الناس بقلمك ولسانك وجاهك، وتخلَّص من التباهي بالأوصاف التي يتباها بها كثير من الناس وخاصة من المنتسبين للعلم، حينها يرفعك الله بصدقك وإخلاصك وتواضعك.



---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، للبزّار (ص: ٥٠).



من أحقّ الناس باكتساب خلق الصبر والعفو والحلم؟

من أحقّ من يتحلى بخلق الصبر والعفو والحلم: المربُّون، من المعلمين والوالدَين والعلماء، فالطلاب والأبناء الذين في مرحلة الشباب غالبًا تنقصهم التجارب والخبرة، ولم تنضج عقولهم، فمقابلة إساءتهم بقسوة وعنف: يُنفرهم ويُفسد أخلاقهم، ويتربون على القسوة وعدم احتمال أخطاء الآخرين، فيكون المربي قد جنى عليهم.

وهذا لا يليق بمنزلةِ عقول المربين مقارنةً بعقول طلابهم وأبنائهم، وإذا لم يُوظفوا كبر سنّهم ونضج عقولهم في حسن التعامل مع من هم أقل منهم عقلًا وخبرة وعلمًا: فهم ومن يُربّون في العقل والتعامل سواء؟

وإياك أن تقول: إنما أقسو عليهم لكي أُؤدّبهم، أو لكي لا يعودوا لمثل صنيعهم!

فكم كانت هذه التأويلات سببًا في فساد كبير، ووحشة ونفرةٍ بين الأزواج والآباء وأبنائهم، والمعلمين وطلابهم، والموظفين ورؤسائهم.

فأصحاب هذه العبارات في الغالب يبررون لسوء أخلاقهم وعدم صبرِهم وحِلْمهم بمثل هذه العبارات.

وليتهم صرحوا بأنهم فعلوا ذلك لسوء أخلاقهم، بدلا من تغليف قبيح تصرفاتهم بغلاف النصح والتربية والتأديب.





الخاتمة

بعد رحلةٍ علميّة وعمليّة في بحر الأخلاق والتعامل والطباع، على متن سفينة العقل والعلم والدين الحنيف، دامت لخمسة عشر عامًا ولله الحمد، واجَهَتْها العديد من العواصف والصعاب، ولاحَقَتْها قراصنةٌ مسلّحون بأسلحة الكيد والمكر[1]، آن لها أنْ ترسو وتُفْرِغ حمولتها، على أنْ تواصل الإبحار ـ إن شاء الله ـ حتى بلوغ النهاية التي كتُب لها، والمدة التي حُدِّدتْ لها.

أسأل الله تعالى أن يجعل ما كتبتُ في ميزان حسناتي، وحسنات من راجع كتابي، وقرأه ونشره ودلّ عليه، وأسأله سبحانه أن يكون سببًا في إصلاح أخلاقي وأخلاق المسلمين، والتخلّص من الأخلاق السيّئة، إنّ ربي رحيم ودود، وقريب مجيب.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

يوم الأربعاء: ١/١٢/١٤٤١



(١) أعني بذلك الشياطين والهوى والنفس الأمارة بالسوء.

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

طُبِعَ لِلْمُؤَلِّفِ

١ ـ حَيَاةُ السَّلَفِ بَيْنَ الْقَوْلِ والْعَمَلِ. (الطبعة الثالثة).

٢ ـ إرْشادُ السَّاجِدِ بأسْبابِ الخِلَافِ والتَّقاطُعِ في الْمَسَاجِدِ.

٣ ـ الْإِفَاضَةُ في أَحْكَامِ الْحَيْضِ والنِّفَاسِ والْاسْتِحَاضَةِ.

٤ ـ كَيْفَ تُرَبِّيْ أَبْنَاءَكَ؟ ثَلَاثُونَ قَاعِدَةً تُوصِلُكَ إلى أحْسَنِ وأَنْجَحِ الطُّرُقِ فِي التَّرْبِيَةِ.

٥ ـ بُيُوتٌ تَئِنُّ مِنَ الْمَشاكِلِ والْخلافَاتِ، الأَسْبَابُ والْعِلَاجُ.

٦ ـ حُقُوقُ الصَّدِيْقِ وكَيْفَ تَتَعَامَلُ مَعَهُ.

٧ ـ آدابُ طالِبِ الْعِلْمِ وسُبُلُ بِنَائِه ورُسُوخِه.

٨ ـ الحياةُ الزّوجيّةُ السّعيْدَةُ، قَوَاعِدُ وَحُقُوقٌ وَعِلاجٌ لِلْمُنغّصاتِ.

٩ ـ عِلْمُ تَعْبِيرِ الرُّؤَى، بَحْثٌ تَأْصِيْلِيٌّ عِلْميٌّ تَطْبِيقِيّ.

١٠ ـ الْمَعيْنُ الْجَارِي في اسْتنباطِ الفَوَائِدِ واللطَائِفِ مِنْ صَحِيْحِ الْبُخَارِي.

١١ ـ مَنْهَجُ الصَّحَابَةِ والسَّلَفِ الصَّالحِ فِي الْتَّعامُلِ مَعَ فَتَاوَىَ الْمُفْتِينِ والرَّدِّ عَلَى الْمُخْطِئين.

١٢ ـ تَهْذِيْبُ كِتَابِ الْمُوَافَقَاتِ لِلْإِمَامِ الشَّاطِبي، مَعَ التَّعْلِيقِ عَلَيْهِ.

١٣ ـ مَجالسُ شَهْرِ رَمَضَانَ.

١٤ ـ قِصَصِي مَعَ الْمُلْحِدِيْن والْمُشَكِّكِيْن والْمُوسْوِسِيْن، معَ بَيَانِ طُرُقِ إقْنَاعِهم وَهِدايَتِهم.

١٥ ـ الْمَسَائِلُ الْمُهِمَّةُ فِي التَّجْوِيدِ والْأَحْرُفِ السَّبْعةِ.

١٦ ـ عِبَاراتٌ أثَّرَتْ عَلَيَّ وَغَيَّرَتْ في حَيَاتِي.

١٧ ـ عَبْقريَّةُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

١٨ ـ بَوَّابَةُ الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ.

١٩ ـ صِنَاعَةُ طَالِبِ عِلْمٍ مَاهِرٍ.

٢٠ ـ صِنَاعَةُ خَطِيبٍ مَاهِرٍ.

٢١ ـ الْأُنْسُ بِالله تَعَالَىٰ.

٢٢ ـ تَقريبُ فَتَاوى ورسائل شَيْخِ الإِسْلامِ ابْنِ تَيْمِيَّةِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢٣ ـ فنُّ التَّعَامُلِ واكْتِسَابِ الْأَخْلاقِ.



محتوى الكتاب

هذا الكتاب ليس مجرد كلمات وخواطر في اكتساب مهارة فنّ التعامل وحسن الأخلاق..

أو مجموعة من القصص والمواقف التي تُثير الحماسة لساعات أو أيام سرعات ما تنطفئ..

أو مجرد تجارب منبعها الذوق المجرّد والصُّدَف التي تحتمل الصواب والخطأ..

أو تنظيرات لم يخض صاحبها غمار التجارب والشدائد..

أو جمعًا لما تفرق في الكتب، وأقوال الحكماء والخبراء..

ولكنه كتابٌ أمضى فيه مؤلّفه أكثر من خمس عشرة سنة في تأليفه، وخاض معترك الحياة التي فيها صراع بين العاطفة والعقل، والنفس والناس؛ ليؤسِّسَ فنّ التعامل وحسن الأخلاق، ويبني في قارئه هذا الصرح العظيم بناءً لا ينهدم بمشيئة الله ولا يهتز مهما كان اشتداد العواصف؛ لأنّ البناء الراسخ لا تهزُّه الرياح مهما قويت.

ومن قرأه عازمًا على العمل مُشمِّرًا عن ساعد الجدّ: فإنه ـ بمشيئة الله وتوفيقه ـ سيرى التغيّر الكبير في أخلاقه وتعامله؛ لأنّ تغيير الظاهر مرتبط ارتباطًا كبيرًا بتغير الباطن، ونصف الكتاب منصبّ على إصلاح الباطن، والنصف الآخر منصبّ على تغيير الظاهر.

فمتى تغيّر باطنك، عبر اقتناعك بأهمية وضرورة حسن الأخلاق والتعامل وكيفية ذلك: تغير ظاهرك، الذي هو سلوكك وتعاملك مع نفسك ومع الناس.

إنه كتابٌ يؤسِّس ويبني ـ إن شاء الله تعالى ـ أحسن وأكمل الأخلاق لمن عزم على أن يحسن أخلاقه.. ويُساهم في تغييرِ القناعات الخاطئة.. وتصحيحِ المعلومات المغلوطة.. وتوضيحِ الخطوات العمَليّة لبناء الأخلاق الحسنة.. والتخلّص من الطباع السيئة، والأخلاق القبيحة..